تاريخ البحرية الإسلامية

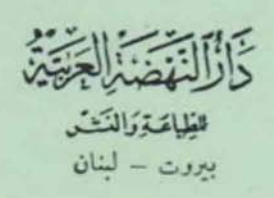
في المغرب والأندلس

تأليف

دكتور
السيد عبد العزيز سالم
استاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المساعد
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

دكتور
احمد مختار العبادي
استاذ التاريخ الإسلامي
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

١٩٦٩



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت – لبنان

تاريخ البحرية الإسلامية

في المغرب والأندلس

تأليف

دكتور
السيد عبد العزيز سالم
استاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المساعد
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

دكتور
احمد مختار العبادي
استاذ التاريخ الإسلامي
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

١٩٦٩

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ـ لبنان

المقدمة

تشغل دراسة تاريخ البحرية الاسلامية في النصف الغربي من حوض البحر المتوسط ركنا أساسيا من أركان الحضارة الاسلامية ، اذ أن هذه الدراسة تشتمل على تفاصيل متعلقة بالقوى البحرية التجارية ، وما يرتبط بها من دراسة للنواحي الاقتصادية التي تؤثر تأثيرا مباشرا في حضارة الاسلام في العصور الوسطى ، كذلك تتضمن هذه الدراسة تفصيلات هامة عن المعارك الحربية للاساطيل الاسلامية في حوض البحر المتوسط والمحيط الاطلسي ، ولا يخفى على القارىء اثر دراسة القوى البحرية التجارية والحربية للاسلام في مجريات تاريخه الحضاري والسياسي ، فقد كان لاتصال المغرب الاسلامي بحرا بثغور البحر المتوسط الشرقي عن طريق التبادل التجاري والعلمي أعظم الاثر في توثيق الصلات الحضارية بين سائر أنحاء العالم الاسلامي وهو أمر تفسره ظاهرة تداخل التقاليد الشرقية والمغربية في حضارة الاسلام في العصور الوسطى . أما من حيث الاثر السياسي فينعكس بصورة واضحة فيما أحرزه الاسلام من مكاسب سياسية عظمى عن طريق تلاحم المغرب والاندلس وسيطرتهما الفعلية على النصف الغربي من حوض البحر المتوسط ، وتمكين النفوذ السياسي للاسلام في جنوب غرب القارة الاوروبية عن طريق التفوق البحري على القوى البحرية اليونانية واللاتينية . ويمكننا أن نتبين فعالية هذا التفوق البحري على الاحوال السياسية في المغرب والاندلس بوضوح تام اذا ما قارنا بين فترة الازدهار التي خضعت فيها جزيرة صقلية للاسلام وأصبحت تمثل بمراسيها العديدة وقواعدها البحرية المتوزعة على سواحل

الجزيرة نقطة الارتكاز الاسلامي في البحر المتوسط الغربي وبين فترة الاضمحلال التي أعقبت سقوط صقلية في أيدى النورمان ، عندما فقد الاسلام في المغرب نقطة الارتكاز الرئيسية وتعرضت سواحله المطلة على صقلية النورمندية للغزو النورمندي حينا من الوقت الى ان حررها الموحدون ، كما تتبين هذه الفعالية أيضا اذا ما قارنا بين الفترة التي كان المغرب على اتصال سياسي وثيق بالمغرب عن طريق السيطرة على مجاز جبل طارق ، وبين الفترة التي سقط فيها جبل طارق نقطة الارتكاز الثانية للاسلام في البحر المتوسط الغربي في أيدى الاسبان وما ترتب على ذلك من انقطاع الاتصال بين المغرب والاندلس ، الامر الذي أدى الى ضياع ملك المسلمين في الاندلس ، وانتقال الحرب المقدسة الى التراب المغربي نفسه .

وهكذا كانت السيطرة الاسلامية على حوض البحر المتوسط الغربي تعتمد أساسا على تفوق القوى البحرية الاسلامية في المغرب الاسلامي . والجدير بالذكر ان هذه القوى البحرية الاسلامية نهضت نهوضا واضح المعالم ابان القرنين الثالث والرابع للهجرة ، بحيث يمكننا أن نطلق على هذا العصر عصر السيادة الاسلامية على جزر البحر المتوسط الغربي وعلى السواحل الاوربية المطلة على هذا القسم من البحر المذكور . وقد ظل المغرب الاسلامي يحتفظ في عصر الموحدين بتفوقه البحري ، وسخر قوته البحرية لمدافعة القوى المناهضة للاسلام في اسبانيا ، ثم أخذت قوته تفقد فعاليتها تدريجيا نتيجة للتفتت السياسي الذي أعقب هزيمة الموحدين في وقعة العقاب (٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م)ولم يلبث التفوق البحري أن انتقل الى القوى البحرية الايطالية والقطلانية والقشتالية .

وعلى الرغم من أهمية دراسة تاريخ البحرية الاسلامية بالنسبة للتاريخ السياسي والتاريخ الحضاري للاسلام ، فان هذه الدراسة بوجه

عام لم تحظ لا في المصادر العربية ولا في التواليف الحديثة الا بقـدر ضئيل من الاهمية يتمثل في بحوث قليلة تقتصر على دراسة تاريخ البحرية الاسلامية في الحوض الشرقي من البحر المتوسط وفي المحيط الهندي ، كما أن هذه البحوث مع قلتها لم تغط التاريخ الاسلامي الوسيط كله ، وانما اقتصرت على القرون الاربعة الاولى للهجرة •

لذلك كان لا بد من توجيه مزيد من العناية بالبحرية الاسلامية في النصف الغربى من حوض البحر المتوسط مع تغطية العصر الاسلامى كله منذ فتح العرب للمغرب والاندلس حتى نهاية دولة الاسلام في الاندلس • وكان لزاما علينا ان نستنبط مادة البحث من بطون المصادر العربية تاريخية أو جغرافية أو أدبية وأن نفيد مما كتبه المستشرقون في هذا المجال ، كذلك كان من الطبيعي أن نتعاون معا في البحث ، أمام صعوبة المهمة وامتداد التاريخ الاسلامي ، اذ ليس من السهل على باحث واحد أن ينفرد بهذا العمل • وعلى هذا النحو اقتسمنا الفترة التاريخية التي نقوم بدراستها فتولى السيد عبد العزيز سالم الكتابة عن البحرية الاسلامية في النصف الغربى مـن حوض البحر المتوسط منذ قيامها حتى نهايـة عصر ملوك الطوائف في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، بينما تولى احمد مختار العبادي الكتابة عن البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس منذ بداية عصر المرابطين حتى سقوط مملكة غرناطة •

وكان من ثمرة هذا التعاون المشترك ظهور هذا الكتاب المتواضع الذي يعتبر بحق اول ما صنف عن البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس• والله ولى التوفيق ؟

بيروت في ٧ رجب ١٣٨٩ هـ
١٩ أيلول ١٩٦٩ م

المؤلفان

الفَصْل الأوَل

قيام البحرية العربية

في المغرب

(١) نشأة البحرية العربية الاسلامية في خلافة عثمان بن عفان •

(٢) غزو العرب لصقلية وجزر البحر المتوسط الغربي في النصف الاول من القرن الاول للهجرة •

(٣) دور مصر في قيام البحرية الاسلامية في افريقية •

أ ـ مرحلة الغزو البحري الموجه من مصر

ب فضل المصريين في انشاء دار الصناعة بتونس

(٤) غزوات العرب في بحر تونس في العصر الاموي •

الفصل الأول

قيام البحرية الاسلامية في المغرب

(١)

نشأة البحرية العربية الاسلامية في خلافة عثمان بن عفان

اذا كان عرب اليمن وحضرموت وعمان والبحرين ، في العصر الجاهلي بوجه عام، والعصر السبئي بوجه خاص[١]، قد برعوا في ركوب البحر[٢]، بحكم موقع بلادهم على البحر الأحمر من الجهة الغربية ، والمحيط الهندي جنوبا ، والخليج الفارسي شرقا ، وبحكم اشتغالهم بالتجارة في البر والبحر في مراحل تاريخهم القديم ، واحتكاكهم بشعوب بحرية ، فان العرب قبيل ظهور الاسلام كانوا قد نسوا كل اتصال لهم بالبحر ،

---

(١) محمد ياسين الحموي ، تاريخ الاسطول العربي ، ١٩٤٥ ، ص ٨ ـ
Aly Mohamed Fahmy, Muslim Sea - Power in the Eastern Mediterranean, Cairo, 1966 ـ السيد عبد العزيز سالم ، دراسات في تاريخ العرب ، ج١ عصر ما قبل الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

وذكر المسعودي ان البحريين من أهل عمان هم عرب من الازد (المسعودي ، مروج الذهب ، تحقيق الاستاذ محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨ ، ج١ص ١٠٧)

(٢) مما يدل على المام العرب بشؤون البحر في العصر الجاهلي ان اللغة العربية مليئة بالفاظ واصطلاحات بحرية ، اما عربية الصياغة او مشتقة من اللغة الفارسية او اللاتينية أو اليونانية ، وردت في الشعر الجاهلي ، فمن اسماء السفن : الفلك وبوصي وعدولي وخلية والجاري . وقد وردت في القرآن الكريم أسماء سفن منها : سفينة ، وفلك ، ومجداف ، وسكان، ونوخذ ، وقرقور (راجع : فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، وجوارى ، وذات الواح ودسر أما بالنسبة للاصطلاحات البحرية فمنها نوتي ، واسطول القاهرة ١٩٦٧ ، ج ٢ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ ـ السيد عبد العزيز سالم ، دراسات ، ص ١٦٨ ـ (Aly Fahmy, op. cit. p. 41

وأهملوا شؤونه . وفقدوا الدربة على ركوبه وخوض أهواله . واقتصروا في تجارتهم على الطرق البرية بسبب تعرض بلادهم للسيطرة الأجنبية الحبشية والفارسية . فالفرس بضم اليمن والبحرين وما يليها ، قضوا على تجارة العرب في الخليج الفارسي ، واحتكروا لأنفسهم تجارة الهند [١] ، والأحباش منذ فتحوا اليمن وحضرموت استأثروا بالطريق التجاري عبر البحر الأحمر . ويعلل ابن خلدون تخلف العرب في ثقافة البحر وركوبه ببداوتهم ، بينما يفسر تفوق البيزنطيين والافرنجة البحري بممارستهم أهواله « ومرباهم في التقلب على أعواده » [٢] . ومما لا شك فيه أن العرب انصرفوا عن الاشتغال بالملاحة في البحر لأسباب ، من بينها أن بلادهم صحراوية تندر فيها الأشجار التي تصلح أخشابها لصناعة السفن القوية ، وأن بلادهم ــ باستثناء جبال اليمن ــ تخلو من معدن الحديد اللازم لصناعة المراسي والمسامير ، ومن الزفت والقطران ، هذا بالاضافة الى أن الملاحة في البحر الأحمر كانت تكتنفها الأخطار ، لكثرة الصخور والشعاب المرجانية التي تعترض سبيل السفن [٣] .

وكان ظهور الاسلام انتقالا حاسما في تاريخ العرب ، اذ حقق لهم وحدتهم السياسية ، وجعل منهم أمة قوية موحدة مرهوبة الجانب تغلبت في عصر الفتوحات زمن الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر على أمم عريقة في الحضارة ، لها نظم ادارية واقتصادية منظمة . وأحس العرب بعد أن افتتحوا بلادا تطل على البحر المتوسط ، بضرورة اصطناع سياسة بحرية لمواجهة غارات الروم البحرية ، الذين كانت لهم السيطرة البحرية في هذا البحر . ولم يكن الخليفة عمر بن الخطاب يرهب البحر ويخشاه

---

(١) Aly Fahmy, p. 48

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق دكتور علي عبد الواحد وافي ، ج ٢ ص ٦٢٨ .

(٣) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٢٥ .

أو يشفق على المسلمين من ركوبه [١]، كما يزعم الرواة والأخباريون [٢]، ولكنه كان بعيد النظر، سديد الرأي فالعرب كانوا ما يزالوا حديثي عهد بما بلغوه من حدود بحرية على البحر المتوسط، والعدو الذي يواجهونه، وهم البيزنطيون، خصم عنيد متمرس في شؤونه وثقافته، متدرب على ركوبه وخوض مياهه، بخلاف الفرس الذين كانت صلتهم بالبحر أقل بكثير من البيزنطيين، ولذلك نجح العرب في أمد وجيز في تقويض دعائم الامبراطورية الفارسية، بينما استمر نضالهم مع البيزنطيين في الشام وفي المغرب بوجه خاص ما يزيد على ستين سنة، بل ان هذا النضال استمر بعد فتح الشام والمغرب ما يقرب من أربعة قرون. ولا شك أن الخليفة عمر أدرك أن العرب في هذا التاريخ المبكر لا يستطيعون مجاراة الروم والفرس في البحر لقلة خبراتهم البحرية، وقد دفعه هذا الادراك الى تأديب العلاء بن الحضرمي، والى البحرين، لتغريره بالمسلمين في الخليج الفارسي، وتعريضهم للهلاك في سنة ١٧ هـ [٣]، ولوم عرفجة بن هرثمة الأزدي سيد بجيلة لما أغزاه عمان، فبلغه غزوه في البحر [٤]. وقد يكون ادراك عمر بن الخطاب بتخلف المسلمين البحري نتيجة لاخفاق

(١) Cheira, la lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947, p. 88 — Aly Fahmy, op. cit. p. 74

(٢) يعللون نفور عمر بن الخطاب من البحر باصراره على اتخاذ الامصار الاسلامية بعيدا عن السواحل أو الانهار، برغبته في ألا تتعرض هذه الامصار لتهديد اساطيل الروم (المقريزي، الخطط، ج١ ص ٢٨٦، طبعة بولاق، ١٢٧٠ هـ) السيوطي، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، ج١ ص ٥٧ طبعة مصر ١٣٢٧ هـ ـ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي، الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٦٥)

(٣) الطبري، تاريخ الامم والملوك، تحقيق دي غوية، لندن ١٨٨١ ـ ١٨٨٢، ج ١ ص ٢٥٤٦. يذكر الطبري ان العلاء ندب اهل البحرين وحملهم في البحر الى فارس بغير اذن عمر « وكان عمر لا يأذن لاحد في ركوبه غازيا، يكره التغرير بجنده ... فعبرت تلك الجنود من البحرين الى فارس، فخرجوا في اصطخر وبازائهم اهل فارس وعلى اهل فارس الهربذ اجتمعوا عليه فحالوا بين المسلمين وبين سفنهم، فقام خليد (بن المنذر بن ساوي احد قواد العلاء) في الناس ... وغرقت سفنهم ثم لم يجدوا الى الرجوع في البحر سبيلا ».

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ج٢ ص ٦٢٨

علقمة بن مجزر المدلجي في حملته البحرية الى الحبشة سنة ٢٠ هـ ، اذ غرقت سفنه في البحر ، فكان لذلك الحادث أثر عميق في نفس الخليفة [١]

ولذلك عمد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الى تأسيس الأمصار الاسلامية في داخل البلاد ، كما عمل على انتهاج سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي على ثغور المسلمين ، فاهتم بتحصين السواحل وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها [٢] ، متوسلا في ذلك كله بوسائل برية ، فأمر بمرمة حصونها ، واقامة الأربطة والمناظر والمسالح على طول الساحل ، وشحنها بالمقاتلة ، لمراقبة النواحي التي يقبل منها البيزنطيون في البحر ،والانذار باقتراب العدو ليلا عن طريق ايقاد النيران في مواقيد خاصة بأعلاها ، تنبيها للمرابطة بالخطر ، وتوجيها لهم للاستعداد والتأهب لصد الغزاة .

وكان هذا النظام الدفاعي البحري ضروريا في العهد الأول الذي تبع الفتوحات ، عندما كان العرب — وان كانوا يعرفون قليلا عن ركوب البحر — يجهلون الحروب وأساليب القتال فيه ، ومواجهة الروم الذين كانت لهم حتى ذلك الحين السيطرة البحرية في حوض البحر المتوسط كله ، بالاضافة الى أن العرب كانوا لا يثقون في المغلوبين من أهل البلاد المفتوحة ، مما حمل العرب على ابدال سكان السواحل الشامية بسكان من العرب أو من الموالين للعرب .

وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام مبثوثة بالقلاع والأبراج

---

(١) الطبرى ، جا ص ٢٥٩٥

(٢) البلاذري، فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ، جا ص ١٥٢ — Cheira, op. cit. p. 85

التي كانت أشبه بسور (١) يمتد بحذاء الساحل ، اعتمد عليه العرب في الدفاع عن البلاد من جهة البحر ، وحظيت سواحل الاسكندرية ورشيد والبرلس وتنيس ودمياط وعكا وصور وصيدا وطرابلس وعرقة وجبيل وانطاكية بقلاع ومحارس ، ووضعت في هذه المدن حاميات مرابطة تنقسم كل منها الى عرافات أي مجموعات ، وكل عرافة تتألف من مائة رجل • وكان المرابطة يقومون بالرباط أثناء فصل الصيف عندما يصبح البحر صالحا للملاحة ، أما في فصل الشتاء ، وهو فصل انغلاق البحر بسبب العواصف والأنواء ، فكانت الحاميات تعود الى قواعدها في دمشق أو الفسطاط ، ولا يبقى منها في الثغور والسواحل الا جماعات يسيرة •

ومضت مرحلة الدفاع البحري بوسائل برية عندما فشلت بيزنطة في استرداد الساحل الشامي سنة ٢٣ هـ ، والمصري في سنة ٢٥ هـ ، أمام قوة الدفاع العربي ، واستقرت دعائم السيادة العربية الاسلامية في الشام ومصر ، وآن للعرب أن يبدأوا بدورهم بالهجوم • وكان لزاما عليهم في تلك الحالة أن يكون لديهم أسطول قوي يضمن لهم احباط أي محاولة بيزنطية لاسترداد الشام ومصر من جهة البحر ، ويمهد لهم السبيل للدفاع عن مكاسبهم وتأمين مناطق النفوذ البحرية ضد البيزنطيين الذين كانوا ما تزال لهم السيادة البحرية في البحر المتوسط • ويرجع الفضل الأعظم في انشاء الأسطول العربي الاسلامي الى معاوية بن أبي سفيان ، عامل الشام في خلافة كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، الذي أدرك فضل الأساطيل في الدفاع عن السواحل ابان غزو أخيه يزيد لسواحل الشام • وبدأ معاوية وهو بعد عامل على الشام بتحصين السواحل وشحنها بالمقاتلة ، واقطاع من ينزل من المسلمين بالسواحل القطائع والأخائذ (٢) ،

(١) Cheira, op. cit. p. 87

(٢) البلاذري ، ج١ ص ١٥٢

وتشجيع انتقال المسلمين الى السواحل من كل مكان • ثم انتقل بعد ذلك الى عملية بناء السفن في مصر ، فاستحضر الأخشاب مـن غابات الأرز بلبنان وأرسلها في السفن الى الاسكندرية ، واستعان بالخبراء من القبط وببعض الملاحين من أهل مصر في صناعة السفن وتسييرها في البحر [١] ، تمهيدا للسيطرة على جزر البحر المتوسط المواجهة لسواحل الشام ومصر، لاتخاذها قواعد بحرية أمامية لغزو بلاد البيزنطيين نفسها •

واذا كان عمر بن الخطاب قد نهى معاوية عن ركوب البحر وغـزو أرواد عندما استأذنه معاوية في ذلك الأمر ، فان عثمان بن عفان ، على الضد من ذلك ، أطلق لمعاوية يده في الشام ، وأذن له بغزو الروم بحرا في قبرص على ألا يحمل الناس على الغزو كرها ، وأن يصحب معه امرأته فاختة • ويعتبر غزو المسلمين لقبرص في سنة ٢٨ هـ أول غزو بحري لهم في البحر المتوسط ، ولم يكن المسلمون قد ركبوا بحر الروم قبل هذه الغزوة [٢] • وفي نفس الوقت الذي تهمم فيه معاوية بانشاء أسطول عربي شامي كان عبدالله بن سعد عامل مصر في خلافة عثمان يقوم بدوره بانشاء أسطول عربي مصري في الجزيرة ، ألقى عبئه على كاهل المصريين الأقباط • وقد اشترك الأسطول المصري مع الاسطول الشامي في غزو قبرص [٣] ، كما اشترك الأسطولان معا في واقعة ذات الصواري التي حدثت في سنة ٣٤ هـ [٤] ، وفيها انتصر المسلمون انتصارا حاسما ثبت لهم السيطرة في البحر المتوسط والتفوق على البيزنطيين [٥] • ويعلق الأستاذ

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٠.

(٢) نفسه ، ص ١٨١

(٣) ابن الاثير ، حوادث سنة ٢٩ هـ ، فتحي عثمان ، ج٢ ص ٢٢٨

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والاندلس ، تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ ص ٢٥٥ .

(٥) ابراهيم العدوي ، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٦٤ـ Aly Fahmy, op. cit. p. 89 ـ العدوي ، قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٥٠ ، ٥١ .

فتحي عثمان على انتصار العرب في ذات الصواري بأنها تعتبر «حدا فاصلا في تاريخ البحر المتوسط ، ذلك أن قسطانز كان يرمي الى تحطيم قوة المسلمين البحرية في مهدها ، ولو أنه وفق في ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض أو حوضه الشرقي على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين »[١].

غير أن معاوية لم يفد من هذا النصر الذي أحرزه في متابعة الغزو البحري ، فقد شغل بالمطالبة بدم عثمان منذ سنة ٣٥ هـ ، ومناوءة علي ابن أبي طالب من أجل الظفر بالخلافة ، عن مواجهة البيزنطيين ، أما هؤلاء فقد اغتنموا ذلك لتدعيم جبهتهم ، ثم وجهوا هجوما عاتيا على سواحل الشام في سنة ٤٩ هـ . ويبدو أن البيزنطيين سببوا بهذا الهجوم خسائر كبيرة للمسلمين حملت معاوية على اقامة دار لصناعة الأسطول في عكا ، لتنتج له سفنا بدلا من الاعتماد على دار صناعة مصر وحدها ، فأمر « بجمع الصناع والنجارين ، فجمعوا ، ورتبهم على السواحل ، وكانت الصناعة في الأردن بعكا » ، وظلت عكا دار الصناعة في الشام الى أن نقلت في زمن بني مروان الى صور [٢] .

ومنذ أن أسست دار الصناعة بعكا حتى أخذ المسلمون يشكلون خطرا متزايدا على البيزنطيين ، فقد استعمل معاوية على البحر القائد العربي عبدالله بن قيس الذي غزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة ، وافتتح معاوية بالاضافة الى قبرص ، جزيرة رودس التي تم فتحها على يد جنادة ابن أبي أمية الأزدي في سنة ٥٢ هـ [٣] ، وغزا اقريطش في سنة ٥٥ هـ [٤]،

---

(١) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٢٣٨
(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٤٠
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٧٨
(٤) نفس المصدر ، ص ٢٧٩

وتهيأ له بعد ذلك مهاجمة البيزنطيين في عقر دارهم القسطنطينية [١] .

وأمام انتصارات العرب المتتابعة ، صرف الامبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني نظره عن محاولة استرداد الشام ومصر ، ورأى أن يحول نشاطه الى الميدان الغربي ، الى القسم الغربي من حوض البحر المتوسط [٢] ، حيث كانت جيوش العرب الظافرة تهاجم افريقية ، وتشن الغارات على صقلية وسردانية وقوصرة وغيرها من جزر البحر المتوسط الغربي ، ورأى أن اتخاذ صقلية قاعدة له في سنة ٣٥ هـ [٣] أجدى عليه ، لقربها من الساحل الافريقي ، ولسهولة التحرك منها لضرب قوى العرب البرية في هذه المناطق المتطرفة من العالم اذا ما اقتضت الظروف ذلك ، ولكنه اصطدم هناك بقوى لم تكن في حسبانه ، وبمصرعه في سرقوسة سنة ٤٨ هـ انتهى مشروعه بالفشل [٤] .

---

(١) العدوى ، قوات البحرية العربية ، ص ٥٦ وما يليها

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٠

(٣) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٦٧

(٤) فازيلييف ، العرب والروم ، ترجمة الدكتور عبد الهادي شعيرة ، ص ٦٣ — العدوى ، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، ص ٩٥ — العدوى ، الاساطيل البحرية في المتوسط ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٦٧ .

(٢)

غزو العرب لصقلية وجزر البحر المتوسط الغربي في النصف الاول من القرن الاول للهجرة

كان من الطبيعي أن يفكر العرب بعد فتحهم لمصر جديا في فتح برقة وطرابلس ، تطبيقا لسياسة الاستمرار في الفتح وتأمينا لحدود مصر الغربية ، زد على ذلك أن برقة كانت تعتبر امتدادا طبيعيا لمصر ، واقليما متمما لها [١] من الناحية الجغرافية ، وحتى السياسية ، في العصر السابق على الفتح • فما كاد عمر بن العاص ينتهي من فتح الاسكندرية حتى سار على الخيل الى برقة ، فاستولى عليها ، وتابع زحفه غربا ، ولم يجد صعوبة كبيرة في التغلب على سرت ولبدة وطرابلس وصبرة [٢] • غير أن طرابلس لم تلبث أن خرجت عن طاعة المسلمين عقب عودته الى مصر ، كما أن الروم تنبهوا الى خطورة وجود العرب لصق حدود افريقية ، فاهتموا بتحصين المدن الشرقية من افريقية (تونس) ويغيرون على قواعد المسلمين في برقة ، الأمر الذي دعا عبدالله بن سعد الى أن يستأذن الخليفة عثمان بن عفان في فتح افريقية ، فأذن له ، وخرجت جيوش المسلمين بقيادة ابن سعد الى افريقية ، واشتبكت مع جيوش البيزنطيين في موقعة حدثت بالقرب من

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ١٤١

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٦٠ — ٦٢ ، الطاهر احمد الزاوي ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، القاهرة ، ١٩٦٣ ص ٢٢ — وراجع المصادر لهذا الفتح في : ابن عبد الحكم ص ٢٢٩ — البلاذري ، ص ٢٦٤ — البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشره دي سلان ، الجزائر ، ١٩١١ ، ص ٤ — ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ١١

سبيطلة ، انتهت بمقتل جريجوريوس حاكم افريقية البيزنطي وبانتصار المسلمين ودخولهم العاصمة البيزنطية في افريقية • ولكن ابن سعد لم يحاول استغلال هذا النصر في اقامة قاعدة ثابتة للمسلمين في هذه البلاد ؛ واضطرته سوء الأحوال في مصر الى العودة اليها في سنة ٢٩ هـ ، فكتب الى نائبه في مصر يطلب منه أن يبعث اليه سفنا في البحر ، فوافته السفن وهو بطرابلس ؛ فحمل فيها أثقال جيشه ، ومضى هو وأصحابه عن طريق البر الى مصر [١] •

وما ان انتقل قنسطانز الثاني الى صقلية واتخذها مقرا له حتى بادر باستعادة افريقية الى سلطانه ، وأقام عليها عاملا من قبله يقال له أوليمة (لعله أوليمبوس) ، ويبدو أن نزاعا خطيرا نشب بين أهل افريقية وبين البيزنطيين بسبب تعسف أوليمة في جباية الأموال ، أدى الى قيام الأفارقة بطرد عامل الامبراطور ، فعاد الى بلاده [٢] • وعندئذ وجه معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج على رأس جيش لغزو افريقية في سنة ٤٥ هـ ، فتصدت لجيشه حملة بيزنطية بقيادة نجفور [٣] ، قدمت من صقلية ونزلت على الساحل التونسي ، فانهزم البيزنطيون ، وأقلعوا بسفنهم في البحر • ولم يكتف ابن حديج بما أصابه من انتصارات على البيزنطيين ، وانما عزم على مهاجمة جزيرة صقلية، قاعدتهم في البحر تجاه افريقية، والمركز الرئيسي الذي تصدر منه غارات البيزنطيين على الساحل الافريقي، فكان ابن حديج بذلك أول من غزا صقلية [٤]• وذكر ابن عذاري أنه «أغزى جيشا في البحر الى صقلية في مائتي مركب فسبوا وغنموا ، وأقاموا شهرا ثم انصرفوا الى

(١) المالكي ، رياض النفوس ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١

(٢) مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١١٥ ـ ـ عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ١٧٧

(٣) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٤٥ ـ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ١٦

(٤) البلاذري ، ج١ ، ص ٢٧٨

افريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجواهر ، فاقتسموا فيهم » [١] . الا أن الدكتور مؤنس يعتقد أن البلاذري يقصد بتلك الغزوة الحملة التي بعث فيها معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج فيما يقرب من سنة ٢٧ هـ أو ٢٨ هـ في خلافة عثمان لغزو رودس ثم صقلية ، ويرجح أن ابن عذاري أخطأ في النقل عن البلاذري ، فذكر سنة ٤٦ هـ وصحتها في رأيه ٢٦ هـ [٢] . ويستند في ذلك الرأي على ما ذكره أماري (استنادا على البلاذرى) من قيام معاوية بن حديج بغزو رودس وصقلية في سنة ٣٢ هـ (٦٥٢م) في مائتي سفينة [٣] ، مما دعا قنسطانز الثاني الى نقل عاصمته الى سرقوسة بصقلية صيانة لأملاكه في افريقية وصقلية وايطاليا من الغزو العربي [٤] . ولا ندري من أين استقى الأستاذ أماري هذا الخبر ، فالبلاذري الذي يزعم أنه استقى منه لم يشر الى تاريخ غزوة معاوية بن حديج لصقلية ، كما أن ابن الأثير لم يشر هو الآخر الى غزو صقلية في هذه السنة ، وانما ذكر أن أهل قبرص أعانوا الروم في سنة ٣٢ هـ «على الغزاة في البحر بمراكب أعطوهم اياها ، فغزاهم معاوية سنة ثلاثة وثلاثين ، ففتحها عنوة » [٥] . وأعتقد أن أماري خلط بين غزوة قبرص في سنة ٣٢/٣٣ هـ وغزوة صقلية التي تمت في سنة ٤٦ هـ كما حددها أبن عذاري [٦] . ويرجح الدكتور شعيرة غزوها في سنة ٤٩ هـ بقيادة عبدالله بن قيس وفقا للبلاذرى ، أو ابن حديج وفقا لابن

---

(١) ابن عذاري ، ج١ ص ١٦ ، ١٧

(٢) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٢٦

(٣) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, Catania, 1933, t. I, p. 194

مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٢٥

(٤) ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٩١ .

(٥) ابن الاثير ، ج ٢ ص ٦٧

(٦) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ١٨٦

عبد الحكم ، أو عقبة بن نافع وفقا للطبري ، وذلك عقب قيام البيزنطيين بالاعتداء على سواحل افريقية [١] . ولكننا نعتقد أن غزوة صقلية وقعت في غضون سنة ٤٦ هـ أثناء قيام معاوية بن حديج بغزو افريقية في خلافة معاوية بن أبي سفيان [٢] .

واختتم ابن حديج غزوته في افريقية بحملة بحرية بقيادة رويفع بن ثابت الأنصاري ، عامله على طرابلس منذ سنة ٤٦ هـ ، الى جزيرة جربة الواقعة تجاه ساحل قابس ، وتمت هذه الغزوة في سنة ٤٧ هـ [٣] .

ثم عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج عن ولاية افريقية في سنة ٤٨ هـ ، وولى مكانه عقبة بن نافع الفهري الذي شرع في تمكين الفتح العربي بافريقية بتأسيس مدينة القيروان ، رابعة الحواضر الاسلامية ، بعيدا عن البحر حتى لا تطرقها جيوش البيزنطيين بالغزو من جهة البحر [٤] . ولم تطل ولاية عقبة اذ عزله الخليفة في سنة ٥٥ هـ ، وخلفه على ولايتها أبو المهاجر دينار (٥٥—٦٢ هـ) . ثم رد عقبة على ولاية افريقية في أول خلافة يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ ، فظل يليها الى أن لقي مصرعه في تهوده في سنة ٦٤ هـ على يد كسيلة الأوربي وحلفائه البيزنطيين . وتمكن كسيلة من الاستيلاء على القيروان بعد أن انسحبت الحامية العربية منها الى برقة بقيادة زهير بن قيس البلوي . وهكذا نشهد البيزنطيين يستغلون انشغال الأمويين بفتنة عبدالله بن الزبير ليوجهوا ضرباتهم للعرب في الشرق والغرب .

---

(١) Cheira, op. cit. p. 136

(٢) النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ، ج ٢٢ ، مخطوط ، ص ٢٢٦ — ابن ابي دينار القيرواني ، المؤنس في تاريخ افريقية وتونس ، تونس ١٢٨٦ هـ ، ص ٢٣ — أبو عبدالله الشيخ محمد الباجي المسعودي، الخلاصة النقية في امراء افريقية، تونس، ١٣٢٣ هـ، ص٥

(٣) المالكي ، ص ٥٣ — أبو المحاسن بن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٣٢— ابن ابي دينار ، ص ٢٤

(٤) المالكي ، ص ٦

(٣)

دور مصر في قيام البحرية الاسلامية في افريقية

١ — مرحلة الغزو البحري الموجه من مصر :

تدل الروايات الخاصة بغزو جزيرة صقلية على أن أساطيل مصر هي التي كانت تتولى مهمة غزو هذه الجزيرة وغيرها من جزر البحر المتوسط الغربي حتى بداية القرن الثاني للهجرة ، عندما بدأت دار صناعة الانشاء بتونس تنتج لأول مرة سفنا اسلامية . وكانت بالاسكندرية دار لصناعة السفن منذ العصر البطلمي تنتج سفنا تجارية وحربية تحمل المجانيق وآلات قذف الحجارة والنيران [١] . وكان يخرج منها أمراء البحر للغزو كما حدث عندما خرج معاوية بن عامر الجهني في سنة ٤٧ هـ بعد أن تولى امرة البحر [٢] ، ولذلك اعتمد العرب باديء ذي بدء على دار صناعة الاسكندرية ودار صناعة الجزيرة ، وعلى خبرة المشتغلين بالبحر من أهل مصر الأقباط الذين لم يشتركوا مشاركة فعلية في المعارك البحرية الأولى التي خاضها المسلمون [٣] فحسب ، بل ساهموا مع جيش عبدالله ابن سعد في موقعة سبيطلة التي حدثت في ٢٨ هـ [٤] . ومما لا شك فيه أن الأسطول المصري هو الذي نقل غنائم عبدالله بن سعد التي كان ينوء بها جيشه من طرابلس الى الاسكندرية [٥] والأسطول المصري أيضا

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية الاسلامية ، مقال في كتاب تاريخ الاسكندرية منذ اقدم العصور ، الاسكندرية ، ١٩٦٣ ص ٢٢٤

(٢) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق رفن جست ، بيروت ، ١٩٠٨ ص ٣٨

(٣) Cheira, op. cit. p. 92

(٤) المالكي ، ص ١٠ ، ١١ ، ١٥ — المغرب الكبير ، ص ١٥٦ ، ١٥٨

(٥) نفس المصدر ، ص ١٧

هو الذي غزا صقلية في سنة ٤٦ هـ في الوقت الذي كان معاوية بن حديج يفتتح سوسة ، فقد ذكر البلاذري نقلا عن الواقدي أن عبدالله بن قيس ابن مخلد الدزقي ، وقيل الفزارى غزا صقلية « فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالذهب ، فبعث بها الى معاوية ، فوجه بها معاوية الى البصرة لتحمل الى الهند فتباع هناك ليثمن بها » [١] والأسطول المصري أيضا بقيادة عقبة بن نافع غزا في البحر في شتاء سنة ٤٩ هـ [٢] . ومن بين قواد المسلمين الذين غزوا صقلية وجربة وقوصرة في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الفتح العربي لافريقية : أبو محمد فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي (ت ٥٣ هـ) الذي كان قد اشترك في غزوة قبرص مع معاوية بن أبي سفيان في سنة ٢٨هـ [٣] ، وكان يتولى القضاء والبحر بمصر في خلافة معاوية ، ودخل افريقية غازيا هو ورويفع بن ثابت بن سكن بن عدى بن حارثة الأنصاري [٤] الذي كان يلي طرابلس من قبل معاوية في سنة ٤٦ هـ ، وفي صحبة حنش بن عبدالله الصنعاني الذي غزا جزيرة جربة في سنة ٤٧ هـ [٥] . وقد يكون من بينهم أيضا القائدان عبدالله بن نافع بن الحصين وعبدالله بن نافع بن عبد القيس اللذان يزعم الطبري أن عثمان ابن عفان أرسلهما من افريقية لغزو افرنجة والأندلس في سنة ٢٧ هـ [٦] ،

(١) البلاذري ، ج١ ص ٢٧٨

(٢) ابو المحاسن ، ج ١ ص ١٣٨

(٣) البلاذري ، ج ١ ص ١٨٢

(٤) المالكي ، ص ٥٢ ـ التجاني ، رحلة التجاني ، تحقيق الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨ ص ١٢٤

(٥) البكري ، ص ١٩ ـ التجاني ، ص ١٢٤ ـ محمد أبو راس الجربي ، مؤنس الاحبة في اخبار جربة ، تحقيق محمد المرزوقي ، تونس ١٩٦٠ ، ص ٤٠ ـ الخلاصة النقية ، ص ٨

(٦) الطبري ، ج١ ص ٢٨١٧ ـ ابو المحاسن ، ج ١ ص ٨٤ ـ ابن عذارى ، ج ٢ ص ٥ ـ ابن أبي دينار ، ص ٢٢ . لم يثبت ان الاندلس والفرنجة افتتحتا في خلافة عثمان ، فان المصادر التاريخية تجمع على ان الشروع في فتح الاندلس لم يتم الا بعد ان تمكن موسى ابن نصير من فتح معبري الاندلس طنجة وسبتة في خلافة الوليد بن عبد الملك .

والصحابي ابو يقظان الذي يشير المالكي الى أنه غزا صقلية [١] .

ويبدو أن الأسطول الاسلامي الذي كان يتألف بوجه خاص من مراكب مصرية اشترك في العمليات الحربية ضد البيزنطيين في ولاية حسان ابن النعمان ، وقد آحرز هذا الأسطول في مياه قرطاجنة انتصارا ساحقا على الأسطول البيزنطي بقيادة البطريق جان اعظم قواد ليوتيوس ،وكان هذا الأسطول قد نزل على الساحل الافريقي في سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) [٢] ، وفر معظم من كان بها من الروم في مراكبهم الى صقلية ، في حين تعرض من بقي منهم فيها لسيوف المسلمين [٣] . كذلك ساهم أسطول مصر في غزو جزيرة سردانية في خلافة عبد الملك بن مروان ، وقيل خطئا أن الغزوة حدثت في سنة ٨٣ أو ٨٤ هـ ، والواقع أن والي افريقية في هذا التاريخ لم يكن موسى بن نصيرالذيتولى قيادة الحملة وانما حسان بن النعمان ، وتفصيل خبر هذه الغزوة كما رواه ابن قتيبة ان عبد العزيز بن مروان والي مصر من قبل عبد الملك أخيه سير عطاء بن أبي نافع الهذلي [٤] وقيل عطاء ابن رافع [٥] مولي هذيل في مراكب أهل مصر لغزو سردانية ، فوصلت سفن عطاء الى سوسة للتزود بما يلزمها من أقوات ، وكان الوقت في بداية فصل الشتاء ، فنصحه موسى بن نصير بالبقاء فترة الشتاء الى أن يطيب ركوب البحر ، ولكن عطاء لم يستمع لنصح موسى ، وشحن سفنه ، ثم رفع مراسيه ، فغزا جزيرة يقال لها سلسلة (لعلها سكلية أي صقلية)

---

(١) المالكي ، ص ٦٢

(٢) البكري ، ص ٣٨ ـ المالكي ، ص ٣٣ ـ Charles Diehl, Histoire du Moyen âge, t. III, Le Monde oriental de 395 à 1081, Paris 1936 p. 207

(٣) المغرب الكبير ، ص ٢٤٣

(٤) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، القاهرة ١٩٣٧ ، ج ٢ ص ٧٤

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢٨٣ ـ الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، تحقيق الدكتور صلاح المنجد ، الكويت ١٩٦٠ ، ج٣ ص ٢٢٣

وافتتحها وأصاب فيها مغانم كثيرة وتحفا من الذهب والفضة والجوهر ، ثم انصرف قافلا ، فأصابته عاصفة شديدة أغرقته وأغرقت معظم سفنه ، فوجه موسى يزيد بن مسروق في خيل الى سواحل البحر للبحث عن بقايا سفن عطاء وعمن قذفه البحر من أصحابه الناجين ، فأصاب يزيد تابوتا منحوتا كان مليئا بالتحف . وقد استفاد موسى من الملاحين المصريين الناجين ، فألحقهم بدار الصناعة بتونس [١] . غير أن المالكي يذكر تاريخا يخالف فيه التاريخ السابق الذي أورده ابن قتيبة ، فيذكر أن عطاء ابن رافع غزا في البحر بقصد الجهاد في سنة ١٠٧ هـ غزوة اشترك فيها عدد كبير من المجاهدين من التابعين ، نخص بالذكر منهم اسماعيل بن عبيدالله المعروف بتاجر الله الذي خرج مطوعا في تلك الغزوة فغرق وهو متقلد المصحف [٢] ، والمالكي من المصادر الثقات الذين يعتمدون على مصادر مغربية ، ولذلك نميل الى الأخذ بتاريخه .

وفي سنة ٨٩ هـ قام عبدالله بن مرة بطالعة أهل مصر على موسى، فعقد له موسى على بحر افريقية فغزا سردانية وافتتح مدنها وغنم منها غنائم كثيرة [٣]

ب – فضل المصريين في انشاء دار الصناعة بتونس :

لم يؤسس العرب الفاتحون في افريقية دارا لصناعة الأسطول الا بعد حملة حسان بن النعمان الثانية ، ولم يصبح للمغرب الاسلامي اسطوله الخاص به الا في سنة ٨٩ هـ ، وكان العرب الفاتحون لافريقية يعتمدون في غزواتهم البحرية من سنة ٢٨ هـ الى ٨٩ هـ على سفن مصر

---

(١) ابن قتيبة ، المصدر السابق ، ص ٧٤ ، ٧٥
(٢) المالكي ، ص ٧٠
(٣) ابن قتيبة ، ص ٧٥

التي كانت تغزو جزر صقلية وسردانية وتقفل بعد ذلك الى قواعدها في مصر على النحو الذي أوضحناه .وقد كان نشاط هذه السفن في النصف الغربي من البحر المتوسط يشتد حينا ويفتر أحيانا، بسبب تعرض سواحل مصر للغزو البحري البيزنطي كما حدث عندما غزا البيزنطيون الاسكندرية في سنة ٢٥ هـ ، وعندما حاولوا غزوها للمرة الثانية في سنة ٣٤ ، وكما حدث أيضا عندما أغاروا على البرلس في ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري في سنة ٥٣ هـ واستشهد في هذه الغارة وردان مولى عمرو بن العاص ، وعائذ بن ثعلبة البلوي ، وأبو عمرو بن قيس اللخمي في جمع كثير من الأهالي [١] ، وعندما أغاروا على دمياط للمرة الثانية في سنة ٩٠ هـ [٢] وأسروا أمير بحرها خالد بن كيسان ، وذلك ردا على غزوة صقلية وسردانية، وعندما أغاروا على الاسكندرية فيما يقرب من سنة ١١٨ هـ [٣] ، وعلى دمياط في سنة ١٢١ هـ [٤] ، وذلك ردا على قيام ولاة المغرب بغزو صقلية في سنتي ١٠٩ [٥] ، ١١٠ في ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي [٦] ، وفي سنة ١١٦ هـ [٧] في في ولاية عبيد الله بن الحبحاب .

وتبين لولاة العرب في افريقية أهمية انشاء دار صناعة للانشاء في في احدى مدن الساحل لتزويد الجيش البري بأسطول مستقل عن أسطول مصر ينفرد بحركاته في البحر لغزو صقلية وغيرها من قواعد البيزنطيين البحرية التي كانت تشكل خطرا ماثلا أمام السواحل التونسية ، ويقوم بحماية هذه السواحل والدفاع عنها من غارات البيزنطيين .

---

(١) الكندي ، ص ٢٨
(٢) المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٣٧٧ (طبعة لبنان) ـ Cheira, .p199
(٣) الكندي ، ص ٨٠ ـ المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٣١١
(٤) المقريزي ، ج١ ، ص ٣٧٧
(٥) ابن الاثير ، ج٤ ص ٢٠١ ـ ابن عذاري ، ج١ ص ٤٨
(٦) نفس المصدر، ج٤ ص ٢١٥ ـ ابن ابي دينار ، ص ٣٤ ، ٣٥
(٧) نفس المصدر ، ج٤ ص ٢١٩

ويزعم بعض مؤرخي العرب أن بحر افريقية أصبح في سنة ٧٣ هـ عملا تولاه محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري [١] . وواضح أن هذا التاريخ غير صحيح ، لأن افريقية خرجت عن طاعة العرب منذ مقتل زهير ابن قيس البلوي في سنة ٦٩ هـ حتى قدوم حسان بن النعمان في حملته الأولى على افريقية في سنة ٧٤ هـ [٢] . وصحة هذا التاريخ في رأينا هو ٩٣ هـ اعتمادا على ما ذكره المقري اذ يقول: «كان (محمد بن أوس) من أهل الدين والفضل . معروفا بالفقه ، ولي بحر افريقية سنة ثلاث وتسعين ، وغزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير ... » [٣] . ومن المعروف أن أول غزوة غزيت في بحر افريقية حدثت في سنة ٨٥ هـ في ولاية موسى ابن نصير ، وذلك عندما عقد لولده عبدالله في البحر [٤] .

والى حسان بن النعمان يرجع الفضل في انشاء دار الصناعة بتونس بتشجيع من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان [٥] الذي ينسبون اليه حركة تعريب الدواوين وتعريب العملات ، كما ينسبون اليه القيام بغرس البذور الأولى للفن العربي الاسلامي، وانشاء بحرية اسلامية في المغرب. أبدى عبد الملك اهتماما كبيرا بالقوة البحرية ، وذلك بسبب ما تعرضت له البلاد الاسلامية في بداية خلافته من غارات الروم والمردة ، مما حمله على مهادنتهم ، واقتسام دخل قبرص معهم [٦] . وقد اختلف مؤرخو

(١) الضبي ، بغية الملتمس في تاريخ اهل الاندلس ، مدريد ١٨٨٤ ، ص ٥١ ـ الحميدي، حذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥٢، ص٤٢

(٢) المغرب الكبير ، ص ٢٤٢ وما يليها

(٣) المقرى ، نفح الطيب من غصن اندلس الرطيب ، طبعة محيي الدين عبد الحميد ، ج ٤ ص ٥٨

(٤) ابن قتيبة ، ج ٢ ص ٧٥

(٥) ذكر ابن خلدون ان الخليفة عبد الملك هو الذي « اوعز الى حسان بن النعمان عامل افريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد » (مقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٨)

(٦) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٢٣٩

العرب في اسم مؤسس دار صناعة تونس ، فبعضهم ينسبها الى حسان ابن النعمان ، وبعضهم ينسبها الى موسى بن نصير ، وبعضهم الى عبيد الله بن الحبحاب . غير أن عمل ابن الحبحاب في حقيقة الأمر لم يكن يعدو ترميم بناء دار الصناعة وتجديدها [١] ، ولذلك فان الخلاف يصبح منحصرا بين حسان وموسى . وللتوفيق بين الطرفين نرى ان حسان بن النعمان هو الذي شرع في انشاء دار الصناعة بتونس وذلك بعد أن أجرى البحر بين مرسى رادس وموضع دار صناعة السفن الواقع الى الشرق من تونس [٢] ، ثم استكمل موسى بن نصير بناءها من بعده ، ذلك لأن موسى بن نصير تولى على افريقية من قبل عبد العزيز بن مروان في أواخر سنة ٨٥ هـ ، وشغل منذ ولايته باستنزال ثوار البربر في افريقية والمغرب الاوسط ، ولم يغز في البحر الا في آخر سنة ٨٥ هـ الغزوة المعروفة بالأشراف ، في الوقت الذي توفي فيه عبد العزيز بن مروان ، وقبيل وفاة عبد الملك بشهور معدودة [٣] . ولو أن موسى بن نصير هو الذي أسس تونس ودار صناعتها، فكيف نعلل مقاطعة حسان لعبد العزيز واتصاله مباشرة بعبد الملك بن مروان الذي أمر أخاه عبد العزيز بتسيير الأقباط الى تونس ؟ وكيف نفسر قيام موسى بانشاء دار الصناعة واتتاج السفن في نفس السنة التي تولى فيها على المغرب وأغزي فيها بالمراكب التي صنعت بتونس الى صقلية في غزوة الأشراف ؟

ويذكر المؤرخون ان حسانا بعد أن تغلب على الكاهنة في سنة ٨٢ هـ ، وقضى على كل أثر للمقاومة في افريقية اتجه الى قرطاجنة للمرة الثانية ليطهرها من البيزنطيين ، فاضطر هؤلاء الى الفرار بحرا ، واسترد

---

(١) البكري ، ص ٣٨ — ابن عذاري ، ج ١ ص ٥١ — النويري ، ج ٢٢ ص ٨٥ — ابن ابي دينار القيرواني ، ص ١١

(٢) البكري ، ٣٨ ، ٣٩ — المالكي ، ص ٣٧ — ابن ابي دينار ، ص ١١

(٣) د سيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٢٦٥

حسان المدينة [١] ، ولكنه كان يخشى أن يفاجئه الروم بغزوها من البحر مرة ثانية ، فرأى ان يقيم تجاهها مدينة عربية اسلامية . فاختار لذلك الغرض موضعا قديما يقال له ترشيش ، وكانت مجرد قرية صغيرة تقع بجوار بحيرة الى الجنوب من مرسى رادس ، وعلى بعد نحو اثني عشر ميلا شرقي قرطاجنة ، وكان يصلها بها طريق روماني قديم ، فترك حسان بترشيش التي عرفت فيما بعد باسم تونس جماعة من المسلمين ، ومضى الى القيروان ، فأغار البيزنطيون عليهم من البحر ، ولم يكن يحميهم عنهم سور أو حصن ، فتعرضوا لسيوف البيزنطيين وقتل منهم عدد كبير . ولما بلغ حسان ذلك أرسل الى عبد الملك بن مروان [٢] وفدا من ٤٠ رجلا من أشراف العرب لاطلاعه على ما يعانيه المسلمون هناك من غارات أساطيل الروم ، وكتب اليه معهم رسالة وضح له فيها أهمية انشاء دار للصناعة في تونس ، فطلب منه ان يبعث اليه جماعة من الأقباط يتولون انشاء دار صناعة تونس ، وذلك لشهرة الأقباط في صناعة السفن [٣] .

---

(١) المالكي ، ص ٢٧ — Ch. Diehl, op. cit. p. 207 — مؤنس ، ص ٢٦

(٢) تجنب حسان بن النعمان الاحتكاك بعبد العزيز بن مروان والى مصر ، فلم يطلب منه ان يبعث اليه بالملاحين والصناع الاقباط من مصر ، وذلك بسبب نزاع كان قائما بينهما مرجعه رغبة عبد العزيز في الاستئثار لنفسه بغنائم المغرب (المغرب الكبير ، ص ٢٥٠)

(٣) ساهم اقباط مصر في المعارك البحرية التي خاضها العرب مع البيزنطيين ، فلم يكن مع محمد بن أبي حذيفة في مركبه في يوم ذات الصواري سوى قبط (فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٢٣٨) ، ولذلك لم يكن للبحرية الاسلامية التي اشتبكت مع البيزنطيين من سمات عربية الا من حيث العنصر العربي المحارب فحسب (Cheira, P. 92, 93) . ومما يدل على شهرة المصريين في فن الملاحة وتسيير السفن ما رواه المقريزي اذ ذكر ان أبا سلمة بن عبد الرحمن اراد الخروج الى الاسكندرية في سفينة ، فاحتاج الى رجل يجذف ، فسخر رجلا من القبط (المقريزي، الخطط ج ٢ ص ٥٨) ، ويؤكد ابن خلدون ان العرب « استخدموا النواتية في حاجاتهم البحرية أمما » ، اي انهم اعتمدوا على ابناء الامم التي خضعت لسلطانهم وكانوا خبراء بشؤون البحر وثقافته (ابن خلدون ، المقدمة ، ج٢ ص ٦٢٨ — سعاد ماهر ، البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٧٢) . وكانت مصر من اولى البلاد التي اعتمد العرب على اهلها في شؤون الملاحة ، وتكشف البرديات عن عدد كبير من الصناع المصريين ، كالنجارين والعمال المهرة والقلفطين وقصارى الاقمشة ممن كانوا يشتغلون في دار الصنعة بالاسكندرية (فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٢٤٤)

وعظم على عبد الملك ذلك، وعز عليه ـ وكان رجلا مجاهدا شارك في فتوح افريقية في حملة معاوية بن حديج ـ أن يتعرض المسلمون لهذة الاخطار المتواصلة ، فعمل على تحقيق رغبة حسان ، ونصحه اثنان من الصحابة هما أنس بن مالك وزيد بن ثابت بامداد هذه البلاد ونصرة أهلها ، وبيّنا له فضل المرابطة فيها ، فكتب عبدالله الى أخيه عبد العزيز بمصر أن « يوجه الى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده [1] ، وأن يحملهم من مصر ، ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش وهي تونس ، وكتب الى ابن النعمان يأمره ان يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر ، وأن يجعل على البربر جر الخشب لانشاء المراكب ، ليكون ذلك جاريا عليهم الى آخر الدهر ، وان يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر ، وأن يغار منها على ساحل الروم [2] » • فوفد القبط عليه وهو مرابط في تونس ، فجعل معظمهم في رادس ، ووزع الباقين في مراسى افريقية ، ثم أجرى البحر من رادس الى موضع دار الصناعة ، واستقدم البربر الأخشاب اللازمة لصناعة السفن ، وأمر القبط بعمارتها في الميناء المتصل بالبحيرة ، وأصبحت البحيرة متصلة بالبحر ، وتحولت تونس على هذا النحو الى قاعدة بحرية هامة ، لمهاجمة الجزر البيزنطية وفي مقدمتها صقلية وسردانية ، وميناء رئيسية تأوى اليها السفن في فصل الشتاء وتحتمي في مرساها عندما تهب العواصف والأنواء ، ودار صناعة تنتج للمسلمين السفن والآلات • وقدر لهذه المدينة أن تصبح أعظم ثغور افريقية بعد ذلك بثلاثين عاما على يدي عبيد الله بن الحبحاب (١١٦ ـ ١٢٢ هـ) ، وثغرا للجهاد البحري والغزو •

---

(١) ذكر التجاني ان عبد الملك امر عبد العزيز بان يوجه الى حسان الف قبطي والف قبطية يستعين بهم (التجاني ، الرحلة ، ص ٦)

(٢) البكري ، ص ٣٨ ـ التجاني ص ٥ ـ ابن ابي دينار ص ١١

ويذكر بعض المؤرخين أن موسى بن نصير هو الذي خرق البحر الى تونس ، وأنه هو الذي بنى دار الصناعة وصنع بها مائة مركب غزا بهـا صقلية الغزوة المعروفة بالأشراف ، وان هـذة الغزوه كانت اولى الغزوات في بحر افريقية [1] . وقد فندنا فيما سبق هذا الرأي ، ورجحنا أن موسى بن نصير انما أكمل انشاء دار الصناعة بتونس أو أضاف اليها ووسعها لتزيد في الانتاج ، وأشرف على انشاء عدد من السفن أسهمت في غزوة الأشراف المذكورة .

---

(١) ابن ابي دينار ، ص ١٢ ، ٣٠ .

(٤)

غزوات العرب في بحر تونس في العصر الاموي

بعد أن أصبح لتونس اسطولها الخاص ، اتجه موسى بن نصير الى اصطناع سياسة بحرية من أهدافهـا السيطرة على جزر البحر المتوسط الغربي وعلى رأسها صقلية، واتخاذها قواعد بحرية امامية تحمي السواحل الافريقية وتنطلق منها الغزوات المنتظمة على الأندلس وغالة . وقد طبق موسى بن نصير ومن خلفه من ولاة افريقية سياسة تقـوم على الضغط المتواصل على الروم في صقلية ، بحيث لم يترك لأساطيلهم فرصة للتفوق البحري [1] . وأول الغزوات العربية في بحر افريقية غزوة الأشراف التي غزوا فيها عبدالله بن موسى صقلية [2] ، وفي نفس الوقت تقريبا أغزى عبد الملك بن مروان عبد الملك بن قطين في البحر ففتح ما كان هناك من الجزائر والقصور وخربها ، ومن بينها جزيرة قوصرة (بنطلارية) الواقعة بين صقلية وساحل افريقية [3] . ثم عقد موسى لعياش بن أخيـل [4] على سفن افريقية ، فشتا في البحر ، وغـزا جزيرة صقلية ، وأصـاب سرقوسة ، فقاتل أهلها ، وقفل في سنة ٨٦ هـ [5] . كذلك عقد موسى

---

(١) Cheira, p. 238

(٢) ابن ابي دينار ، ص ١٢

(٣) البكري ، ص ٤١٥ ـ حسن حسني عبد الوهاب ، قصة جزيرة قوصرة ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني ، عدد ٢ ، اكتوبر ١٩٤٩ ص ٥٩

(٤) وقيل عباس بن اجيل، وعياش بن شراحيل (الضبي ، ص ١٧١ ، ٤١٩) . وقد ولي عياش البحر زمن بني امية ودخل الاندلس في حملة موسى بن نصير ، ثم قدم بالسفن الى افريقية في سنة ١٠٠هـ

(٥) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ص ٧٥ ـ ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٦ ـ الخلاصة النقية ، ص ١٢

ابن نصير لعبد الله بن مرة على بحر افريقية في سنة ٨٩ هـ ، فغزا سردانية، وافتتح مدنها وغنم غنائم كثيرة [١] ، وقيل فتحت في سنة ٩٢ هـ بعد فتح الأندلس [٢] ، فدخلها المسلمون ، وغنموا غنائم هائلة ، شحنوا بها سفنهم ، وعند عودتهم تعرضت سفنهم للغرق بسبب ثقل ما شحنوها به من آلات وأواني الذهب والفضة التي غنموها [٣] .

وفي سنة ٩٣ هـ ولى محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري بحر افريقية، وكان غازيا بصقلية في الوقت الذي قتل فيه عامل افريقية يزيد بن أبي مسلم [٤] ، وذكروا ان ابن أوس غزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير ، كما تولى على بحر تونس في سنة ١٠٢ هـ [٥] .

وفي ولاية موسى أيضا افتتح ولده عبدالله جزيرة ميورقة سنة ٨٩ هـ [٦] ، وقد خلط كل من الذهبي وابي المحاسن بين هذه الغزوة وغزوة الأشراف التي قام بها عبدالله بن موسى. أما قصة استعانة طارق ابن زياد بسفن يليان ، صاحب سبتة، الأربعة [٧] ، أو سفن التجار التي كانت تختلف بين ساحل طنجة وجبل طارق حتى لا يشعر الناس بحركة الغزو [٨] ، فأمر بعيد عن الحقيقة ، فمن المعروف ان دار الصناعة بتونس كانت تنتج سفنا اشتركت كما رأينا في كثير من الغزوات البحرية

(١) ابن قتيبة ، ص ٧٥

(٢) ابن الاثير ، ج٤ ص ١٢٤ — ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ص ٢٢٥ — ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ص ٢٠٩ — الذهبي ، ج٣ ص ٢٢٥ — ابو المحاسن ، ج١ ص ٢٢٥

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٨٢ — النويري ، ج ٢٢ ، ص ٨٢ ، ٨٣

(٤) اتحاف اهل الزمان ، ص ٨٩

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢٨٩ — الحميدي ، ص ٤٢ — الضبي ، ص ٥١ — المقري ، ج ٤ ص ٥٨

(٦) ابن سعيد المغربي ، المغرب ج ١ ص ٢٦٦ — الذهبي ، ج ٢ ص ٢٣٩ — ابو المحاسن ، ج ١ ص ٢١٦ .

(٧) اخبار مجموعة ، ص ٦

(٨) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٨

ضد الروم ، فمن الطبيعي اذن ألا يغامر موسى بن نصير بجيشه لينقله الى الأندلس بسفن أربعة « لا صناعة له غيرها » [١] تنقل فوجا بعد فوج ، وتختلف على هذا النحو بين ساحلي المجاز مرات عديدة قد تستغرق لنقل كل جيش طارق ومعداته اكثر من يومين حتى توافت جموع المسلمين عند الجبل الذي عرف فيها بعد بجبل طارق [٢] . واذا كانت هذه السفن حقا ملكا ليليان فكيف يجوزلطارق ان يقوم بحرقها بقصد حث رجاله على الاستبسال في القتال ، فيقاتلوا قتال الموت ، ولا يفكر أحدهم في الفرار اعتمادا على وجود السفن ؟ ولسنا نصدق ان طارق يقدم على مثل هذا العمل الذي يدل على جهل بالقيادة ، لأنه بذلك يقطع على نفسه خط الرجعة ،واذا افترضنا أنه أحرق السفن الأربعة ، فما الفارق بين أن يتركها راسية وبين ان يحرقها في حالة انهزامه ؟ اذ ليس من المعقول ان يتدافع جنده في تلك الحالة ليركبوا هذه السفن الأربعة التي لا تتسع لحمل عشر الجيش اذا اعتبرنا انكل مركب منها كانت تتسع لما يقرب من مائتي رجل . ونعتقد ان سفنا عديدة لا يقل عددها عن ٣٥ سفينة بالاضافة الى مراكب اخرى لنقل المعدات والأقوات قد استخدمت في عملية النزول بالأندلس ، وأن طارق فيما يظهر أخرق بعض هذه السفن حتى يدفع الحماس في جنوده فيوطنوا أنفسهم على الاستشهاد او الفتح ، فحذف النساخ النقطة من الخاء ، وخرق السفن يختلف كثيرا عن حرقها لأن الخرق من الممكن مداواته وعلاجه عند الضرورة وقد يكون ذلك هو المقصود . ويبدو ان موسى بن نصير منذ وجه طارقا لوجهته ، أمر بصناعة مزيد من السفن لنقل دفعة جديدة من

---

(١) المقري ، ج ١ ص ٢٢٨

(٢) ابن الكردبوس ، تاريخ الاندلس ، تحقيق الدكتور مختار العبادي ، صحيفة المعهد المصري بمدريد ١٩٦٥ ، مجلد ١٣ ص ٤٥ ، ٤٦

الجند عدتها خمسة آلاف مددا لطارق ، فصنع فيها عدة كثيرة [١] ، كذلك نعتقد ان دار الصناعة بتونس أنتجت عددا آخر من السفن استخدمها موسى بن نصير في حملته على الأندلس في سنة ٩٣ ، وهي حملة أضخم بكثير من حملة طارق اذ كان جيشه يتألف في هذة المرة من ١٨ الفا من العرب ووجوه الناس [٢] .

وتابع ولاة المغرب بعد موسى بن نصير سياسة الغزو البحري التماسا للجهاد ضد البيزنطيين ، فقد غزا اسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر أمير افريقية بحر افريقية (١٠٠ هـ — ١٠١ هـ) مع أبي عقيل زهرة بن معبد بن عبدالله التيمي ، وأبي عبد الرحمن الحبلي [٣] . واشترك محمد بن يزيد القرشي في غزوة صقلية سنة ١٠٢ هـ [٤] . وفي سنتي ١٠٣ هـ ، ١٠٦ هـ غزيت جزيرة سردانية في البحر ، في حين هوجمت صقلية سنة ١٠٨ هـ في غزوة قام بها قثم بن عوانة . وفي سنة ١٠٩ هـ غزا بشر بن صفوان صقلية بنفسه ، فأصاب بها سبيا كثيرا [٥] . ولما ولي عبيدة بن عبد الرحمن السلمي امارة افريقية في سنة ١١٠ هـ ، بعث المستنير بن الحارث الحريثي غازيا الى صقلية في سنة ١١٣ هـ ، فقضي المستنير فصل الشتاء مجاهدا في صقلية ، وعند قفوله من غزوته ثار البحر ، فغرقت سفنه بمن فيها من المسلمين ، ولم ينج الا المستنير في مركبه الذي قذفته الرياح الى ساحل طرابلس ، وبلغ ذلك عبيدة ، فأمر

---

(١) المقري ، ج ١ ص ٢٤١

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ٩٤

(٣) المالكي ، ص ٩٠

(٤) ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٨٢ — ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٠٢ — السلاوي، ج١ ص ١٠٢

(٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٨ — ابن الاثير ، ج ٤ ص ٢٠١ — الخلاصة النقية، ص ١٣

يزيد بن مسلم الكندي عامله بطرابلس بالقبض عليه ، وشـد وثاقه ، وارساله اليه بالقيروان ، ففعل ذلك ، فلما وصل الى القيروان أمر بـه عبيدة فجلد ، وطيف به في المدينة على أتان ، ثم القي به في السجن ، فظل به حتى أفرج عنه الوالي الجديد عبيد الله بن الحبحاب في سنة ١١٤ هـ ، وولاه تونس [١] . وذكر ابن عبد الحكم ان عبيدة انتقم من المستنير لأنه « اقـام بأرض الروم حتى نزل عليه الشتاء واشتدت امـواج البحر وعواصفه » [٢] ، ومن المعروف ان تجهيز الأساطيل للغزو كان يبدأ عندما يصحو الجو في شهر أبريل، وتنتهي الغزوات في أول أكتوبر من كل سنة، ولا يمكن ان يطول لبث السفن في البحر خلال فصل الشتاء ، وهـو الفصل الذي ينغلق فيه البحر [٣] .

وفي سنة ١١٦ هـ أغزى ابن الحبحاب حبيبا بن أبي عبدة بن عقبة نافع الى صقلية، وفيهذه الغزوة اشتبكت سفن المسلمين معسفن الروم في قتال عنيف انتهى بهزيمة الروم [٤] . كذلك أغزاه في البحر في سنة ١١٧ الى جزيرة سردانية ، فغنم المسلمون غنائم هائلة [٥] ، ثم أغزاه في سنـة ١١٨ هـ الى جزيرة قوصرة ، وأغزاه للمرة الثانية الى جزيرة صقلية في سنة ١٢٢ هـ ، فاصطحب معه حبيب بن ابي عبدة ولده عبد الرحمن ، فلما نزل بأرضها اشتبك ابنه عبد الرحمن في جماعة من فرسان المسلمين مـع الروم وهزمهم ، ونزل على مدينة سرقوسة ، فقاتله الروم ، ولكنه انتصر عليهم ، فصالحوه على الجزية ، وعاد عبد الرحمن الى القاعدة التي استقر بها جيشأبيه حبيب ، وكان حبيب قد عزم على المقـام بصقلية حتى

---

(١) ابن الاثير ، ج ٤ ص ٢١٥
(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٩٢ — ابن ابي دينار ، ص ٣٥
(٣) Cheira, p. 93
(٤) ابن الاثير ، ج ٤ ص ٢١٩
(٥) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٢٢

يستكمل افتتاحها ، فأتاه كتاب ابن الحبحاب يستدعيه الى افريقية عندما بلغه وثوب البربر في طنجة بعامله عمر بن عبدالله المرادي واشعالهم نار الثورة في المغرب الأقصى [١] .

وفيسنة ١٣٠ هـ تم للمسلمين فتحجزيرة قوصرة فيولاية عبد الرحمن ابن حبيب الفهري ، وفي سنة ١٣٥ هـ غزا عبد الرحمن الفهري صقلية وسردانية فسبى منهما وغنم ، وصالح أهل سردانية على الجزية [٢] .

ثم غلبت الخارجية على المغرب بعد انقراض دولة عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وأصبح المغرب الاسلامي في قبضة الاباضية والصفرية ، وأصاب الخمول قاعدة افريقية البحرية ، وتوقفت غارات المسلمين في بحر المغرب فترة دامت ما يقرب من نصف قرن، استعادت بيزنطة خلالها سيادتها في البحر المتوسط [٣] . وقد ساعد على خمول النشاط البحري في المشرق والمغرب انصراف الدولة العباسية عن شؤون البحر المتوسط وعكوفها على مشاكلها الداخلية في آسيا ، واذا كانت البحرية الاسلامية قد نشطت في القسم الغربي من البحر المتوسط في طليعة القرن الثالث الهجري، ونجح المسلمون في المغرب والاندلس في الاستيلاء على جزيرتي اقريطش وصقلية ، فانه مما لا شك فيه ان الفضل فيما احرزه المسلمون من تفوق بحري في هذا القرن يعود الى المغاربة والأندلسيين [٤] .

وفي خلال فترة الخمول البحري التي امتدت من ١٣٥ هـ الى ١٨٥ تقريبا قنع المسلمون بنظام الرباطات او المناور المقامة على السواحل

---

(١) ابن الاثير ، ج ٤ ص ٢٢٢ — ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٢
(٢) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٢٤٥ — ابن عذاري ج١ ص ٧٢ — اتحاف اهل الزمان ، ص٩٢
(٣) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٤٠
(٤) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ١٣٢ ، وما يليها

التونسية ، كالشأن في رباطات فلسطين التي وصفها كل من البلاذري والمقدسي . وقد اقترنت نشأة الرباطات في المغرب بعصر الفتوح ذلك لان المغرب الاسلامي كان ارض جهاد [١] ، وكان ساحله كله معرضا للغارات البحرية المفاجئة التي يوجهها البيزنطيون منقواعدهم في صقلية وسردانية وجنوبي ايطاليا على السواحل التونسية ، ولذلك اعتبره المسلمون « ثغرا يعد الرباط فيه جهادا في سبيل الله وقربة اليه » [٢] . وكانت سواحل افريقية اكثر سواحل المغرب تعرضا لأخطار الغزو البحري البيزنطي ، وعلى هذا النحو نشأت الأربطة والمحارس او المناور على طول ساحل افريقية وبرقة منذ عصر مبكر ، فأقيمت في طرابلس الغرب وما يليها غربا، وفي سفاقس وسوسة والمنستير . ومن المعروف ان هرثمة بن أعين والي افريقية من قبل الرشيد زودالمنستير بالقصرالكبير في سنة ١٨٠ [٣] هـ . ثم كان الخوف من غارات الروم على السواحل التونسية ، والاستعداد الدائم للجهاد ضد الروم في صقلية حافزا على زيادة اهتمام الأغالبة بتحصين هذه السواحل بالرباطات والمحارس . وقد لعبت الرباطات دورا هاما في الحياة الدينية والحربية ببلاد افريقية ، وكان الرباط يزود عادة بمنار توقد فيه النار ليلا للنذير باقتراب سفن العدو . وعن طريق هذه الاشارة تستعد الحاميات المرابطة وتتأهب لملاقاة العدو برا وبحرا [٤] . وقد ساعدت الأربطة على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حياتهم للجهاد ضد الروم ، وكان الخروج لمدافعة الروم في صقلية وجزر البحر المتوسط غاية ما يشتهيه العابدون المرابطون ، ولا شك أن اختيار زيادة

---

(١) محمد توفيق بلبع ، نشأة الرباط وتطوره واهمية المرابطة في تاريخ المسلمين ، مقال في دراسات اثرية وتاريخية ، من مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ، عدد ٢ ، ١٩٦٨ ص ٤١

(٢) حسين مؤنس ، مقدمة كتاب رياض النفوس ، ص ٢٥ م

(٣) ابن الاثير ، ج ٥ ص ٩٦ — ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٩ — ابن الخطيب ، الجزء الثالث ، ص ١١

(٤) المغرب الكبير ، ص ٤٤٩ — مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ص ٣٠١ — محمد توفيق بلبع ، نشأة الرباط ، ص ٥٤

الله بن الأغلب امير افريقية للقاضي أسد بن الفرات ، مصنف الأسدية في الفقه على مذهب مالك ، قائدا للحملة البحرية على صقلية في سنة ٢١٢ هـ يعبر أصدق تعبير عن روح الجهاد السائدة [١] . ومن أقدم أربطة افريقية رباط المنستير الواقع بين سوسة والمهدية ، وكان في الأصل رباطا أو قصرا يرابط فيه المسلمون لحماية ثغور افريقية من غارات الروم ، ثم أضيف اليه في أيام هرثمة بن أعين قصرا انتجعه الناس ، وبنوا بيوتهم حوله ، وأقيم بالقرب من المنستير محارس خمسة كانت معمورة جميعا بالصالحين [٢] . وكان يقوم بين رباط المنستير والمهدية رباط يعرف باسم شقانص يقع على حافة البحر [٣] . ومن تونس انتقل نظام الرباط الى سواحل المغرب والأندلس وصقلية. وقد اهتم الامويون في الأندلس منذ سنة ٢٣٠ هـ بنظام الرباطات والطلائع ، فأقاموا الكثير منها على طول الساحل الشرقي والجنوبي الشرقي من الأندلس لمواجهة غارات النورمان ، ومن أهم هذه الرباطات الأندلسية رباط المرية الذي أنشيء عند رأس قبطة بني أسود Cap de Gata ، على حاشية البحر [٤] قريبا من قرية البجانس الواقعة في نهاية جون المرية . وكان هذا الرباط او الرابطة مزودا ببرج من الحجارة خصص لوقيد النار عند ظهور العدو في البحر على مسافة تصل الى ستة أميال [٥] ، ومنها أيضا رباط كان مقاما عند الزقاق ، هو رباط النوبة الواقع تجاه مدينة ولبة قريبا من مصب نهر تنتو ، في نفس الموضع الذي يقوم عليه اليوم دير الرابطة المشهور [٦] .

وفي المغرب الأدنى كانت سفاقس وما يليها من سواحل محصنه

(١) المغرب الكبير ، ص ٣٨٦
(٢) البكري ، ص ٣٦
(٣) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٧٤
(٤) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٩٨
(٥) نفس المصدر
(٦) الحميري ، الروض المعطار ، ص ٦٤ — Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, Paris, 1953, p. 112.

بسلسلة من الأربطة والمحارس ، نخص بالذكر منها محرس بطوية الذي كان مزودا بمنار مفرط الارتفاع يرقى اليه في ١٦٦ درجة ، ومنها محرس حبلة ، ومحرس أبي الغصن ، ومحرس مقدمـان ، ومحرس اللوزة ، ومحرس الريحانة [١]. وقد استمر الاقبال على تأسيس الأربطة في بـلاد المغرب في عصر الاغالبة [٢] ، والاندلس في عصر بني أمية ، وعمت حركة المرابطة حتى شغلت روح الرباط قبائل بأسرها للجهـاد في العصـور التالية . وقد بلغ عدد اربطة سبتة وزواياها في القرن التاسع الهجري نحوا من سبع وأربعين ما بين زاوية ورابطة محاذية للبحر مـن جانبي الشمال والجنوب ، بينما بلغ عدد المحارس ثمانية عشر محرسا تمتد من سبتة الى اثني عشر ميلا من خارجها من جهة البحرين وما وراء ذلك الى بلاد الريف وطنجة ، بخلاف الناظور او الطالع الكبير الواقع على جبـل مينائها والذي بناه المرابطون هنالك [٣] . وفي كتاب المسند الصحيح لابن مرزوق ان أبا الحسن المريني أقام من المحارس والمناظر على السواحل المغربية ما لم يعهد مثله في عصر من العصور ، وليس أدل على ذلك من انه كان يتوزع على الساحل محارس ومناظر من مدينة آسفي الواقعة على المحيط الى جزائر بني مزغنة من المغرب الأوسط « اذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة ، وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين ، وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار

---

(١) البكرى ، ص ٢٠

(٢) وذكروا ان محمد بن احمد بن الاغلب (ت ٢٦١ هـ) بني الحصون والمحارس على سواحل البحر حتى كانت النار توقد من سبتة فيصل الخبر الى الاسكندرية في ليلة واحدة (ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢١٠ ،
Torres Balbas, Ràbitas hispanomusulmanas, al-Andalus, vol. XIII 1948, PP. 475-491.)

(٣) اختصار الاخبار لمحمد بن القاسم بن محمد بن محمد الانصاري السبتي ، نشره ليفي بروفنسال ، في مجلة Hespéris ، ج ١٢ ، كراسة ٢، سنة ١٩٢١، ص١٥٥،١٥٦

وطلاع يكتشفون البحر ، فـلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بـلاد المسلمين الا والتنبير يبدو في المحارس يتحذر أهل كل ساحل من السواحل ساحلهم » [١] .

(١) الخطيب ابن مرزوق ، نخب من كتاب المسند الصحيح في مآثر مولانا ابي الحسن ، نشره ليفي بروفنسال في مجلة Hespéris ، العدد الاول سنة ١٩٢٥ ص ٣٠ وما يليها.

الفصل الثاني

عوامل تفوق البحرية المغربية الاندلسية في القرنين الثالث والرابع للهجرة.

أولا ـ امتداد السواحل المغربية والأندلسية وكثرة المراسي

ثانيا ـ سيطرة المسلمين على الجزر الواقعة أمام الساحل المغربي الأندلسي

ثالثا ـ توافر المواد اللازمة لصناعة السفن

رابعا ـ اتصال المغرب والأندلس بالمشرق الاسلامي علميا واقتصاديا

الفَصْل الثّاني

عوامل تفوق البحرية المغربية الاندلسية في القرنين الثالث والرابع للهجرة

منذ نهاية القرن الثاني للهجرة أخذت بيزنطة تهمل شأن قواتها البحرية مجارية في ذلك المسلمين الذين انصرفوا عن البحر منذ قيام الدولة العباسية التي اتبعت سياسة شرقية ، ونفضت يدها من مشاكل البحر المتوسط ، غير أن المغرب الاسلامي بعد انفصاله عن العباسيين في الثلث الأخير من القرن الثاني الهجري لم يحذ حذوهم ، بل أخذ يتجه اتجاها بحريا ، ولم يلبث مسلمو المغرب والأندلس أن استغلوا لمصلحتهم الاضطرابات التي واجهت البيزنطيين في الداخل وانشغال هؤلاء بمحاربة البلغار في عهد ليون الخامس ، وباخماد ثورة توماس التي قامت في أعقاب مصرع ليون الخامس في ٢٥ ديسمبر سنة ٨٢٠ م (٢٠٥ هـ) واستمرت السنين الثلاث الأولى من عصر الامبراطور البيزنطي ميشيل الثاني (٨٢١ ــ ٨٢٣) والتى كان لها خطورتها الواضحة من النواحي الاجتماعية والدينية والسياسية [1] . وهكذا تغير الموقف في حوض البحر المتوسط الغربي والأوسط ، وآلت السيادة البحرية الى المسلمين . ويرجع الفضل في التفوق البحري الذي أحرزه المغرب الاسلامي على البيزنطيين الى العوامل الآتية :

اولاً : امتداد السواحل المغربية والاندلسية وكثرة المراسي :

حبت الطبيعة بلاد المغرب عامة وافريقية بوجه خاص بالمقومات الاساسية لقيامها بدور بحري هام ، فان شكل الساحل التونسي، ووضع

---

(1) Vasiliev, Byzance et les Arabes, t.I, la Dynastie d'Amorium Bruxelles, 1935, pp. 22 Sqq ـ والترجمة العربية ص ٢٨

البلاد الجغرافي .وامتداد سواحلها على مسافه تصل الى نحو ١٤٠٠ كم، متصلة في الشرق بسواحل ليبيا التي تستد بدورها مسافة تصل الى ١٩٠٠ كم تقريبا [١] ، وبسواحل المغربين الأوسط والأقصى حتى المحيط الأطلسي في شريط طويل، وكثرة خلجانها وجزرها البحرية الحامية للسواحل ، بالاضافة الى موقعها المركزي في حوض البحر المتوسط ، حتم عليها القيام بهذا الدور ، وتقرير مصيرها البحري في ثقة تامة [٢] . وقد ادرك الفينيقيون هذه الخصائص والمزايا التي تتمتع بها البلاد التونسية لأنهم كانوا شعبا من الملاحين والتجار بطبيعتهم ، كما بنى الوندال سياستهم البحرية على هذا الأساس [٣] . وقد لاحظ ابن خلدون أهمية هذا الامتداد الساحلي لافريقية والمغرب وأثره الكبير في مهارة المغاربة في خوض مياه البحر وفي قدرتهم على ركوبه فقال : «والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار . فقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي ، وكانت اكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن ، فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في اساطيله . ولما أسف من اسف منهم الى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم الى افريقية والقوط الى المغرب أجازوا في الأساطيل وملكوها ، وتغلبوا على البربر بها ، وانتزعوا من أيديهم أمرها . وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولاء ومرناق وشرشال وطنجة . وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة، ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد، فكانت هذه عادة لأهل البحر الساكنين حفافيه ، معروفه في القديم

(١) مصطفى عبدالله بعيو ، دراسات في التاريخ اللوبي ، الاسكندرية ١٩٥٣ ، ص ١١.

(٢) Brunschvig (R.) : La Berberie Orientale sous les Hafsides t. II, Paris 1940, p. 94 - Pellegrin, Histoire de la Tunisie, 1948 p. 19

(٣) المغرب الكبير، ص ٣٢

والحديث »[١] . ويصف ابن خلدون وظيفة قيادة الأساطيل في المغرب بأنها « من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وافريقية ... ويسمى صاحبها في عرفهم الملند بتفخيم اللام منقولا من لغة الافرنجة ، فانه اسمها في اصطلاح لغتهم ، وانما اختصت هذه الرتبة بملك افريقية والمغرب لأنهما جميعا على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب »[٢] . ويفسر الأستاذ روبير برنشفج كلمة الملند بأنها قد تكون مشتقة من القطلانية الميرانت التي اشتقت بدورها من العربية أمير البحر[٣] .

وقد أثر امتداد الساحل التونسي على شكل شريط ساحلي طويل يتصل بسواحل طرابلس وبرقة ولوبيا ومصر من جهة الشرق ، وبسواحل المغربين الأوسط والأقصى حتى المحيط الاطلسي من جهة الغرب ، في الحياة الاجتماعية لسكانه ، فكانوا يتميزون بنشاطهم البحري الذي لم يكن يتضح الا في الاوقات التي يقطع فيها المغرب صلته السياسية بغيره ، ويتحرر من التبعية للخلافتين الأموية والعباسية[٤] . فيمارسون هذا النشاط بهمة لا يباريهم فيها الا الشعوب المطلة على حوض البحر المتوسط من الجهة الشمالية ، وقد بلغ هذا النشاط الذروة في القرن الثالث باحتلالهم صقلية واقريطش ومالطة وقورشقة وسردانية وجنوبي ايطاليا . ومن الملاحظ بالنسبة للبلاد اللوبية أن خليج سرت الممتد ما بين الرأس البارز لشبه جزيرة برقة حتى مدينة سوسة في افريقية كان له أعظم الأثر في الاقتصاد اللوبي ، اذ أصبحت موانيها أقرب المنافذ لحاصلات افريقيا دون بقية الموانىء المغربية الأخرى ، وبذلك قصرت طرق الوصول الى تجارة أواسط افريقيا في مواطنها الأصلية[٥] ، ومن المعروف أن حاصلات

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٧
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ج٢ ص ٦٢٦
(٣) Brunschvig, t. II, p. 94, note 3
(٤) فتحي عثمان ، ج٢ ص ١٨٩ ، ٢٤٨
(٥) مصطفى بعيو ، ص ١١٣

السودان كانت تصل الى مرافىء برقة وإلى طرابلس عن طريق أوجلة ومدينة كوار . وقد استغل الفينيقيون في العصر القديم هذه الظاهرة فأقاموا على سواحل ليبيا محطات تجارية ممثلة في أويا (طرابلس) ولبدة وصبراته . وتعتبر طرابلس من أهم قواعد الأساطيل المغربية في العصر الاسلامي ، فكانت مركزا لغارات الأسطول الاغلبي على جزيرة مالطة التي افتتحها الأغالبة في سنة ٢٥٥ هـ . وكانت في العصر الفاطمي دار صناعة للأسطول الفاطمي ، فازدادت أهميتها العسكرية عندما اتخذت قاعدة من قواعد أسطول صقلية [١] . وظهر من أهل طرابلس بحريون مهرة شغلوا مناصب كبيرة في البحرية الفاطمية ، من بينهم ابن وسيم الاطرابلسي [٢] . وفي أيام المعز بن باديس الزيري انشأ خليفة بن وروا بطرابلس أسطولا كان له أثر كبير في تدعيم بحريتها ، بحيث أصبحت طرابلس قوة بحرية يخشى الزيريون بأسها [٣] .

أما الأندلس فشبه جزيرة ، سواحلها يدور بهاالبحر المتوسط من الجهتين الشرقية والجنوبية الشرقية والمحيط الأطلسي من الجهات الجنوبية الغربية والغربية والشمالية الغربية . ولقد تعرضت سواحل الأندلس على الاقل في المنطقة الساحلية الممتدة جنوبا من مصب وادي ابرة عند طرطوشة ثم شمالا حتى مصب وادي تاجه عند أشبونة في الغرب في القرنين الثالث والرابع لغارات قوى الأعداء [٤] ، فكانت الأندلس لذلك «دار جهاد وموطن رباط ، وقد أحاط بشرقيها وشماليها

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فترة حاسمة في تاريخ المغرب ، مجلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية ، المجلد الاول ، بنغاري ، ١٩٥٨ ص ١٨

(٢) نفس المرجع ، ص ١٦

(٣) نفسه ، ص ٢٤

(٤) Lévi - Provençal, Histoire t. III, p. 109

ويعطى غربيها أصناف أهل الكفر » (١) . وهكـذا نشأت الأربطة علـى سواحل الاندلس ، وأهمها قاعدة مرية بجانة الواقعة في الجنوب الشرقي من الأندلس ، موضع الاحتكاك مع أمم النصرانيـة ، اتخـذها العرب «رباطا . وابتنيت فيها محارس ، وكان الناس ينتجعونها ويرابطون فيها ولا عمارة فيها يومئذ ولا سكنى» (٢) . واسم المرية في حد ذاته مشتق من وظيفتها أو من الغرض الذي أقيمت من أجله ، اذ كانت تتخذ في الأصل مرأى (٣) ، ومحرسا بحريا لمدينة بجانة القريبة منها ، والتي لا تبعد عنها بأكثر من ستة أميال شمالا (٤) . وكان لا بد لأهل السواحل ، بحكـم احتكاكهم بالبحر وبحكم عزلة بلادهم عن بقية أقطار العالم الاسلامي ، واحاطة الأعداء بهم خاصة من الجهة الشمالية الشرقية ، الى انتهاج سياسة بحرية ، فالأندلسيون لذلك هم وأهل صقلية أخبر الناس بالبحر المتوسط وبحدوده وخلجانه لأنهم «يسافرون فيه ويغزون من هو يليهم ، وفيـه طرقهم الى مصر والشام» (٥) . وعمد أمراء بني أمية الـى توطين بعض الأسرات العربية على الساحل الجنوبي الشرقي لحمايته من الغارات التي يشنها النورمان أو القطلانيون أو البيشيون أو البنادقة ردا على غارات المسلمين على السواحل الايطالية ، فأنزلوا جماعة من عرب اليمن وهـم بنو سراج القضاعيون على ساحل بجاية ، ووكلوا اليهم «حراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل»(٦)، فعرف الاقليم لذلك باسم أرش اليمن . ثم نزل مرية بجانة في سنة ٢٧١ هـ جماعة من البحريين الأندلسيين الذين كانوا يترددون بسفنهم فيما بين الساحل الجنوبي الشرقي من الأندلس

(١) الحميري ، ص ٢

(٢) العذري (ابن الدلائي) نصوص ، عن الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك الى جميع الممالك ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الاهواني ، مدريد ١٩٦٥ ص ٨٦

(٣) الحميري ،ص ١٨٣ (٤) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٢٠٠

(٥) المقدسي ، احسن التقاسيم لمعرفة الاقاليم ، ص ١٥

(٦) الحميري، ٣٧

وساحل تنس بالمغرب الأوسط ، وكان بعضهم من المولدين أو المعاهدة [١]، وقد توسع هؤلاء البحريون في الاختطاط بأرض بجانة في امارة عبدالله ، فاتخذوا بها عشرين حصنا منها حصن الحامة والخابية وبرشانة وعاليه وبني طارق وناشر [٢] .

ومما لا شك فيه أن امتداد السواحل كان سببا في تعدد المراسي ، ونشأة قواعد بحرية للحط والاقلاع في الخلجان والأجوان التي تنكسر فيها السواحل نحو الداخل ، فتساعد السفن على الارساء بعيدا عن تيارات البحر وأنوائه . ومن أهم مراسي افريقية مرسي تونس الذي يقع في وسط خليج خارج عن البحر على نحر بحيرة محتفرة [٣] ، وكان مرسى تونس يعرف باسم مرسى رادس [٤] ، ومنها مرسى سوسة الذي يقع على الساحل الى الجنوب الشرقي من تونس ، ومن سوسة فتح المسلمون جزيرة صقلية [٥] ، ومرسى المهدية وتقع شرقي سوسة على طرف داخل في البحر الذي يحيط بها، وكانت المهدية فرضة للقيروان تأتيها السفن من مصر والشام والأندلس وبلاد الروم [٦] . ومرسى صفاقس ويقع الى الشرق من المهدية ، وكان مرسى ميت المياه [٧] ، ومرسى قابس وكان مرفئا للسفن الصغيرة والمتوسطة التي كانت تدخل في واديها [٨] . وكان لمدينة بونة مرسى حسن تخرج منه الشواني غازية الى بلاد الروم وسردانية وقرشقة وما والاها [٩] . أما طرابلس الغرب فكان لها مرسى مأمون من

---

(١) Levi-Provençal, Histoire t. III, P. 109

(٢) ابن حيان ، المقتبس في تاريخ رجال الاندلس ، قطعة من عهد الامير عبدالله ، نشرها الاب ملشور انطونية باريس ، ١٩٣٧ ص ٥٣

(٣) الادريسي ، ص ١١١ ، ١١٢

(٤) البكري ، ص ٣٧

(٥) ابو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ١١٦

(٦) الادريسي ، ص ١٠٧ وما يليها .

(٧) الادريسي ، ص ١٠٧

(٨) نفسه ص ١٠٧ — تقويم البلدان ص ١١٢

(٩) البكري ، ص ٨٣

الرياح ، وكان ساحلها كثير الأربطة ، وأشهرها رباط مسجد الشعاب [١]، وكان لجيجل مرسيان أحدهما في جنوبها وهو مرسى صعب ، والثاني في الشمال وهو ساكن الحركة حسن الارساء ، ويسمى مرسى الشعراء ، وبالغرب من جيجل كان يقع مرسى القل [٢] .

ومن مراسي المغرب الأوسط : بجاية التي كان لها جون عميق يحميها، ويعبر منه بالمراكب اليها [٣]، ومرسى فروخ فرضة تاهرت، ومرسى الدجاج ، وكلاهما كان مأمونا لضيقه ، ومقصد الأساطيل الأندلسية بوجه خاص [٤] ، ومرسى وهران ومرسى هنين وكانا فرضتي تلمسان [٥] . وكان لوهران مرسي يقال له أرزاو ، كما كان لتلمسان فرضة تسمى ارسقول ، وأشهر مراسي المغرب الاوسط مرسي تنس التي أنشأها البحريون من أهل الأندلس [٦] .

ومن مراسي المغرب الأقصى : المزمه وهي فرضة مشهورة ببر العدوة ، ومرسى سبتة مورد بر العدوة وبر الأندلس ، ومفتاح باب المشرقين ، ومجمع البحرين ، ومرسى آنفا ، ومرسى مازيغين ومرسى آسفى [٧]، ومرسى فضالة الواقع بالقرب من سلا وكانت ترده المراكب من الأندلس [٨] .

ومن مراسي صقلية مسيني وطبرمين وقطانية وسرقوسة والبوالص

---

(١) البكري ، ص ٧
(٢) الادريسي ص ٩٧ ، ٩٨
(٣) العمري ، وصف افريقية والمغرب والاندلس ، تحقيق الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ١٩٠٦ ص ٦
(٤) البكري ص ٦٥ — الادريسي ص ٨٩
(٥) تقويم البلدان ص ٧
(٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٤
(٧) الادريسي ، ص ٧٣ ، ٧٤
(٨) نفس المصدر ، ص ٧١ ، ٧٢

وقرينس [١] . ومن مراسي قرشقة مرسى البوالص ومرسى الزيتونة [٢] ، ومن مراسي جربة البرج الكبير المعروف بالحصار، ومرسى آجيم، ومرسى الساقية ومرسى انرملة ومرسى التفاح [٣] . ومن مراسي ميورقة قطين [٤] ، ومن مراسي الأندلس : بنشكلة وبلنسية وشاطبة ولقنت وقرطاجنة الخلفاء مرسى مرسية [٥] ، ومرسى محسلة من عمل المرية ومرسى بزليانة من عمل مالقة [٦] ، ومرسى جبل طارق ومرسى الجزيرة الخضراء ومرسي سهيل من مالقة ، ومرسي المنكب ومرسي النبيرة الذي يلي البجانس المجاورة لمالقة ، ومرسي عذرة ومرسي بليسانة ومرسي شلوبنية ومرسى مرية بلش [٧] .

ثانياً : سيطرة المسلمين على الجزر الواقعة امام الساحل المغربي الاندلسي :

كان لاستيلاء المسلمين على جزيرتي قبرص ورودس أعظم الأثر في تدعيم البحرية الاسلامية في شرق البحر المتوسط ، فقد اتخذهما المسلمون قاعدتين هامتين ، وجهوا منهما الحملات على أملاك الدولة البيزنطية ، فقبرص تستمد أهميتها من موقعها الجغرافي في الزاوية الشمالية الشرقية من حوض البحر المتوسط ، وهو موقع يجعلها تتحكم بسهولة في مياه هذا القسم الشرقي من البحر بما يطل عليه من أقطار أوروبية وافريقية وأسيوية [٨] . أما رودس فقد اكتسبت أهميتها من قربها الشديد لسواحل البيزنطيين ، ولذلك اتخذها المسلمون قاعدة بحرية ثانية ، وأقام فيها معاوية حامية ثابتة ، ونظرا لقرب هذه الجزيرة من أراضي البيزنطيين زودها معاوية بأسطول مقيم على اتصال بالأساطيل

(١) نفسه ، ص ٢٧ — ٣٥
(٢) الحميري ، ص ١٧٧ ، حاشية ٢
(٣) محمد أبو راس الجربي ، ص ٧٥ — ٨٣
(٤) الضبي ، ص ٢٦؛
(٥) ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٧؛
(٦) المقتبس ، القسم الثاني (من عصر المستنصر) ص ٤٢
(٧) الادريسي ، ص ١٩٨
(٨) ابراهيم العدوى ، الاساطيل العربية، ص ٢١، ٢٢ — قوات البحرية العربية ، ص ٣٠

الاسلامية الأخرى بهدف شل حركات أساطيل العدو [١] .

أما النصف الغربي من حوض البحر المتوسط فكانت تكثر به الجزر المتوزعة في منتصفه تقريبا بين سيفيه الشمالي والجنوبي ، بحيث تؤلف لمن يسيطر عليها ستارة أمامية أو خطا دفاعيا أماميا يقيه هجمات الأعداء ، وفي نفس الوقت تعينه على توجيه الغارات على السواحل الجنوبية لايطاليا وفرنسا . فجزيرة صقلية بحكم موقعها بين الساحلين التونسي والايطالي كانت لها أهميتها العظمى في الصراع البحري بين قوى حوض البحر المتوسط الغربي باعتبارها مفتاحا للبحر المتوسط الأوسط والغربي ، ويعتبر فتحها على أيدي الأغالبة في طليعة القرن الثالث الهجري حدثا من الأحداث البارزة في تاريخ البحرية الاسلامية وتحولا خطيرا في السيادة على هذا القسم من البحر ، فمن طريقها عرف الأغالبة كيف يهددون الامارات الايطالية مثل امارة قلورية وأبوليا وأمالفي ونابل وجنوة وبيشة ، كما عرفوا كيف يسودون البحرين التيراني والأدرياتي .

وجزر البحر المتوسط الغربي متعددة ، فأكبرها صقلية ، ويليها سردانية وقرشقة وميورقة ومنورقة ويابسة ومالطة ، وأصغرها ألبة وبالوسة واسترنجلو وجزيرة البركان وجزيرة ليبر وجزيرة دندمة والطرفانية وأركوذة واشتقة والراهب وقوصرة ونبوشة وكمونة ومليطمة [٢] . ومن الجزر القريبة من قرشقة وجنوبي فرنسا قبريرة والبرة وشكلة ومونة وبونسة [٣] .

أما الجزر الواقعة تجاه الساحل التونسي فمنها : جزيرة قوصرة وتقع الى الشرق من جزيرة مليطمة [٤] . ويقابل المنستير في البحر جزيرة

---

(١) Cheira, p. 134

(٢) الادريسي (صفة البلاد الايطالية ، نشرة اماري ، رومة ١٨٧٨) ص ١٥

(٣) المكتبة الصقلية ص ٢١ ، ٢٢ (نص الادريسي)

(٤) الحميري ، الروض المعطار (منتخبات) نشرها الدكتور اومبرتو ريتزيتانو ، مجلة كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٨ ، ج ١ ، مايو ١٩٥٦ ص ١٧٢

قورية ، ويقابل قصر زياد وصفاقس في البحر جزيرة قرقنة [١] ، وتجـاه مرسي بجاية جزيرة جوبة ، وعلى مقربة من مرسي بنزرت بتونس جزيرة قبلارية وجزائر الكراث . وفي قبالة مرسى بونة جزيرتان ، احداهما تعرف بالجامور الكبير ، والأخرى بالجامور الصغير . وأمام رأس قبودية جزيرتان تسميان الزرقاء الكبيرة والصغيرة ، وبالقرب من المهدية جزيرتان كبيرتان تشق السفن طريقها بينهما [٢] ، وبازاء المهدية جزيرة تعرف بالأحاسي [٣] وبين قابس وصبرة في البحر تقع جزيرة جربة الشهيرة ، ويتصل بها في الشرق جزيرة صغيرة تسمى زيزو [٤] . ويقابل قابس جزيرة رازوا [٥] .

وفي المحيط الأطلسي غربي مدينة سلا سبع جزائر تعرف بالجزائـر الخالدات . وجزائر السعادة ، ويسميها البكري فرطناتش أي السعيـدة لكثرة فواكهها [٦] ، من بينها جزيرة مسفهان وجزيرة لغوس [٧] . أما جزائر البليار التي سبق أن ذكرناها فتعرف بالجزائر الشرقية لوقوعها الى شرق بلنسية ، وكانت بمثابة واجهة تحمي ساحل شرق الأندلس ، شأنها في ذلك شأن صقلية التي كانت تحمي ساحل افريقية [٨] ، وبالقرب من لقنت والى الغرب منها جزيرة أبلناصة ،وكانت مرسي حسنا ومكمنا لمراكب العـدو [٩] .

(١) الادريسي ، نزهة المشتاق ، طبعة ليدن ص ١٢٦ — ١٢٧
(٢) البكري ، ص ٨٢ — ٨٥
(٣) الحميري ، مقتبسات من الروض المعطار ، تحقيق ربتزيتانو ، ص ١٧٢
(٤) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٢٨
(٥) البكري ، ص ١٧
(٦) نفس المصدر ، ص ١٠٩
(٧) الادريسي ، ص ٢٨
(٨) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٢٦٠
(٩) الادريسي ، ص ١٩٣

ثالثاً — توافر المواد اللازمة لصناعة السفن :

كانت تتوافر في بلاد المغرب والأندلس وصقلية المواد الضرورية لصناعة الأساطيل ، كالخشب الصنوبري القوي الذي تصنع منه ألواح السفن والصواري والقرى والمجاذيف وخشب الطخش لصناعة القسي والسلاليم وبعض الرماح والتروس ، ومعدن الحديد اللازم لعمل المسامير والمراسي والروابط والخطاطيف أو الكلاليب والعرادات والفؤوس واللتوت والدبابيس والجواشن وغير ذلك من الآلات والاسلحة ، والنحاس الذي تصنع منه السلاسل ، والألياف لعمل حبال المراسي ، والقطران والزفت لقلفطة السفن حتى لا تؤثر المياه في ألواحها المغمورة في البحر ، والقطران والكبريت اللازمان لصناعة النفط البحري وهو نوع لا ينطفىء اذا سقط في الماء [١] ، والقطران والكتان اللازمان لصناعة النار الحارقة [٢] .

أما أخشاب السفن في الأندلس فكانت تجلب من أشجار الصنوبر الذي يعرف أيضا بالشبين [٣] ويكثر في طرطوشة [٤] ، وفي قصر أبي دانس [٥] ، وفي قادس [٦] ، وفي يابسة [٧] . وفي شلطيش [٨] ، وفي الجزر

(١) مرضي بن علي بن مرضي الطرطوسي ، تبصرة ارباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء ، نشرة الاستاذ كلود كاهن في مجلة Bulletin des Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas t. XII, ann. 1947-48, p. 123

(٢) الحميري ، ص ١٦٦

(٣) الضبي ، ص ٢٢٢

(٤) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٢٤ . ويذكر الحميري ان خشب الصنوبر بطرطوشة خشب احمر صافي البشرة لا يؤثر فيه السوس .

(٥) الادريسي ، ص ١٨١ — الحميري ، ص ١٦١

(٦) الحميري ، ص ١٤٥

(٧) الحميري ، ص ٩٨ — المقري ، ج ٦ ص ٢١٢

(٨) الحميري ، ص ١١١

الواقعة بازاء شنتمرية بالبرتغال [١] ، وفي شلب [٢] ، وفي قلصة (بجوار كونكة) . وفي هذه المدينة الأخيرة كان يقطع الخشب ، ويلقي في المـاء ويحمل الى دانية وبلنسية في البحر وذلك بتسييره في النهر من قلصة الى جزيرة شقر الى حصن قلبيرة ، حيث يفرغ هنالك ، فتوسق منها السفن الى دانية وبلنسية [٣] .

أما في صقلية فكانت الأخشاب اللازمة لصناعة السفن تتخذ مـن جفلوذ التي يتوفر بها أنضر أجناس العود[٤]، ومن جبال شنت ماركو[٥]. أما المغرب فغني بخشب الصنوبر والأرز والبلوط ، وتكثر هذه الأخشاب كلها في جبل درن المعروف بسنجنفوا [٦] ، أما الأرز وحده فيكثر في مدينة نكور [٧] . وفي أودية بجاية وجبالها خشب كثير تصنع منه الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي [٨] ، وفي جبال بني يزغة (بالقرب من فاس) خشب جيد « قد تعمر العود منه في الموضع الذي لا يناله الماء ألف سنة وأزيد ولا يغير ولا يستاس » [٩]. وجزيرة قوصرة مقطع للخشب الجيد، كانت تصدر كميات منه الى صقلية [١٠] ، وبمالطة أشجار الصنوبر الذي تصنع منه السفن [١١] .

---

(١) الحميري ، ص ١١٥
(٢) الادريسي ، ص ١٨٠
(٣) الادريسي ، ص ١٩٥
(٤) معجم البلدان (المكتبة الصقلية) ص ١١١
(٥) الحميري ، مقتبسات (تحقيق ريتزيتانو) ص ١٥٦
(٦) البكري ، ص ١٤٧ ، ص ١٦٠
(٧) البكري ، ص ٩٠
(٨) الادريسي ، ص ٩٠ ، ٩١
(٩) الجزنائي ، كتاب زهرة الاس في بناء مدينة فاس ، تحقيق الفريد بل ، الجزائر ١٩٢٢ ص ٢٦
(١٠) الحميري ، مقتبسات ، ص ١٧٢
(١١) البكري ، ص ٢٢٥

واذا انتقلنا الى معدني الحديد والنحاس نجد أنهما كانا يوجدان بوفرة في كثير من مدن الاندلس ، فقد اشتهرت بهما المرية [١] ، وطليطلة [٢] ، في حين اشتهرت غرناطة بالحديد [٣] . واختصت شلطيش بصناعة مراسي السفن [٤] . أما الزفت والقطران فكان يستخرج من كورة جيان ، ويحمل منها الى اشبيلية ، ثم الى الجزيرة لصناعة السفن في دار صناعتها [٥] .

وفي المغرب كان الحديد يستخرج من بونة [٦] ، ومجانة [٧] ، والأربس [٨] . وببلاد كتامة كان يتوافر الحديد والنحاس في آن واحد [٩] . ومن أقاليم بجاية كان يجلب الزفت البالغ الجودة والقطران والحديد الطيب [١٠] . وفي صقلية كان الحديد يستخرج من مسينى [١١] وبلرم [١٢] . أما الزفت والقطران بصقلية فكان يحمل من لياج « Aci » وكذلك الخشب الذي يستخدم في صناعة الشرع والأرجل الضخمة (السكان الخاص بالمركب) [١٣] . ومن جزيرة قوصرة كان يجلب القطران وخشب المصطكي [١٤] . وكانت الحبال تصنع من نبات يسمى البربير

(١) الادريسي ، ص ١٩٧ — الحميري ، ١٨٤
(٢) الادريسي ، ص ١٨٨ — الحميري ، ص ١٣٣
(٣) ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج ١ تحقيق الاستاذ محمد عبدالله عنان ، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٠٤
(٤) الحميري ، ص ١١٠
(٥) المقتبس ، القسم الخاص بعهد المستنصر ، ص ١٠١
(٦) المقدسي ، ص ٢٢٦ — ابن حوقل ، ص ٧٧ — الادريسي ، ص ١١٦
(٧) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، تحقيق دي غوية ، ليدن ١٨٩٢ ص ٣٤٩
(٨) الادريسي ، ص ١١٧
(٩) البكري ص ٣٢ — ابن حوقل ، ص ٨٤
(١٠) الادريسي ، ص ٩١
(١١) الادريسي (المكتبة الصقلية) ص ٣٤
(١٢) ابن حوقل ، ص ١١٧
(١٣) الروض المعطار ، مقتبسات ، ص ١٤١ ، ١٧٤
(١٤) نور الدين على بن موسى بن سعيد المغربي (المكتبة الصقلية) ، ص ١٢٤

شبه البردي ، وكان ينبت بكثرة في بلرم ، فكان يفتـل حبـالا لمراسي السفن [١] وهو نوع يقابل القرقس الذي يتخذ في مصر من نبـات يقال له الدقس يصنع منه حبال السفن [٢] .

رابعاً ـ اتصال المغرب والاندلس بالمشرق الاسلامي علمياً واقتصادياً :

كان لبعد بلاد المغرب والأنـدلس وانقطاعهمـا عـن المشرق الاسلامي ، مركز الحضارة الاسلامية ومهدها ، واحتكـاكهما بالعالـم الأوروبي ، أثر كبير في تطلع أهل المغرب والأندلس للرحلة الى الشام ومصر والعراق ، وأهل المشرق الى المغرب ، اما التماسا للعلم في مراكزه المختلفة ، ورغبة في تحصيله على شيوخه في المشرق والمغرب [٣] ، واما سعيا للتجـارة [٤] ، أو لأداء فريضة الحج . ولقـد عقد المقري فـي كتابه نفح الطيب بابين كبيرين أفردهما لذكر الوافدين الى الأنـدلس من المشرق ، والوافدين الى المشرق من الأندلس [٥] ، وهكذا التحـم المشرق بالمغرب علميا واقتصاديا وفنيا عن طريق الرحلات التي كانت تتم غالبا عن طريق البحر . وقد سجل بعض الرحالة ما كانـوا يعانونه مـن

---

(١) ابن حوقل ص ١١٧

(٢) ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥ ، ص ٦٦

(٣) من امثلة الرحلات العلمية : رحلة المهدي بن تومرت الى المشرق ، فقد ذكروا انه اجاز البحر الى الاندلس طالبا العلم ، ووصل الى قرطبة ، ومن هناك انتقل الى المرية ، ثم ركب من مينائها مركبا حمله الى الشرق ، وغاب في رحلته في طلب العلم ١٥ عاما . (ارجع الى ابن القطان ، جزء من كتاب نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، تطوان ، ص ٤١) .

(٤) من امثلة الرحلات التجارية رحلة التاجر الفارسي الفسوى ابي يزيد ثيمة بن موسى بن الفرات الى الاندلس فقد خرج من فارس الى البصرة ، ثم سافر منها الى مصر ، ومن مصر رحل الى الاندلس تاجرا ، وكان يتجر في الوشى ، وعاد من الاندلس الى مصر ، فمات بها في سنة ٢٣٧ هـ (الحميدي ، ص ٢٠٤) .

(٥) عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٢١٢

أهوال البحر في كتاباتهم أمثال ابن جبير الأندلسي [١] ، والقاضي العالم ابو بكر بن العربي [٢]، والوزير ابو عبدالله محمد بن عبد ربه [٣]. وكثيرا ما كانت تتعرض السفن في البحر لأخطار تنشأ عادة عن هياجه واشتداد العواصف فيه مما يؤدي في بعض الاحيان الى تحطيمها ، كما حدث للسفينة التي استقلها عمر بن علي الخزرجي الأنصاري المرسي وزوجه وولديه اذ غرقت بمن فيها بالقرب من بونة ، وقدر لابنه أبي العباس أحمد المرسي أن ينجو [٤] .

وقد كان للرحلات التجارية في البحر أثر كبير في حذق البحريين المسلمين لطرق الملاحة ، وكانت السفن التجارية تتردد ما بين مدن الاندلس والمغرب [٥] أو بين ثغور المغرب كتونس وسوسة وبونة وتنس ووهران وبين الاسكندرية والشام [٦] ، أو بين المرية ومالقة وبين الاسكندرية وطرابلس ، أو بين ثغور صقلية وبين طرابلس الغرب ، حاملة

---

(١) يصف ما تعرض له اثناء رحلته من هول البحر وارتفاع الامواج وهياجها، في طريقه من سردانيه الى صقلية (رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم رايت ، ليدن ١٩٠٧ ص ٣٥) . كذلك يصف ما عاناه من هول البحر أثناء عودته من المشرق وذلك في اثناء رحلته الى صقلية واشرافه على الغرق (ص ٣٢١)

(٢) كان قد رحل الى المشرق في سنة ٤٨٥ وعاد الى الاندلس في سنة ٤٩١ هـ ، وعانى في رحلته من افريقية كثيرا من الاهوال وسجل ذلك في كتابه « قانون التاويل » (المقري ، ج ٢ ص ٢٢٨)

(المقري ، ج ٢ ص ٣١٩) .

(٣) ركب البحر من المغرب الى الاسكندرية وعانى كثيرا من الانواء البحرية ، ويقص رفيقه في الرحلة محمد بن علي اليحصبي القرموني ما عانياه حتى اشرفا على الغرق (المقري ، ج٢ ص ٢١٩)

(٤) جمال الدين الشيال ، اعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ، ص ١٩٣

(٥) كان هناك اتصال وثيق في البحر بين المريةوتنس التي انشاها البحريون من اهل الاندلس (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٤) ، وبين نكور ومالقة (نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٥٢). وكانت السفن تاتي الى جزائر بني مزغناي من افريقية والاندلس (البكري ، ص ٦٦)

(٦) كانت السفن تصل الى جزيرة قرقنة الواقعة امام سفاقس من الاسكندرية او الشام او برقة (البكري ص ٢٠) .

الى المغرب والأندلس سلع المشرق كالتوابل والأفاويـه والمنسوجـات الحريرية والوشى والبردى ، وحاملة الى المشرق سلع المغرب والأندلس.

ومن أهم منتجات المغرب التي كان يتجهز بها في المشرق وتوسقها السفن وتميز بها زيت الزيتون الذي كان يتجهز به من المهدية الى سائر بلاد المشرق(١)، وكذلك كان يصدر من سفاقس (٢) وقابس وبرقة (٣) . وكان الفستق يحمل الى مصر والأندلس وسجلماسة من قفصة (٤)، والجوز من سطيف (٥) . وكانت الثياب والعمائم السوسية تحمل الى الافاق (٦) بينما كانت الثياب الحريرية تصدر من قابس (٧) ، والصوفية من أغمات وريكة (٨) . وكانت السفن القادمة من الاسكندرية والمشرق تحمل من برقة جلود النمور والبقر التي تصل الى برقة من أوجلة (٩) ، وسفـن الأندلس تحمل جلود اللمط وقرونه من أودغست (١٠) . وكان التبر يصل الى برقة والمغرب من مدينة تكرور وغانة ونقارة (١١) ومن أودغست (١٢). ويشتري أكثر التبر أهل ورجلان ، كذلك كان يرد من كوار وأنكلاس وأبرز ونلسلة من بلاد كوار وكوكو الشب الكواري المشهور (١٣) ، ومن

---

(١) الادريسي ، ص ١٠٩
(٢) البكري ، ص ٢٠ — ابن حوقل ، ص ٧٢
(٣) البكري ، ص ٢٠
(٤) نفسه ، ص ٤٧
(٥) الادريسي ، ص ٩٨
(٦) الادريسي ، ص ١٢٥ — التجاني ، ص ٢٠٦
(٧) البكري ص ١٧ — الادريسي ، ص ١٠٦
(٨) الادريسي ، ص ٦٦
(٩) نفس المصدر ، ص ١٣١
(١٠) البكري ص ١٧١ ، ١٥٨
(١١) الادريسي ، ص ٣ ، ٧
(١٢) البكري ص ١٥٩
(١٣) الادريسي ، ص ٣٨ ، ٤٠

داي وتادلا النحاس الخالص ، وكان الصمغ يصدر من أودغست بالمغرب الأقصى الى الاندلس ليستخدم في صبغ الديباج [١] ، ومن تونس الفخار والخزف [٢] ، ومن فاس الورق [٣] ، ومن قصر طلميثة بليبيا يصدر الى مصر الكتان والعسل والقطران والسمن [٤] .

ومن اشبيلية كان الزيت يحمل في السفن الى سلا [٥] ، والى الاسكندرية [٦] والمشرق [٧] . ومن بياسة وجيان كان يحمل الزعفران[٨] ، ومن شنترين وشذونة العنبر [٩] ، ومن قرطبة معدن الزئبق [١٠] ، ومن سرقسطة جلود الخز والوبر والسمور [١١] ، ومن المرية الوشي [١٢] ، ومن مرسية البسط التنتلية [١٣] ، ومن مرسية والمرية ومالقة الزجاج والفخار المزجج والزليجي [١٤] ، ومن شاطبة الورق [١٥] ، ومن بطرنة

---

(١) البكري ، ص ١٥٨
(٢) ابن حوقل ، ص ٧٥
(٣) الجزناءي ، ص ٣٢
(٤) الادريسي ، ص ١٣٦
(٥) الادريسي ص ١٧٨
(٦) المقري ، ج ١ ص ١٢٩
(٧) العذري ، ص ٩٥ — الحميري ، ص ١٩
(٨) المقري ، ج ٤ ص ٢٠٤
(٩) نفس المرجع ، ج ١ ص ١٣٩
(١٠) الادريسي ، ص ٢١٣
(١١) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ٨٤ — العذري ، ص ٢٢
(١٢) الضبي ، ص ٤٦٨ — المقرى ج ٤ ص ٢٠٧
(١٣) المقري ، ج ٤ ص ٢٠٧
(١٤) نفس المرجع ، ج ١ ص ١٨٧ ، ص ١٤٥
(١٥) الادريسي ، ص ١٩٢ — المقري ، ج١ ص ١٥٦

معدن التوتيا [1] ، ومن مالقة التين الذي كان يباع في بغداد [2] ، ومن البحر المحيط العنبر [3] .

ومن صقلية كان يجلب الجوز والقسطل والمرجان الى بلاد افريقية [4]، والزئبق والحديد والرصاص والأصباغ والديباج الى سائر الأقطار .

---

(١) الادريسي ، ص ١٩٩

(٢) المقرى ، ج ١ ص ٢٠٥

(٣) المقدسي ، ص ٢٣٩

(٤) ابو عبدالله محمد بن أبي بكر الزهري ، كتاب الجغرافية (المكتبة الصقلية) ص ١٥٩

الفصل الثالث

فتح المسلمين في المغرب والاندلس لجزر البحر المتوسط الاوسط والغربي

اولا ـ فتح اقريطش

١ ـ فاتحو اقريطش
٢ ـ البحريون الاندلسيون يستولون على الاسكندرية
٣ ـ الاندلسيون يستولون على اقريطش
٤ ـ اقريطش في العصر الاسلامي (٢١٢ ـ ٣٥٠ هـ)
٥ ـ استرجاع البيزنطيين لاقريطش

ثانيا ـ فتح صقلية

١ ـ التمهيد لفتح صقلية في زمن الاغالبة
٢ ـ أسباب فتح المسلمين لصقلية
٣ ـ فتح صقلية
٤ ـ وصول البحريين الاندلسيين الى صقلية ومشاركتهم في فتحها
٥ ـ استكمال فتح صقلية زمن الاغالبة

ثالثا ـ فتح جزر البحر المتوسط الغربي الاخرى .

١ ـ فتح مالطة
٢ ـ فتح سردانية
٣ ـ فتح جزر البليار

الفصل الثالث

فتح المسلمين في المغرب والاندلس لجزر البحر المتوسط الاوسط والغربي

في الوقت الذي انصرفت فيه الدولة العباسية لمشاكلها الاقليمية الداخلية والمشاكل الخارجية ، والدولة البيزنطية للفتن الداخلية ، اتضحت نوايا المسلمين في غرب العالم الاسلامي للسيطرة البحرية على جزر البحر المتوسط الأوسط والغربي • ففي سنة ٢١٢ هـ تمكن الأندلسيون من الاستيلاء على جزيرة اقريطش ، ونجح الاغالبة في ضم جزيرة صقلية ، وفي سنة ٢٣٤ هـ استولى الأمير الأموي عبد الرحمن الاوسط على جزيرة ميورقة ، وفي سنة ٢٥٥ افتتحت مالطة في امارة أبي الغرانيق محمد بن أحمد بن الأغلب • وهكذا أصبح المسلمون في غرب العالم الاسلامي في هذا القرن الثالث الهجري السادة الحقيقيين للبحر المتوسط ، وورثة البيزنطيين في السيطرة على الملاحة فيه •

اولاً ـ فتح اقريطش :

١ ـ فاتحو اقريطش :

من الشائع المتعارف عليه أن الذين تولوا فتح اقريطش منذ سنة ٢١٢ هـ جماعة من أهل الربض القبلي من قرطبة يعرفون بالربضيين ، كان الأمير الحكم بن هشام الأموي (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ) قد نفاهم خارج البلاد بسبب ثورتهم عليه • ويعتقد المستشرق الاسباني الاستاذ ايسيدرو دي لاس كاخيجاس أن هؤلاء الربضيين الذين رحل بعضهم الى المغرب وأسسوا في مدينة فاس محلة الأندلسيين ، والبعض الآخر الى الاسكندرية فأسسوا فيها دولة أندلسية ، ثم غادروها أخيرا الى اقريطش حيث أقاموا

دولة عمرت الى سنة ٣٥٠ هـ ، كان معظمهم مولدين أي مـن أصل اسباني ، ويستنتج من هذا القول أنهم كانوا يحتفظون في اقريطش ببعض مقومات الحضارة اللاتينية البيطية (أي القرطبية)[١] • ولا ندري على أي أساس يستند الأستاذ ايسيدرو في هذا الرأي ، فلم تكن قرطبة من مدن الأندلس التي عرفت بسكانها المولدين ، ومن المعروف أن المولدين كانت لهم الغلبة السكانية في طليطلة واشبيلية وماردة • ويعتقد نفس المستشرق أن ثورة الربضيين على الأمير الحكم كان مركزها الربض القبلي المعروف بمنية عجب ، وأن هذه المنية انما سميت «بمنيئة عجب» بمعنى مدبغة المفاجأة بسبب مفاجأة الحكم لهم [٢] ، وهو أمر لا نوافقه عليه لسببين : الأول ، أن منية عجب وردت بهذا الاسم كحي من أحياء الربض القبلـي لقرطبة المعروف بشقندة ، وهي منية بمعنى ضيعة ذات قصر كانت تستلكه احدى جاريات الامير الحكم [٣] شأنها في ذلك شأن منية المغيرة ومنية نصر ومنية عبدالله • والثاني أن ترجمة الأستاذ ايسيدرو لمنية عجب أو منيئة حسب ما يزعمه بمعنى مدبغة المفاجأة ترجمة خاطئة لا معنى لها ، ولو افترضنا جدلا أنه يقصد بمنية المنية أو المنون فانها حتى بهذا التفسير لا تؤدي المعنى الذي يشير اليه لأن عجب اسم علم •

وسبب ثورة الربض أن الامير هشام والد الامير الحكم كانقد أحاط نفسه بالفقهاء، واستسلم لهم، وعظم بذلك شأنهم، حتى تجاوزوا حدودهم، فلما تولى الحكم الامارة بقرطبة حاول أن ينتزع منهم سلطانهم ، ويسلبهم ما كانوا يتمتعون به في عهد أبيه من نفوذ ، ويكف أيديهم عن التدخـل

---

(١) Isidro de las Cagigas, Andaluces en Africa, Boletin de la Réal Academia de Ciencias,Bellas Letras y nobles artes de Cordoba, ano VIII, 1929 No 25, p. 105

(٢) Ibid. p. 113

(٣) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ١٢٦

في شؤون دولته . فانقلبوا عليه ، وسخطوا من تصرفاته، واستغلوا نفوذهم الروحي في اثارة الناس عليه ، وحاول بعض الفقهاء أن يغدروا به في سنة ١٨٩ هـ بحجة أنه تظاهر بشرب الخمر وانهمك في الملذات ، فامتنع منهم ، ثم اتفق الفقهاء ووجوه قرطبة مع محمد بن القاسم القرشي المرواني المعروف بابن الشماس على مبايعته بالامارة ، فخذلهم ، وأفشى سرهم ، وأبلغ الامير الحكم بتدبيرهم خلعه ، وأعطاه بيانا بأسمائهم ، فأمر الحكم بالقبض عليهم وصلبهم عند قصره ، وكان عددهم ٧٢ رجلا [١]، من بينهم الفقيه أبو زكريا يحيي بن مضر القيسي ، وكان قدوة في الدين والورع ، وأبو كعب بن عبد البر ، وموسى بن سالم الخولاني وولده ، وغيرهم [٢] . وامتلأ جو قرطبة بالسخط على الحكم بعد مقتل الثوار ، وانكر الناس عليه اطلاقه يد ربيع القومس متولي المعاهدين بالاندلس من النصارى ، وكان حظيا في رجاله ، سوغه فرض المغارم على المسلمين [٣] ، وفي هذا الجو المتوتر حدث حادث بسيط أشعل نار الثورة بين سكان الربض القبلي بقرطبة ، فقد قتل أحد مماليك الأمير غلاما ، فغلت مراجل غضبهم وانفجرت براكين أحقادهم على الأمير . وكأنما كانوا يرتقبون هذا الحادث ، فهبوا مرة واحدة ، وتجمعوا على المملوك وقتلوه ، وخرجوا ينادون بخلع الاميرء وأول من شهر السلاح ضده أهل الربض بعدوة النهر، ثم انضم اليهم أهل المدينة والأرباض الاخرى ، فتحصن الحكم في قصره، وأوكل بحراسته والدفاع عنه كتائب من الجند والعبيد ، واشتبك الثوار مع الجند في قتال شديد كاد يتغلب فيه الثوار لولا أن لجأ الحكم الى

---

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٠٦ — النويري ، ج ٢٢ ، ص ١٥ — عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين في الاندلس ، ص ٢٢٣

(٢) ابن القوطية ، ص ٥٠ — ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٠٦ — المقري ، ج ١ ص ٢٢٢

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الخاص بالاندلس ، ص ١٥

عبيدالله البلنسي واسحق بن المنذر ، على رأس فرقة من الفرسان الى الربض ، فأشعلوا النار في مساكن الثوار ، فلما شاهد الثوار النار تشتعل في بيوتهم بادروا بالعودة لانقاذ أولادهم ونسائهم ، فأخذتهم السيوف من أمامهم ، وتلقاهم حرس القصر من خلفهم وقتلوا منهم خلال ثلاثة أيام عددا كبيرا تجاوز عشرة آلاف رجل ، وفر من قرطبة أضعاف ذلك [١] . وانتقم الحكم من الثوار ، فأمر بصلب ثلثمائة ممن قبض عليهم صفا على ضفة النهر من باب القنطرة حتى نهاية المصارة ، وأمر بهدم الربض القبلي مصدر الفتنة، فأعيد بطحاء مزرعة. ولما مضت ثلاثة أيام من القتل والسفك أمر برفع السيف وتأمين الفلول على أن يخرجوا من الأندلس ، فخرج كثير منهم الى سواحل بلاد البربر ، فنزل بعضهم في مدينة فاس التي أسسها ادريس بن عبدالله بن حسن في سنة ١٧٢ هـ [٢] ، وأطلق على المحلة التي نزلوها اسم ربض الاندلسيين. ونزل بأوزفور من أغمات بالمغرب الاقصى جماعة من ربضية قرطبة ، فحاربهم جيرانهم البربر ، فانهزم الأندلسيون ، وتفرقوا ببلاد أغمات ، وبنوا مدينة كزناية ، ولكن البربر أجلوهم عنها الى وليلي [٣] . أما جمهورهم الاعظم وعددهم فيما يقال ١٥ ألفا فقد ركبوا سفنا في البحر ذكر الكندي أن عددها أربعون مركبا [٤] ، واتجهوا شرقا حتى انتهوا الى الاسكندرية ، وذلك في أول خلافة عبدالله المأمون ابن الرشيد (١٩٨ — ٢١٨ هـ) .

وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ هذه الثورة : فأبو المحاسن ابن تغرى بردى يجعلها في رمضان سنة ١٩٨ هـ [٥] (مايو سنة ٨١٤ م) ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦
(٢) المغرب الكبير ، ص ٤٨٧ وما يليها
(٣) البكري ، ص ١٥٥
(٤) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ١٦٤
(٥) ابو المحاسن ، ج ١ ص ١٥٨

وابن الاثير والنويري يذكران أنها حدثت في سنة ١٩٨ هـ [١]، دون أن يحدد أحدهما الشهر الذي وقعت فيه . أما ابن الابار فقد حدد تاريخها في يوم الاربعاء ١٣ من رمضان سنة ٢٠٢ هـ [٢] (٢٥ مارس سنة ٨١٨ م)، وحددها ابن عذاري في سنة ٢٠٢ هـ [٣]، ويوافق رودريجو الطليطلي على هذا التاريخ [٤] . وقد دحض دوزي [٥] القول بتاريخ سنة ٢٠٢ هـ ، لانه ثبت أن الثوار نزلوا في مياه الاسكندرية قبل ذلك التاريخ بأربعة سنين استنادا على ما رواه ابن القوطية الذي يؤكد أنهم « ملكوها في أول ولاية الرشيد » [٦]، وصحتها المأمون الذي بدأ خلافته في ٢٥ محرم سنة ١٩٨ هـ ، وما رواه المقريزي اذ يقول نقلا عن الكندي : « وفي سنة تسع وتسعين ومائة عظمت الحروب بديار مصر بين المطلب بن عبدالله الخزاعي أمير مصر وبين عبد العزيز الجروي الثائر بتنيس ... وكانت بالاسكندرية مراكب الاندلسيين قد قفلوا من غزوهم » [٧] . ولكن الاستاذ ليفي بروفنسال يؤكد [٨] استنادا على مخطوطة لكتاب المقتبس لابن حيان ورد فيها تاريخ سنة ٢٠٢ هـ كتاريخ ثابت للثورة حدده ابن حيان معتمدا على نص المنشور الذي أصدره الحكم الربضي بعد قضائه على الهيج وبعثه الى ولاة الاندلس، وفيه بيان بيوم الثورة في ١٣ رمضان، وكذلك استنادا على ما أورده ابن حزم في الجمهرة [٩] وما جاء في

---

(١) ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٧٢ — النويري ج ٢٢ ص ١٧

(٢) ابن الابار ، الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٤٤

(٣) ابن عذاري ، ج٢ ص ١١٣

(٤) de Las Cagigas, op. cit. p. 108

(٥) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t. 1., Leyde, 1932, p. 296

(٦) ابن القوطية ، ص ٥١

(٧) الكندي ، ص ١٥٨ — المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٣١٢

(٨) Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 165, Note 1

(٩) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٨٨

« المغرب في حلى المغرب » لابن سعيد الذي حدد يوم الاربعاء ١٣ من رمضان تاريخا لثورة الربضيين ، وذكر أن الحكم أمر بهدم الربض القبلي في اليوم التالي حتى صار مزرعة ، وتتبع دور الثوار بالهدم والاحراق [١] وتولى هذا العمل ربيع القومس [٢] .

ويذهب الدكتور سعد زغلول عبد الحميد الى القول بأن الاندلسيين الذين وفدوا في سفنهم الى الاسكندرية في عام ١٩٢ هـ ليسوا من ثوار الربض لان ثورة الربض حدثت في سنة ٢٠١ هـ بينما شارك الاندلسيون في أحداث الاسكندرية في سنة ١٩٩ هـ [٣] ، وهذا يعني في رأيه أن هؤلاء الأندلسيين كانوا غزاة بحريين ، وأن الغزو كان صناعتهم .

ونحن نؤيد الدكتور سعد زغلول فيما ذهب اليه ، كما نؤيد الاستاذ ليفي بروفنسال في أن تاريخ ثورة الربض يوافق التاريخ الذي حدده كل من ابن حيان وابن الابار وابن عذارى وابن حزم وابن سعيد ، أي في سنة ٢٠٢ هـ ، وان كنا نضيف على أدلة دوزي التي استند عليها في مناقشته التي عقدها لاثبات أن ثورة الربض حدثت في سنة ١٩٨ هـ ، مع عدم موافقتنا على رأيه ، دليلين آخرين نسي أن يذكرهما بين أسانيده: الاول، ما ذكره الكندي أثناء سرده لاحداث الاسكندرية في سنين ١٩٩هـ الى ٢١١ هـ [٤] ، والثاني أن بعض ثوار الاندلس وفقا لما ذكره ابن الابار وابن سعيد المغربي لحقوا بطليطلة وذلك لمخالفة اهلها للحكم [٥] ، وكانت طليطلة وفقا لرواية ابن سعيد وابن عذارى في ذلك الوقت ثائرة على الحكم،

---

(١) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، ج ١ ص ٤٢

(٢) ابن حزم ، المصدر السابق ص ٨٨

(٣) سعد زغلول ، الاسكندرية الاسلامية ، من كتاب محافظة الاسكندرية ، ص ٢٦٧

(٤) الكندي ص ١٥٨ — ١٧٢

(٥) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ص ٤٥ — ابن سعيد ، المغرب ، ص ٤٢

لغزاهم في سنة ١٩٩ هـ ، وعاث فيهم أشد العيث . ونقل وجوه أهلها الى لرجلة [١] .

ونعتقد بعد هذا العرض السابق ان الأندلسيين الذين قدموا في سفنهم الى الاسكندرية في أربعين سفينة [٢] أو ٤٢ سفينة في قول آخر [٣] كانوا لا يزيدون على ٥٠٠٠ شخص ، مع أن اليعقوبي يؤكد أنهم كانوا زهاء ثلاثة آلاف [٤] ، وأنهم على حد قول الدكتور سعد زغلول غزاة بحريين ، وأهل سواحل الأندلس بحكم طبيعة بلادهم واتصالها بدول اوربا كانوا رجال بحر وأهل غزو وأنهم بخلاف ما يشير اليهم المؤرخون كانوا ملاحين مهرة ، وكانوا ينزلون فى فصل الشتاء بالقرب من تنس الحديثة قبل أن يتولوا تأسيسها في سنة ٢٦٢ هـ [٥] ، فهم اذن كانوا يترددون بين سواحل الأندلس الشرقية والمغرب ، أو هم على حد تعبير ابي المحاسن مغاربة اندلسيون [٦] . وسنراهم يغزون صقلية لحسابهم الخاص بعد نزول جيش الاغالبة بمازر تحت قيادة القاضي أسد بن الفرات سنة ٢١٢ هـ ، وكان يقودهم رجل يسمى اصبغ ابن وكيل المعروف بفرغلوش ، وقد اقاموا يفتتحون مدن صقلية من سنة ٢١٣ هـ الى سنة ٢١٩ هـ [٧] . ونلاحظ أيضا ان جماعة من البحريين الاندلسيين قاموا بغزو قرشقة وسردانية في سنة ١٩٤ هـ (٨٠٩ م) [٨] ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١١ — ابن سعيد ، ص ٤١

(٢) الكندي ، ص ١٦٤

(٣) ذكر اليعقوبي خطئا انهم قدموا في اربعة الاف مركب والظاهر انه التبس عليه الامر فقرا من المصدر اربعة الاف وصحتها اربعين مركبا . (راجع اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة النجف ، ١٣٥٨ هـ ، ج ٣ ص ١٧٤)

(٤) اليعقوبي ، نفس المصدر ، ص ١٧٤

(٥) البكري ، ص ٦٢

(٦) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ١٩٢

(٧) المغرب الكبير ، ص ٣٦٠

(٨) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ١٩٢

وتم فتح سردانية على أيديهم في أيام الامير عبد الرحمن بن الحكم [١] •

ونستند في رأينا على ما يشير اليه الكندى عند ذكره خبر نزولهم فيقول : « قد قفلوا من غزوهم فنزلوا الاسكندرية ليبتاعوا ما يصلحهم وكذلك كانوا على الزمان ، وكان الامراء لا تمكنهم دخول الاسكندرية وانما كان الناس يخرجون اليهم فيبايعونهم » [٢] • ونستنتج من هذا النص أن نزول الاندلسيين بالاسكندرية تم اثر غزوة قاموا بها ، أي أنهم غزاة بحر ، كما نستنتج ان نزولهم بمياه الاسكندرية لم يكن حدثا جديدا ، وانهم كانوا يلجئون الى مياه الاسكندرية ويرسون فى منطقة الرمل [٣] بعد كل غزو يقومون به ، وانهم كانوا يمتارون منها ما يحتاجون اليه اثناء غزوهم في البحر • فهم على هذا الاساس غزاة يعتمدون في حياتهم ومعاشهم على ما يغنمونه في غزواتهم لسواحل أوربا الجنوبية وجزر البحر المتوسط • والمسألة ان المؤرخين اختلط عليهم الامر بعد ثورة اهل الربض ، فخلطوا بين البحريين الاندلسيين الذين أرسوا بسفنهم في مياه الاسكندرية في سنة ١٩٨ هـ ، وبين الربضيين الاندلسيين• ومن المعروف انأهل الربض تفرقوا في البلاد الاندلسية [٤]، وبعضهم نزل الى بر العدوة أقرب السواحل الى الأندلس ، خوفا من بطش الامير الحكم بهم ، فاحتلوا عدوة فاس وصيروها مدينة • ومن المعروف أيضا ان الحكم عفا عنهم ، وكتب امانا على الأنفس والاموال ، « وأباح لهم التفسح في البلدان حيثما أحبوا من أقطار مملكته حاشا قرطبة أو ما

---

(١) الروض المعطار ، ص ١٧٧

(٢) الكندي ، ص ١٥٨

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٧٤

(٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١١٥

قرب منها » [١] ، فهو اذن لم يأمر بنفيهم أو اخراجهم من الاندلس ، ولكنه نفاهم من قرطبة فقـط . يضاف الى ما سبق أنه لو أن عـدد الاندلسيين كان يقرب من ١٥ الفا كما ورد في المصادر العربية لتعسر عليهم الابحار في أربعين سفينة وللزم الامر استخدام أسطول لا يقل عدد سفنه عن مائة سفينة ، ولو أن عددهم كان يصل الى هذا الرقم لكان من الصعب على عبدالله بن طاهر أن يخرجهم بدون قيد او شرط من الاسكندرية . ونخرج من كل ذلك بأنه لا علاقة لثورة الربض بغزاة الاسكندرية ثـم اقريطش [٢] .

٢ ـ البحريون الأندلسيون يستولون على الاسكندرية :

استغل طائفة البحريين الأندلسيين حالـة الفوضى في مصر واضطراب العرب المقيمين بالاسكندرية وما حولها من اللخميين وبني مدلج ، ودخلوا طرفا في هذا النزاع . وتفصيل الموضوع أن والي مصر المطلب بن عبدالله الخزاعي أراد ان يضع حدا للصراع القائم بين لخم وجذام عن طريق اسناد ولايتها الى شخص يرتضيه الطرفان ، ولكن محاولته باءت بالفشـل ، لأخذ يغير ولاة الاسكندرية فلا يكاد يقيم واليا عليها حتى يعزله بعد أمد قصير ، فلما عزل عمر بن هلال بن حديج وولى عليها الفضل بن عبدالله الخزاعي حقد عمر بن هلال على المطلب ، وتحالف مع ثائر آخر في ثغر

(١) المصدر السابق

(٢) يستند بعض الباحثين في اثبات الراي القائل بان اهل الربض هم الذين افتتحوا اقريطش على ان زعيم الاندلسيين الغزاة وهو أبو حفص عمر بن شعيب البلوطي من موضع قريب من قرطبة يقال له فحص البلوط وان لهذه النسبة علاقة بربض قرطبة، ولكن ليس من الضروري ان يكون المنتسب الى فحص البلوط من سكان الربض ، ونعتقد ان زعيم غزاة اقريطش لا بد ان يكون بحريا له خبرة بركوب السفن، وان انتسابه في احدى الروايات الى فحص البلوط لا يدل على انه قرطبي . ثم ان اسم هذا الزعيم ما زال موضع خلاف بين المصادر العربية على النحو الذي سنشير اليه فيما بعد .

تنيس هو عبد العزيز الجروي ، كان طامعا في امارة مصر ، فكتب اليه الجروي يأمره بالوثوب على الاسكندرية والدعاء له بها ، وان يخرج الفضل بن عبدالله منها [١] . ولم يكن في امكان ابن هلال وحده أن يقوم بهذا العمل الجريء ، فرأى ان يستعين بالأندلسيين الذين كانوا يقضون الشتاء في مراكبهم بمياه رمل الاسكندرية ، ولم يتردد الأندلسيون في مساعدة ابن هلال ، وبفضل هذه المساعدة نجح في اخراج الفضل منها والدعوة للجروي . غير أن أهل الاسكندرية استاءوا من تدخل الاندلسيين في شؤونهم الداخلية ، فهاجوا عليهم ، واشتبكوا معهم في معركة انتهت بهزيمة الأندلسيين الذين عادوا الى مراكبهم ، وقتل في هذه المعركة نفر من الاندلسيين . وهكذا انتصر السكندريون واعادوا واليهم الشرعي . ولكن المطلب لم يلبث ان عزل أخاه الفضل وأسند ولاية الثغر الى اسحق بن أبرهة بن الصباح، وهنا تحركت مطامع ابن هلال من جديد، فخرج لمقاتلته في شهر رمضان سنة ١٩٩ هـ ، وتجنبا لهذه الحرب عزل المطلب اسحق بن أبرهة وأسند الولاية لشخص آخر هو ابو بكر بن جنادة ابن عيسى المعافري .

وفي نفس الوقت نجح الجروي بالاتفاق مع السري بن الحكم القائد في التغلب على المطلب وأرغمه على الخروج من مصر ، وتولى السري بن الحكم ولاية مصر باجماع الجند في مستهل رمضان سنة ٢٠٠ هـ [٢] . وعندئذ سنحت الفرصة لابن هلال للتغلب على الاسكندرية ، فهاجم ابن هلال واليها أبا بكر بن جنادة المعافري وأخرجه منها ، ودعا للجروي فيها . وتهيأ للأندلسيين المجال للنزول في الاسكندرية والاقامة في أرضها بدلا من البقاء في سفنهم ، ولكن الأندلسيين بحكم طبيعتهم القاسية كرجال بحر

(١) الكندي ، ص ١٥٨
(٢) الكندي ، ص ١٦١

رجالا احتكوا باهل الاسكندرية وأفسدوا فيها • وكان ابن هلال يسعى للتقرب الى اهل الاسكندرية ابقاء على ولايته فيها ، فأمر باخراج الاندلسيين من بر الاسكندرية والحاقهم بسفنهم ، فحقدوا عليه لذلك [1]، وربصوا الطلبه انتظارا لفرصة مواتية ينقلبون فيها عليه• وحدث في هذه الاونة المضطربة من تاريخ الاسكندرية أن ظهر بها طائفة يدعون الى المعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الوالي ، سموا أنفسهم بالصوفية، وولى الزعامة عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي • وكان من الطبيعي ان يتحالف هؤلاء الصوفية مع الأندلسيين بسبب اشتراكهم معهم في معاداة الوالي ، واجتذب الصوفية اليهم قبائل لخم ، واعتضدوا بهم • وكان اللخميون اذ ذاك قوة هائلة لها وزنها في ناحية الاسكندرية ، وكانت لهم اطماعهم الخاصة ، فعزم المتحالفون على ازاحة ابن هلال ، فجمعت حشودهم حتى بلغت بما في ذلك الاندلسيين والصوفية زهاء عشرة آلاف ، فحاصروا ابن هلال في قصره ، وأرغموه على أن يسلم نفسه هو واخوه محمد ، وابنا عمه أبو هبيرة وحديج ، فتلقفتهم سيوف المتحالفين وقتلوهم في ذي القعدة سنة ٢٠٠ هـ •

ثم تنازع اللخميون بعد قتل ابن هلال مع الأندلسيين نزاعا ادى الى الحرب ، واشتبك اللخميون بقيادة زعيمهم رباح بن قرة مع الأندلسيين ، فانهزم اللخميون ، ودخل الأندلسيون الاسكندرية عنوة في ذي الحجة سنة ٢٠٠ هـ ، فولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفي ، فساد الفساد في عهده ، وكثر القتل والنهب ، واضطر الأندلسيون الى خلعه

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٦٢

وولوا رجلا منهم يعرف بالكناني [١] ، وعندئذ تدخل بنو مدلـج ، وكانوا يقيمون بظاهر الاسكندرية ، اذ خافوا ان يستقل الاندلسيون بها ، فهاجموا الأندلسيين في الاسكندرية ، ولكنهم منوا بهزيمة نكراء نتج عنها أن أصبح الاندلسيون يتحكمون في مصير المدينة ، فنفوا بني مدلج عنها وانفردوا بحكمها ، ولم يجد السري بن الحكم والي الفسطاط بدا من قبول الامر الواقع ، وحمد له الأندلسيون موقفه المتخـاذل ، فعندما توسط لارجاع بني مدلج الى منازلهم قبلوا وساطته واذنوا لهم بالعودة .

وبلغ الجروي ما اجترمه الاندلسيون من قتل صاحبه ابن هـلال واستبدادهم بالاسكندرية وتقاربهم مع السري بن الحكم الذي سبقه في الظفر بالامارة في الفسطاط ، فعزم على السير الى الاسكندرية وانتزاعها من الاندلسيين، وجهز لهذا الغرض جيشا عدته خمسون ألفا ، ونزل على حصن الاسكندرية في المحرم سنة ٢٠١ هـ ، ولعله حصنها المعروف بحصن فارس احد عجائبها المشهورة [٢] ، وكان يقع بجوار دار الامارة التي بناها عتبة بن ابي سفيان في سنة ٤٤ هـ [٣] . وواصل الجروي حصاره للحصن حتى كاد ان يفتتحه ، وعندئذ خاف السري بن الحكم ان يتغلب عليها فتتضاعف قوته ثم ينقلب عليه ، فأرسل قوة بقيادة عمرو بن وهب

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٦٤ . ولعل الكناني هذا من ابناء الرماحس بن عبد العزيز الكناني الذي لعب دورا هاما في الانتزاء بمصر في آخر الدولة الاموية ، ولكنه انهزم في الحوف الشرقي ونفي من مصر (الكندي ص ٩٤) ثم مضى الى الاندلس واشترك في الصراع بـين العصبيتين اليمنية والمضرية ، وكان من مؤيدي عبد الرحمن الداخل ثم انقلب عليه، فتآمر مع بعض الثوار في سنة ١٦٤ ضد الامير ، واضطر اخيرا الى الفرار الى المشرق . ويبدو ان اولاده ظلوا في الاندلس ولعل محمد بن الرماحس ، قائد اساطيل الاندلس زمن عبد الرحمن الناصر كان واحدا منهم ، فهي اسرة عرفت بالمغامرات .

(٢) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ص ٤٥

(٣) الكندي ، ص ٣٦

الطرامي الى تنيس لفتحها ، فيرغم الجروي على فك الحصار والعودة الى بلده ، ولجحت خطة السري ، وبادر الجروي الى العودة الى تنيس في للس شهر المحرم سنة ٢٠١ هـ .

وفي هذه الأثناء حدث انقلاب عسكري في الفسطاط ، اذ انقلب الجند الخراسانيون على السري في ربيع الاول سنة ٢٠١ هـ وأرغموه على الانسحاب الى الصعيد ، ولكنه لم يلبث أن عاد الى الولاية بتقليد وصله من المامون . وزحف الجروي الى الاسكندرية للمرة الثانية ، واتفق مع الاندلسيين على دخول حصنها ، فدخلها قائده سلامة الطحاوي وابنه علي ابن عبد العزيز الجروي ودعوا فيها للجروي ، وأقام الجروي على ولايتها رجلا من بني حديج هو معاوية بن عبد الواحد بن محمد ، ومضى الجروي بكل قواته لمواجهة قوات السري ، فانتهز الاندلسيون هذه الفرصة ووثبوا على عامل الجروي على الاسكندرية وخلعوه، ثم طردوه منها، كما خلعوا ولاءهم للجروي ودعوا للسري . ولما بلغت هذة الأنباء الجروي زحف الى الاسكندرية للمرة الثالثة في شهر رمضان سنة ٢٠٣ هـ ، وكان أهالي هذه النواحي يتعرضون لأضرار جسيمة في كل مرة يخرج فيها جيشه نحو الاسكندرية ، فعارضه القبط في سخا ، وانضم اليهم بنو مدلج في لمابين ألفا ، واشتبك الجروي مع هذه القوة الجديدة ، ونجح في ايقاع الهزيمة بهم ، ثم سير جيوشه على أثر ذلك الى الاسكندرية لمحاصرتها ، وقدم اليها بنفسه للمرة الرابعة « فأغلق الأندلسيون حصنها ، فحاصرهم الجروي حصارا شديدا ، ونصب عليهم المنجنيقات، وأقام على ذلك سبعة أشهر من مستهل شعبان سنة ٢٠٤ هـ الى سلخ صفر سنة ٢٠٥ هـ »[1] . وبينما كان جيشه يضرب جدران الحصن بقذائف المنجنيق أصيب بفلقة من حجر منجنيق ، فمات ، وبموته انتهت حركته وانسحب جنده الــى

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٩ ــ ١٧٢

تنيس • ولم يطل العمر بالسري بن الحكم ، فتوفي هو الآخر في جمادي الأولى سنة ٢٠٥ هـ ، وخلفه على الامارة ابنه أبو النصر • وهكذا انفرد الاندلسيون بحكم الاسكندرية بعد أن توفي المتنافسان ، في الوقت الذي شغل فيه ابناء السري والجروي عنهم بحروب ثأرية •

٣ ـ الاندلسيون يستولون على اقريطش :

رأى المأمون ان يضع حدا للاضطرابات الداخلية في مصر ، فأسند هذه المهمة الى قائده عبدالله بن طاهر بن الحسين ، وأدرك ابن طاهر أنه لن يستطيع القضاء على جميع هذه الفتن الا اذا استخدم الجيش والاسطول في آن واحد ، فسير جيشا الى مصر من الخراسانيين ، وأقبل الى مصر في سنة ٢١٠ ، فتلقاه على بن الجروي بالاموال والانزال ، وانضم اليه ، وبعث ابن طاهر في طلب بعض السفن من القاعدة الشامية للأساطيل العباسية الى تنيس ، أسند قيادتها الى علي بن الجروي لمعرفته بالحرب في البحر [1] • ونجح عبدالله بن طاهر أخيرا في اخضاع عيون السري ، وآلت اليه ولاية مصر في ٢ ربيع الأول سنة ٢١١ هـ • وما ان تم له ذلك حتى عزم على المسير الى الاسكندرية لاستنزال الأندلسيين ، وابعادهم عن البلاد ، فبعث اليها جيشا جعل على مقدمته العباس وهاشم من قواد خراسان ، في مستهل صفر سنة ٢١٢ هـ ، ثم أقبل اليها عبدالله بن طاهر بنفسه في ربيع الاول ، فنزل على حصنها ، وحاصر الاسكندرية قرابة أسبوعين ، فاستسلمت المدينة ، وخرج اليه أهلها بالامان ، ولم يجد

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٨٠

الاندلسيون بدا من مصالحته ، فصالحهم على أن يجليهم من الاسكندرية الى حيث أرادوا [١] بشرط الا يأخذوا في مراكبهم أحدا من الاهالي ولا عبدا ولا ابقا . فاذا خالفوا هذا الشرط حلت دماؤهم . وهكـذا أبحر الاندلسيون من الاسكندرية في أوائل سنة ٢١٢ هـ [٢] ، يقودهم أحد زعمائهم هو ابو حفص عمر بن شعيب البلوطي المعروف بابن الغليظ او الغليظ من اهل قرية بطروج من عمل فحص البلوط المجاور لقرطبة [٣] . واختار أبو حفص جزيرة اقريطش موطنا لقومه ، وكانت مـن أخصب أراضي البيزنطيين ، وتتميز بموقعها الاستراتيجي الممتاز في وسط البحر المتوسط [٤] . ويبدو أن الاندلسيين كانوا يعرفون هذه الجزيرة معرفة تامة . فان فازيليف استنادا على ما رواه جنيزيوس يذكر انهم أغاروا مرات على اقريطش وعلى جزر يونانية اخرى قبل أن يخرجوا من مصر في سنة ٢١٢ هـ ، ففي عام ٢١١ هـ « بعث العرب على كريت عشر سفن او عشرين عادت بكثير من الاسرى والغنائم بعد أن عرفت المكان معرفة دقيقة » [٥]. ومما يؤكد ذلك أنأبا المحاسن يذكر أن الاندلسيين نزحوا منالاسكندرية قبل وصول عبدالله بن طاهر خوفا منه ، وتوجهوا الى جزيرة اقريطش [٦].

---

(١) ذكر الطبري وابن الاثير ان الاندلسيين سألوا ابن طاهر ان يرتحلوا عنها الى بعض اطراف الروم التي ليست من بلاد الاسلام ، فاعطاهم الامان على ذلك ، فرحلوا عنها ونزلوا بجزيرة اقريطش (الطبري ، ج ٣ ص ١٠٩٢ — ابن الاثير ج ٤ ص ٢١٢) . ويذكر ابن الابار ان عبدالله بن طاهر صالح الاندلسيين على التخلي عنها مقابل مال بذله لهم وخيرهم في النزول بحيث شاءوا من جزائر البحر فاختاروا جزيرة اقريطش (ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٥) ونستنتج من ذلك كله ان الاندلسيين كانت لهم معرفة سابقة بجزيرة اقريطش ، وكانت يومئذ خالية من الروم .

(٢) ذكر الطبرى وابن الاثير خروج الاندلسيين من الاسكندرية في حوادث سنة ٢١٠ هـ (الطبري ج ٣ ص ١٠٩٠ — ابن الاثير ج ٤ ص ٢١١ — ٢١٢)

(٣) الضبي ، ص ٣٩٤ — المقري ، ج ٤ ص ١٥٧

(٤) ابراهيم العدوي ، اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ، اكتوبر ١٩٥٠ ، المجلد الثالث ، العدد الثاني ، ص ٥٥

(٥) العرب والروم ، ص ٥٥

(٦) ابو المحاسن ، ج ٢ ص ١٩٢

خرج الأندلسيون في أربعين سفينة بقيادة أبي حفص عمر بن شعيب البلوطي ، وذكره البلاذري أبا حفص عمر بن عيسى الاندلسي [١] ، وقيل شعيب بن عمر بن عيسى [٢] ، واتجهوا شمالا الى اقريطش حيث نزلوا في خليج سودا سنة ٢١٢ هـ • وذكر البلاذري أنهم فتحوا من اقريطش حصنا واحدا ونزله أبو حفص ،ولم يزل يفتح شيئا بعد شيء « حتى لم يبق فيها من الروم أحد ، واخرب حصونهم » [٣] • ونستنتج من هذا النص ان الاندلسيين لم يلقوا مقاومة كبيرة عند نزولهم ، وانهم قنعوا بحصن واحد من حصونها العديدة ثم توسعوا في الفتح بعد أن حصنوه • والظاهر أن الاندلسيين كانوا يخشون من قيام أهل اقريطش بمحاربتهم في ذلك الحصن، فأقاموا به تحصينات منيعة لكي يستنعوا فيها اذا ما غزاهم البيزنطيون ، وحفروا حول هذه التحصينات خندقا فعرف ، الحصن لذلك بالخندق ، وتحول الحصن بمرور الزمن الى مدينة كبيرة ، وصل اسمها الينا اليوم محرفا من الخندق ، فهي تعرف باسم قندية Candia • وما أن اطمأن المسلمون الى حصانة قاعدتهم حتى أخـذوا يفتتحون المـدن والحصون ، فأتموا فتح الجزيرة فيما يقرب من سنة ٢٣٠ هـ أي بعد مضي ١٨ سنة من نزولهم بها [٤] ، وقيل افتتحت بعد ٢٣٠ هـ في قول ابن حزم ، وبعد ٢٢٠ هـ في قول ابي سعيد بن يونس [٥] •

٤ ـ اقريطش في العصر الاسلامي (٢١٢ ـ ٣٥٠ هـ) :

نجح الاندلسيون في الاستيلاء على مدن جزيرة اقريطش كلها في الفترة ما بين نزولهم على أرضها في سنة ٢١٢ هـ حتى سنة ٢٣٠ هـ التي تم

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٧٩
(٢) الحميدي ، ص ٢٨٣ ـ الضبي ، ص ٣٩٤
(٣) البلاذري ، نفس المصدر .
(٤) ابو المحاسن ، ج ٢ ص ٢٢٧
(٥) الحميدي ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ ـ الضبي ، ص ٣٩٤

فيها سيطرتهم على جميع أنحائها ، مستغلين في ذلك حالة الوهن التي طرأت على الدولة البيزنطية بعدما استنفذته ثورة توماس من قواها . وذكر الرواة ان المسلمين استولوا على تسع وعشرين مدينة لم تحفظ لنا أسماؤها . واقبل المسلمون على مصاهرة أهل اقريطش والتزوج من نسائهم وبذلك تحول الفتح الى فتح عسكري ومعنوي في آن واحد ، فعن طريق المصاهرة نشأ جيل من المولدين المسلمين من أمهات اقريطشيات وآباء مسلمين . وعن طريق انتشار الاسلام ثبتت اقدام المسلمين في هذه الجزيرة . وكان من الطبيعي ان تلتمس العناصر الاسلامية في اقريطش الأمان ممثلا في سلطة اسلامية تظللها بحمايتها ، ولم يكن هناك مفر من الدخول في فلك الخلافة العباسية التي كانت تسيطر على الشرق الأدنى الاسلامي كله بما فيه مصر وافريقية [1] . وما لبثت اقريطش أن أصبحت في التقسيم الاداري للدولة العباسية اقليما تابعا لمصر [2] ، وظلت اقريطش تابعة لمصر في زمن الطولونيين والاخشيديين ، « وكانت مراكب أهل اقريطش تمير أهل مصر بخيرات جزيرتهم وأطعمتهم ، وكانت هداياهم تصل الى عمال مصر » [3] .

وشرع الاندلسيون في اقريطش ، بحكم ممارستهم الغزو البحري ،

---

(١) اشار الامير عبد الرحمن الاوسط الى ذلك في رسالته الى الامبراطور تيوفيل ، فقال : « واما ما ذكرت من امر أبي حفص الاندلسي ومن صار معه من اهل بلدنا في خضوعهم لابن ماردة (المعتصم العباسي) ودخولهم في طاعته ، وما سألت من النظر في امورهم والانكار لفعلهم ، فانه لم ينزع اليه منهم الا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم ، وليسوا في بلدنا ولا برتبتنا فنلي عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وانما اضطروا الى الدخول في طاعة ابن ماردة لامنهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته » (ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١١٥ — ١١٨)

(٢) العدوي ، اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ، ص ٥٩

(٣) القاضي النعمان (ابو حنيفة بن محمد الفقيه الاسماعيلي) قضية اقريطش في عهد المعز لدين الله ، تحقيق فرحات الدشراوي ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثاني ١٩٦٥ ، ص ٢٣ .

يستغلون الموارد الطبيعية في الجزيرة ، وخاصة الاخشاب ، لانشاء قطع بحرية جديدة ، تدعم أسطولهم ، وتعينهم على مواصلة الغزو ، وسرعان ما أصبح لديهم أسطول قوي أخذوا يهاجمون به جزر بحر الارخبيل . واخذت السيطرة والسيادة في البحر المتوسط الاوسط تنتقل الى المسلمين . وأدركت الدولة البيزنطية مدى الخسارة الكبيرة التي أصابتها بفقد اقريطش ، وبدأ الامبراطور ميشيل الثاني يعمل على استردادها منذ أن قضى على فتنة توماس ، فعهد الى الاسباطير الاول فوتينوس ، الجد الثالث للامبراطورة زوي ام قسطنطين البورفيري ، بمهمة استرجاعها [١] في سنة ٢١٣ هـ ، اي بعد مضي عام واحد من نزول الأندلسيين بالجزيرة . ولكن فوتينوس ما كاد يصل الى الجزيرة حتى ادرك صعوبة افتتاحها بقواته القليلة ، فأرسل الى الامبراطور يطلب أن يمده بقوات كافية لتحقيق هذا الهدف ، فأمده بجيش كبير بقيادة القائد الفارس داميان ، واشتبك البيزنطيون مع المسلمين في معركة ضارية انتهت بهزيمة البيزنطيين وأسر قائدهم داميان ، في حين فر فوتينوس في قارب صغير لجأ به الى جزيرة ديا الواقعة الى الشمال من الخندق ، ومن هناك تمكن من العودة الى القسطنطينية يحمل معه أنباء الهزيمة القاسية التي تلقاها الروم على أيدي المسلمين [٢] . وعلى الرغم من هذه الهزيمة القاسية ، فان الامبراطور البيزنطي لم يفقد الأمل بعد في استرجاع الجزيرة ، فلم يلبث في نفس هذا العام ان سير امير البحر كراتيرو ، قائد بند سيبيريوت الواقع جنوبي آسيا الصغرى ، في اسطول ضخم عدته سبعون سفينة لافتتاح الجزيرة ، ودارت بالقرب من الخندق معركة بحرية عنيفة دامت حتى الغروب ، استبسل فيها المسلمون ، وابدوا كثيرا من ضروب الشجاعة

---

(١) فازيلييف ، ص ٦٠
(٢) نفس المرجع ، ص ٦٠ — العدوي ، اقريطش ص ٦١

والاقدام . ثم انهزموا في النهاية ، وانسحبوا عند المساء الى مدينتهم تاركين للبيزنطيين أسلحتهم وعددا كبيرا من جنودهم وقعـوا أسرى في أيدي البيزنطيين ، وقنع هؤلاء بما أصابوه من غنائم وأسرى مرجئين الاستمرار في المعركة الى اليوم التالي اعتقادا منهم بأن المسلمين قد استنزفوا قوتهم وأنهم لن يقووا بعد ذلك على مواصلة القتال ، واسكرهم هذا النصر ، فأهملوا حراسة معسكرهم ، وعندئذ هاجمهم المسلمون في غفلة منهم ، فأعملوا فيهم سيوفهم ، وحولوا الهزيمة الى نصر مبين ، وفر كراتير على احدى السفن التجارية، وفطن المسلمون الى فراره، فطاردوه في البحر ، وادركوه عند جزيرة كوس حيث قبضوا عليه وقتلوه [١] .

ومنذ تلك الهزيمة الثانية ، فقد الامبراطور ميشيل الامل نهائيا في استرجاع الجزيرة وان كان لم يفقد الامـل في استرداد بعض الجزر الصغيرة المتناثرة الى الشرق والشمال الشرقي من اقريطش والتي كان قد استولى عليها الاندلسيون . فأعد لهذا الغرض أسطولا قويا بقيادة اوريفوس ، وتشجيعا لجنده على التفاني في القتال ، منح كل واحد منهم أربعين قطعة ذهبية . وعلى الرغم من نجاح أوريفوس في استرداد بعض الجزر ، فانه لم يستطع أن يفعل شيئا فيما يختص بجزيـرة اقريطش . وادى الفشل المتلاحق الذي منيت به حملات البيزنطيين على تلك الجزيرة الى تخلي الامبراطور نهائيا عن فكرة استردادها ، وقنع في نهاية الامر بتركيز كل قواه للدفاع عن صقلية التي تعرضت هي الأخرى لغزو بحري واسع النطاق قام به المسلمون في افريقية وبعض المغامرين الاندلسيين . ولجحت الدولة البيزنطية في اعاقة الاغالبة عن فتح صقلية كلها وفي وضع

---

(١) فازيلييف ، العرب والروم ، ص ٦١

العقبات أمام الفاتحين حتى سنة ٢٨٩ هـ ، والابقاء على سيطرتهـا على مناطق هامة من جنوبي ايطاليا والبحر الادرياتي [١] .

وعندئذ انفرد المسلمون في اقريطش بالعمل بعد ان انقطعت حملات البيزنطيين عن قصد جزيرتهم في عهد تيوفيل (٨٢٩ — ٨٤٢) ، وانفسح لهم المجال بعد انتقال النشاط البحري البيزنطي الى صقليـة وأحرزوا انتصـارا حاسما على الاسطـول البيزنطي في سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) بالقرب من جزيرة ثاسوس ، وأخذوا يوجهون غاراتهم على سواحل آسيا الصغرى ، فهاجموا كاريا وايونيا ، وخربوا جزر السيكلاد والأتوس . وفي عهد الامبراطور ميشيل الثالث عزم انصار الأيقونـات على مهاجمة مسلمي اقريطش ، فخرج تيوكتيست في أسطول كبير في ١٨ مارس سنة ٨٤٣ هـ (٢٢٩ هـ) ، وأرسى بأسطوله على ساحل اقريطش ، ونجح في التغلب على المسلمين ، فعمد هؤلاء الى اصطناع الحيلة، فأشاعوا في عسكر تيوكتيست أن بعض المتآمرين في القسطنطينية يقومون بخلع الامبراطور . ولم يتردد تيوكتيست في المبادرة بالعودة الى القسطنطينية عندما وصلته هذه الانباء ، تاركا على الساحل الاقريطشي عددا كبيرا من جنده ، تحت رحمة المسلمين . وهكذا منيت هذه الحملة بالفشل ، وعادت أساطيل المسلمين باقريطش تهدد من جديد سواحل القسطنطينية نفسها [٢] .

وفطن البيزنطيون الى ان مصر هي مصدر قوة الاسطول الاسلامي باقريطش ، فهي التي تقوم بانتاج السفن اللازمة لمسلمي هذه الجزيرة . وتزويدهم بكل ما يلزمهم من سلاح وعدد وامتعة ، فعملوا على مهاجمة دمياط التي كانت تخرج منها المؤن والعدد الى جزيرة اقريطش ، وفي

---

(١) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٢٥٠ .

(٢) Vasiliev, op. cit. p. 194 والترجمة العربية ص١٧٢ — العدوي، اقريطش، ص٦٢ — فتحي عثمان ج ٢ ص ١٨٧

سنة ٢٣٨ هـ اقبل البيزنطيون في يوم عرفة على دمياط في ثلاثمائة سفينة بقيادة رؤساء البحر عرفا (لعله اوريفوس) وابن قطونا وامردنافه ، كل منهم يقود مائة سفينة ، فهاجم ابن قطونة دمياط بمائة من الشلنديات ، ودخلوا المدينة في غيبة حاميتها وقتلوا عددا كبيرا من سكانها ، وسبوا من نسائها نحو ١٦٠٠ امرأة منهن ١٢٥ مسلمة ، وساعدهم على تحقيق هدفهم اشتراك حامية دمياط ومن كان بها من الجند والجرخية والزراقين في حفل اقامه عنبسة بن اسحق الضبي والى مصر بمناسبة اعذار ولديه يوم العيد بمدينة الفسطاط [١] . ونهب البيزنطيون ما وجدوه بدمياط من اسلحة كانت موجهة الى ابي حفص صاحب اقريطش وعدتها الف قناة وآلتها . فأحرقوا خزانة القلوع وهي شرع السفن [٢] ، وأحرقوا جامع دمياط وكنائس ، وأخذوا من الامتعة والأسلحة شيئا كثيرا [٣] . وكان عنبسة قد سجن مقدما من أهل دمياط يقال له أبو جعفر بن الأكشف في بعض الابراج ، فلما هاجم البيزنطيون دمياط ولم يمنعهم عنها مانع ، مضى اليه بعض أعوانه ، وكسروا قيده وأخرجوه ، واجتمع اليه جماعة من أهل المدينة ، فحارب بهم الروم حتى هزمهم وأخرجهم من دمياط [٤] . ولما علم عنبسة بهذه الغزوة اقبل بجند مصر ، ولكنه وصلها بعد فوات الاوان ، اذ كان البيزنطيون قد خرجوا من دمياط الى أشتوم تنيس ، فأقاموا بأشتومها ، فلم يتبعهم عنبسة وتقاعس عن لقائهم ، وفي ذلك يسخر منه الشاعر يحيى بن الفضل موجها الأبيات للمتوكل :

أترضى بأن توطا حريمك عنوة وأن يستباح المسلمون ويحربوا
حمار أتى دمياط والروم وثب بتنيس منه رأى عين وأقرب

(١) الشيال ، المجمل في تاريخ دمياط ، الاسكندرية ١٩٤٩ ص ١٠
(٢) الطبرى ، حوادث سنة ٢٣٨ هـ ، ج ٣ ص ١٤١٧
(٣) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٦٥
(٤) الطبرى ، ج ٣ ص ١٤١٨ — ابن تغرى بردى ، ج ٢ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥

يقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فلا تنسنا أنا بدار مضيعة بمصر وأن الدين قد كاد يذهب [١]

فأمر المتوكل ببناء حصن دمياط ، فشرع عنبسة في بنائه في ٣ رمضان سنة ٢٣٩ ، وازداد الاهتمام منذ ذلك الحين بأمر الأسطول ، وجعلت الارزاق لغزاة البحر [٢] .

ثم هاجم الروم أشتوم تنيس عند مرسى يقع على بعد اربعة فراسخ من تنيس ، وله سور وباب حديد كان المعتصم قد أمر بعمله ، فخربوا عامته وأحرقوا ما فيه من المجانيق والعرادات وأخذوا بابيه الحديد ، فحملوهما ، ثم توجهوا الى بلادهم ، دون أن يتعرض لهم أحد [٣] .

ولم تؤثر غارة البيزنطيين على دمياط في الحد من نشاط أهل اقريطش البحري ضد البيزنطيين، فقد واصلوا شن غاراتهم البحرية المدمرة على الجزر البيزنطية ،ففي سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) هاجموا جزيرة ميتيلين وأتوس ، ودخلوا في دير فاتويدي في هذه الجزيرة ، وأسروا جماعة من رهبانه، وأحرقوا كنيستهم، ثم عاودوا الكرة على أتوس مرة أخرى ، فاضطر سكانها الى اخلائها . وفي سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) أغار المسلمون على جزيرة نيون ، وهي جزيرة صغيرة تقع بالقرب من أتوس [٤] ، واتخذوا فيها قاعدة شبه دائمة لهم [٥] . ولم تفلح جهود البيزنطيين في ايقاف هذا السيل المدمر من غارات المسلمين الذين أصبحت لهم السيادة في منطقة شرق البحر المتوسط .

---

(١) الكندي ، ص ٢٠١ — المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٧٧
(٢) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٧٨
(٣) الطبري ، ج ٣ ص ١٤١٨
(٤) فازيلييف ، ص ٢٢٦ — العدوي ، اقريطش ، ص ٦٥
(٥) أرشيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ٢٢٣

٥ ـ استرجاع البيزنطيين لاقريطش :

ظل المسلمون في اقريطش يشكلون خطرا جديا على الدولة البيزنطية . فغزوا جميع ما حول جزيرتهم من جزائر صغيرة ، وفتحوا معظمها ، وغنموا وسبوا ، ولم يكن للامبراطور البيزنطي قدرة على ردعهم او وضع حد لغزواتهم . ومنذ عهد بسيل الاول أصابت البحرية البيزنطية انتعاشا وضح أثره في مياه بحر ايجة ، ففي سنة ٢٦٦ هـ (٨٧٩ م) تمكن أسطول بيزنطي قوي بقيادة أمير البحر نيكيتاس اريفا من تحطيم اسطول من اساطيل المسلمين باقريطش في خليج كورنث. وقد كان لذلك أعظم الأثر في ايقاف النشاط البحري الاسلامي هناك لمدة عشرين سنة ، عاود بعدها المسلمون غزو السيكلاد ، ونجحت بعض قطع من هذا الأسطول الاسلامي في الوصول الى مياه بحر مرمرة . ويرجع تاريخ أقوى الضربات التي وجهها مسلمو اقريطش الى البيزنطيين الى سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) ، وذلك عندما أسهموا بأسطولهم في الهجوم الذي شنه ليو الطرابلسي [١] على سالونيك ، وحققوا في هذه الغزوة نجاحا تجاوز كل تقدير في الحسبان ، وبلغ عدد الاسرى من سكان هذه المدينة نحوا من ٢٢ ألف شخص [٢] .

وأثارت هذه الغارات ثائرة العاصمة البيزنطية ، وحركتها الى اتخاذ خطوة حاسمة لوضع حد لهذه الغارات ، ففي سنة ٢٩٨ هـ (٩١٠ م) تحركت بعض وحدات من الاسطول البيزنطي للاغارة على اقريطش ،

---

(١) من اشهر امراء البحر المسلمين ، وينسب الى مدينة طرابلس الشام التي ولد فيها ، وقد اشترك في كثير من الحملات والغزوات التي كان يقوم بها المجاهدون المسلمون في الارخبيل وثغوره وجزره ، ثم انتقل الى طرطوس واتخذها قاعدة لعملياته البحرية ضد البيزنطيين (محمد عبدالله عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٩٨)

(٢) ارشبالد لويس ، ص ٢٢٤ ـ عبدالله عنان ، ص ٩٨ وما يليها

ولكنهـا لقيت نفس مصير الحملات البحرية السابقة ، وظـل اسطول اقريطش بالتعاون مع أساطيل سورية ومصر يشكل خطرا جسيما علـى الدولة البيزنطية الى ان تسكن رومانوس ليكابنيوس (٩١٩ — ٩٤٤ م) من الانتصـار على أسطول ليو الطرابلسي في سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) بالقرب من جزيرة لمنوس [١] ، وتحرير منطقة بحر ايجـة مـن هجمات المسلمين فترة تزيد على عشرين سنة [٢] .

وبعث هذا الانتصار روح النضال عند البيزنطيين ، فزاد اهتمامهم بالبحرية، واستقر عزمهم على استرجاع اقريطش مصدر البلاء بالنسبة اليهم. ففي سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) خرجت حملة بيزنطية كبيرة نحو اقريطش ، ولكنها لم تحقق اي نجاح ، ولم يثنهم ذلك عن المحاولة من جديـد . وأخذوا يركزون هجماتهم على الجزيرة في عهد الامبراطور رومانوس الثاني (٩٥٩ — ٩٦٣ م) الذي نجح في تكوين اسطول ضخم اخذ يوجه به الضربات المتواصلة على مصر واقريطش .

ثم عمد الامبراطور الى حشد كل طاقاته البحرية وتسخيرها دفعـة واحدة لاسترداد اقريطش ، فأعد لهذا الغرض قوة بحرية هائلة لم يشهد لها البحر المتوسط مثيلا من قبل ، تتألف من ٢٠٠٠ سفينة حربيـة ، و ١٣٦٠ سفينة للمؤن والامدادات ، وكان أحجام بعض السفن الحربية كبيرا للغاية ، ومنها ما كان مزودا بعـدد كبير من المجاذيف يصـل في السفينة الواحدة الى ٢٥٠ مجذافا موزعة على أربعة صفوف ، ومنها ما كان مصنوعا بطريقة خاصة تجعلها صالحة لانزال الجند على الساحل . وما ان تهيأ للامبراطور اعداد الحملة البحرية حتى جعل على قيادتهـا

(١) Diehl, op. cit. p. 458 — ارشيبالد لويس ، ص ٢٢٤

(٢) ارشيبالد لويس ، ص ٢٣٢

القائد العظيم نقفور فوقاس [١] . ويروى النويري قصة استيلاء البيزنطيين على الجزيرة في عهد « أرمانوس [٢] » اي رومانوس ، بواسطة قائده « نجفور الدمستق » وأنجاد رجاله في غرة المحرم سنة ٣٥٠ هـ . فيذكر أنهم دخلوها بخدعة ، ففاجأوا أهل الجزيرة على غرة ، وملكوا الجزيرة وقتلوا أميرها ومن معه من الجند [٣] .

وعندما رأى عبد العزيز بن شعيب أمير اقريطش [٤] هذه الحشود الهائلة من البيزنطيين استصرخ ملوك الاسلام المجاورين له ، فاستمد أبا الحسن علي بن الاخشيد صاحب مصر الذي تجمعه معه دعوة بني العباس ، ولكن ابن الاخشيد كان مغلوبا على أمره بسبب استبداد كافور بشؤون الحكم ، فأبدى عجزه عن نصرته ، وعهد الى بعض دعاة الفاطميين في مصر بالكتابة الى المعز لدين الله الفاطمي في افريقية لاغاثة المسلمين في اقريطش، وبعث الى المعز وفدا من أهل اقريطش كانوا قد قدموا عنده ، وتظاهر علي بن الاخشيد بأنه ينوى نصرة مسلمى اقريطش ، وذلك عندما بلغه انكار العامة لموقفه المتخاذل وتقاعسه عن مساعدة أهل اقريطش ، فأمر بعض مراكبه أن يسير في البحر للتمويه على الناس وتضليلهم [٥] .

ويذكر القاضي النعمان أن رومانوس الثاني كان قد بعث الى المعز يطلب منه أن يمد الموادعة بينهما ، فوادعه على خمس سنين ، وقبل أن ينتهي أجل هذه الموادعة ، « أرسل الدمستق الذي هو أقرب رجاله

---

(١) Diehl, p. 462 — ارشبالد لويس ، ص ٢٩٦

(٢) النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٢ ص ٢٤١ . ويذكرونه في بعض المصادر باسم ارمانوس بن قسطنطين .

(٣) نفس المصدر

(٤) الحميدي ، ص ٢٨٣ — الضبي ، ص ٢٩٤

(٥) القاضي النعمان ، ص ٢٣

درجة اليه وأخصهم به في عدة من السفن كثيرة وجيوش ثقيلة ، حتى أناخ بها على جزيرة اقريطش ، وهم في دعوة بني العباس ، فلما حل بهم من ذلك مالا قبل لهم به ، وعلموا أنه ليس عند بني العباس نهضة ولا لديه نصرة ؛ أرسلوا مركبا فيه رجال من قبلهم مع وجه من وجوههم الى أمير المؤمنين المعز لدين الله يستغيثون به ويسألونه استنقاذهم واغاثتهم » [١]

ورأى المعز أن يستفيد من الموقف الى أقصى حد ممكن ، فيتخذ من مدخله في شؤون اقريطش ذريعة للتدخل في شؤون مصر ، ورسم خطة للتعاون بينه وبين الاخشيديين لنصرة أهل اقريطش . فكتب الى ابن الاخشيد رسالة يحثه فيها على الجهاد وامداد أهل اقريطش بالمراكب لقربهم منه واتصالهم به وجيرتهم له ، وحاول أن يبدد شكوكه في نياته من ارسال الأساطيل ، ويزيل مخاوفه منه على سفنه ، فأعطاه المواثيق والعهود بأنه يرعى جنده ويعتبرهم كأجناده ، ويشركهم في الفيء . ثم أبدى له رغبته في أن يتم تجمع الأساطيل في مرسي طنبة من أرض برقة لقربه من جزيرة اقريطش في أول ربيع الآخر سنة ٣٥٠ هـ . واختتم رسالته بقوله : « ونحن بحول الله وقوته وتأييده ونصره وعونه مستغنون عنك وعن غيرك وعلى عزم وبصيرة في انفاذ أساطيلنا ورجالنا وعدتنا وما خوّلنا الله اياه واقدرنا عليه مما نرى بحوله وقوته نبلغ به ما نؤم اليه بذلك ونصمد نحوه » [٢] . ثم كتب رسالة الى رومانوس الثاني بين له فيها أنه (أي رومانوس) بحملته على اقريطش يكون قد نكث بعهده ، ثم هدده بأنه اذا تمادى على حرب أهل اقريطش فانه سيناجزه الحرب [٣]

ثم أن المعز ذكر لوفد اقريطش أنه قد أمر بتجهيز الأساطيل لنجدة

---

(١) القاضي النعمان ، ص ٢١
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٢

أهل اقريطش بدون عرض له سوى الجهاد [١] . ويذكر ابن الأثير أن المعز أرسل الى أهل جزيرة اقريطش نجـدة ، فقاتلـوا الروم وانتصر المسلمون وأسروا من كان بالجزيرة من الروم [٢] . ولكن هذا القول غير صحيح لأن المصادر العربية واللاتينية تجمع على أن البيزنطيين استولوا على جزيرة اقريطش في سنة ٣٥٠ هـ . ونعتقد أن المعز استهان بقـوة البيزنطيين فلم يرسل من أسطوله الا عددا محدودا من السفن ، لايتناسب مع ضخامة أساطيل البيزنطيين ، ويبدو أيضا أنه اعتمد على المعونة البحرية التي قد تقدمها مصر ، ولكن مصر كانت في شغل شاغل عن الاستجابـة لنداء أهل اقريطش ، فقد كانت البلاد تعاني من المجاعات ، وكانت مدينة تنيس قد تعرضت لغارة قام بها البيزنطيون بسفن قادمة من صقلية في سنة ٣٤٨ هـ فنهبوا المدينة [٣] . وهكذا لم تكن مصر في حالة تسمح لها بالدخول في حرب بحرية مـع البيزنطيين ، ووجـدت سفـن الفاطميين نفسها وحيدة أمام أساطيل بيزنطية ضخمة لم تحسب لها حسابا ، ولذلك باءت حملة المعز بالفشل ازاء ضخامة حشود الروم ، ويبدو أن سفنهـم لم تحتمل الدخول فيمعركة مع أساطيل الروم، ولعلها انسحبت سريعا تاركة الجزيرة لمصيرها التعس ، ونرجح أنه لم يحدث صدام بينها وبين سفن البيزنطيين التي كانت تطوق كل سواحل الجزيرة المنكوبة .

وقاتل أهل اقريطش الروم بقدر ما استطاعوا ، واستبسلوا في الدفاع من جزيرتهم طوال فصل الشتاء ، ولم ينجح نقفور فوقاس في اقتحـام الخندق الا في ٧ مارس سنة ٩٦١ م بعد هجوم شامل عنيف سالت فيه

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥

(٢) ابن الاثير ، حوادث ٣٥١ . وابن الاثير هو الوحيد من بين مؤرخي العرب الذي يحدد سنة ٣٥١ للحملة البيزنطية ، وهو ايضا الوحيد من بينهم الذي يؤكد انتصار المسلمين .

(٣) المقريزي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢١٥

دماء الفريقين ، وانتهى بسقوط الخندق معقل المسلمين الأمنع في أيدي الغزاة [1] ، وتساقطت بعده بقية معاقلها الاخرى . وأحدث سقوط اقريطش في أيدي البيزنطيين ، وتخريب مساجدها وسبي كثير من نسائها دويا هائلا في العالم الاسلامي ، فثار العامة في مصر ، وخربوا احدى الكنائس في مصر القديمة [2] . وبسقوط اقريطش تم للبيزنطيين السيطرة على النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط .

(1) Diehl, op. cit. p. 462

(2) يحيي بن سعيد الانطاكي ، صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٥ ص ١١٧

ثانيا ـ فتح صقلية :

١ ـ التمهيد لفتح صقلية في زمن الأغالبة :

يعتبر فتح الأغالبة لصقلية في سنة ٢١٢ هـ من الأحداث البارزة في تاريخ البحرية الاسلامية ، اذ ترتب على فتحها على أيدي المسلمين انتقال السيادة في البحر المتوسط الغربي الى المغرب الاسلامي ، اذ أن صقلية تعد أكبر جزر البحر المتوسط مساحة ، وأغناها من حيث الموارد الاقتصادية ، وأفضلها موقعا ، بحكم أنها بوقوعها في البحر بين ساحل ايطاليا الجنوبية وساحل افريقية تقسم البحر المتوسط الى قسمين : شرقي وغربي ، ثم بحكم قربها الشديد لاقليم ريو وقلورية بجنوبي ايطاليا من الجهة الشمالية الشرقية بحيث لا يفصلها عنه من هذه الجهة سوى مضيق مسيني ، وقربها أيضا من السواحل الافريقية وجزيرة قوصرة من الجهة الجنوبية الغربية ، وهو موقع يفسر لنا كثيرا من الأحداث التاريخية التي مرت بها البلاد التونسية ، كنزول البيزنطيين على سواحل افريقية في مرحلة الغزوات العربية الأولى على فترات متقطعة مما سبب امتداد حركة الفتح العربي زمنيا ، ومثل تعرض افريقية للغزو النورماني من جهة ،وقيام الأغالبة ثم الفاطميين من بعدهم فالزيريين بغزو جنوب ايطاليا وسواحل البحر الادرياتي من قاعدتهم بصقلية ، يضاف الى ذلك التواصل بين الحضارتين اللاتينية والاسلامية ، وتأصل التقاليد الاسلامية في صقلية وجنوبي ايطاليا زمنا طويلا حتى بعد سقوط صقلية في أيدي النورمان .

وقد تنبه العرب منذ حملة عبدالله بن سعد الى الأهمية الاستراتيجية لصقلية ، وأدركوا ضرورة فتحها لتأمين فتوحهم في افريقية ، وتعرضت هذه الجزيرة منذ حملة معاوية بن حديج لغارات المسلمين البحرية ، فغزاها عبدالله بن قيس الفزاري من قبل معاوية بن حديج من افريقية في

خلافة معاوية بن أبي سفيان [١] سنة ٤٦ هـ . وغنم المسلمون غنائم كثيرة من بينها أصنام من الذهب والفضة مكللة بالجوهر ، ثم غزاها عقبة ابن نافع في البحر بأهل مصر في سنة ٤٩ [٢] هـ ، ثم غزاها عطاء بن رافع الهذلي أيضا في مراكب أهل مصر في سنة ٨٣ هـ [٣] . وغزاها عياش ابن أخيل في ولاية موسى بن نصير في أسطول المغرب ، وهاجم سرقوسة . وغنم منها غنائم كثيرة [٤] . وتوالت عليها غزوات المسلمين بعد ذلك . فغزيت في سنة ١٠٢ هـ [٥] في ولاية يزيد بن أبي مسلم . وفي سنة ١٠٩ هـ غزاها بشر بن صفوان بنفسه [٦] في خلافة هشام بن عبد الملك ، ثم غزاها المستنير بن الحارث الحريثي في سنة ١١٣ هـ [٧] . وغزاها حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع في سنة ١١٦ هـ [٨] ، ثم غزاها في العام التالي [٩] . ثم غزاها للمرة الثالثة في سنة ١٢٢ هـ مع ابنه عبد الرحمن بن حبيب [١٠] . وغزاها عبد الرحمن بن حبيب في سنة ١٣٥ هـ أيام امارته على افريقية [١١] .

وتبع هذه الغزوة الأخيرة فترة من الخمول والركود لم يزاول فيها المسلمون أي نشاط بحري ، بسبب اشتغال ولاة افريقية بالفتن مع

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٧٨ — ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢ — النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٥ ، ٢٢٦

(٢) أبو المحاسن ، ج ١ ص ١٢٨

(٣) الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج ٣ ص ٢٢٣ . ويسميه الذهبي عطاء بن ابي نافع

(٤) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ص ٧٥ — ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦

(٥) ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٨٢

(٦) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٠١ — ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٨ — النويري ، ج ٢٢ ص ٤٨

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ٢٩٢ — ابن الاثير ، ج ٤ ص ٢١٥ — ابن ابي دينار القيرواني ، ص ٣٥

(٨) ابن الاثير ، ج ٤ ص ٢١٩ .

(٩) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٢٢

(١٠) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٢٢ — النويري ، ص ٢٢٦

(١١) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٧٩

البربر ، فاستغل البيزنطيون هذه الفرصة ، وأخذوا يحصنون بلادهم وسواحلهم ويعسرونها بالمعاقل والحصون ، ولم يتركوا جبلا الا أقاموا عليه حصنا ، وكانت وحداتهم البحرية تطوف بسواحل الجزيرة للذب عنها ، وكثيرا ما طارقوا تجارا من المسلمين فأسروهم [١] ، وتجرأت سفنهم على مهاجمة السواحل الافريقية ، ولعل ذلك كان السبب في اهتمام هرثمة بن أعين ببناء القصر الكبير بالمنستير في سنة ١٨٠ هـ ، وبناء سور مدينة طرابلس . وظل الروم يواصلون توجيه غاراتهم البحرية على الساحل التونسي حتى قامت أسرة الأغالبة ، واضطر الأمير ابراهيم بن الأغلب الى أن يعقد مع البطريق قسطنطين صاحب صقلية هدنة لمدة عشر سنوات ، ولكن هذه المعاهدة لم تصبح سارية المفعول الا فترة قصيرة من الوقت ، بسبب الغزوات المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين ، فقد أغار المسلمون على بعض جزر صقلية ، فسير الامبراطور ميشيل الأول أسطولا بقيادة جريجوري لمحاربة المسلمين ، غير أن هؤلاء تمكنوا من الاستيلاء على بعض سفن البيزنطيين قرب جزيرة لنبدوشة ، وقتلوا من كان بها ، فاضطر الروم الى المبادرة بالهجوم ، وتغلبوا في هذه المرة على المسلمين .

وأدت هذه الاعتداءات المتبادلة الى معاودة النظر في تجديد الهدنة مدة عشر سنوات تبدأ من سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م) ، في امارة أبي العباس بن ابراهيم الأغلبي ، وقد اتفق الطرفان على ضمان الأمن للتجار المسلمين في صقلية وللروم في افريقية [٢] .

---

(١) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٤٥ — النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٦

(٢) المالكي ، ص ١٨٦ — Marçais, La Bérberie musulmane, p. 65 - فازيلييف ، ص ٦٤ — طرخان ، المسلمون في اوربا ، ص ٩١

ولا شك أن الغارات المتواصلة التي تعرضت لها صقلية من سنة ٤٦ هـ حتى سنة ١٣٥ هـ كانت تجارب مفيدة للمسلمين ، اذ بفضلها تمكنوا من دراسة هذه الجزيرة ومعرفتها معرفة تامة • ثم كان لاستيلاء المسلمين على قوصرة الواقعة في منتصف المسافة بين صقلية وساحل افريقية فيما يقرب من سنة ١٣٠ هـ على يد عبد الرحمن بن حبيب الفهري بعد محاولتين سابقتين ، احداهما في سنة ٨٨ هـ على يدي عبد الملك بن قطن ، والثانية في سنة ١١٨ على يدي حبيب بن أبي عبدة [١] ، أعظم الاثر في اتخاذها قاعدة أمامية للدفاع عن ساحل تونس ، وتوجيه الغارات على صقلية وسردانية وغيرهما [٢] •

٢ ـ أسباب فتح المسلمين لصقلية :

يرجع فتح المسلمين لجزيرة صقلية الى عدة عوامل نلخصها فيما يلي :

ا ـ اتجاه الاغالبة الى اصطناع سياسة بحرية : شهد المغرب الاسلامي منذ أواخر القرن الثاني الهجري قيام دويلات مستقلة في سائر أجزائه ، أهمها وأشهرها دولة الأغالبة التي قامت في افريقية ، وكانت تتمتع باستقلال جزئي عن الخلافة العباسية ، لتكون حاجزا بين البلاد التابعة للعباسيين في شرق تونس وبين بلاد الرستميين والادارسة •

وأسرة الأغالبة أسرة مستنيرة ، اهتمت في آن واحد بالتعمير السلمي والبناء الحربي ، فقد أدرك ابراهيم بن الأغلب مؤسس هذه الاسرة منذ أن أقر الخليفة العباسي الرشيد امارته على افريقية أن امتداد امارته من طرابلس شرقا حتى بجاية غربا يستلزم أسطولا يستطيع بواسطته حماية

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب ، جزيرة قوصرة ، ص ٥٩

(٢) فازيلييف ، ص ٦٣

هذه السواحل من غزوات الروم ،وفي نفس الوقت يعينه على العودة بالسياسة الاسلامية الافريقية الى توجيه الغارات على بلاد الروم، ثم انه كان يرمي أيضا الى استخدام هذا الأسطول لاخماد الثورات التي كثيرا ما كانت تحتدم في اطرابلس مركز الاباضية • وحرص ابراهيم بن الأغلب على الافادة من قدرات سكان افريقية البحرية ، وخاصة الأفارقة ، ممثلة في ميولهم البحرية الواضحة عند سكان السواحل ، وفي توافر المواد اللازمة لصناعة الأساطيل ، لتكوين قوة بحرية عظيمة [١] ، وقدر لهذا الأسطول أن ينمو وتزيد قوته في زمن زيادة الله ، وأصبح من الضروري أن يقوم هذا الاسطول بتحقيق آمال المسلمين القديمة فيساهم في عهود من أعقب زيادة الله من أمراء بني الأغلب في افتتاح جزيرة صقلية كلها وجزيرة مالطة ، وسواحل ايطاليا الجنوبية والجنوبية الغربية وجزيرة سردانية • وجاء فتح صقلية متمما لسيادة العرب في النصف الغربي من البحر المتوسط •

ب ـ اهمية صقلية من الناحيتين الاقتصادية والحربية : كانت صقلية بالنسبة للمسلمين بلادا خصبة كثيرة الخيرات ، غنية بمواردها الطبيعية وثرواتها المعدنية [٢] • وكانت بالاضافة الى ذلك كله تمثل بلادا جديدة يسكن فتحها واستغلالها في زيادة مصادر الثروة الاقتصادية لدولة الأغالبة ، خاصة وأن افريقية كانت قد أقفرت من هذه الموارد بسبب ما تعرضت له من فتن مدمرة وحروب دامية ، زد على ذلك أن

---

(١) عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٣٧٤

(٢) ذكر البكري انها كثيرة الزرع والضرع والفواكه (البكري ، ص ٢١٣) ، وذكر الادريسي أن المياه بجميع جزيرة صقلية مخترقة ، وعيونها جارية متدفقة ، وفواكهها ومبانيها ومنتزهاتها حسنة رائعة (الادريسي ص ٢٢ ـ الحميري ، ص ١٤٧) . وذكر ياقوت أنها جزيرة خصبة كثيرة البلدان والقرى والامصار ، وبها عيون غزيرة وانهار جارية ونزه عجيبة ، وفيها معدن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وجميع الفواكه على اختلافها (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤١٦)

الأغالبة كانوا يدركون أهمية موقع صقلية الجغرافي بالنسبة لدولتهم . فهي بتحكمها في النصفين الشرقي والغربي من حوض البحر المتوسط يمكن لمن يستولي عليها أن يفرض سلطانه على السواحل المجاورة لها والجزر القريبة منها .

ج ـ الجهاد في سبيل الله : كان من أثر الفتن العنيفة التي اتخذت من أرض افريقية وطرابلس مسرحا داميا لها فيما يقرب من منتصف القرن الثاني الهجري أن ساد البلاد نزعة شديدة الى التفقه في الدين ، ولم تلبث افريقية أن تحولت الى بلد اسلامي تغلب عليه الروح الدينية ويسود فيه المذهب المالكي [١] الذي يتلاءم مع الروح السائدة عند سكان هذا الاقليم من حيث الاستمساك بالكتاب والسنة والنفور من التأويل والتخريج . وظهرت في البلاد التونسية طبقة من العلماء المالكية المتفقهين المتعبدين الزاهدين من أعلامها البهلول بن راشد مؤلف الديوان في الفقه على مذهب مالك [٢] ، وعبدالله بن عمر بن غانم الرعيني [٣] ، وصقلاب بن زياد الهمذاني [٤] ، وأسد بن الفرات [٥] ، وأبو محرز محمد بن عبدالله بن قيس [٦] ، وسحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي [٧] . وكان لهؤلاء العلماء المالكية أعظم الأثر في غلبة الروح الدينية والاتجاه الى الزهد والرغبة في المرابطة بالثغور بقصد الجهاد في سبيل الله ، بسبب تعرض السواحل الافريقية لغارات الروم البحرية ، واعتبر الرباط في هذه الثغور جهادا في سبيل الله وقربة اليه [٨] ، فنشأت

(١) حسين مؤنس ، مقدمة كتاب رياض النفوس للمالكي ، ص ٧
(٢) المالكي ، ص ١٣٢
(٣) نفس المصدر ، ص ١٤٣
(٤) نفس المصدر ، ص ١٥٥
(٥) نفسه ، ص ١٧٢
(٦) نفسه ، ص ١٨٩
(٧) نفسه ، ص ٢٤٩
(٨) مؤنس ، مقدمة كتاب رياض النفوس ، ص ٢٥

الرباطات والقصور على سواحل افريقية : في قابس وسوسة ولمطة وتونس والمنستير ، وفي هذه الأربطة كان يقيم المتعبدون والمجاهدون بقصد حراسة المسلمين والتعبد لله في آن واحد . وكان الخروج لغزو الروم في صقلية غاية ما يتمناه هؤلاء الصالحون . ولا شك أن الأمير زيادة الله بن الأغلب قد نجح في استثارة هذا الشعور الديني السائد باختيار أسد ابن الفرات القاضي قائدا للحملة الى صقلية ، والشعور الديني طاقة كبيرة لها وزنها وأهميتها في الفتوحات الاسلامية ، وهو في نفس الوقت يخفي الأغراض الحقيقية لزيادة الله من وراء هذه الحملة . ومما لا شك فيه أن زيادة الله بغزو صقلية نكث بعهد الصلح الذي كان قد عقده أبو العباس مع البيزنطيين ، وكان يعلم أن علماء افريقية لا يقرونه على البدء بنقض العهد مع الروم لأنه لم يثبت عند المسلمين أن الروم نقضوا العهد [١] ، ولذلك اختار أسدا لهذه المهمة حتى يكسب الحملة نوعا من الشرعية ، فولاه قائدا على الجيش «وأقره على القضاء مع القيادة ، فخرج معه اشراف افريقية من العرب والجند والبربر والأندلسيين وأهل العلم والبصر» [٢] .

د ـ **التخلص من العناصر الثائرة في البلاد** : عانى زيادة الله كثيرا من الثورات التي قام بها جنده عليه ، وفتنهم المتعددة التي كادت تطيح بملك بني الأغلب ، مثل ثورة عمر بن معاوية القيسي في القصرين سنة ٢٠٨ هـ ، وثورة منصور الطنبذي بتونس في سنة ٢٠٩ هـ الذي التف حوله الجند والقواد وتواثبوا على الامير [٣] ، وثورة عامر بن نافع الازرق

---

(١) المالكي ، ص ١٨٧

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢

(٣) كانت ثورة منصور اخطر هذه الثورات لان القواد انتزوا على اعمال افريقية ، كل قائد على بلدة يضبطها ويمتنع فيها من عقوبة زيادة الله التي توعدهم بها ، واضطرمت افريقية نارا ، ورمى الجند كلهم الى منصور الطنبذي ازمة امورهم ، وولوه على انفسهم » ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٨

بسببه في سنة ٢١٠ هـ [١] . ويرجع سبب قيام الجند بالثورة على زيادة الله الى استخفافه بهم ، وامعانه في سفك دمائهم لسوء ظنه بهم ، وقد ساء مركز زيادة الله بسبب هذه الثورات الى حد أن الجند كتبوا اليه بأن يرحل عن افريقية [٢] . وليس أدل على خطورة ثورة عامر بن نافع من تعليق زيادة الله عندما بلغه وفاة عامر في سنة ٢١٣ هـ بقوله : « اليوم وضعت الحرب أوزارها » [٣] . كذلك حرص زيادة الله على اشراك البربر في حملته التي أعدها لغزو صقلية حتى يشغلهم بمقاتلة الروم عن التفكير في القيام عليه [٤] ، ويضع حدا للاضطرابات التي كانت تحدث بين السودان والعرب والبربر [٥] .

هـ ـ استنصار فيمي Euphemius قائد الاسطول البيزنطي في صقلية بزيادة الله :

ذكر ابن الأثير أن الامبراطور البيزنطي ميشيل الثانى ولي في سنة ٢١١ هـ (٨٢٦م) على صقلية بطريقا يقال له قسطنطين ويلقب بسودة ، « فعمر أسطولا وسيره الى بر افريقية وولي عليه فيمي الرومى ، وكان مقدما من بطارقته ، فاختطف من بعض سواحلها تجارا وبقي مدة » [٦] . واتفق أن غضب الامبراطور على فيمي، وأمر واليه على صقلية بالقبض عليه وتعذيبه ، بسبب اكراهه ـ كما تزعم المصادر اللاتينية ـ راهبة يقال

(١) المغرب الكبير ، ص ٤١٧

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٠.

(٣) نفس المصدر، ص ١٣٢

(٤) المغرب الكبير ، ص ٤١٨

(٥) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ١٩٠.

(٦) ابن الاثير ، ج ٥ ص ٢١٢ ـ ياقوت ، ج ٣ ص ٤١٧ ـ النويري ، ص ٢٢٦ . ويتفق ابن الاثير وياقوت والنويري في اسم صاحب صقلية البطريق .

لها هومونيزا على الزواج منه [١] . والحقيقة أنه ثار مغتنما فرصة قيام توماس بالثورة على الامبراطور وانتصار المسلمين في اقريطش [٢] . فلما علم فيمي بذلك ، وأدرك مدى ما يتهدده من أخطار، جمع أنصاره، واعتزى بأسطوله، وشق عصا الطاعة على الامبراطور، وزحف الى مدينة سرقوسة، وتمكن من التغلب عليها . فتصدى له قسطنطين واشتبك الفريقان في قتال عنيف انتهى بهزيمة قسطنطين وفراره الى قطانية حيث تمكن فيمي من أسره ثم قتله . وأعلن فيمي نفسه امبراطورا «وخوطب فيمي بالملك»، وقلد أصحابه وأنصاره على أقاليم صقلية ومدنها ، ومن بينهم رجل أرمني يقال له بلاطه ، فقدمه وولاه على ناحية من الجزيرة . ولكن بلاطه لم يلبث أن انقلب عليه وانضم الى الفريق الامبراطوري وأيده في ذلك ابن عم له يقال له ميخائيل ، كان يتولى بلرم [٣] ، فقادا جيشا حاربا به فيمي وهزماه ، وقتلا من أصحابه نحوا من ألف رجل ، وتمكن بلاطه من الاستيلاء على سرقوسة . أمافيمي فلم يجد من ينصره في الجزيرة ، فركب ومن معه سفينة وتوجه الى افريقية ، حيث التمس من أميرها زيادة الله ابن ابراهيم أن ينصره على خصومه في الجزيرة ، وأن يساعده بجيشه في التغلب على بلاطه ، ووعده في مقابل ذلك بأن يملك جزيرة صقلية [٤] .

وكان زيادة الله مرتبطا مع الروم بهدنة من بنودها أن من دخل الى الروم من المسلمين وأراد أن يردوه الى بلده ردوه [٥]، ولهذا السبب عقد مجلسا من الفقهاء لاستفتائهم في هذه القضية ودراسة ما عرضه عليه فيمي بشأن فتح

---

(١) فازيلييف ص ٦٨

(٢) نفسه ، ص ٧٠

(٣) ابن الاثير (المكتبة الصقلية) ص ٢٢٢

(٤) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٨٧ - النويري ، ص ٢٢٦ - احسان عباس ، ص ٢٢

(٥) المالكي ، ص ١٨٦

صقلية . وكان من كبار الفقهاء القاضيان أبو محرز وأسد ، فسألهما عن رأيهما ، فقال أبو محرز : « نستأنى في هذا الأمر حتى تتبين » ، وأما أسد فقال : «نسأل رسلهم عن ذلك» ، فقال أبو محرز : «وكيف نقبل قول الرسل عليهم أو دفعهم عنهم ؟ فقال أسد : بالرسل هادناهم وبالرسل نجعلهم ناقضين ، قال الله عز وجل (فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون) ، فكذلك لا تماسك به ، ونحن الأعلون . قال فسأل زيادة الله عند ذلك الرسل ، فقالوا : نعم حبسوهم لأنهم في دينهم لا يحل لهم ردهم . قال وكان في الرسل مسلم » [١] . وقال بعض الفقهاء : « نغزوها ولا نسكنها ولا نتخذها وطنا » [٢] . وكره بعض علماء افريقية غزوها متمسكين بالعهد الذي كان قائما بين المسلمين والروم ، ما دام لم يثبت بعد أن الروم نكثوا هذا العهد [٣] . على أن النويري يؤكد أن معظم الفقهاء أفتوا بغزوها ، ورغبوا في ذلك ، وسارعوا اليه ، وعند ذلك استقر عزم زيادة الله على الغزو [٤] بعد أن هون عليه فيمي أمر غزوها وأغراه بها [٥] .

٣ ـ فتح صقلية :

يشبه فتح المسلمين لصقلية فتحهم للأندلس ، فكما أن استنجاد فيمي بزيادة الله كان سببا مباشرا في اغراء زيادة الله على فتح صقلية كان استنجاد وقلة ويليان بموسى بن نصير سببا مباشرا في جواز قائده

---

(١) نفسه ، ص ١٨٧

(٢) النويري ، ص ٢٢٧

(٣) المالكي ، ص ١٨٧

(٤) النويري ص ٢٢٧

(٥) معجم البلدان (المكتبة الصقلية) ص ١١٧

طارق بن زياد الى الأندلس [١] . ويبدو أن زيادة الله كان يسعى الى ترغيب الناس في غزو صقلية ، واكساب الحملة طابعا من الجهاد في سبيل الله ، فعندما بلغه أن أسد بن الفرات أبدى رغبته في الخروج في هذه الغزوة كواحد من المسلمين ، ولاه امرة الجيش مع الاحتفاظ بالقضاء فأصبح أسد بن الفرات قاضيا أميرا ، ولم تجتمع الامارة والقضاء من قبل لأحد في افريقية الا لأسد وحده [٢] . وأصدر زيادة الله امره الى فيمي ، وكان قد قصده بالقيروان [٣] ، بالتوجه الى مرسى سوسة ، والاقامة هناك في انتظار تجمع قطع الأسطول الاسلامي [٤] .

خرج أسد بن الفرات من القيروان في حشود قوامها عشرة آلاف من المرجالة وسبعمائة من الفرسان [٥] بأفراسهم ، متوجها الى سوسة ليركب منها الى صقلية ، وخرج معه وجوه أهل العلم وعدد كبير من الأهالي لتوديعه ، واحتفل زيادة الله بذلك اليوم ، فأمر الا يبقى أحد من رجاله الا شيعه ، فركب أسد في جمع عظيم بين صهيل الخيول وقرع الطبول وارتفاع البنود [٦] .

وأقلع الاسطول الاسلامي من مدينة سوسة في يوم السبت ١٥ من شهر ربيع الاول سنة ٢١٢ هـ (١٤ يونيو سنة ٨٢٧ م) وكان يتكون من سبعين مركبا [٧] ، وقيل مائة مركب ، بالاضافة الى مراكب فيمي [٨] .

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٦٧ — المغرب الكبير ، ص ٣٨٧
(٢) المالكي ، ص ١٨٧
(٣) معجم البلدان (المكتبة الصقلية) ص ١١٧
(٤) النويرى ، ص ٢٢٧
(٥) ابن عذاري، ج ١ ص ١١٢ — النويري، ص ٢٢٧ — اتحاف اهل الزمان، ص ١٠٦
(٦) المالكي ، ص ١٨٨
(٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٢ — الحميري ، ص ١٥٧
(٨) النويري ، ص ٢٢٧

فوصلت الأساطيل الى بلدة مازر Mazara في يوم الثلاثاء، أي بعد ثلاثة أيام من الابحار من سوسة ، ومازر هي أقرب مدن صقلية الى سوسة ، وكان لفيمي بها أنصار عديدون [١] ، فأمر أسد بالخيل والجند بالخروج من المراكب ، وأقام بمازر ثلاثة أيام . وذكر المالكي أنه حدث اختلاف بين أسد بن الفرات وبين أحد قواده وهو ابن قادم ، سببه أنه لما نزل المسلمون بصقلية أضر بهم الجوع حتى أكلوا لحوم الخيل ، ففوض الجند الى ابن قادم أن يحدث أسدا عنهم في اعادتهم الى افريقية ، فرفض أسد ، وأراد حرق المراكب ، ثم انه عاقب ابن قادم فضربه بالسوط [٢] .

لم يشتبك جيش أسد أثناء مقامه في مازر مع الروم ، فلم يخرج للقائه الا سرية واحدة تمكن من أسرها فاذا هي من أنصار فيمي ، وعندئذ أمر أسد بفصل جيش فيمي عن المسلمين ، وقرر الاستقلال بعملياته اذ لم يكن يثق بصدق معوتته [٣] . وذكر المالكي أنه قال لفيمه أو فيمي : «اعتزلنا ، فلا حاجة لنا بأن تعينونا» . وقال : «اجعلوا على رؤوسكم سيماء تعرفون بها لئلا يتوهم واحد منا أنكم من هؤلاء المواقفين لنا فيصيبكم بمكروه . فجعلوا على رؤوسهم الحشيش ، فكانت تلك سيماهم » [٤] . ويبدو أنهم وضعوا غصنا نباتيا حول رؤوسهم تمييزا لهم عن بقية الروم . ثم سار جيش المسلمين نحو سهل بلاطة مارا بقلعة بلوط ثم قرى الرفش وقلعة الدب وقلعة الطواويس ، ثم الى أرض المعركة التي سميت باسم بلاطه نسبة الى صاحب صقلية [٥] . وأقبل بلاطة في

---

(١) فازيلييف ص ٧٢

(٢) المالكي ،ص ١٨٩

(٣) ياقوت ، المكتبة الصقلية ، ص ١١٧ ـ النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٧

(٤) المالكي ، ص ١٨٨

(٥) الحميري ، مقتبسات من الروض المعطار ، ص ١٥٧

جيش عدته ١٥٠ ألف مقاتل ، فخطب أسد في الناس وهو يحمل اللواء وقال : « هؤلاء عجم الساحل ، هؤلاء عبيدكم ، لا تهابوهم » [١] • ثم كبّر المسلمون وحملوا مع قائدهم ، وتمادت عزائم المسلمين حتى هزموا بلاطه وأصحابه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وغنموا ما معهم ، وانسحب بلاطة الى قصريانة Castrogiovanni ، ثم غلبه الخوف من لقاء المسلمين ، ففر من صقلية الى قلورية Calabria بجنوبي ايطاليا ، فقتل بها [٢] •

بعد هذا الانتصار الحاسم ، استعمل أسد على مازر أبا زاكي الكناني ، ثم زحف الى موضع على البحر يقال له كنيسة ايفيمية • ويذكر أماري أنها فينياس القديمة ، ثم سار الى كنيسة المسلقين • وهناك أقبل اليه طائفة من بطارقة سرقوسة Siracuse ، فسألوه أن يمنحهم الأمان خديعة ومكرا ، وبذلوا له الجزية ، واشترطوا عليه أن يبقى في موضعه ، فوافقهم ، وأقام في موضعه أياما لتنظيم صفوفه قبل المعركة المقبلة ، وانتظارا لقدوم أسطوله لتشديد الحصار على سرقوسة • وفي هذه الأثناء تجمعت فلول الروم بقلعة الكراث التي يعتقد أنها قصر اكريدي ، ووضعوا فيها كل أموال جزيرتهم ، ومكر به أهل سرقوسة إذ استغلوا فترة توقفه عن الزحف وأصلحوا حصنهم ، وأدخلوا فيه جميع ما كان في الربض وفي الكنائس من ذهب وفضة وميرة ، وفي نفس الوقت انقلب فيمي عليه ، وانضم الى بني جلدته ، وبعث الى أهل سرقوسة يحثهم على الثبات والاستبسال • وما ان استكمل أسد تنظيم صفوفه ، وجاءه الاسطول من مازر ، حتى واصل زحفه نحو سرقوسة ، وناصب أهلها القتال ، فتحصنوا داخل أسوار مدينتهم ، فبث السرايا في كل ناحية ، وغنم غنائم

---

(١) المالكي ، ص ١٨٩
(٢) النويري ، ص ٢٢٧

هائلة ، وافتتح غيرانا كثيرة حول سرقوسة [١] . ثم حاصر سرقوسة نفسها من البر والبحر ، وجاءته الأساطيل من افريقية تحمل اليه الامدادات . وعند ذاك زحف والي بلرم في جيش كثيف نحو المسلمين ، فخندق المسلمون حول انفسهم ، وحفروا خارج الخندق حفرا كثيرة . فلما حمل الروم على المسلمين ، كبت الخيل وسقط كثير منها في الحفر ، وقتل المسلمون أعدادا كبيرة من الروم ، وضيق القاضي أسد الحصار على سرقوسة وأحرق أسطول البيزنطيين ، فسألوه الامان ، ولكن المسلمين رفضوا أن يجيبوهم عليه بسبب غدرهم بالمسلمين ، وفي هذه الآونة حل بالمسلمين وباء شديد هلك بسببه عدد كبير منهم ، من جملتهم القاضي أسد بن الفرات [٢] الذي توفي في شعبان [٣] سنة ٢١٣ ، وقيل في رجب [٤] ، وقيل في ربيع الآخر [٥] ، فدفنه المسلمون في الموضع الذي كان يحاصر منه سرقوسة [٦] ، وقيل بين قطانية Catania وقصريانة [٧] وهو أمر نستبعده . وتشير بعض الروايات الى أنه مات متأثرا ببعض الجراحات [٨] .

وهكذا توفي القاضي أسد بن الفرات في الوقت الذي رجحت فيه كفة البيزنطيين ، فقد كان المسلمون يعانون من وقوع الموتان في معسكرهم ، وسفن القسطنطينية والبندقية تتعاون فيما بينها للقضاء على المسلمين ،

---

(١) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٢ . ويقصد بالغيران المحاجر الشهيرة المتناثرة حول سرقوسة .

(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٣ — ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٢ ، ١٣٤ — الحميري ، ص ١٥٧ — النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٧

(٣) النويري ، ص ٢٢٧

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٤

(٥) المالكي ، ص ١٧٣

(٦) نفسه ، ص ١٧٣

(٧) الحميري ، ص ١٥٤

(٨) المالكي ، ص ١٧٣ — اتحاف أهل الزمان ، ص ١٠٦

والمؤن والأقوات تكاد تكون معدومة في المعسكر الاسلامي • ومع ذلك فقد عزم المسلمون على مواجهة هذه الأخطار والتغلب عليها ، فبدأوا باختيار واحد منهم قائدا عليهم ، فولوا على أنفسهم محمد بن أبي الجواري الذي وضعوا فيه كل أملهم لتخليصهم ومعالجة الموقف المتحرج الذي وصلوا اليه ، تمهيدا للعودة الى بلادهم • وكانت أنباء وصول الاسطول البيزنطي والحشود الرومية قد وصلت الى مسامع المسلمين ، فعزموا على ركوب مراكبهم والعودة الى افريقية ، فرفعوا الحصار عن سرقوسة ، وأصلحوا سفنهم وركبوها وشرعوا في الاقلاع ، • لكن مراكب البيزنطيين والبنادقة تصدت لهم على باب المرسي الكبير ، ومنعتهم من الخروج [1] ، ورأى المسلمون أن اقتحامهم لهذا الحصار البحري يعتبر ضربا من التهور الذي يصل الى حد التهلكة ، فتراجعوا بسفنهم الى المرسى ، وأحرقوا هذه السفن حتى لا يظفر بها البيزنطيون ، واستقر عزمهم على القتال • وحرق المراكب في هذه الحالة له مدلول هام ، اذ يعني انهم قد وطنوا انفسهم على القتال حتى الموت معتمدين فى ذلك على سيوفهم فحسب • ثم رحل المسلمون الى حصن ميناو بعد ثلاثة أيام فقط من بدء محاصرتهم لها • ثم اتجه فريق من المسلمين الى حصن جرجنت Girgenti الواقع على ساحل البحر جنوب غربي صقلية ، ونجحوا في الاستيلاء عليه • ورفع هذان الفتحان من روح المسلمين ، فأشرقت نفوسهم بالآمال بعد القنوط واليأس ، وبدأوا يتطلعون الى المزيد من الانتصارات • ثم خرج فيمى مع فرقة من المسلمين الى مدينة قصريانة الواقعة الى الشمال الغربي من صقلية لافتتاحها ،

---

(١) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٣ — النويري ، ص ٢٢٩

فخرج أهلها اليه ، وقبلوا الأرض بين يديه ، وبذلوا له الطاعة [١] وهم يضمرون له الكيد ، وقالوا له : «نكون نحن وأنت والمسلمون على كلمة واحدة ، ونخلع طاعة الملك » . وسألوه ان يرجع عنهم فى ذلك اليوم لينظروا فيما يصالحون عليه ، فاستجاب لرغبتهم ، ثم قدم اليهم في اليوم التالي فى نفر يسير من أصحابه ، فخرجوا يقبلون الأرض بين يديه ، وكانوا قد دفنوا سلاحا في تلك البقعة ، فلما اقترب منهم أخرجوا السلاح ، ووثبوا عليه فقتلوه [٢] .

وأرسلت الحكومة البيزنطية في تلك الآونة مددا جديدا الى الجزيرة بقيادة البطريق تودط ، الذي زحف في جموع كثيفة من الأرمن وغيرهم ، نحو قصريانة ، واصطدم مع المسلمين تحت أسوار قصريانة ، في قتال عنيف انتهى بانهزامه على ايدي المسلمين ، وقتل من عسكره اعداد كبيره ، وأسر من قواده سبعون بطريقا ، وفر تودط الى داخل المدينة . واستمر حصار المسلمين لها وقد شد النصر من عزيمتهم الى ان توفي قائدهم محمد بن أبي الجواري في آخر سنة ٢١٣ هـ [٣] ، فولوا على أنفسهم قائدا من قوادهم هو زهير بن غوث [٤] ، وقيل زهير بن برغوث [٥] . ونشبت بين هذا الوالي الجديد وبين تودط معارك عنيفة انهزم فيها المسلمون ، وقتل منهم نحو ألف رجل ، فعاد المسلمون الى معسكرهم ، وخندقوا على أنفسهم ، فحاصرهم البيزنطيون من داخل

---

(١) النويري ، ص ٢٢٨

(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ص ٢٢٣ ـ النويري ص ٢٢٨

(٣) ذكر النويري ان ابن ابي الجواري توفي في اول سنة ٢١٤ هـ ، ولكنه عاد بعد ذلك فذكر ان المسلمين في مازر وميناو بقيادة الوالي الجديد كانوا في موقف لا يحسد عليه حتى دخلت سنة ٢١٤ هـ ، ولذلك فاننا ناخذ بتاريخ سنة ٢١٣ هـ الذي اورده ابن الاثير

(٤) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٣

(٥) النويري ، ص ٢٢٨

المدنة ومن خارجها . واشتد القتال بين الطرفين ، وأدرك المسلمون تحرج موقفهم فعزموا على التسلل من معسكرهم ، وكان البيزنطيون يتوقعون منهم ذلك ، فأخلوا خيامهم ، وترصدوا للمسلمين بالقرب منها، فلما خرج المسلمون لم يروا أحدا ، فأقبل عليهم البيزنطيون من كل ناحية ، فانحطوا عليهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وفر الناجون الى ميناو فدخلوها ، ولكن البيزنطيين حاصروهم هناك ، وقلت قوات المسلمين ، وانقطعت عنهم المؤن حتى اضطروا الى أكل الدواب والكلاب [١] . وحاول مسلمو جرجنت أن يساعدوا اخوانهم في ميناو ، فخربوا جرجنت قبل أن يتخلوا عنها ، وساروا الى مازر وحاولوا من هناك نصرة اخوانهم المحصورين ، فتعذر عليهم الأمر ، وأشرف المسلمون في ميناو على الهلاك .

٤ـ وصول البحريين الأندلسيين الى صقلية ومشاركتهم فى فتحها:

في تلك اللحظات الحرجة التي يتوقف عليها مصير هؤلاء المسلمين، حدث امر لم يكن في الحسبان ، اذ وصل الى مياه صقلية في سنة ٢١٤ هـ أسطول أندلسي يتألف من قطع كثيرة العدد ، تحمل أعدادا كبيرة من غزاة البحر الاندلسيين قدموا بقصد الغزو البحري والجهاد ، وفي نفس الوقت أقبلت مراكب عديدة من افريقية لامداد المسلمين ، فبلغ عدة السفن الأندلسية والافريقية ثلاثمائة مركب [٢] . ولكن ابن عذاري يؤكد ان السفن التي قدمت الى صقلية كانت أندلسية ، فيقول : « (في سنة ٢١٤ هـ) وصل من الأندلس الى صقلية نحو ثلاثمائة مركب فيها أصبغ بن وكيل الهواري المعروف بفرغلوش»[٣] . أما النويري فيشير الى أن السفن القادمة كان مصدرها الاندلس ، وأن قسما من هذه

---

(١) ابن الاثير ، ص ٢٢٤ ـ النويري ،ص ٢٢٨

(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ،ص ٢٢٤

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٤

السفن الاندلسية التي قدمت برسم الغزو كان يقودها اصبغ بن وكيل الهوارى . والفريق الآخر كان يقوده سليمان بن عافية الطرطوشي [١] . ولا يشير الحميري الى وصول سفن من افريقية ، ولكنه يذكر انه وصل من الاندلس « مراكب كثيرة ، وأمير الاندلس اذ ذاك عبد الرحمن ابن الحكم . وكانوا فصلوا من طرطوشة يريدون بلاد الروم ، فأخرجتهم الريح الى صقلية ، فنزلوا جزيرة طرابنش من صقلية » [٢] ونعتقد استنادا الى ما اقتبسناه من أقوال هؤلاء المؤرخين أن السفن التي قدمت الى صقلية كانت كلها أندلسية ، اذ ليس من اليسير أن يتفق وصول أسطول افريقي الى صقلية في نفس الوقت الذي يصل فيه أسطول أندلسي قادم من طرطوشة يحمل جماعة من الغزاة او المغامرين ، فتدفعهم الريح بدون قصد الى صقلية ، ومن المعروف أن مسلمي صقلية كانوا قد أحرقوا سفنهم في سرقوسة .

ما كادت الأنباء بوصول الأندلسيين تبلغ مسامع المحصورين في ميناو حتى أسرع هؤلاء فأرسلوا اليهم رسلا يسألونهم النصرة والنجدة ، ولم يتردد الأندلسيون الذين كرسوا حياتهم للجهاد البحري في انجادهم تضامنا مع اخوان لهم ، ففي ذلك تحقيق لأهدافهم ومبادئهم، ولكنهم اشترطوا عليهم ان تكون القيادة لفرغلوش . ويبدو أن المسلمين المحصورين في ميناو وافقوا الأندلسيين على شرطهم ، فأقبل الأندلسيون لفك الحصار عنهم ، واستولوا في طريقهم الى ميناو على ما قابلهم من قلاع وحصون حتى انتهوا الى ميناو ، واشتبكوا مع تودط في جمادي الآخر سنة ٢١٥ هـ ، فانهزم هزيمة نكراء [٣] ، وتراجع الى قصريانة ،

---

(١) النويري، ص ٢٢٨

(٢) الحميري ، ص ١٦٨

(٣) ابن عذارى ، ص ١٣٥ — الحميري ، ص ١٦٨

وبذلك ارتفع حصار البيزنطيين عن المسلمين . وتنفس هؤلاء الصعداء ، ثم أحرقوا المدينة وخربوها . وزحفوا الى بلرم . وضربوا حولها الحصار . فاستسلم صاحبها البيزنطي على الأمان ودخلها المسلمون . ثم واصل المسلمون الزحف الى غلوالية أو غليانة Gagliano ، وشددوا عليها الحصار ، وتغلبوا على ربضها ، وغنموا ما فيه . وهناك تفشى في جيش المسلمين وباء مات بسببه عدد كبير من المسلمين من بينهم فرغلوش وجماعة من القواد . وانتهز البيزنطيون تلك الفرصة ، فتقووا على المسلمين . وأرغموهم على الخروج عنها . ولم يتركوهم يرحلون في أمان ، ولكنهم تعقبوهم منتهزين فيهم الفرصة لكثرة المرضى والضعفاء في صفوف المسلمين ، فقتلوا منهم اعدادا كبيرة . ووجد المسلمين أنفسهم مرغمين على مقاتلتهم . واشتبكوا معهم في موقعة عنيفة دارت فيها الدائرة على البيزنطيين ، وقتل فيها تودط القائد البيزنطي ، وغنم المسلمون غنائم هائلة [1] .

ويبدو أن نزاعا حدث بعدذلك بين القائد الأندلسي والقائد الأغلبي بسبب القيادة العامة للجيوش الاسلامية . وانقسم المسلمون الى طائفتين ، وهدد الأندلسيون بترك صقلية وأخذوا يتأهبون للرحيل عنها ، وبدأوا باصلاح مراكبهم [2] . ثم تداعى الفريقان الى الصلح ، واتفقا على تولية القيادة الى عثمان بن قرهب ، ثم اتجهوا الى بلرم العاصمة ، وكانت ميناء بحرية على الساحل الشمالي لصقلية ، وكانت السفن تصل اليها بسهولة

---

(١) الحميري ، ص ١٦٩ . وذكر فازيلييف ان تودط كان قد قتل قبل ذلك بعد أن انهزم على الاندلسيين بقيادة فرغلوش وهو يحاول الفرار الى قصريانة (فازيلييف ، العرب والروم . ص ١١٦)

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ١٢٥ . ويجعل ابن الاثير النزاع بينهما بعد سقوط بلرم .

من مواني‌ء افريقية . وشدد المسلمون الحصار عليها . فاستسلم صاحبها على الأمان للمرة الثانية . ودخلها المسلمون في رجب سنة ٢١٦ هـ [١] .

ولا ندري بعد ذلك ما آل اليه مصير الأندلسيين في صقلية ، فبينما يؤكد ابن عذاري أنهم قفلوا الى الأندلس في سنة ٢١٥ هـ [٢] نجد أن ابن الأثير والحميري يشيران الى أنهم صالحوا الافريقيين، في حين يمسك النويري عن الحديث عنهم . وأعتقد ان فريقا من الأندلسيين آثر أن يرحل من صقلية الى الاندلس عقب افتتاح بلرم في سنة ٢١٦ هـ ، وأن الفريق الآخر رضي بولاية أبي فهر محمد بن عبدالله بن الأغلب التميمي الذي ولي صقلية في سنة ٢١٧ هـ . ولا شك أن الأندلسيين لعبوا دورا خطيرا في فتح صقلية ، شأنهم في ذلك شأن اخوانهم الذين فتحوا اقريطش . وكان وصول الأندلسيين الى صقلية بأسطولهم الكبير في الحق نجدة لاخوانهم الافريقيين ، ولولاهم لما نجح هؤلاء في تثبيت أقدامهم في جزيرة صقلية .

٥ ــ استكمال فتح صقلية زمن الأغالبة :

اتخذ أبو فهر مدينة بلرم مقرا له لسهولة اتصالها البحري بافريقية من جهة ، ولقربها من مسينى وجنوبي ايطاليا حيث يتهيأ للمسلمين توجيه الغارات منها على البيزنطيين من جهة ثانية . ومن بلرم أخذ أبو فهر يشن الغارات على قصريانة في سنتي ٢١٩ ، ٢٢٠ هـ ، ثم سير عسكرا بقيادة محمد بن سالم الى مدينة طبرمين Taormina الواقعة في شرق الجزيرة ، فغنم غنائم كثيرة . ولكن جماعة من جند أبي فهر تمردوا على ابن سالم وقتلوه ، فولى زيادة الله مكانه الفضل بن يعقوب ، وأحرز

(١) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ،ص ٢٢٤ ــ الحميري ، ص ١٦٩ . ويذكر النويري ان بلرم افتتحت في سنة ٢٢٠ هـ .

(٢) ابن عذاري ،ج ١ ص ١٢٥

المسلمون تحت قيادته انتصارات متوالية على البيزنطيين في سرقوسة، كما تمكنت فرقة من المسلمين من هزيمة البيزنطيين، وطعن بطريق صقلية [١].

ويبدو أن زيادة الله الأغلبي احتاج لمساعدة أبي فهر في قمع بعض الثورات في المغرب . فنحاه عن ولاية صقلية ، وسيَّر مكانه أخاه أبا الأغلب ابراهيم واليا عليها ، فوصلها في اسطوله في منتصف رمضان سنة ٢٢٠ هـ ، ونجحت حراقاته في مطاردة حراقات البيزنطيين ، وأحرز بعد وصوله الى صقلية انتصارات بحرية عديدة ، فظفر بعدد من سفن الروم وغنم ما فيها وأمر بضرب رقاب بحارتها من البيزنطيين • ثم بعث أبو الأغلب أسطوله الى قوصرة فظفر فيها بحراقة بيزنطية ، ووجه في سنة ٢٢١ هـ سرية الى مسينى Messina ، فغزاها وغنم المسلمون غنائم لا حصر لها • ثم غزا أسطول الأغالبة بقيادة الفضل بن يعقوب الجزر الايولية المجاورة ، فاستولى على عدد من الحصون من بينها حصن تندارو الواقع على الساحل الشمالي من صقلية [٢] • وظل أبو الاغلب يبعث بسراياه للاغارة على مدن صقلية ، وفي كل مرة كان المسلمون يعودون مظفرين غانمين ، وقد تمكن المسلمون في احدى غاراتهم على قصريانة من الاستيلاء عليها [٣] • وفي سنة ٢٢٢ هـ أغار الفضل بن يعقوب على حصن مدنار ، واستولى عليه وعلى معاقل أخرى كثيرة • وفي العام التالي وصلت الى البيزنطيين بصقلية امدادات بحرية، وكان المسلمون يحاصرون جلفوذي Cefalu وقد طال حصارهم لها ، فاضطروا الى رفع الحصار عنها واشتبكوا مع البيزنطيين القادمين في عدة وقائع • وبينما كانت المعارك قائمة ، وصلت الانباء بوفاة الامير الاغلبي زيادة الله في ١٤ رجب

---

(١) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٥

(٢) Vasiliev p. 134 والترجمة ، ص ١٢١

(٣) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٦

سنة ٢٢٣ هـ . فدب الوهن في نفوس المسلمين . ولكنهم تمالكوا أنفسهم واستعادوا حماسهم في قتال الروم .

ثم تابع المسلمون في ولاية ابراهيم بن الاغلب انتصاراتهم على أهل صقلية وفتوحاتهم في تلك الجزيرة ، فاستولوا في سنة ٢٢٥ هـ على عدد كبير من حصونها ، من بينها حصن البلوط Caltabellotta ، وحصن أبلاطنو Platani ، وقرلون Corleone ، ومرو Marineo . وافتتح الاسطول الاسلامي اقليم قلورية Calabria بعد أن تغلب على أسطول البيزنطيين [1] . وواصل المسلمون منذ سنة ٢٢٨ هـ انتصاراتهم على البيزنطيين في أقصى الشمال الشرقي لصقلية ، فافتتحوا بقيادة الفضل ابن جعفر الهمداني مدنا كثيرة بمساعدة أهل نابل ، من بينها مدينة مسيني [2] ومسكان [3] . وفي سنة ٢٣٢ هـ حاصر الفضل بن يعقوب مدينة لنتيني واستولى عليها ، كما افتتح المسلمون في هذه السنة طارنت الواقعة على خليج طارنت بجنوبي ايطاليا . وفي سنة ٢٣٤ هـ استولى المسلمون ايضا على حصن رغوس وهدموه .

ولما توفي أبو الأغلب ابراهيم بن عبدالله والي صقلية ، اجتمع المسلمون على ولاية العباس بن الفضل بن يعقوب في رجب سنة ٢٣٦ هـ ، وأقرهم الامير الاغلبي أبو العباس محمد بن الاغلب بن ابراهيم على ذلك . وتعتبر ولاية العباس بن الفضل فاتحة عهد جديد في تاريخ الفتح الاسلامي لصقلية ، كما تعتبر فترة ولايته من أعظم الفترات التي وضحت فيها السيطرة الاسلامية على البحر المتوسط ، فكان يرسل أساطيله في

---

(١) ابن الاثير ، المكتبة الاندلسية ، ص ٢٢٨

(٢) تقع في الركن الشمالي الشرقي من جزيرة صقلية ، وكانت دار الانشاء ، ومنها كان يجاز الى قلورية (الحميري ، ص ١٧٨)

(٣) ابن الاثير ، ص ٢٢٩

البحر للغزو واقتناص السفن البيزنطية . وذكر ابن عذاري أنه سير في سنة ٢٤٤ هـ أخاه عليا في المراكب الحربية . فاشتبك بالقرب من اقريطش مع اربعين شلنديا تابعة لمسلمي هذه الجزيرة ، فهزمها واستولى على عشر شلنديات برجالها [1] . وفي أيام العباس بن الفضل افتتح المسلمون قلعة أبي ثور Caltavuturo في أول ولايته . وأغاروا على قصريانة وخربوا قطانية وسرقوسة ونوطس ورغوس . وافتتحوا بثيرة في سنة ٢٣٨ هـ . وفي سنة ٢٤٣ هـ نجح المسلمون بقيادته في افتتاح قصريانة [2] . وعلى اثر ذلك سير البيزنطيون أسطولا من ٣٠٠ شلندي الى سرقوسة تحت قيادة البطريق قسطنطين كندوميتس.فقاتلهم عسكر العباس وهزموهم وغنموا منهم مائة شلندي[3] . وظل العباس يجاهد الروم شتاء وصيفا . ووصلت سراياه الى قلورية وانكبردة Langobardi الى أن توفي في سنة ٢٤٧ هـ .

وتوالى على صقلية عدد من الولاة من قبل امراء بني الأغلب ، نخص بالذكر منهم خفاجة بن سفيان (ت ٢٥٥) ، ومحمد بن خفاجة (ت ٢٥٧) ، ورياح بن يعقوب (ت ٢٥٨).و الحسين بن رياح بن يعقوب، ثم جعفر بن محمد (ت ٢٦٤) . والحسين بن رياح ، والحسن بن العباس ، ومحمد بن الفضل ، والحسين بن أحمد (ت ٢٧١) ، وسوادة بن محمد بن خفاجة، ومحمد بن الفضل، وأبو العباس بن ابراهيم بن أحمد بن الأغلب .

وفي خلال هذه الفترة استولى المسلمون في أيام خفاجة بن سفيان على قلعة الارمنين وقلعة المشارعة في سنة ٢٤٧، كما استولوا على نوطس Noto، وشكلة Scicli الواقعة فيجنوب شرق صقلية وذلك في سنة ٢٥٠هـ .

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٨ــ النويري ، ص ٢٢٩

(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ــ النويري ، ج ٢٢ ص ٢٣٠.

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٢٣ ــ فازيلييف ص ١٩٤

ونجح المسلمون في سنة ٢٦٤ في الاستيلاء على سرقوسة بعد حصار طويل ، هزم فيه جعفر بن محمد أسطولا بيزنطيا كان قد قدم لنصرة أهلها . وحاول البيزنطيون استرجاعها ، فأرسلوا لهذا الغرض أسطولا ، تغلب عليه المسلمون وظفروا بأربع قطع منه .

وفي ٢٨٨ هـ عمر أبو العباس بن ابراهيم بن أحمد أسطوله وأعده للغزو ، ونزل به على دمنش ، ونصب عليها المجانيق وأقام على حصارها أياما ، ثم مضى الى مسينى ، وجاز في حربياته ، وهي سفن خاصة للقتال الى ريو Reggio وقدتجمع بها حشد كبير من البيزنطيين ، فقاتلهم على بابها وهزمهم ، واستولى على ريو بالسيف « وغنم من الذهب والفضة ما لا يحد وشحن المراكب بالدقيق والامتعة » ، ثم عاد الى مسينى، فوجد بها سفنا بيزنطية قد وصلت من القسطنطينية ، فاستولى منها على ثلاثين مركبا [1] ، ثم قدم الامير الاغلبي ابراهيم بن أحمد بأسطوله الى صقلية للجهاد في ١٧ من ربيع الاول سنة ٢٨٩ هـ ، فافتتح مدينة طبرمين وميقش [2] Miques ورمطة ولياج [3] . ثم أمر الناس بالتجمع في مسينى بغية العبور الى قلورية في ٢٦ من رمضان ، وهاجم كسنثة Cosenza الواقعة بالقرب من خليج طارنت ، ونصب عليها المجانيق ، ولكنه توفي وهو يقوم بحصارها في ذي القعدة سنة ٢٨٩ هـ [4] . ولم يبق لاستكمال فتح صقلية سوى مدينة طبرمين ، وقد سقطت بدورها في نهاية عصر الأغالبة في سنة ٢٩٦ هـ . وهكذا افتتح المسلمون جميع مدن وقلاع

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٤٧

(٢) حصن بصقلية منيع يقع قريبا من مسينى ويطل على البحر

(٣) ابن الاثير ،ص ٢٤٢ .ولياج مدينة تقع بالقرب من بركان اتنا وقطانية (الحميري ، ص ١٤١)

(٤) بن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ج ٣ ص ١٢٥ ــ النويري ، ص ١٢٢ ــ الحميري ، ص ١٦٦

صقلية ، بعد حروب دامت نحو ١٣٨ سنة .

٦ ـ صقلية في زمن الفاطميين والكلبيين :

ثم دخلت صقلية في فلك الدولة الفاطمية ، وتولى عليها ولاة من قبل الخليفة الفاطمي في المهدية ، وقد اتسم عهدهم بالهدوء الا في أوقات كان يثور فيها أهل صقلية عليهم للتخلص من تبعيتهم للمسلمين . وأهم تلك الثورات ثورة قام بها أهل جرجنت وطرابنش في خلافة المهدي في سنة ٣١٣ هـ ، وثورة أهل جرجنت أيضا على واليهم سالم بن راشد في سنة ٣٢٥ ، وقد دامت هذه الثورة فترة طويلة خرجت فيها جرجنت عن طاعة المسلمين حتى تمكن سالم من استرجاعها في سنة ٣٢٩ هـ [١] . وأخطر هذه الثورات جميعا ثورة قام بها أهل طبرمين في سنة ٣٥١ ، ونجح والي صقلية أبو الحسين بن الحسن بن علي بن الحسين الكلبي الذي تولى على صقلية من سنة ٣٤٣ هـ في اخمادها في ذي القعدة سنة ٣٥١ هـ ، بعد أن حاصرها ما يقرب من سبعة أشهر ونصف ، فأمر المعز الفاطمي بتسميتها بالمعزية [٢] ، وثورة قام بها أهل رمطة « واستنصروا بالدمستق ملك القسطنطينية » [٣] ، فجاءها مدد عدته أربعون ألف مقاتل [٤] . فأمر المعز أحمد بن الحسين بتسيير القائد الحسين بن عمار لحصار رمطة ومحاربة الثوار ، فأعد أحمد الاسطول الاسلامي ، وجمع المقاتلة في البر والبحر ، وحاصرها في آخر رجب سنة ٣٥٢ هـ ، ونصب عليها المجانيق والعرادات ، ودام القتال فترة طويلة شيد ابن عمار خلالها قصرا له ، وبنى المسلمون البيوت حوله . فلما علم الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس (الدمستق)

---

(١) ابن خلدون (المكتبة الصقلية) ص ٤٧٩

(٢) ابن الاثير ، (المكتبة الصقلية) ، ص ٢٦٣ ـ النويري ، ص ٢٣٢ - ابن ابي دينار، ص ٨٠

(٣) النويري ، ص ٢٣٣ . والمقصود بالدمستق الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس

(٤) ابن الاثير، (المكتبة الصقلية)، ص ٢٦٤ ـ ابن خلدون، (المكتبة الصقلية) ، ص ٤٨١

، امر بتعبئة عسكره ، وجهز جيشا بقيادة مانويل وجهه الى صقلية ،
د، مانويل في منتصف شوال سنة ٣٥٣ هـ بجميع عسكره في جموع
-خل صقلية مثلها قط ، فتأهب بن عمار لتلقيهم ، واشتبك المسلمون
بيزنطيين في معركة عنيفة في أول سنة ٣٥٤ هـ ، استمات فيها المسلمون
دامة البيزنطيين ، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للبيزنطيين ، وقتل
.ون منهم نحو عشرة آلاف من بينهم القائد مانويل نفسه وجماعة من
ته • واقتحم المسلمون رمطة ، ففر فل البيزنطيين من صقلية وجزيرة
ب الاسطول ناجين بأنفسهم ، فأتبعهم الامير احمد في الاسطول الاغلبي
هم في البحر قتالا شديدا، وألقي جماعة من المسلمين أنفسهم في البحر،
فوا كثيرا من مراكب البيزنطيين ، وقتلوا منهم عددا كبيرا ، وتعرف
الوقعة البحرية بوقعة المجاز [1] • ثم انتقضت طبرمين مرة ثانية على
ين في سنة ٣٧١ هـ عندما قدم البيزنطيون بأساطيلهم بقيادة بردويل ،
روا القلعة . واستولوا عليها ، فقاتلهم المسلمون وهزموهم •

ابن خلدون ، ص ٤٨١ — النويري ، ص ٢٣٤

ثالثاً — فتح جزر البحر المتوسط الغربي الأخرى :

١ — فتح مالطة :

تعتبر مالطة أهم جزر الارخبيل المالطي مثل جزيرة غودش وكمونة ونموشة ، باعتبارها أكبر هذه الجزر ، بالاضافة الى كونها جزيرة عامرة كثيرة الخيرات حسنة الموقع ، حتى انها اعتبرت هي وصقلية من المعالم الهامة في التاريخ البحري الاسلامي ومفتاح حوض البحر المتوسط الاوسط والغربي [١] . وقد عرف المسلمون ، بفضل افتتاحهم لهاتين الجزيرتين ، كيف يهددون ايطاليا كلها ، ويسودون البحر التيراني ، ويفتتحون اجزاء هامة من ايطاليا [٢] .

وتم افتتاح الأغالبة لمالطة في سنة ٢٥٥ هـ في امارة ابي الغرانيق محمد إبن ابي ابراهيم أحمد ، [٣] وبفتحها تأكدت سيطرة المسلمين الكاملة على المضايق الواقعة بين صقلية وافريقية [٤] . ويبدو أن البيزنطيين حاولوا استردادها في العام التالي ، فحاصروها بأساطيلهم ، ويذكر ابن الاثير ان محمد بن خفاجة بن سفيان والي صقلية سير لفتحها جيشا في سنة ٢٥٦ هـ ، وكان البيزنطيون يحاصرونها ، فلما بلغهم اقبال المسلمين رحلوا عنها [٥] ، وأنشأ فيها الأغالبة دارا لصناعة السفن من أشجار الصنوبر التي تكثر بها [٦] ، وأصبحت على هذا النحو قاعدة بحرية هامة للأغالبة في البحر المتوسط .

---

(١) Scott, History of the moorish empire in Europe, vol, II, London, 1954, P. 76.

(٢) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ١٩٢

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٤ — الذهبي ، تاريخ الاسلام ، (المكتبة الصقلية) ، ص ٤٥٩ — النويري ، المكتبة الصقلية ، ص ٤٣٧

(٤) ارشيبالد لويس ، ص ٢١٧

(٥) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٧

(٦) البكري ، ص ٢٢٥

ثم حاول البيزنطيون استرجاع مالطة بعد سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) ، ـكن المسلمين قاتلوهم وتغلبوا عليهم [١] . وظلت مالطة جزيرة اسلامية ـة لبني يزري أصحاب افريقية الى أن غزاها النورمان في سنة ٤٨٣ هـ ١٠٠ م) في عهد روجار [٢] ،، ولكن خضوع هذه الجزيرة للنورمان لم ـن على طابعها العربي الاسلامي الذي تأصل ورسخت قواعده منذ ان ـحها الأغالبة ، وما زالت لغة أهل مالطة في الوقت الحاضر تحتفظ ـولها العربية ، كما أن لهجتهم يمكن ان تندرج في عداد اللهجـات ـبية [٣] . والاثر العربي واضح فيما تبقى من أسماء مواضع ، منها ـة اماكن يتسمى كل منها باسم رباط مما يدل دلالة واضحة على تعدد ـم الروابط في هذه الجزيرة وهو نظام دفاعي انتقل اليها من سواحل ـقية في عصر الأغالبة .

٢ ـــ فتح سردانية :

امـا سردانية فجزيرة كبـيرة المساحة كثـيرة الجبـــال قليلــة ، تقع في منتصف البحر المتوسط الغربي بين شبه جزيرة ايطاليــا ـه جزيرة أيبيريا من جهة ، وبين ساحل فرنسا الجنوبية وسواحل المغرب ـلامي من جهة ثانية ، ويذكر الشريف الادريسي أن لها مدن ثـلاث ـة هي الفيطنة في الجنوب وقالمرة وقشنالة [٤] . وقد شرع المسلمون ـروها في سنة ٩٢ هـ في ولاية موسى بن نصير [٥] ، ثم غزاها عبيدالله

---

(١) القزويني ، آثار العباد ، المكتبة الصقلية ، ص ١٤٢ ، ١٤٣

٢) ارشيبالد لويس ، ص ٣٧٦

٣) نقولا زيادة ، لمحات من تاريخ العرب ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٨٥ ـ ٨٩

٤) الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٢١

٥) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢١٧ ـ الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج ٣ ، ٣ ـ معجم البلدان ، المكتبة الصقلية ، ص ١١٢

ابن الحبحاب في سنة ١١٧ هـ ، وعاود المسلمون غزوها في أيام عبد الرحمن ابن حبيب الفهري في سنة ١٣٥ هـ ، وصالحوا أهلها على الجزية . وظلت بعد ذلك آمنة من الغزو الاسلامي فترة طويلة دامت حتى سنة ٢٠١ هـ . فعمرها البيزنطيون [١] في تلك الاثناء ، وحصنوها بالقلاع . فلما كانت امارة زيادة الله بن الاغلب نشطت حركة الغزو البحري والجهاد نشاطا يذكرنا بالصوائف المتواصلة التي كان يبعثها ولاة بني أمية على افريقية منذ طليعة القرن الثاني للهجرة ، فغزاها الاغالبة في سنة ٢٠١ هـ ، وغنموا من أهلها غنائم كثيرة [٢] ، وشجعهم ذلك على معاودة غزوها في سنة ٢٠٦ هـ ، فغزاها محمد بن عبدالله التميمي [٣] في تلك السنة ، ولكنه لم يفتتحها .

وفي سنة ٣٢٣ هـ ، في خلافة المنصور بن القائم الفاطمي ، تعرضت سردانية لغزوة بحرية جريئة تسكن فيها أسطول المهدية من فتحها ، وسبى المسلمون كثيرا من أهلها ، وأحرقوا عددا من مراكبها [٤] .

ولم تفتتح جزيرة سردانية الا في ربيع الاول سنة ٤٠٦ هـ (سبتمبر ١٠١٥ م) عندما غزاها ابو الجيش الموفق مجاهد العامري صاحب دانية والجزر الشرقية ، في ١٢٠ مركبا بين كبير وصغير ، حمل فيها ثمانية آلاف فارس يقودهم أبو خروب كبير البحريين [٥] ، وصحبته في هذه الغزوة زوجته المسيحية جود وابنه علي وبعض حريمه وبناته .

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٧ — ابن الاثير ص ٢١٧

(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢١

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٤ — الذهبي ، تاريخ الاسلام (المكتبة الصقلية) ص ٤٥٩ — النويري (المكتبة الصقلية) ص ٤٢٧

(٤) ابن الاثير ، ص ٢١٨ ، ٢٥٤

(٥) الحميدي ، ص ٣٢١ — الضبي ، ص ٤٥٨

وقد نزل المسلمون في هذه الجزيرة عند مدينة كاليارى [١] ، ومن هناك تمكنوا من التغلب على أكثرها ، وافتتحوا معاقلها ، واختط بها مجاهد مدينة شرع في بنائها ، وانتقل اليها بأهله وولده [٢] . ومن جزيرة سردانية شن مجاهد غاراته على سواحل غرب ايطاليا . وغزا مدينة لوني الايطالية الواقعة على خليج سبتزيا في شمال نهر ماجرا واستولى عليها ، واتخذها مركزا لتحركاته في شمال غربي ايطاليا ، وقاعدة لمهاجمة بيشه وجنوة وغيرهما من الموانىء الهامة المطلة على خليج جنوة بأقصى شمال البحر التيراني . ومن المعروف أنه هاجم مدينة بيشة واستولى على حي من أحيائها ، وأضرم فيه النيران ، ولكنه لم ينجح في الاستيلاء على المدينة كلها [٣] . وقد أثارت غاراته غضب سكان هذه البلاد كما أثارت مخاوف سكان فرنسا ، فتعاون الجنويون والبيشيون والفرنجة على اعداد أسطول ضخم يهاجمون به سردانية ، وقدمت الى الجزيرة أساطيل المتحالفين ، فحاول مجاهد العودة الى بلاده بعد أن بلغه خبر مجيئهم ، وتبين له عدم قدرته على مواجهتهم ، ولكن المتحالفين سبقوه الى قصده وتغلبوا على أكثر سفنه ، وساعدتهم الطبيعة في ايقاع الهزيمة بأسطوله ، اذ مرضت سفنه لعاصفة عاتية هبت على المرسى ، فجعلت الرياح تقذف بسفنه ، الروم وقوف لا شغل لهم الا الاسر والقتل في المسلمين ، فكلما سقط ركب بين أيديهم بكى مجاهد بأعلى صوته [٤] . وقتل من عسكره لم لا يحصى ، واستولى الاعداء على معظم قطع أسطوله ، وأسروا بنيه وبناته وولده علي وأمه جود النصرانية ، فافتدى بعضهن سريعا ،

---

(١) كليكيا سار نللى ، مجاهد العامري ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٩٧

(٢) ابن الخطيب ، ج ٣ ص ٢١٩

(٣) كليكيا ، ص ١٩٩

(٤) الحميدي ، ص ٢٢٠

وأبت جود أن تعود اليه . أما بالنسبة لولده علي فقد وقع أسيرا في قبضة الالمان . ولذلك تأخر في افتدائه . ولم يتم فك أسره الا في سنة ٤٢٣ هـ . وخسر مجاهد معظم قطع أسطوله . ولم تسلم له من كل هذا الاسطول الا خمسة مراكب وأربعة قوارب [١] .

٣ ــ جزر البليار :

أما جزر البليار أو الجزر الشرقية فثلاث تتدرج في المساحة ، وتقع شرقي مدينة بلنسية . وأكبر هذه الجزر جزيرة ميورقة وأوسطها جزيرة منورقة وأصغرها يابسة ، والمسافة بين جزيرة ميورقة ومنورقة في البحر لا تتجاوز خمسين ميلا .

وأول من غزا جزر البليار عبدالله بن موسى بن نصير في سنة ٨٩ هـ ، وعرفت تلك الغزوة بغزوة الاشراف [٢] ، ثم غزاها الامير عبد الرحمن الاوسط في سنة ٢٣٤ هـ بسبب نقض أهلها العهد بينهم وبين المسلمين ، واضرارهم بمن يمر اليهم من مراكب المسلمين . فأغزي أسطولا من ٣٠٠ مركب وفتح جزائرها [٣] ، واضطر أهل ميورقة ومنورقة الى استرضاء الامير . فكتبوا اليه كتابا في سنة ٢٣٥ هـ يستقيلون فيه لعثراتهم لديه راغبين في صفحه . فأعطاهم ذمته ، وجدد لهم عهده [٤] . وفي سنة ٢٩٠ هـ تمكن عصام الخولاني من اعادة فتح هذه الجزر في

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٢ .
(٢) الذهبي ، العبر ، ج ٢ ص ٢٣٩
(٣) ابن حيان ، قطعة من المقتبس خاصة بحياة الامير عبد الرحمن الاوسط ، نشرها الدكتور محمود علي مكي ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٣٢٢ ــ ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٣٢ ــ ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٤٩
(٤) نفس المصدر ، ص ٤

امارة عبد الله الذي قلده على ولايتها [1] عشر سنين ، وبنى فيها المساجد والفنادق والحمامات . ولما توفي قدم أهل الجزيرة عليهم ابنه عبدالله ، وأقرهم الامير عبدالله على ولايته • ثم زهد ابن عصام في الولاية وأقبل على التعبد ، وأبحر الى المشرق للحج ، فبعث الخليفة عبد الرحمن الناصر اليها الموفق من فتيانه ، « فأنشأ الاساطيل وغزا بلاد الافرنج » [2] • ثم تولاها من بعده كوثر الفتي في سنة ٣٥٩ هـ ، فجرى على سنن الموفق في الجهاد البحري ، فلما توفي كوثر في سنة ٣٨٩ هـ في حجابة المنصور محمد بن أبي عامر وليها مقاتل الفتى ، وكان كثير الجهاد والغزو ، وكان المنصور والخليفة المؤيد يمدانه في جهاده ، وتوفي في سنة ٤٠٣ هـ في زمن الفتنة التي أعقبت سقوط الخلافة الاموية بقرطبة •

---

(1) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٦٤ – كليكيا ، ص ٢٨٨
(2) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٦٤

الفَصـل الـرّابع

تفوق المسلمين البحري في غرب البحر المتوسط وتهديدهم لسواحل ايطاليا وفرنسا الجنوبية في القرنين الثالث والرابع للهجرة

الفَصْل الـرّابع

تفوق المسلمين البحري في غرب البحر المتوسط وتهديدهم لسواحل ايطاليا وفرنسا الجنوبية في القرنين الثالث والرابع للهجرة

سجل المسلمون بفتوحهم في صقلية واقريطش ومالطة وقوصرة وجزر البليار وسردانية سيطرتهم البحرية في حوض البحر المتوسط الاوسط والغربي . فقد أتاح لهم فتح هذه الجزر تأسيس دور لصناعة السفن في الخالصة [١] وبلرم [٢] وشنت ماركو [٣] ومسينى [٤] وفي قوصرة ومالطة ، واقامة قواعد بحرية في تلك الجزر لشن غاراتهم المتواصلة على سواحل ايطاليا الجنوبية والغربية والشمالية الغربية والشمالية الشرقية . وعلى سواحل فرنسا الجنوبية . وتمكن المسلمون في بعض الفترات من الاستيلاء على أجزاء هامة من شبه جزيرة ايطاليا . وهاجموا رومة نفسها ، وأرغموا البابا يوحنا الثامن على دفع جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون ألف مثقال من الذهب [٥] . وبذلك أصبحت للمسلمين في القرنين الثالث والرابع الغلبة على غيرهم من القوى البحرية في هذا القسم الغربي من حوض البحر المتوسط ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « والمسلمون خلال ذلك كله ، قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم

---

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٢ — ابن حوقل ، ص ١١٤ — الادريسي ، (المكتبة الصقلية) ، ص ٢٩ — ابن ابي دينار ، ص ٨٢

(٢) ابن فضل الله العمري (المكتبة الصقلية) ، ص ١٥٦

(٣) الادريسي (المكتبة الصقلية) ، ص ٣٢

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٣

(٥) عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، القاهرة ١٩٢٩ ص ١٠٦

فيه جائية وذاهبة . والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الافرنج ، وتثخن في ممالكهم ، كما وقع في أيام بني الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين ، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الاسد على فريسته . وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا . واختلفت في طرقه سلما وحربا ، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح » (١) .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٣٠

(١)

في القرن الثالث الهجري

كانت معظم ايطاليا الجنوبية خاضعة لامراء بنفنت اللومبارديين . في حين قامت في جزء منها جمهوريات ايطالية صغيرة هي نابل وجايتا وسورنتو وملف [١] (أمالفى) . وكانت هذه الجمهوريات تابعة اسميا للدولـة البيزنطية ، ولكنها كانت بالفعل مستقلة عنها ، ولذلك كانت تسعى الى المحافظة على استقلالها أمـام مطامع أمراء بنفنت . ولمـا كانت هـذه الجمهوريات الصغيرة لا تتوقع أن تقدم لها الدول المسيحية أي مساعدة فقد عمدت الى التحالف مـع المسلمين في صقلية . وكانت نابـل أول جمهورية ايطالية تتحالف مع مسلمي صقلية في عام ٢١٥ (٨٣٠ م) أو ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) ، ودام هذا التحالف ما يقرب من خمسين عاما ، على الرغم من لعنات الكنيسة واحتجاجاتها [٢] . وقد لبى الامير أبو الاغلب ابراهيم بن عبدالله والى صقلية نداء أهل نابل ، فأرسل اليهم أسطولا لمساعدتهم عندمـا حاصرهم أمـير بنفنت اللومبـاردي سيكاردوس Sicardus ، وكانـت هـذه المساعـدة ذات فائـدة للنابليين ، اذ أتاحت لهم الفرصة لاسترداد أسراهم بدون فدية [٣] ، كما كانت ذات أثر فعال بالنسبة لمسلمي صقلية ، لانها أضعفت قوة أسطول بيزنطـة وفعاليته في البحر التيراني [٤] . ومن صقلية اجتاحت قوات المسلمين في الفترة ما بين ٢٢٢ هـ ، ٢٢٧ هـ ، عبر مضيق مسيني ، ولاية ماجنا جراتسيا

---

(١) Scott, t. II, p. 26

(٢) Ibid. p. 29

(٣) Scott, op. cit p. 26 - فازيلييف ، ص ١٦٠.

(٤) أرشيبالد لويس ، ص ٢١٣

القديمة . وشملت غاراتهم البحرين التيراني والادرياتي . فتغلبوا على ولايتي أبوليا وقلورية (كالابريا) . وخربوا دوقية سبوليتو ، وباغتوا أنكونا الواقعة على البحر الادرياتي بالهجوم واستولوا عليهـا . كما استولوا بالاشتراك مع مسلمي اقريطش على بنفنت وبرنديزي وطارنت الواقعة على مدخل البحر الادرياتي ، وبارة في ولاية قلورية [١] ، وبلغت غزواتهم حتى ساحل دلماشيا [٢] . ولم يستطع البنادقة ، الذين حرصوا على تأمين تجارتهم ، أن يتصدوا لهذا السيل المدمر من الغارات البحرية الاسلامية ، وعندما حاولوا ذلك تعرض أسطولهم في سنة ٢٢٤ هـ لهزيمة قاسية على أيدي البحريين الاغالبة ، فتحطمت قطعه قرب كروتونى على خليج طارنت [٣] . كما مني أسطول آخر للبنادقة في سنة ٢٢٧ هـ بهزيمة نكراء في مياه خليج كوارنيرو [٤] .

ولكن نابل لم تلبث أن تخلت عن تحالفها مع المسلمين ، ويرجع هذا التحول في سياسة دوق نابل فيما يظهر الى اتخاذ المسلمين قواعد بحرية على سواحلها هددت أمنها وأثرت على تجارتها . ولم تلبث نابل أن عقدت حلفا مع المدن البحرية المجاورة وهي أمالفى وجايتا وسورنتو ، ونجح هذا

---

(١) ذكر البلاذري ان بارة افتتحت على يد خلفون البربري في اول خلافة المتوكل على الله العباسي (سنة ٢٣٢ هـ) ، وتولى بعده المفرج بن سلام الذي افتتح اربعة وعشرين حصنا واستولى عليها ، وبنى مسجدا جامعا فيها ، وخلفه سوران. (البلاذري ، ج١ ص ٢٧٧). ويبدو ان المفرج بن سلام وخلفون وسوران كانوا من بربر افريقية ، وانهم ارادوا الاستئثار بحكم بارة دون ان يتبعوا الاغالبة ، وانما بعهد من الخليفة المتوكل بخلاف ما أشار اليه الدكتور طرخان اذ يستنتج انهم من اهل اقريطش (طرخان ، المسلمون في اوروبا ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢١٦)

(٢) Scott, p. 35 . نزل المسلمون في ٢٢٧ هـ على مدينة اوزيرو واحرقوهـا (فازيليف ، ص ١٦٢) ، كذلك شنت الاساطيل الاسلامية الغارات على بلاد البنادقة ، نزلت قوات المسلمين على مصب نهر البو ، وبثت الغارات حتى حدود استريا (Scott,p.36)

(٣) ارشيبالد ، ص ٢١٤

(٤) نفسه ، ص ٢١٥ ـ فازيليف ، ص ١٦٢

الحلف في ارغام المسلمين على التخلي عن مراكزهم في جزيرة بونزا الواقعة بالقرب من نابل ، وفي ليكوزيا الواقعة على خليج سلرنو [١] . وكان لهذا الضغط آثره في تحول المسلمين نحو أملاك البابوية ، ففي سنة ٢٣١هـ (٨٤٥ م) تمكن المسلمون من الاستيلاء على ميزينو الواقعة بالقرب من نابل [٢] ، وفي العام التالي نزلت قوات اسلامية على الساحل الغربي من ايطاليا في نواحي نابل ، وأغارت هذه القوات على تلك النواحي ، وتقدمت حتى مصب نهر التيبر ، ووصلت الى ضواحي رومـة [٣] ، وتعرضت كنيستا القديسين بطرس وبولس خارج الأسوار للتخريب والتدمير ، ولولا أن البابا السابق جريجوري الرابع (٨٢٧ — ٨٤٤) قد أعـد لهذا الغزو عدته من قبل ، فحصن رومة بأن زودها بحصن أوستى وبأسوار منيعة وخندق ، لكانت رومة قد سقطت في أيدي المسلمين [٤] . وأمام هذا الهجوم على مقر البابوية نفسها اضطر البابا الى الاستنصار بمدن كمبانيا المتحالفة ، وهي أمالفى وجايتا ونابل ، التي حشدت في أوستيا ، ميناء رومة ، أسطولا مشتركا لمواجهة أسطول المسلمين ، ولكن قبل أن تصـل سفن المسلمين أمام أوستيا تعرضت لعاصفة عاتية حطمتها وأغرقت عددا كبيرا منها ، ووقع في أسر المتحالفين عدد كبير من المسلمين ، اقتيدوا الى رومة ، وألزموا بالعمل في بناء مدينة الفاتيكان [٥] .

ثم توقف الغزو البحري الاسلامي بعد ذلك فترة من الوقت شغل

---

(١) نفسه ، ص ٢١٦ — فازيلييف ، ص ١٨٤ ، ١٨٥

(٢) فازيلييف ، ص ١٨٥

(٣) نفسه ، ص ١٨٥ — أرشيبالد ، ص ٢١٦ — شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب القاهرة ، ص ١٥٢ ، ١٥٣

(٤) نفسه ، ص ١٨٥ — أرشبالد ص ٢١٦ — Scott, p. 39

(٥) نفسه ، ص ١٨٦ — أرشبالد ص ٢١٩

فيها الاغالبة بصراعهم البحري مع مسلمي اقريطش [١] الذين كانوا ينافسونهم في الميدان الغربي من البحر المتوسط . ولم يستأنف المسلمون هجماتهم على ايطاليا الجنوبية من جديد الا عندما قرر لويس الثاني الكارولنجي ، حاكم ايطاليا ، أن يقوم بمحاربة المسلمين في بارة الذين كانوا يجتاحون بغاراتهم وسط ايطاليا وجنوبها ، فحاصرها لويس فترة طويلة ، ولكنه أخفق في افتتاحها بسبب سيطرة المسلمين على المسالك البحرية [٢] ، ثم تعاون بسيل الاول البيزنطي والبنادقة مع الملك الكارولنجي في افتتاح بارة التي سقطت أخيرا في سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م) . وأحدث سقوط بارة في أيدي البيزنطيين والبنادقة دويا هائلا ورد فعل شديد عند المسلمين ، فأبحر الاسطول الاسلامي من طارنت ، وهاجم ميناء كوماتشو الواقع على مصب نهر البو ، وأحرق الميناء . وكانت هذه الغزوة آخر غزوات المسلمين على مدن شمال الادرياتي [٣] .

وبينما كان المسلمون يفقدون سلطانهم على الشاطىء الشرقي لشبه جزيرة ايطاليا نتيجة لتدخل البنادقة ، كان الساحل الغربي يتعرض لهجمات متواصلة يشنها المسلمون منذ سنة ٢٥٦ هـ ، فقد هاجموا رومة في تلك السنة . واضطر البابا حنا الثامن الى مفاوضة المسلمين في الصلح والجلاء ، في مقابل جزية سنوية [٤] يدفعها لهم ، وذلك بعد أن فشلت مساعيه للظفر بمعونة بيزنطة وأمالفي وجايتا ونابل وشارل الجسور [٥] . ولم يخف الضغط الاسلامي على سواحل ايطاليا الجنوبية الغربية الا منذ سنة

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٨ — النويري ، ج ٢٢ ، ص ٢٢٩
(٢) ارشيبالد لويس ، ص ٢١٨
(٣) نفسه ص ٢١٩
(٤) ابراهيم طرخان ، ص ٢١٧
(٥) ارشيبالد ، ص ٢١٩

٢٦٦ هـ (٨٨٠ م) عندما رابط أسطول بيزنطي في مياه صقلية بالقرب من ثرمة Termini الواقعـة شرقي بلرم [١] ، فقـد أدى وجـود هـذا الاسطول في مياه صقلية الى عودة نابل الى ولائها القديم للبيزنطيين . ومع ذلك فقد نجح المسلمون في انشاء امـارة اسلامية في سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) أو ما يليها عند منت جارليانو Garliano ، وهي امارة كانت تشكل خطرا كبيرا على الاملاك البابوية [٢] . ثم غزا المسلمون أرض قلورية في سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) ، واشتبك الاسطول الاسلامي مـع البيزنطي بالقرب من ميلازو في موقعة بحرية انتهت بهزيمـة الاسطول البيزنطي وتحطيم معظم سفنه [٣] . ووصلت سرايا المسلمين الى الارض الكبيرة [٤] ، وأعاد المسلمون الكرة مرة أخرى في سنة ٢٩٠ هـ عندما أغاروا على قلورية ، غير أن وفاة الامير ابراهيم بن احمد في كسنتة [٥] أنقذت ايطاليا الجنوبية حتما من غزو وشيك كان الامير الاغلبي قد شرع فيـــه .

---

(١) الحميري ، ص ١٤٩

(٢) Scott, p. 36 — ارشبالد ، ص ٢٢.

(٣) ارشيبالد ، ص ٢٢.

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦.

(٥) النويري ، ج ٢٢ ص ١٢٢

(٢)

في القرن الرابع الهجري

لم يكن الفاطميون الذين أسسوا دولتهم في المغرب الاسلامي منذ سنة ٢٩٦ هـ أقل اهتماما بشئون البحر من الاغالبة بل اننا لا تتجاوز قط الصواب اذا قلنا أنهم فاقوا الاغالبة في شدة العناية بالاساطيل ، والاعتماد على هذه الاساطيل في تدعيم نفوذهم وتمكينه في بلاد المغرب وفي جزر البحر المتوسط الغربي . ويسجل انشاء مدينة المهدية في سنة ٣٠٣ هـ [١] أول اجراء عملي قام به الفاطميون لتطبيق سياسة بحرية، فمما لا شك فيه أن المهدية كانت تتمتع بموقع استراتيجي هام بين سفاقس والمنستير ، في جزيرة متصلة بالبر كصورة «كف اتصل بزند» [٢]، وبوجود مرسى منقور في حجر صلد يتسع لثلاثين مركبا ، ويقوم على طرفيه برجان تمتد بينهما سلسلة من حديد تحميه من طروق مراكب الروم [٣] ، ودار للصناعة منقورة في الجبل كانت تسع مائة شيني [٤] . وكان لانشاء المهدية أعظم الاثر في تدعيم أسطول افريقية ، فقد كانت دار صناعة المهدية أكثر انتاجا للسفن الفاطمية من دار الصناعة بتونس ، ويبدو أن المهدي كان حريصا على انشاء أسطول ضخم مزود بالرجال والعتاد لتنفيذ سياسته التوسعية سواء

---

(١) ذكر البكري ان عبيد الله المهدي شرع في بناء المهدية في سنة ٣٠٠ هـ واستكمل سورها في سنه ٣٠٥ هـ ، ثم انتقل اليها في شوال سنة ٣٠٨ هـ (البكري ، ص ٣٠) ، كذلك ذكر ابن عذاري أن المهدي ابتدأ بنيان المهدية في ٣٠٠ هـ (ابن عذاري ج ١ ص ٢٢٤). والارجح انه شرع في بنائها في سنة ٣٠٠ هـ واستكمل بناءها في سنة ٣٠٣ هـ ، ثم حوطها بسور في سنه ٣٠٥، ولما استكملت جميع مرافقها في سنة ٣٠٨، انتقل اليها واتخذها مقرا لدولته

(٢) ياقوت، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٢٣٠ ـ ابن خلدون، ج ٤ ص ٧٩ ـ المقريزي اتعاظ الحنفا ، تحقيق الدكتور الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٧٠ .

(٣) البكري ، ص ٣٠ ، ٣٩ ـ الاستبصار ، تحقيق الدكتور سعد زغلول ، ص ١١٧ ، ١١٨ ـ التجاني، ص٣٢٢ ـ ميخائيل عواد، المآصر في بلاد الروم والاسلام ، بغداد، ١٩٤٨، ص٥٩

(٤) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ٧٠

في الاندلس أم في المشرق ، وقد نجح المهدي في ضم صقلية في سنة ٣٠٤ هـ وولى عليها ابا سعيد الضيف ، الذي قدم اليها في الاساطيل واستنزل الثوار . وذكر المقريزي أن المهدي سير الى مصر ، لنجدة ابنه القائم ، ثمانين مركبا أرست بالاسكندرية وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامي ، وقد اصطدم هذا الاسطول الفاطمي بالاسطول العباسي بقيادة ثمل الخادم ، القادم من طرسوس وعدته ٢٥ مركبا مزودة بالنفط والعدد عند رشيد في ٢٠ شوال سنة ٣٠٧ هـ ، فانهزم الاسطول الفاطمي ، وأحرق العباسيون كثيرا من سفنه ، وأسر القائدان يعقوب وسليمان ، كما أسر من رؤساء المراكب نحو مائة وسبعة عشر ، فتوفي سليمان في سجنه بمصر ، وحمل يعقوب الى بغداد ، فهرب من هناك وعاد الى افريقية وقاد أساطيلها [1] . ولم تكن هزيمة الفاطميين في مياه رشيد عن ضعف أو تخاذل ، فقد عرف المغاربة بصبرهم على القتال البحري وبراعتهم في قيادة الاساطيل بدليل ما ذكره علي بن موسى بن سعيد المغربي اذ يقول : « وسائر الفقراء في (الفسطاط) لا يتعرضون اليهم بالقبض للاسطول الا المغاربة فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر ، وقد عم ذلك من يعرف معاناة البحر منهم ومن لا يعرف وهم في القدوم عليها بين حالين : اذا كان المغربي غنيا طولب بالزكاة وضيق عليه . وان كان مجردا فقيرا حمل الى السجن حتى يحين وقت الاسطول » [2] . لم يهزم الاسطول العباسي السفن الفاطمية في معركة، وانما هزمتها قوى الطبيعة ، فقد روى الكندي ان أسطول الفاطميين تعرض عند رشيد لعاصفة دفعتها الى البر فتكسرت ، وأخذ العباسيون من كان فيها « أخذا باليد » [3] .

---

(١) نفسه ، ص ٧١ — الكندي ، ص ٢٨٦ — ابن الاثير ، ج ٦ ص ١٦١ — ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥٥ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الطبعة الثانية الاسكندرية ، ١٩٦٩ ، ص ١٧٢

(٢) المقري ، ج ٢ ص ١١١ ، ١١٢

(٣) الكندي ، ص ٢٧٦

وجاءت هزيمة الاسطول الفاطمي عند رشيد حافزا للمهـدي على زيادة عنايته بالاسطول ، ومضت أربع سنوات على هذه الهزيمة ، تقوت خلالها البحرية الفاطمية ، واستعادت هيبتها ، وشرع المهدي نشاطه البحري من جديد بغزو جزيرة جربة ، فهاجمها أسطوله في قوة يقودها علي بن سليمان الداعي ، في سنة ٣١١ وافتتحها [١] . ثم تطلع المهدي بعد ذلك الى غزو ايطاليا مـن صقلية ، ففي سنة ٣١٠ هـ غزا مسعود الفتى اقليـم قلورية في عشرين شينيـا ، فاستولى على مدينـة أغاثـي Santa Agata وسباها [٢] . وفي سنة ٣١٣ هـ غزا أبو أحمد جعفر جنوبي ايطاليا من صقلية ، فافتتح مواضع كثيرة منها من بينها مدينة واري Oria ، وغنم غنائم كثيرة [٣]. وفي سنة ٣١٥ هـ غزا صابر الفتى الصقلبي بعض السواحل الايطالية في ٤٤ شينيا ، فأصاب في هذه الغزوة كثيرا من الغنائم [٤]. وفي العام التالي غزا صابر الفتى من افريقية في ثلاثين حربيا أرض قلورية ومعه سالم بن راشد الكناني ، ففتح طارنت عنوة ، ووصل الى أذرنت وحاصرها وخرب دورها ومبانيها [٥] . وذكر ابن عذاري أنه افتتح موضعا يعرف بالغيران وقلعة الحسب ، وواصل غزوه ، فزحف الى سلير (سلرنـو) فصالحه أهلها على مال وديباج . ثم زحف الى نابل ، فصالحه أهلها على مال وثياب [٦] . وفي سنة ٣١٧ هـ غزا صابر غزوته الثالثة في أربعة سفن، فالتقى في البحر بسبع سفن بيزنطية بقيادة السردغوس، فانهزم البيزنطيون، ونجح صابر في افتتاح مدينة ترموله Termoli ، وسبى فيها سبيا كثيرا [٧] ، ورأت سلرنو ونابل أن من الافضل لهما الخضوع للمسلمين

---

(١) الجربي ، مؤنس الاحبة ، ص ٦٠.

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦٤

(٣) نفسه ، ص ٢٦٧ — ارشبالد ، ص ٢٢٤

(٤) نفسه ، ص ٢٧٠

(٥) النويري ، ص ٢٣٢ — المكتبة الصقلية ، ص ٢٥٤ — ارشبالد ، ص ٢٢٤

(٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٧٢

(٧) نفسه ، ص ٢٧٥

ودفع الجزية . ويبدو أن الضغط المتواصل الذي قام به الفاطميون من قواعدهم في صقلية وافريقية كان سببا في عودة ظهور القوة البحرية البيزنطية في البحر التيراني لمواجهة الغزو الفاطمي . وقد رد الفاطميون سريعا على ذلك ، فأرسل القائم بالله ابن المهدي في سنة ٣٢٣ هـ أسطولا كبيرا لتدعيم السلطان الفاطمي في مياه البحر التيراني . واستطاع هـذا الاسطول بقيادة يعقوب بن اسحق أن يهاجم مدينة جنوة ويفتتحها . وهاجم سردانية ثم قرشقة ، وأوقع بأهلهما وأحرق عددا كبيرا من السفن الراسية بهما [١] .

ثم توقف نشاط الفاطميين البحري فترة تمتد من ٣٢٣ حتى سنة ٣٣٧ هـ شغلوا خلالها باخماد ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الخارجي المعروف بصاحب الحمار ، التي استغرقت ١٤ سنة . شغلت عصر القائم بالله كله ، وعامين من عهد ابنه أبي العباس اسماعيل المنصور . وقد سخر اسماعيل المنصور أساطيله بقيادة رشيق الكاتب ويعقوب بن اسحق لمقاتلة ابي يزيد في سوسة وافتتاحها [٢] . وما ان فرغ الفاطميون من اخماد هذه الثورة حتى عادوا من جديد الى مهاجمة سواحل ايطاليا . ففي ولاية الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي على صقلية ، خرج الحسن بن علي في أسطول ضخم من ٧ آلاف فارس و ٣٥٠٠ راجل بخلاف البحريين ، وهاجم هذا الاسطول برا وبحرا ، بلاد قلورية ، وحاصروا جراجة ، وصالحوا أهلها على مال ، ثم زحفوا الى مدينة بارة (باري حاليا). ونزل الحسن على قلعة قسانة Cassano ، وبث سراياه الى قلورية .

---

(١) ابن الاثير (المكتبة الصقلية) ص ٢٥٤ — ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٩ — النويري ، ص ٢٣٢ — ارشيبالد ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥

(٢) ابن الاثير ، ج ٦ ص ٣٠٨ ، والمكتبة الصقلية ، ص ٢٥٤ — ابن خلدون ، ج٤ ص٩٠ — اتحاف اهل الزمان ص ١٢٤

وأقام عليها شهرا حتى سأله أهلها الصلح فصالحهم على مال ، وعاد الحسن الى مسينى ، وقضى الاسطول بها فصل الشتاء [١] فأرسل اليه المنصور يأمره بالعودة الى قلورية ، فامتثل الحسن لامر الخليفة ، وعبر المجاز الى ريو ثم انتقل الى جراجة . وكان الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع قد سير الى أذرنت بقلورية أسطولا ضخما بقيادة أحد بطارقته ، وانضم السردغوس حاكم اقليم قلورية الى هذه القوة البيزنطية لوضع حد لاعمال الفاطميين في جنوب ايطاليا ، واشتبك المسلمون مع البيزنطيين في ٩ ذي الحجة سنة ٣٤٠ هـ فانهزم البيزنطيون هزيمة نكراء [٢] ، وأكثر المسلمون فيهم القتل ، وغنموا غنائم هائلة ، وقتل البطريق وحاكم الاقليم . وهكذا عجز البيزنطيون عن مواجهة المسلمين ، واضطر الامبراطور قسطنطين الى طلب الهدنة ، فهادنه المسلمون ، وعاد الحسن الى ريو ، وبنى بها مسجدا جامعا [٣] .

غير أن التقارب السياسي بين بيزنطة وقرطبة بسبب عدائهما المشترك المدولة الفاطمية قضى على السلام المضطرب الذي كان قائما بين بيزنطة وبلرم ، واستأنف الفاطميون غزوهم لسواحل ايطاليا في نفس الوقت الذي هاجموا فيه مرسى مدينة المرية قاعدة اساطيل الاندلس ، وأحرقوا جميع ما فيها من السفن . وكانت الامبراطورية البيزنطية منذ أيام رومانوس ليكابنيوس قد استرجعت قوتها البحرية في الشرق والغرب ، ونجح نقفور فوقاس قبل اعتلائه العرش في الاستيلاء على جزيرة اقريطش في سنة ٣٥٠ هـ ، وتخليص بحر ايجه من أعظم خطر كان يواجهها في وسط البحر المتوسط ، كما نجح هذا القائد بعد أن أصبح امبراطورا في سنة

---

(١) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٦٠.

(٢) نفسه ، ص ٢٦٠. — ارشيبالد ص ٢٣٥

(٣) نفسه

٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) في انتزاع جزيرة قبرص من أيدي المسلمين • وفي نفس الوقت الذي نشطت فيه البحرية البيزنطية في حوض البحر المتوسط الشرقي ، لم تتوان في ممارسة نشاط بحري واسع النطاق في غرب البحر المتوسط عندما واتتها الفرصة ، فقد انتهزت فرصة قيام النصارى في صقلية بالثورة لتتدخل في شؤون الجزيرة ، ونجح البيزنطيون في الاستيلاء على قلعة طبرمين في سنة ٣٥١ هـ (٩٦٣) • غير أن البيزنطيين ، على الرغم من تغلب أساطيلهم على أساطيل المسلمين في الشرق ، عجزوا عن الوقوف أندادا للمسلمين بحرا في الغرب [١] ، فان والي صقلية أبا الحسين أحمد ابن الحسن بن علي الكلبي لم يسكت على احتلال البيزنطيين لطبرمين . فبدأ بمحاصرتها زهاء سبعة أشهر ونصف حتى نجح في افتتاحها في عام ٣٥١ هـ ، وأمر المعز الفاطمي بتسميتها المعزية [٢] • ولما وصلت هـذه الأنباء الى أهل رمطـة النصاري شقوا عصا الطاعة علـى الفاطميين • واستنصروا بالدمستق (الامبراطور نقفور فوقاس) ملك القسطنطينية . فسير اليهم في البحر جيشا ضخما تزيد عدته على أربعين ألف مقاتل بقيادة منويل ، وعندئذ أرسل الامير أحمد الى المعز لدين الله الفاطمي بافريقية يستمده ، وشرع هو في اصلاح أسطوله والزيادة فيه ، وحشد الرجال والمقاتلة في البر والبحر ، الى أن جاءته الامدادات مـن افريقية بقيادة الحسن بن علي ، وبدأ المسلمون يحاصرون رمطة في نفس الوقت الذي رست فيه سفن البيزنطيين في مسينى ، وزحفت جيوش البيزنطيين نحو رمطة كي يرغموا المسلمين على فك الحصار ، والتحم الجيشان في قتال عنيف انتهى بهزيمة البيزنطيين وواصل المسلمون احكام حصارهم على رمطة حتى اقتحموها عنوة • أما البيزنطيون فقد فر من نجا منهم في السفن الى ريو ، فطاردتهم سفن الاسطول الفاطمي ، وأدركتهم عند المجاز الى

---

(١) أرشبالد ، ص ٢٩٧

(٢) ابن الاثر ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٦٣ — النويري ، ج ٢٢ ص ٢٣٢

قلورية . وألقى جماعة من المسلمين بأنفسهم في الماء ، فأحرقوا كثيرا من سفن البيزنطيين ، فغرق معظمها ، وسميت هذه الوقعة البحرية بوقعة المجـاز [١] .

واستغل المسلمون هذا الانتصار فهاجموا المدن الايطالية ، وغنموا غنائم كثيرة . واضطر البيزنطيون الى طلب الصلح ، فتم عقده في سنة ٣٥٤ هـ نظير جزية يدفعها أهل قلورية للمعز كل سنة يقدمونها الى عامله على صقلية . ثم وصلت في سنة ٣٥٨ هـ هدية من الامبراطور الى المعز من بينها آنية من الذهب والفضة مرصعة بالجوهر ، وديباج وحرير وبردون وغير ذلك من نفيس ما لدى البيزنطيين ، وأرسل الامبراطور كتابا الى المعز يطلب منه الكف عن حربه ويسأله الموادعة ، وبعث بعدد كبير من أسرى المسلمين في المشرق ، كما سأله زيادة مدة الهدنة . فرفض المعز أن يطيلها حتى تنقضي مدتها [٢] .

ثم شغلت بيزنطة في عهد بسيل الثاني بمشاكلها الداخلية مثل ثورة برداس اسكليروس في سنة ٩٧٦ م وثورة برداس فوكاس في سنة ٩٨٧م ، وهما ثورتان خطيرتان انحاز الى الثوار فيهما معظم أجناد الاساطيـل البيزنطية ، كما شغلت بمواجهة مشاكل البلغار والروس ، عن الاهتمام بانجاد ايطاليا الجنوبية من الغزوات التي كان يقوم بها أمراء صقليـة الكلبيين من بني الحسين . كرد فعل لغارات البيزنطيين على الشام . ففي سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) أغارت أساطيل صقلية بقيادة أبي القاسم بن الحسن بن علي على سواحل قلورية ، فأخضعوا كسنثة وقلعة حلوا ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٦٦ ــ ابو الفداء ، المختصر ، ص ١٢٢ ــ النويري ، ص ٢٢٥

(٢) القاضي النعمان ، القصية الريطش ، تحقيق فرحات الدشراوي ، ص ٢٨

وبث سراياه في نواحي قلورية وأبوليا . وفي العام التالي عاود أبو القاسم الغزو ، فنازل قلعة أغاثة ، وأخضعها ، ثم زحف الى طارنت ، ودخلها ، وأمر بهدمها ، وغزا أذرنت Otranto

ثم توقفت غارات المسلمين بصقلية في الفترة التي حاول فيها الامبراطور أوتو الثاني اخضاع البندقية وضم المقاطعات البيزنطية في جنوب ايطاليا الى أملاكه ، اذ تعاونوا مع البيزنطيين في ايقاع الهزيمة بأوتو عند رأس ستيلو . ولم يلبث المسلمون في افريقية وصقلية أن استأنفوا من جديد غاراتهم على قلورية وعلى السواحل المطلة على البحر الادرياتي .

الفَصْل الخَامِسْ

البحرية الاسلامية في الأندلس منذ قيامها
حتي نهاية القرن الوابع الهجري

(١) النشاط البحري للاندلسيين حتى طليعة القرن الرابع الهجري •

أ ــ افتقار الاندلس الى الاساطيل

ب ــ غارة النورمان الاولى على الاندلس وأثرها في قيام البحرية الاندلسية •

ج ــ غارة النورمان الثانية في عصر الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط سنة ٢٤٥ هـ

د ــ دور البحريين في تمصير بجانة في ختام القرن الرابع الهجري

(٢) البحرية الاندلسية في أوج قوتها في القرن الرابع الهجري

أ ــ عناية عبد الرحمن الناصر بالاساطيل

ب ــ قيام المرية قاعدة أسطول الاندلس

ج ــ غارة النورمان الثالثة في عامي ٣٥٥ ، ٣٦٠ هـ وفشلها

د ــ نشاط أسطول الاندلس في سواحل المغرب وسواحل غرب الاندلس

هـ ــ مغامرات الاندلسيين في بحر الظلمات في القرن الرابع الهجري

الفَصْل الخَامِسْ

البحرية الاسلامية في الاندلس منذ قيامها حتى نهاية القرن الرابع الهجري

(١)

النشاط البحري للأندلسيين حتى طليعة القرن الرابع الهجري

أ ـ افتقار الاندلس الى الاساطيل :

لم يكن للمسلمين منذ أن افتتحوا الاندلس أسطول بحري حربي منظم قبل أن يشرع الامير الاموي عبد الرحمن الاوسط في بناء دار الصناعة باشبيلية في سنة ٢٣٠ هـ ، ومن المعروف أن موسى بن نصير اهتم بانشاء عدد كبير من السفن في دار الصناعة بتونس ، نقل بفضلها الاجناد التي أمد بها موسى مولاه طارقا قبل موقعة وادي لكة [١] ، ومن تونس أيضا كان الولاة والاجناد يعبرون الى سواحل الاندلس ، فأبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي عبر البحر من ساحل تونس الى ساحل غرناطة في سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) . وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى الصقلبي جاز البحر من تونس ، واحتل بكورة تدمير في سنة ١٦٠ هـ (٧٧٧ م) [٢] ، وعلى الرغم من أن ولاة بني أمية في الاندلس لم يهتموا بالاساطيل ، فان شهرة الاندلسيين في ركوب السفن وخبرتهم بشؤون البحر ، وقدرتهم على خوضه ، ساعدت على تكوين طوائف بحرية [٣]

---

(١) اخبار مجموعة ، ص ٧

(٢) المقري ، ص ١١ ـ النويري ، ص ٧

(٣) Levi - Provençal, Histoire, t. I, p. 348

تسكن السواحل الشرقية من الاندلس وتشتغل بالغزو البحري لحسابها الخاص في جنوبي فرنسا وجزر البحر المتوسط الغربي أو تشتغل بالتجارة ما بين المغرب والاندلس (١) .وقد ذكر ابن القوطية القرطبي أن أبا فريعة الذي عبر البحر مع بدر مولى عبد الرحمن الداخل وتمام بن علقمة ، لنقل الامير الاموي عبد الرحمن الى الاندلس ، كان له بصر في ركوب البحر لتصرفه فيه (٢) . وكان لبعض الافراد مراكب تجارية أو قوارب من بينها المركب الذي حمل عبد الرحمن الى الاندلس (٣) ، والمركبان اللذان أرسلهما زياد بن عمرو اللخمي مشحونين بالميرة الى جند بلج بن بشر القشيري وأصحابه الشاميين المحصورين في سبتة (٤) .

ومنذ أن قامت الدولة الاموية في الاندلس ، وأمراء هذه الدولة قد شغلتهم الثورات الداخلية والحروب مع الممالك المسيحية في شمال اسبانيا . والمؤامرات الخارجية عن العناية بالبحرية أو الاهتمام بانشاء الاساطيل . زد على ذلك أن سياسة هؤلاء الامراء الخارجية كانت تقوم أساسا على معاداة العباسيين والتقرب الى البيزنطيين ومصادقتهم ، لاشتراك هؤلاء مع الامويين في الاندلس في عدائهما للعباسيين ، ولهذا السبب اطمأن أمراء قرطبة الى جانب البيزنطيين ولم يحسوا بحاجتهم الى أسطول أو قوة بحرية للدفاع عن سواحلهم ، الى أن فوجئوا بالغزوة النورمندية في سنة ٢٢٩ هـ . وتنبهوا وقتئذ الى نقطة الضعف في نظامهم الدفاعي البحري .

---

(١) كانت الاتصالات بين موانيء الاندلس وميناء نكور ومرسى الفروخ مستمرة في عصر الامارة بقرطبة

(٢) ابن القوطية ، ص ٢٤

(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، القسم الخاص بالاندلس ، ص ٨

(٤) المقري ، ج ٤ ، ص ١٩

غير أن ذلك لم يمنع من قيام جماعات من البحريين من أهل الاندلس بالاشتغال بالتجارة فيما تنتجه الاندلس زراعيا وصناعيا أو القيام بغزو السواحل الافرنجية وجزر البحر المتوسط ، وقد أشرنا من قبل الى هؤلاء البحريين عند حديثنا عن اقريطش . وكان المركز الرئيسي لهؤلاء البحريين منطقة تقع على الساحل الشمالي الشرقي من الاندلس بين طرطوشة وبلنسية ، وكان يتزعمهم أمير سرقسطة ويوجههم الى غزو السواحل الكارولنجية [١] ، مستغلين في ذلك تفكك قوى الكارولنجيين البحرية منذ منتصف القرن التاسع الميلادي (النصف الاول من القرن الثالث الهجري) . وقد نجح هؤلاء الغزاة البحريين في تأسيس قواعد ثابتة لهم في فراكسينت على ساحل بروفانس وجزيرة كامرج عند مصب نهر الرون وفي ماجلون ، ومن هذه القواعد وجهوا غاراتهم الى داخل البلاد في اقليم بروفانس ، وانتشروا في جبال الألب ، وتحكموا في الممرات الموصلة بين فرنسا وايطاليا فيما بين مونت سني والبحر المتوسط [٢] . ويبدو أن هؤلاء الغزاة أغاروا لحسابهم الخاص على جزيرة قرشقة (كورسيكا) في سنة ١٩١ هـ (٨٠٦ م) فأرسل اليهم ببين بن شارلمان ملك ايطاليا أسطوله ليرغمهم على الانسحاب ، ونجح فيما ذهب اليه . وعند عودة المسلمين الى مراكزهم انتهز آدمر كونت جنوة فرصة انسحابهم ، وتعقبهم بأسطوله ، ولما أحس الاندلسيون بذلك حولوا سفنهم الى أسطوله . واشتبك أسطول المسلمين مع الاسطول الجنوي في موقعة انتهت بهزيمة الجنويين ، وأسر المسلمون منهم ٦٠ راهبا ، باعوهم في الاندلس [٣] . ثم عاود الاندلسيون الغزو البحري بعد عامين ، فأرست سفنهم في سردانية. ولكن أهل هذه الجزيرة تصدوا لهم وأرغموهم على الخروج منها .

---

(١) ارشبالد لويس ، ص ٢٢٩

(٢) نفسه ، ص ٢٣٠

(٣) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص ١٤٠

فهاجم المسلمون قرشقة واشتبكوا مع القائد بورشارد في موقعة دارت فيها الدائرة على المسلمين وخسروا فيها ثلاثة عشر سفينة [١] . ثم عاودوا الكرة على نفس الجزيرة في سنة ١٩٥ هـ (٨٠٩) وفي سنة ١٩٨ هـ . وفي هذه المرة الاخيرة اشتبك معهم اسطول صاحب انبورياش الذي نجح في أسر ثمانية سفن اسلامية بمن عليها من بحريين بلغ عددهم أكثر من خمسمائة ، وقد انتقم المسلمون لذلك ، فأغاروا على سواحل نيقة (نيس Nice وبروفانس وغيرها [٢] .

والى جانب المركز الرئيسي للبحريين الاندلسيين في طرطوشة وما يليها جنوبا حتى بلنسية ، كانت للغزاة البحريين في الاندلس منطقة أخرى تقع على الساحل الجنوبي الشرقي من الاندلس عند الموضع الذي قامت عليه مرية بجانة فيما بعد ، وكان هؤلاء البحريون ينزلون مرسى أشكوبرس Escombreras الواقع في خليج قرطاجنة الخلفاء ، قبل أن يتخذوا مرية بجانة قاعدة لهم في الجنوب الشرقي من الاندلس [٣] .

ويذكر البكرى أن هؤلاء البحريين الاندلسيين ومنهم الكركرني وأبو عايشة والصفر وصهيب ، أسسوا مدينة تنس الحديثة بالمغرب الاوسط في سنة ٢٦٢ هـ ، اذ كانوا يشتون هناك اذا ركبوا سفنهم من الاندلس ، فينزلون في مرسى على ساحل البحر ، « فتجمع اليهم بربر ذلك القطر ، ورغبوا في الانتقال الى قلعة تنس ، وسألوهم أن يتخذوها سوقا ، ويجعلوها سكنى ، ووعدوهم بالعون والرفق وحسن المجاورة والعشرة ، فأجابوهم الى ذلك ، وانتقلوا الى القلعة وخيموا بها ، وانتقل اليهم من

---

(١) نفسه ، ص ١٤٠ .
(٢) نفسه ، ص ١٤٠ .
(٣) البكري ، ص ٨١

جاورهم من أهل الاندلس وغيرهم »[١] ، ولكن معظمهم انتقل عنها بعد ذلك الى مرية بجانة . والى البحريين الاندلسيين أيضا وعلى رأسهم محمد ابن أبي عون ومحمد بن عبدون يرجع الفضل الاعظم في تأسيس مدينة وهران ، بالاشتراك مع نفزة وبنى سفن من أزداجة في سنة ٢٩٠ هـ [٢] (٩٠٢ م) . ويشير البكري الى مرافىء أخرى مغربية كانت تحتلها جاليات أندلسية في زمنه ، أي في القرن الخامس الهجري ، مثل بونة [٣] ، ومرسى الخرز [٤] ، وبجاية [٥] ، ومرسى الدجاج [٦] .

وينبغي أن نذكر هنا الدور الذي قام به البحريون الاندلسيون برئاسة اصبغ بن وكيل الهواري المعروف بفرغلوش في فتح صقلية . فقد اشتركوا بأسطول يتألف من ثلاثمائة سفينة ، وهو عدد ضخم . في الاستيلاء على مينائي بلرمه وميناو ، والدور الذي قام به جماعة من غزاة البحر الاندلسيين في فتح اقريطش في سنة ٢١٢ هـ على النحو الذي أوضحناه .

ويرجع بداية اشتغال الغزاة البحريين بأعمال الغزو والنهب أو ما يسميه الغربيون بالقرصنة على سواحل ايطاليا وفرنسا الجنوبية وجزر البحر المتوسط مثل صقلية واقريطش الى أيام الامير الحكم الربضي . ولكن ينبغي أن نشير هنا الى أن أعمال هؤلاء الغزاة لم تكن تتم بموافقة رسمية

---

(١) البكري ، ص ٦١

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٠

(٣) البكري ، ص ٥٥

(٤) نفسه ص ٥٥ . وفي ذلك يقول البكري : « والى هذه المدينة [illegible] الغزاة من كل الفق ، لان مقطعها يقرب من جزيرة سردانية » .

(٥) نفس المصدر ، ص ٨٢ . وفي مرسى بجاية يقول البكري : « مرسى مدينة [illegible] ازلية آهلة عامرة باهل الاندلس » .

(٦) نفس المصدر ، ص ٦٥

من حكومة قرطبة [١] . وعلى هذا الاساس نستنتج مما سبق أن ذكرناه أن الاندلس كانت تضم قواعد بحرية ينتجعها جماعة من البحريين الذين كانت لديهم خبرات لا حد لها ودربة متوارثـة في شؤون البحر ، وأن معظم هؤلاء كانوا مولدين ونصارى واقلهم كانوا عربا وبربرا [٢] ، وأن هؤلاء البحريين كانوا يشتغلون اما بالتجارة بين المغرب والاندلس أو بالغزو البحري •

ب ـ غارة النورمان الأولى على الاندلس وأثرها في قيام البحرية الاندلسية :

تسجل سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) أول ظهور للغزاة الشماليين المعروفين في المصادر الاسلامية بالاردمانيين أو المجوس على سواحل الاشبونـة (لشبونة الحالية) • والاردمانيون أو المجوس يقصد بهم النورمان ، اذ أن التسمية الاولى محرفة من لفظة النوردمانيين وفقا لعادة الاندلسيين في قلب النون الى همزة ، مثل آربونة ونربونة [٣] ، أما الثانية فقد أطلقها المسلمون عليهم لانهم كانوا يشعلون النيران في كل موضع يسرون به ، نحسبهم المسلمون مجوسا لهذا السبب [٤] • والنورمان جنس آري قديم سكن شبه جزيرة اسكنديناوة وجوتلند وما يجاورها من الجزر منذ أزمان مغرقة في القدم . ومنذ طليعة القرن التاسع الميلادي شرع النورمان في النزوح عن أوطانهم بعد أن تزايدت أعدادهم ، وتضاءلت مواردهم ، فخرجوا في موجتين : شرقية وغربية . فعبر السويديون البلطيق ، ونزلوا عند مصب الدنيبر ، وتوغلوا في روسيا منحدرين مع نهر الفولجـا ،

---

(١) Lévi - provençal, histoire , t.I ,p.244

(٢) Ibid ,p.349

(٣) حسين مؤنس ، غارات النورمانيين على الاندلس بين سنتي ٢٢٩ ، ٢٤٥ هـ ، المجلة التاريخية المصرية ، مايو ١٩٤٩ ، عدد ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٤

(٤) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٢٤

وأنشأوا مدينتي نوفجورود وكييف وسط جماعات الصقالبة . وسيطروا على التجارة من بحر قزوين الى البحر الاسود . وقد أصبحت كلمة روتسي لهذا السبب ، وهو الاسم الذي أطلقه الفلنديون قديما على جيرانهم السويديين ، تطلق على الصقالبة الذين خضعوا لهم . ومن لفظة روتسي اشتقت لفظة روسي التي أصبح يعرف بها صقالبة حوض الفولجا والدنيبر [١] . وقد اصطدم هؤلاء الروس مع البيزنطيين في البحر الاسود ، وحاصروا القسطنطينية عدة مرات [٢] بغية ضمها الى أملاكهم لما كانت تتمتع به من ثروة اقتصادية وذلك في سنة ٨٦٠ م اذ هاجموها بأسطول يتكون من مائتي سفينة في وقت غير مناسب ، فقدت أثناءه بيزنطة معظم أسطولها الرئيسي قرب صقلية على يد الاغالبة [٣] . وتعرضت مدنها وجزرها في بحر ايجة لنشاط الاندلسيين في اقريطش . كذلك أغار الروس على القسطنطينية في سنة ٩٠٧ م بعد أن فقد البيزنطيون طبرمين في صقلية سنة ٩٠٢ م ، وبعد أن نهب ليو الطرابلسي سالونيك في سنة ٩٠٤ م . ولعل ذلك كان السبب الذي حمل اليعقوبي على أن يطلق اسم الروس على النورمان الذين أغاروا على اسبانيا الاسلامية في قوله « ودخلها (أي اشبيلية) المجوس الذين يقال لهم الروس سنة ٢٢٩ » [٤] . كما دعا المسعودي بعد ذلك الى أن يشير الى أن المجوس قدموا من « خليج يعترض من بحر أوقيانوس وليس بالخليج الذي عليه المنارة النحاس. وارى والله أعلم ان هذا الخليج متصل ببحر مانطس أو نيطس (البحر الاسود) وأن هذه الامة هم الروس . اذ كان لا يقطع هذه البحار المتصلة ببحر وأقيانوس غيرهم » [٥] .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٦

(٢) نفسه ، ص ٢٥

(٣) ارشبالد ، ص ٢٢٨

(٤) اليعقوبي ، ص ٣٠٤

(٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٦٢

أما الموجة النورمانية الثانية الصادرة من النرويج ، فقد اتجهت غربا الى سواحل انجلترا وايرلندا منذ أوائل القرن السابع الميلادي ، وشددوا هجماتهم على انجلترا في النصف الاول من القرن التاسع حتى اضطر ملوك وسكس الى التخلي لهم عن قسم كبير من جنوب غربي انجلترا ، ظلوا يستوطنونه حتى سنة ٩٠٠ م ، عندما طردهم الفريد الكبير ملك وسكس . أما ايرلندا فقد غزاها النرويجيون والدانيون منذ سنة ٨٤١ م واستقروا بها ، وقد ظن ابن الخطيب لذلك أن النورمان الذين غزوا سواحل اسبانيا قدموا من انجلترا وايرلندا ، اذ سمع أن نصارى قشتالة في زمنه يسمونهم الانقليش الذين يستوطنون جزيرتين عظيمتين [1] .

أما نورمانيو الدنمرك ، فقد انحدروا من بلادهم ، واقاموا في بلاد افرنجة بعد أن توفي شارلمان في سنة ٨١٤ م ، وعجز الفرنجة عن ردهم . وقد اشتدت غارات النورمان الدانيين على بلاد افرنجة عنفا في عهد ملكهم هارولد، وأخذ مجال هذه الغارات يمتد جنوبا على سواحل دولة الفرنجة شيئا فشيئا . ففي سنة ٨٤٣ م ظهروا عند مصب نهر اللوار ، واستولوا على نانت في ٢٣ يونيو من تلك السنة ، ومن مصب اللوار امتدت غاراتهم الى مصب وادي جرونة (الجارون) ، وبلغت سفنهم مدينة برديل (بوردو) وتوغلت في جرونة حتى طولوشة[2] ، وأوغل أحد أساطيلهم جنوبا ، فنزل النورمان على ساحل أشتورياس الشمالي بالقرب من خيخون ، ثم واصلوا السير جنوبا بحذاء الساحل حتى جليقية، ولكن ملك اشتورياس حاربهم وأحرق عددا من سفنهم وردهم على أعقابهم . ومن هناك اتجهوا جنوبا حتى ظهرت سفنهم عند مصب نهر تاجة أمام ميناء

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٠

(٢) Levi - Provençel, Histoire. t. I, p. 219

الاشبونة . في يوم الاربعاء مستهل ذي الحجة سنة ٢٢٩ هـ [١] .

ولم تكد سفن النورمان تظهر عند ساحل هذه المدينة حتى أرسل وهب الله بن حزم عاملها الى الامير عبد الرحمن الاوسط كتابا ذكر له فيه « أنه حل بالساحل قبله اربعة وخمسون مركبا للمجوس ومعها أربعة وخمسون قاربا » [٢] . فلما اطلع الامير على ذلك الخبر ، أصدر أمره الى عمال السواحل بالتحفظ والاحتراس واتخاذ الحيطة لمواجهة الغزو النورماني . ويؤكد العذري أن النورمان عند ظهورهم بأشبونة أقاموا بها ثلاثة عشر يوما ، وأنه وقعت بينهم وبين المسلمين وقعة عظيمة [٣] ركبوا على أثرها سفنهم متجهين جنوبا بحثا عن مصب واد آخر ينزلون فيه ، الى أن أرست بهم سفنهم عند مصب الوادي الكبير ، وهناك تفرقت سفنهم ، فواصل بعضها السير بحذاء الساحل الاندلسي جنوبا حتى نزلوا عند ساحل اقليم شذونه ، واستولى البعض الاخر على ميناء قادس ، بينما أوغلت معظم وحدات الاسطول النورماني في النهر (الوادي الكبير) في اتجاه اشبيلية ، واحتلوا جزيرة قبطيل Captel [٤] الواقعة الى الشرق من جزيرة اخرى يقال لها الجزيرة الكبرى Isla Mayor في يوم الجمعة ٨ من المحرم سنة ٢٣٠ هـ ، فأقاموا بها ثلاثة أيام ، ثم دخلوا قرية قورة Coria del Rio ، الواقعة على بعد اثنتي عشرة ميلا من اشبيلية في يوم الاثنين ١٢ من المحرم ، بعد أن اشتبكوا مع أهلها بالحصن في معركة دارت فيها الدائرة على المسلمين ، وقتل منهم عدد كبير . وأقام النورمان

---

(١) ذكر البكري ان المجوس نزلوا بمرسى مدينة اصيلة في المغرب الاقصى قبل غزوهم الاندلس في سنة ٢٢٩ هـ (البكري ، ص ١١١ وما يليها)

(٢) العذري ، ص ٩٨ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٠ .

(٣) نفسه ، ص ٩٨ — النويري ، ج ٢٢ ص ٢٣

(٤) العذري ، ص ٩٨ — ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٣٠ .

في قورة بقية يومهم ثم دخلوا في اليوم التالي قرية طلياطة Tablada التي تبعد عن اشبيلية بنحو ميلين . فنزلوها ليلا ، وذعر أهل اشبيلية ، فأخلوها الى قرمونة وجبال الشرف [١] . أما النورمان فقد مضوا بمراكبهم وقد رفعت الاشرعة السوداء حتى نزلوا جوفا من مدينـة اشبيلية ، واشتبكوا مع المسلمين الذين آثروا المقام بها في معركـة عنيفة ، انهزم فيها المسلمون غداة الاربعاء ١٤ من المحرم هزيمة نكراء ، واستباح النورمان المدينة سبعة أيام ، لم يرفعوا « السيف عن كل ذي روح ظفروا به من الرجال والنساء والصبيان والدواب والانعـام والطيور وكل ما تناولته سيوفهم ورماحهم » [٢] ، فدخلـوا حاضرة اشبيلية قسرا ، واستأصلوا أهلها قتلا وأسرا ، وكانت اشبيلية عند دخولهم عورة ، مدينة بلا سور [٣] . وفي اليوم التالي قدم جيش من قرطبة بقيادة عبدالله بن المنذر وعيسى بن شهيد والاسكندراني وعبد الرحمن بن كليب بن ثعلبة ، ونزل الجيش القرطبي بموضـع شرقي اشبيلية ، فبادرهم النورمـان بالهجوم ، فثبت المسلمون ، وقتلوا منهم نحو سبعـين نفرا ، وأرغموهم على ركوب مراكبهم ، واكتفوا بذلك ولم يطاردوهم .

وكان الامير عبد الرحمن قد استنفر المسلمين بقرطبة ، فتوافت الاجناد بقيادة محمد بن سعيد بن رستم ، وانضم اليها موسى بن قسي صاحب الثغر والمطوعة حتى نزلوا باشبيلية ، وقاتلوا النورمان ، ثم تنحى المسلمون الى كورتش Cuartos بقبلي المدينة ، وعلى أربعة أميال منها ، بينما نزل موسى بن قسي في قريـة كنتش معافـر Quintos

---

(١) ابن القوطية ، ص ٦٣

(٢) العذري ، ص ٩٩ — النويري ، ج ٢٢ ص ٢٤

(٣) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٤٩

الواقعة قبلي اشبيلية [١] على بعد خمسة أميال منها . ولما أدرك النورمان عزم المسلمين على قتالهم انسحبوا الى طلياطة . فأتبعهم ابن رستم وحاصرهم في يوم ٢ ربيع الاول ، ونصب عليهم المجانيق ، ثم توافت الامدادات من قرطبة بقيادة نصر الفتى . وناشبوا النورمان القتال . وعمد المسلمون الى منع النورمان من ركوب مراكبهم . فحالوا بينهم وبينها . فانهزم النورمان وقتل منهم نحو خمسمائة ، من بينهم أميرهم وقائد أسطولهم [٢] ، وأصيبت لهم أربعة سفن بما فيها ، أمر ابن رستم باحراقها [٣] . وأقام النورمان في مواضعهم بين طلياطة وقبطيل لا يتمكن المسلمون منهم ، وأحجموا عن الخروج لمواجهة المسلمين ، ثم تسللوا من جهة النهر نحو لبلة ، ومضوا في منطقة الشرف ، متراجعين الى قنب قوريش ، ثم دخلوا قبطيل ، فأصبحوا بين أودية ، فنزل عليهم المسلمون من جانبي النهر ومنعوهم من النزول ، وأرسل الامير عبد الرحمن اليهم خمسة عشر مركبا مشحونة بالمقاتلة والعدة ، فلما علم النورمان بقدومها اليهم تراجعوا الى لبلة ثم هبطوا الى جزيرة شلطيش . ومنها الى أكشنبه حيث نزلوا على وادي آنه ، ومن هناك رحلوا الى باجة . وانتقلوا بعدها الى مدينة المعدن ، وانتهى بهم الامر الى أشبونة حيث ركبوا سفنهم وعادوا من حيث أتوا [٤] .

ويزعم ابن القوطية أن النورمان بعد انصرافهم عن اشبيلية توجهوا

---

(١) ابن القوطية ، ص ٦٤

(٢) ابن دحية ، المطرب من اشعار أهل المغرب ، تحقيق الاستاذ ابراهيم الابياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور احمد احمد بدوي ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ١٢٨

(٣) العذري ، ص ١٠٠ – ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٣٠ – النويري ، ج ٢٢ ص ٢٤ . وقد ذكر ابن عذاري ان وقعة طلياطة حدثت في ٢٥ من صفر ، وان المسلمين احرقوا من مراكب النورمان ثلاثين مركبا .

(٤) العذري ، ص ١٠٠ – النويري ، ص ٢٤ – المقري ، ج ١ ص ٣٢٤

الى نكور . وأنهم أسروا بها جد ابن صالح . فافتداه الامير عبد الرحمن ابن الحكم ، وأنهم هتكوا الساحلين جميعا حتى بلغوا بلد الروم (يقصد ايطاليا) ، وأنهم بلغوا في تلك الغزوة الاسكندرية [١] . ولكن ابن القوطية تجاوز الصواب اذ أن غزوة النورمان لنكور تمت وفقا للبكري في سنة ٢٤٤ هـ ، ففي هذه السنة تغلبوا عليها مدة سبعة أيام ، وسبوا من فيها الا من أفلت بالفرار ، وكان فيمن سبوه أمة الرحمن وخنعولة ابنتا واقف بن المعتصم بن صالح بن منصور الحميري ، فافتداهما الامام محمد بن عبد الرحمن [٢] . أما قول ابن القوطية بغزوهم الاسكندرية فمستبعد أصلا . ويبدو أن ملك النورمان بالدنمرك ، وكان يسمى اريك، لم يكن يتوقع أن ينهزم رجاله في اشبيلية على النحو الذي رأيناه ، فسعى الى عقد الصلح مع المسلمين في الاندلس . وأرسل وفدا الى الامير عبد الرحمن يلتمس منه أن يقبل الصلح وذلك عقب خروج النورمان من اشبيلية ، فرد الامير على سفارته بسفارة مماثلة ، مثله فيها يحيي بن حكم الغزال ويحيي بن حبيب اللذين ركبا مركبا أنشيء لهما لذلك الغرض ، وأبحر هذا المركب من مدينة أشبونة مع مركب السفير النورماني ، وتعرض المركبان لعاصفة عاتية عند « الطرف الاعظم الداخل في البحر الذي هو حد الاندلس في آخر الغرب ، وهو الجبل المعروف بألوية (الطرف الشمالي الغربي من شبه جزيرة أيبيريا) » [٣] ، وكادت السفينة تتحطم ولكنها نجت ، ووصلت الى جزيرة من جزر النورمان ، فأقام فيها الغزال وصاحبه أياما أصلحا فيها مركبهما ، ثم تابعا الرحلة الى مستقر ملك النورمان . وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط [٤] . ويعترض الاستاذ ليفي بروفنسال على رواية ابن

(١) ابن القوطية ، ص ٦٥

(٢) البكري ، ص ٩٢

(٣) ابن دحية ، ص ١٣٩ — المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٢٤

(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٠

دحية المتأخرة . ويعتقد أنها مجرد أسطورة ابتكرت كلها ، وأن رحلة الغزال كانت موجهة الى بيزنطة نفسها استنادا الى ما رواه ابن حيان [١] . وأن المسألة لا تعدو خلطا في أذهان الاندلسيين بين حادثين : احدهما وصول سفارة بيزنطية الى قرطبة ، والثاني غارة النورمان على سواحل الاندلس الجنوبية الغربية ، وانتهى الخلط بين الحادثين الى ابتكار أسطورة مشتركة أخذت تشوه الحقيقة التاريخية شيئا فشيئا مع مضي الزمن [٢] . ولكن الدكتور حسين مؤنس يناقش رأي الاستاذ بروفنسال. ويفنده تفنيدا علميا ، ويخرج من هذه المناقشة بترجيح صحة سفارة الغزال الى بلاط النورمان [٣] ، وهو ما نميل الى الاخذ به . ونعتقد أن الغزال قام بسفارتين مختلفتي الوجهة ، احداهما الى القسطنطينية ردا على سفارة الامبراطور البيزنطي تيوفيل التي وصلت الى قرطبة في سنة ٢٢٥ هـ [٤] ، ونعتقد أن رحلة الغزال الى القسطنطينية تمت في العام التالي ، والثانية تمت بعد غزوة النورمان لسواحل الاندلس في سنة ٢٣٠ هـ وفقا لما رواه ابن دحية .

ولم تقض هزيمة النورمان في طلياطلة عليهم نهائيا ، فقد اضطر جماعة منهم الى التحصن في جزيرة قبطيل ، ولكن القائد ابن رستم أرغمهم على الاستسلام ، فاعتنقوا الاسلام ، واقاموا بأدنى الوادي الكبير ، واشتغلوا هناك بتربية قطعان الماشية وصناعة الالبان [٥] .

---

(١) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ص ٥٧ — المقري ، ج ٢ ص ٢٤

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, t. 1, p. 253

(٣) حسين مؤنس ، غارات النورمانيين ، ص ٤٢ — ٦٤

(٤) المقري ، ج ١ ص ٢٢٤ — ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٩٧ وما يليها

(٥) Lévi-provençal, t. 1, p. 224

وكان لغارة النورمان آثار هامة على الاندلس ، فقد نبهت الامير عبد الرحمن الاوسط ومن تولى بعده الى ضرورة الاهتمام بتحصين السواحل التي يمكن أن يطرقها الغزاة الشماليون من الغرب والجنوب الغربي ، فأمر هذا الامير بتسوير اشبيلية [١] باشارة وزيره عبد الملك ابن حبيب ، وانشاء مراقب ومحارس على طول الساحل الغربي المطل على المحيط وشحنها بالمرابطة [٢] . كذلك حفزت هذه الغارة النورمانية الحكومة الاموية في الاندلس على زيادة الاهتمام بالبحرية عن طريق انشاء دور لصناعة السفن لتزويد البلاد بأعداد وفيرة من السفن اللازمة لمواجهة الغارات البحرية المقبلة ، فأمر الامير عبد الرحمن الاوسط « باقامة دار صناعة باشبيلية ، وأنشأ المراكب ، واستعد برجال البحر من سواحل الاندلس فألحقهم ، ووسع عليهم ، فاستعد بالآلات والنفط » [٣]. ولم يسجل هذا العمل ميلاد البحرية الاسلامية كما يزعم جمهور كبير من المؤرخين المحدثين ، لان البحرية الاسلامية في الاندلس كانت قد ولدت بالفعل قبل ذلك منذ أيام الامير الحكم الربضي ، ولكنه يسجل تنظيما للبحرية الاسلامية في جزيرة الاندلس ، وحشدا لطاقات هذه الجزيرة لخدمة الاغراض البحرية . وأغلب الظن أن الامير عبد الرحمن دعا الى تضافر جهود البحريين والغزاة لخدمة الدولة في مقابل أرزاق معلومة ، اي أنه

---

(١) امر الامير عبد الرحمن الاوسط ببنائه بالحجارة في سنة ٢٣٠ هـ ، وتولى اعمال البناء عبدالله بن سنان احد موالي الشاميين (راجع : ابن القوطية ، ص ٦٥ ـ ابن حيان، قطعة من المقتبس ، مخطوط فاس ، نشرها الاستاذ ليفي بروفنسال تحت عنوان :
Les citations du Muqtabis d'Ibn Hayyan ralatives aux agrandissements de la grande mosquée de Cordoue au IXe Siècle, Arabica tome premier, fasc. I, Leiden 1954, p. 90 -
والنص نفسه نشره الدكتور عبد الرحمن الحجي في القسم الذي نشره من المقتبس ، ص ٤٤ ٢ ـ ابن سعيد المغربي ، ج ١ ص ٩٤ ـ الحميري ، ص ٢١)

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 225

(٣) ابن القوطية ، ص ٦٧

استعان بهؤلاء البحريين في ادارة اسطول قوي زوده بالآلات والمعدات التي اختصت بصناعتها جزيرة شلطيش • ومن المعروف أن شلطيش كانت تنتج المراسي اللازمة للسفن والمراكب الحمالة الجافية [١] • أما انشاء دار صناعة اشبيلية في عهده . فأمر يتعارض مع ما ذكره ابن القوطية نفسه في موضوع سابق ، اذ ذكر أن سارة القوطية ابنة المند . وحفيدة غيطشه ملك القوط ، أنشأت مركبا باشبيلية ، وتوجهت بأخويها الى الشام . فنزلت بعسقلان . وقصدت دمشق ، حيث تظلمت لهشام بن عبد الملك من عمها أرطباس [٢] • ونستنتج من ذلك أن دار الصناعة باشبيلية كانت قائمة بالفعل منذ الفتح العربي للاندلس، ولعل دار الصناعة التي اتفق مؤرخو العرب على نسبتها الى عبد الرحمن الاوسط هي نفس الصناعة القوطية القديمة. وقد تكون تلك الصناعة قد توقفت فترة الامارة الاموية عن الانتاج فجددها الامير عبد الرحمن بالبناء عقب غزوة النورمان الاولى في سنة ٢٣٠ هـ . ولعله أضاف اليها منشآت معمارية جديدة كي تنشط في انتاج العديد من السفن • كذلك أنشأ الامير نفسه دارا لصناعة الاسلحة اللازمة للسفن في مدينة قرمونة [٣] • وكان من أثر ذلك أن أصبح لحكومة قرطبة أسطول ضخم يضم عددا كبيرا من السفن الحربية (الغزوانية) يقدر عددها بما يزيد على ثلثمائة سفينة ، اذا صدقنا رواية ابن حيان عند تعرضه لذكر اشتراك الاسطول في فتح جزيرة ميورقة ومنورقة سنة ٢٣٤ هـ بقوله « وفيها أغزي الامير عبد الرحمن اسطولا من ثلثمائة مركب الى أهل جزيرتي ميورقة ومنورقة لنقضهم العهد ، واضرارهم بمن يمر اليهم من مراكب المسلمين . ففتح الله للمسلمين عليهم وأظفرهم بهم ،

---

(١) الادريسي ، ص ١٧٩

(٢) ابن القوطية ، ص ٥

(٣) الحميري ، ص ١٥٩

فأصابوا سباياهم ، وفتحوا أكثر جزائرهم » (١) .

ج ـ غارة النورمان الثانية في عصر الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط سنة ٢٤٥ هـ :

لم يكد يمضي على غزوة النورمان الاولى على سواحل الاندلس الجنوبية الغربية خمسة عشرة سنة حتى تعرضت الاندلس لغزوة نورمانية جديدة في عهد الامير أبي عبدالله محمد بن عبد الرحمن ، ويبدو أن النورمان بعد وفاة ملكهم هوريك في سنة ٢٣٩ هـ (٨٥٤م) وهو نفس الملك الذي كان الامير عبد الرحمن قد تبادل معه السفارة بعد خروج النورمان من مياه الاندلس في سنة ٢٣٠ هـ ، انتقضوا سياسة الموادعة التي جرى عليها ملكهم هوريك تجاه امراء الاندلس ، فعادوا من جديد الى حياة الغزو البحري واعمال القرصنة التماسا للمغانم ، فهاجموا سواحل شبه جزيرة أيبيريا في سنة ٢٤٥ هـ من قواعدهم التي كانوا قد أقاموها على سواحل فرنسا الغربية . وكان الدفاع البحري عن سواحل اسبانيا الاسلامية في هذه المرة يختلف اختلافا جوهريا عنه في غارتهم الاولى ، ذلك أن الامير محمد بن عبد الرحمن كان يتوقع طروقهم لبلاده بعد وفاة أبيه في سنة ٢٣٨ هـ ، فأعد لذلك الامر عدته ، واتخذ أهبته لصد غارتهم بسياج ضخم من الوحدات البحرية المقاتلة (الحربيات) (٢) التي تتحرك بدون انقطاع من

(١) ابن حيان ، قطعة من المقتبس ، من عصر الامير عبد الرحمن الاوسط ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ص ٢

(٢) المراكب المقاتلة تسمى ايضا مراكب غزوانية كما تسمى غربانا لرقتها وطولها وسوادها بالاطلية المانعة للماء كالزفت وغيره فتصبح لسوادها اشبه بالغربان (راجع النويري السكندري ، الالمان بالاعلام، مخطوطة الهند ، ورقة ١٢٢ أ)، والغربان تحمل الغزاة، وسيرها بالقلوع والمجاذيف ، منها ما له ١٨٠ مجذافا ومنها ما له أقل من ذلك . (نفس المصدر ، ورقة ١٢٤ أ) . ومن مزايا الغربان انها كانت تحمل جسرا من الخشب يهبط على مركب العدو (سقالة) ويمر الجند عليه ، فيقاتلون بالاساليب البرية (راجع سعاد ماهر ، البحرية في مصر الاسلامية هي ٢٥٩) .

سواحل افرنجة المطلة على المحيط الى سواحل جليقية، بقصد ترقب وصول السفن النورمانية الى مياه الاندلس . ويذكر ابن الكردبوس ان الامير محمد انشأ في البحر سبعمائة غراب . وأن جيش المسلمين انتهى في أيامه الى مائة الف فارس [١] .

وبدأ النورمان غارتهم بالهجوم على الساحل الجليقي . ولكنهم انهزموا سريعا . وارتدوا من هناك متجهين الى الجنوب [٢] . ويجمع مؤرخو العرب على أن النورمان خرجوا الى ساحل البحر بغرب الاندلس في سنة ٢٤٥ هـ . ويذكر ابن عذاري أن أسطولهم كان يتكون من ٦٢ مركبا [٣] . بينما يذكر العذري أنه كان يتكون من ثمانين مركبا [٤] . ويروى ابن عذاري أيضا ان النورمان « وجدوا البحر محروسا ومراكب المسلمين معدة تجري من حائط افرنجة الى حائط جليقية في الغرب الاقصى . فتقدم مركبان من مراكب المجوس . فتلاقت بهم المراكب المعدة. فوافوا هذين المركبين في بعض كور باجة فأخذوهما بما فيهما من الذهب والفضة والسبي والعدة » [٥] . أما بقية مراكب النورمان فقد نجحت في الاتجاه مع الساحل الغربي للاندلس جنوبا حتى وصلت الى مصب نهر الوادي الكبير . وكانت وجهتها مدينة اشبيلية . ولكن الامير محمد كان قد تأهب لمقابلتهم ، واستعد لصد غارتهم ، اذ كان قد حشد لهم الجيوش، وجمع لهم المطوعة من أهل الاندلس ، وقود على عسكره عيسى بن الحسن الحاجب [٦] ، وتلقاهم المسلمون عند مدخل نهر اشبيلية فهزموهم .

---

(١) ابن الكردبوس ، ص ٥٧ — ابن دينار القيرواني ، ص ٩١

(٢) Lévi - Provençal, Hist. t. I. P. 310

(٣) ابن عذاري ، البيان ، ج ٢ ص ١٤٥

(٤) العذري ، ص ١١٨

(٥) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٤٥

(٦) العذري ، ص ١١٨ — ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٤٥

وتمكنوا من الاستيلاء على عدة مراكب من مراكبهم[١] . ولكن النورمان تجنبوا الاشتباك بعد ذلك مع المسلمين . وواصلوا السير بحذاء الساحل بغية البحث عن منفذ يتسللون منه الى مدن الاندلس، ووجدوا بغيتهم في الجزيرة الخضراء ، فتغلبوا عليها ودخلوها ، وأحرقوا مسجدها الجامع ، وركزوا فيه راياتهم . فنسب الجامع الى تلك الرايات[٢] . والظاهر أنهم قوبلوا بمقاومة شديدة أرغمتهم على الانسحاب سريعـا ، ويبدو أن النورمان عمدوا الى اصطناع الحيلة . فتظاهروا بالعدول عن مهاجمة سواحل الاندلس حتى يكف المسلمون عـن مطاردتهم ، والاستعداد لمواجهتهم . ثم يباغتون السواحل الاندلسية بعد ذلك بالهجوم، فيخلو لهم الجو لنهب هذه السواحل ، فجازوا الى العدوة واستباحوا أريافها[٣] ، ونزلوا في نفس السنة بنكور « فتغلبوا عليها وانتهبوها وسبوا من فيها الا من خلصه الفرار . وكان فيمن سبوا أمة الرحمن وجنعولة ابنتا واقف ابن المعتصم بن صالح ، ففداهن الامام محمد بن عبد الرحمن ، وأقامت المجوس بمدينة نكور ثمانية أيام »[٤] . ثم جازت سفن النورمان الى ساحل تدمير (قرطاجنة الخلفاء) وهزموا أهلها ، اذ لم يكن أهل تدمير يتوقعون طروقهم لبلدهم ، وتوغل النورمان في داخل اقليم تدمير حتى انتهوا الى حصن أوريولة . ولكنهم لم يتمكنوا من الظفر بشيء ، فعادوا الى سفنهم . واتجهوا شمالا الى « حائط افرنجة » أي الى ساحل فرنسا الجنوبي فقضوا هناك فصل الشتاء . « وأصابوا بها الذراري والاموال حتى انصرفوا الى ريف بحر الاندلس وقد ذهب من مراكبهم أكثر من

---

(١) ابن القوطية ، ص ٦٧

(٢) الحميري ، ص ٧٢ ، ٧٥ . وقد رمم هذا الجامع بعد ذلك ، واقيم له باب من خشب سفنهم

(٣) ابن عذاري ، ص ١٤٥

(٤) البكري ، ص ٩٢ — ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤٧

أربعين مركبا » (١) . وتؤكد المصادر الفرنسية واللاتينية القديمة الرواية العربية . فتشير الى أن النورمان أشتوا في جزيرة كاماريا الواقعة جنوبي نهر الرون . كما تشير الى أنهم أغاروا على سواحل ايطاليا وغنموا غنائم كثيرة . ثم تعرضت سفنهم لعاصفة عاتية فغرق منها نحوأربعين سفينة (٢) ويبدو أن النورمان انحدروا بعد انتهاء فصل الشتاء جنوبا نحو الساحل الشرقي من الاندلس ، وأغاروا على جزر البليار (٣) . وفي هذه الاثناء كانت سفن المسلمين قد استدارت مع الساحل الاندلسي قادمة من السواحل الغربية الى الساحل الشرقي . وكان يتولى قيادة السفن الاندلسية قائدان هما سبش بن كشوح وخشخاش البحري . فلاقتهم سفن المسلمين بريف شذونة . فأصاب المسلمون من مراكب النورمان مركبين فيهما الاموال العظيمة ، نفلها الله المسلمين . « ثم صدمهم خشخاش وابن كشوح فأحرقا مركبين ... للمجوس بجميع ما كان فيهما . فحمى الكفرة عند ذلك حتى استشهد خشخاش وقوم من المسلمين معه » (٤) .

ثم مضت بقية مراكب النورمان شمالا . وصعدت في وادي ابرو أو وادي بيداساو ، وتقدم بعضها الى بنبلونة . ولم يستطع ملك نبرة (نفارا) جرثية انيجث Garcia Iniguez المعروف في المصادر العربية باسم غرسية ابن ونقة (٥) أو غرسية الفرنجي (٦) أن يدافع النورمان . فانهزم . ووقع أسيرا . وافتدى منهم بسبعين ألف دينار دراهم . وارتهن في بعضها

---

(١) العذري ، ص ١١٩ — ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٤٥ — النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٢ ص ٢٦

(٢) حسين مؤنس ، ص ٧١

(٣) Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 311

(٤) العذري ، ص ١١٩ — ابن عذاري ج ٢ ص ١٤٦ — النويري ، نهاية الأرب، ص ٢٦

(٥) العذري ، ص ١١٩

(٦) النويري ، نهاية الارب ، ص ٢٦

أولاده [١] . كذلك وقع في أسر النورمان من المسلمين بباجـة عبدالله وعبد الملك ابنا محمـد بن مسلمة ، فأطلق النورمـان منهما عبدالله ، واستبقوا أخاه عبد الملك ، كما وقع في أسرهم سعدون بن فتح السرنباقي الثائر في أيام الامير عبدالله ، عند مهاجمتهم للساحل الغربي . ففداه منهم بعض تجار اليهود [٢] .

ولم تنته غارة النورمان عند هذا الحد ، فقد ظهرت مراكبهم في البحر عند الجزيرة الخضراء في سنة ٢٤٧ هـ ، فكتب الامير الـى عمال الساحل بالاحتراس والتحفظ ، فعطب بعض هذه السفن في ناحية البحيرة من الجزيرة الخضراء ، ونجت بقية سفنهم ، فمضت الى ناحية افرنجة [٣] .

وواصل الامير محمد عنايته بالبحرية الاندلسية بعد غارة النورمان، ويبدو أنه أنشأ دارا للانشاء في قرطبة استنتاجا مما رواه ابن عذاري في حوادث سنة ٢٦٦ هـ اذ يقول : « وفيها أمر الامير محمد بانشاء المراكب بقرطبة ليتوجه بها الى البحر المحيط الرعيطي المعروف بابن مغيث ، وكان قد رفع اليه رافع أن جليقية من ناحية البحر المحيط لا سور لها ، وأن أهلها لا يستنعون من جيش ان غشيهم من تلك الناحية » [٤] . ولكن هذه السفن ما كادت تدخل البحر المحيط حتى تعرضت لعاصفة عاتيـة فرقتها ، ولم يجتمع بعضها الى بعض ، واختفت . ولم يعد منها الا اليسير.

وسيواصل أمراء الاندلس بعد ذلك عنايتهم بالبحرية . وستسود

---

(١) العذري ، ص ١١٩ . وذكر النويري انه فدى نفسه بتسعين الف دينار ، والظاهر أن النويري اخطأ في النقل ، فقرأ الرقم ٧ تسعا ، وهو امر شائع كثيرا ما يحدث في النقل عند النساخ (راجع امثلة هذا الخطأ في النقل لرقمي ٧ ، ٩ ، في كتاب المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٥٠١) .

(٢) ابن حيان ، القسم الثالث ، نشره ملشور انطونية ، ص ٢٣ ـ العذري ، ص ١١٩

(٣) العذري ، ص ١١٩

(٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٥٥ ـ النويري ، المصدر السابق ص ٢٧

البحرية الاسلامية في حوض البحر المتوسط الغربي في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر .

د — دور البحريين في تمصير بجانة في ختام القرن الرابع الهجرى .

كنا قد أشرنا فيما سبق الى أن البحريين الاندلسيين كانوا ينزلون في مرسى أشكوبرس القديم قبل أن ينزلوا مرية بجانة ، وأنهم نزلوا هذا الموضع وتغلبوا عليه ، واستوطنوه بعد انتقالهم من تنس الحديثة التي اسسوها على ساحل المغرب الاوسط . وكان يسكن اقليم بجانة قبل أن ينزلها البحريون جماعة من عرب اليمن هم بنو سراج من قضاعة . فرأى الامير عبد الرحمن الاوسط ، بعد غزوة النورمان الاولى ، ان يكل الى هؤلاء اليمنية بحراسة ساحل بجانة من غارات النورمان المقبلة . فأنزل جماعة منهم ببجانة لاتخاذها دار رباط ، وعهد اليهم بحراسة « ما يليهم من البحر وحفظ الساحل » [١] . وفي مقابل ذلك تمتع هؤلاء اليمنيون باستقلال جزئي ، كما أصبح لهم الحق في استغلال وادي آش الذي كان يعرف أيضا بوادي بجانة ، ومنذ ذلك الحين أطلق على هذا الاقليم اسم « أرش اليمن » اي عطية اليمنية ، وان كان الاستاذ توريس بلباس يؤكد أن أرش كلمة معربة من اورسي Urci المركز العمراني القديم لبجانة [٢]، استنادا الى أن Urci اسم ذكره بطليموس كما ذكره المؤرخ الروماني ميلا ، وحدده في نفس موضع المرية الحالية [٣] بينما حدده بلنيوس على الساحل [٤] .

---

(١) الحميري ، ص ٢٧

(٢) Torres Balbàs, Almeria Islamica, p. 418

(٣) Antonio garcia y Bellido, La Espana del siglo primero de nuestra Era, según p. Mela y C. Plinio, coleccion Austral, Madrid, 1947, p. 31,51

(٤) Ibid. P. 130,130

ثم آلت رئاسة اقليم بجانة أو أرش اليمن الى عمر بن أسود الذي يرجع اليه الفضل في تمصير اقليم بجانة • وظل بنو سراج القضاعيون يتولون حراسة ما يليهم من البحر ، وأقاموا لذلك الغرض برجا للحراسة بالقرب من مصب وادي بجانة فوق المرتفع الذي تقوم عليه اليوم قصبة المرية باعتبار أن هذا المرتفع اصلح المواقع لهذا الغرض ، وسموا هذا المحرس باسم مرية بجانة ، وتوالى انشاء المحارس بسرية بجانة ، وبالتدريج أخذ الناس ينتجعونها ، ويرابطون فيها [١] عندما قام النورمنديون بالاغارة على السواحل الاندلسية المغربية في سنة ٢٤٥ هـ •

وفي سنة ٢٧١ هـ اجتذبت المدينة الرومانية القديمة Urci ، بعيونها وبساتينها وموقعها الاستراتيجي أنظار البحريين الاندلسيين ، فنزلوها بعد أن اتفقوا في ذلك مع عرب أرش اليمن ، وتباحثوا معهم في اقامة ما يشبه بالجمهورية البحرية تضم أرش اليمن ومراسيه ومحارسه لمواجهة اي اعتداء بحري على هذه السواحل • ثم تغلب البحريون بالتدريج وأصبح لهم الامر في بجانة [٢] • ثم حوطوا حاراتها وضياعها بسور ، ويبدو أن هذا السور أقيم بعد سنة ٢٧٧ هـ ، وهي السنة التي قدمت فيها قوات سعيد بن سليمان بن جودى ، سيد عرب البيرة، لمهاجمة البحريين فيها ، وكانت بجانة « مدربة لم يضرب بعد عليها سور » [٣] • واهتم البحريون بتمصير بجانة وتعميرها ، واتخذوا من قرطبة أنموذجا احتذوه في بجانة ، « فامتثلوا في ذلك بنية قرطبة وترتيبها ، وجعلوا على أحد أبوابها صورة تشاكل الصورة التي على باب القنطرة [٤] » • ومن المعروف أنه كان

---

(١) الحميري ، ص ١٨٢

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٨

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، القسم الذي نشره الاب ملشور ، ص ٨٩ . والمقصود بمدربة أنها كانت تتألف من دروب وحارات .

(٤) الحميري ، ص ٣٨

يعلو هذا الباب القرطبي تمثال للعذراء [١] . ويستنتج الاستاذ ليفي بروفنسال من ذلك ان بجانة كانت تضم جماعة من البحريين النصارى . وأنهم أقاموا لهم كنيسة [٢] . ولكن استنتاجه لا يخلو من مبالغة . فليس من الضروري أن يكون ذلك دليلا على أن المدينة المحدثة كانت تضم جماعة من البحريين النصارى ، وأنهم أقاموا كنيسة لهم . فقد يكون هذا التمثال المنصوب على باب بجانة مجرد تقليد للتمثال المنصوب على باب القنطرة بمدينة قرطبة امعانا في تقليد هذه الحاضرة . كما يشير الحميري . ومن الجدير بالذكر أن الخليفة عبد الرحمن الناصر عندما انتهى من تسوير مدينة الزهراء ، أقام تمثالا على بابها الرئيسي المعروف بالزهراء ، وكان يمثل الزهراء جارية الخليفة الاثيرة لديه [٣] وان كنت أعتقد أن هذا التمثال لم يكن قد صنع خصيصا لتلك الجارية وأنه لا يعدو أن يكون تمثالا رومانيا قديما من جملة التماثيل العديدة التي شاهدها المسلمون في خرائب طالقة Italica المجاورة لاشبيلية أو ماردة أو اشبيلية ، فنصبوه على أحد أبواب مدينة الزهراء تقليدا للتمثال القائم على باب القنطرة بقرطبة . ولعله كان تمثالا لفينوس التي تمثل كوكب الزهرة ، فحرفت هذه اللفظة الى الزهراء . ولا نشك في أن التمثال الذي كان قائما على أحد أبواب بجانة كان يمثل امرأة ، شأنه في ذلك شأن تمثال الزهراء ، وانه وضع في هذا الموضع تقليدا لتمثال العذراء الذي كان يقوم على باب القنطرة بقرطبة ، والمسمى ايضا بباب الصورة [٤] وباب

---

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٤ . يقول ابن عذاري : « وهي العذراء صاحبة قرطبة التي أودع أقادم حكمائهم صورتها فوق باب مدينتها القبلي وهو باب القنطرة »

(٢) Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 352

(٣) المقري ، ج ٢ ص ٦٥

(٤) أخبار مجموعة ، ص ١١ . وقد ظلت الصورة قائمة على باب قرطبة الى أن قذفها الثائر عمر بن حفصون برمحه أثناء احدى غاراته على قرطبة ، فاصابها ، في بداية عهد الامير عبدالله . (راجع أخبار مجموعة ص ١٥١)

الشكال (١) (أي الاشكال) . ولا تمنع هذه المناقشة من وجود بعض البحريين النصارى ببجانة ، فان بجانة كانت تحتفظ برفات سان اندالثيو ، ويؤكد سيمونيت Simonet أن بجانة كانت تضم كنيسة صغيرة في العصر الاسلامي (٢) .

تولى رئاسة البحريين ببجانة امير منهم يسمى عبد الرزاق بن عيسى في عهد الامير عبدالله الذي منح أهل بجانة من البحريين والعرب الحق في توسيع رقعة بلدهم بضم القرى والحصون المجاورة مثـل حصن الحمة والخابية وبنى طارق في الغرب وحصن ناشر في الشرق ، وحصن برشانة المنيع في الشمال (٣) . وكان لاحد كبار البحريين ببجانة وهو سعيد بن اسود ولد يدعى خشخاش . لا نشك في أنه هو الذي كان قد تصدى للنورمان عند شذونة . وسيرد اسمه عند حديثنا عن المغامرين في بحـر الظلمات .

وقد لعب البحريون ببجانة في عهد الامير عبدالله دورا هامـا في مواجهة غارة بحرية خطيرة قام بهـا شنير Sunier II قومس أنبورس Comte d'Ampurias بقطلونية،فقد انتهز هذا القومس فرصة مهاجمة عرب البيرة لبجانة ، وقدم في خمسة عشر مركبا أرفأت بساحل المرية فرضـة بجانة ، وأحرق عددا كبيرا من السفن الاسلامية الراسية في خليج المرية ، وعزم على التقدم الى بجانة لنهب المدينة ، ويبدو أنه اصطدم بجماعة من المسلمين القائمين بالمرابطة في المحرس ، وقتل أحد أعلامهم وهو خلف

---

(١) ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٥٦ ، ٨٩ (تحقيق الاستاذ ليفي بروفنسال)

(٢) Francisco Javier Simont, Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1897 - 1903, p. 132

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الاب ملشور ، ص ٥٢

ابن زهري في منطقة الحوض ، فخرج جميع البحريين من بجانة ليــلا ، فلما أشرفوا على المرية اشتبكوا مع القطلانيين في معركة انتهت بانسحاب هؤلاء ، ودعوا الى الصلح ، فأجابهم البحريون الى ذلك ، وتم الصلح على يدي عبــد الرحمن بــن مطرف الحاج صاحبهــم ، وانصرف شنير عنهم بسفنه [١] .

---

(١) ابن حيان ، طبعة ملشور انطونية ، ص ٨٩ — Lvéi - Provençal, t. I, p. 354

(٢)

البحرية الأندلسية في اوج قوتها في القرن الرابع الهجري

أ ــ عناية عبد الرحمن الناصر بالاساطيل :

عندما بويع الامير عبد الرحمن بن محمد ــ الذي تلقب بالناصر لدين الله فيما بعد ــ بالامارة في مستهل ربيع الاول سنة ٣٠٠ هـ ، كانت الاندلس جمرة تحتدم بالثورات ، ونارا تضطرم بالفتن ، في الوقت الذي تطلع فيه عبيد الله المهدي اول خلفاء الدولة الفاطمية بنظره نحو الاندلس ، فأرسل دعاته وعيونه اليها لتمهيد البلاد الاندلسية قبل فتحها لتقبل المذهب الاسماعيلي ، ولاستطلاع أحوالها ، وتعرف مداخلها ومواطن الضعف فيها [١] . وكان من الطبيعي أن يبدأ الامير عبد الرحمن بتدعيم الجبهة الداخلية قبل أن يواجه الخطر الفاطمي الماثل في جنوب الاندلس ، وخطر الممالك المسيحية في شمالها ، وكانت أعظم المشاكل الداخلية التي واجهته ثورة عمر بن حفصون، امام الثوار في الاندلس وقدوتهم، وأعلاهم ذكرا ، وأشدهم سلطانا ، وكان قد تحصن في مدينة ببشتر من كورة رية ، وأطاعته أكبر مدن وسط الاندلس الواقعة بين رية والجزيرة الخضراء من جهة ، والبيرة وأحواز قرطبة من جهة أخرى [٢] . ويبدو أن عمر بن حفصون كان يسعى للاطاحة بدولة بني أمية والاستئثار بولايتها في ظل الخلافة العباسية ، ففي عهد الامير عبدالله ، أظهر الميل الى الدعوة

---

(١) محمود علي مكي ، التشيع في الاندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ ص ١١٢

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٢٨٢

العباسية ، وكاتب ابراهيم بن أحمد الاغلبي أمير افريقية وأخبره بأنه يعمل لبني العباس ، ولاطفه بالهدايا . فأجابه الامير الاغلبي ، ورد على هديته بهدية [١] فلما سقطت دولة الاغالبة وقامت الدولة الفاطمية في سنة ٢٩٦ هـ، اتصل بالمهدي ورغبه في ضمها اليه ، ويبدو أن المهدي وعده بالنصرة ، فقد وصلته بالفعل مراكب في البحر رست في سنة ٣٠١ هـ بالساحل الجنوبي من الاندلس ، كانت تميره من العدوة . وكان لا بد للامير الاموي أن يبادر بقطع الاتصال بين الثائر ابن حفصون وبين عملائه في المغرب . فشرع الامير عبد الرحمن في حرق هذه السفن [٢] . وفي العام التالي وصل عبد الرحمن الى الجزيرة الخضراء « وضبط البحر ونظر في أساطيله ، واستكثر منها . ومنع ابن حفصون من البحر » [٣] . وأغلب الظن أنه وزع أسطوله على السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية من الاندلس حتى يمنع وصول الامدادات من القيروان الى عمر بن حفصون [٤] .

ومنذ ذلك الحين بدأ عبد الرحمن بن محمد أمير قرطبة يهتم اهتماما جديا بالاساطيل البحرية . فعمل على انشاء أسطول قوى يدفع به عن الاندلس الاخطار الخارجية التي تتعرض لها بسبب الغزو الفاطمي المرتقب وغارات النورمان على السواء ، وينازع بهذا الاسطول السيادة الفاطمية في حوض البحر المتوسط الغربي . ويذكر ابن خلدون أن أسطول الاندلس انتهى في أيامه « الى مائتي مركب أو نحوها وأسطول افريقية

(١) ابن حيان ، طبعة ملشور انطونية ، ص ٩٣

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٤٧

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٣

(٤) مختار العبادي ، سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧ ص ٢٠٦ — السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٦١٠.

كذلك مثله أو قريبا منه » [١] ونعتقد أن المقصود بهذا العـدد السفن الحربية الغزوانية المخصصة للقتال . وكان يتولى قيادة هذا الاسطول القائد محمد بن رماحس [٢] .

ويعتبر عبد الرحمن بن محمد المؤسس الحقيقي للاسطول الاندلسي، فقد نشطت حركة الانشاء وصناعة السفن في عهده الى حد أنه أنشأ لهذا الغرض عددا كبيرا مـن دور الصناعة في مدن الاندلس مثـل المريـة وطرطوشة [٣] . والجزيرة الخضراء [٤] ، ومالقة ، ولقنت [٥] . وشلب [٦] وقصر أبي دانس بالبرتغال ، ودانية [٧] . ومدينة الزهراء [٨] ، وشنتمرية

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٩

(٢) يبدو أنه كان ولدا للرماحس بن عبد العزيز الكناني احد قواد جند مصر زمن مروان ابن محمد ، ثم شق عصا الطاعة عليه وخالف مروان في جمع من القيسيين في الحوف الشرقي ، وانتهى به الامر بأن نفى من مصر . (الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضـاة ، ص ٩٤) ، ثم مضى الى الاندلس ، واشترك في الصراع القائم بين القيسية واليمنية ، ويظهر أنه كان من مؤيدي الامير عبد الرحمن الداخل ، فولاه الجزيرة الخضراء ، ولكنه تآمر مع بعض الثوار ضد الامير في سنة ١٦٤ هـ ، فحاربه الامير وهزمه ، ففر الرماحس الى المشرق (تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٢٠٢) .

(٣) ما زالت اللوحة التذكارية التي سجل فيها الناصر انشاء دار صناعة طرطوشة في سنة ٣٣٣ هـ مثبتة على الجدار الشمالي من كاتدرائية طرطوشة (راجع Lévi - provençal Inscriptions Arabes d'Espagne) وكانت المراكب الكبار تصنع فيها من خشب جبالها الصنوبري المعروف بطوله وغلظه وصفاء بشرته ودسامته بحيث لا يفعل فيه السوس مـا يفعله بغيره، ومنه كانت تتخذ الصواري والقرى (الادريسي، ص ١٩٠ ــ الحميري ، ص ١٢٤)

(٤) ذكر الحميري أن عبد الرحمن الناصر هو الذي أسس دار صناعة الجزيرة وأتقن بناءها وعلى أسوارها ، كما ذكر ان هذه الدار اتخذت في زمن الفتنة قصرا (الحميري ، ص ٧٣)

(٥) كانت تنشأ في هذه الدار المراكب السفرية والحراريق (الادريسي ، ص ١٩٣)

(٦) اشتهرت شلب بخشب جبالها الذي تصنع منه السفن (الادريسي ، ص ١٨٠)

(٧) كانت دانية دار انشاء للسفن وقاعدة حربية للاساطيـل (الادريسي ص ١٩٢ ــ الحميري ، ص ٧٦)

(٨) كانت دار صناعة الزهراء مخصصة لصناعة آلات السلاح للحرب (المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ١١٢) .

بالبرتغال [١] . واستخدم لذلك أخشاب الصنوبر التي تنبت في طرطوشة لجودتها وصلاحيتها للانشاء • وما ان تهيأ له اعداد أسطول ضخم حتى بدأ يتحرش بالفاطميين ويناوئهم . وبادر في سنة ٣١٤ هـ بالاستيلاء على طنجة ومليلة . وفي سنة ٣١٩ هـ على سبتة ، وبذلك أصبح يمتلك معبري الاندلس ، ثم شك سبتة بالرجال ، وجعلها مفتاحا للمغرب والعدوة من الاندلس • وفي هذا العام أرسل أسطوله بقيادة أحمد بن محمد بن الياس ويونس بن سعيد قائديه في البحر « في عدة ومراكب جلةورجال كثير وصنوف من البحريين والمقاتلين ، فجازا مرسى الجزيرة ، واحتلا العدوة وحاصرا ابن ابي العيش » [٢] • ويبدو أن عبد الرحمن بن محمد هو الذي أمر بتأسيس دار الصناعة بطنجة التي أشار اليها الادريسي [٣] ودار صناعة قصر مصمودة القريبة من سبتة ، وكانت تنشأ فيها المراكب والحراريق التي يسافر فيها الى بلاد الاندلس [٤] •

وفي سنة ٣٢٠ هـ طلب موسى بن أبي العافية ، أمير فاس من قبل عبد الرحمن الناصر ، منه ان يساعده في افتتاح جزيرة أرشقول ، فرضة تلمسان ، فاستجاب عبد الرحمن لرغبته . وأمر أهـل بجانة وغيرهم من أهل السواحل باعداد خمسة عشر مركبا حربية. مجهزة بالرجال والسلاح. لمحاصرة جزيرة أرشقول التي لجأ اليها الحسن بن عيسى بن أبي العيش ، وقد حاصرت هذه السفن الجزيرة المذكورة فترة من الوقت ، ثم عادت الى مرية بجانة في شهر رمضان سنة ٣٢٠ [٥] • وفي سنة ٣٣٣ هـ غزا محمد بن

---

(١) كانت السفن فيها تصنع من اشجار الصنوبر التي تنبت في جزائر تقع تجاهها (الادريسي ص ١١٥)

(٢) ابن عذاري ، البيان ، ج ٢ ص ٢٠٨

(٣) الادريسي ، ص ١٦٨

(٤) نفس المصدر

(٥) البكري ، ص ٧٨

رماحس على الاسطول الــى بني محمد بالعدوة ، وكان عــدد السفن الاندلسية الغازية ١٥ مركبا حربية وشينيين وفتاش [١] . وفي العــام التالي غزا محمد بن رماحس قائدا على الاسطول الى افريقية مــن المرية [٢] . ومنذ ذلك الحين أخذت اساطيل الاندلس تسدد ضرباتها الى ممتلكات الفاطميين في المغرب ، ولم يلبث النزاع بين الفاطميين في المغرب والامويين في الاندلس أن تطور الى صدام بحري مسلح ، ففي سنــة ٣٤٤ هـ أمر عبد الرحمن الناصر بانشاء مركب كبير لم يعمل مثله في دار الصناعة بالمرية . وسير فيه أمتعة الى بلاد المشرق . فلقي في البحر مركبا يحمل رسولا من الحسين بن على أمير صقلية الى المعز لدين الله الفاطمي . فقطع عليه بحريو المركب الاندلسي طريقه . واستولوا على ما فيه . كما استولوا على الكتب التي أرسلها الحسين بن علي الى المعز . فلما بلغ المعز ذلك عمر اسطولا بقيادة الحسين بن علي صاحب صقلية . وسيره الى الاندلس . فهاجم الاسطول الفاطمي مدينة المرية في نفس السنة . ودخل المهاجمون مرسى المرية . وأحرقوا جميع ما فيه من السفن ، واستولوا على المركب الاندلسي الكبير . وكان قد عاد من الاسكندرية مشحونا بأمتعة للخليفة عبد الرحمن وجوار ومغنيات . ثم دخلوا المدينة . وقتلوا ونهبوا وعادوا سالمين الى المهدية [٣] . وكان رد الفعل الاندلسي على هــذه الغارة البحرية شديدا ، فقد هاجم الاسطول الاندلسي بقيادة أمير البحر غالب سواحل افريقية في العام التالي (٣٤٥ هـ) في ستين سفينة ، وكان مرسى الخرز وساحل سوسة هدفي هذه الغارة [٤] . وفي أول المحرم سنة

(١) العذري ، ص ٨٢

(٢) نفس المصدر

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٤٩ — ابو الفداء ، المختصر ، ج ٣ ص ١٢٧

(٤) ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٢١٨ — Lévi -Provençal. Histoire. t. II. p. 108

Torres Balbas, Atarazanas hispanomusulmanas, al-Andalus, vol XI, 1946, p. 180

٣٤٧ هـ أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر صاحب شرطة القائد أحمد بن يعلي بالخروج غازيا في الاسطول الى سواحل افريقية .

ولم يكتف الناصر بغزو خصومه المسلمين في العدوة وافريقية ، بل وجه أساطيله الى قطلونية وافرنجة للغزو ، ففي سنة ٣٢٨ هـ خرج محمد ابن رماحس في حربيتين برجالهما من أهل مرية بجانة الى طرطوشة ، وركب من هناك في عشرة مراكب حربية وأربعة شواني وفتاشين بالاضافة الى حربيتي المرية ، مبحرا الى أنبوريش ، فبلغ رأس الصليب على طرف جونها ، ثم عاد الى طرطوشة عن طريق برشلونة بعد انتهائه من مهمته [١].

وفي سنة ٣٣١ هـ غزا محمد بن رماحس مع غالب بن عبد الرحمن وسهيل بن أسيد الى افرنجة في ثلاثين مركبا حربية وستة شواني . فخرج من مرية بجانة في ١٣ من شوال ، ولكن سفنه تعرضت لعاصفة عاتية ، فتفرقت قطع اسطوله ، وتلوم بمرسى القبطة بالمريــة ، اما القائدان غالب وسهل فقد لجئا الى ساحل منبسط ، فغنما بها ثم عادا الى المريــة [٢] .

ب ــ قيام المرية قاعدة أسطول الاندلس :

ظلت بجانة تحتفظ بسكانتها طوال النصف الاول من القرن الرابع الهجري . ولكنها أخذت تفقد بالتدريج من أهميتها أمام مرينها التــي ارتفعت مكانتها منذ ان امر الخليفة عبد الرحمن الناصر ببنائها وتمصيرها سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) . ولم تلبث المرية أن أصبحت من اشهر مراسي الاندلس وأكثرها عمرانا . واتسعت رقعتها . ونما عمرانها ، وأصبحت هي وبجانة على حد قول ياقوت الحموي « بابي المشرق ، منها يركب التجار

---

(١) العذري ، ص ٨١

(٢) نفس المصدر

وفيها تحل مراكب التجار وفيها مرفأ ومرسى لسفن والمراكب »[١] .
وبازدهار المرية وتألقها اضمحلت بجانة ، وأصبحت في طليعة القرن الخامس الهجري مجرد قرية ، في الوقت الذي ارتفعت المرية الى مصاف الحواضر ، ويعبر ابن سعيد المغربي عن اضمحلال بجانة بقوله : « كانت محرس المملكة الى أن ضعفت . وعظمت المرية ، فصارت تابعة »[٢] .

وأصبحت المرية اهم موانيء الاندلس في القرن الرابع الهجري واشهر مراسيها وأعمرها ، وكان خليجها العميق الفسيح يضم معظم وحدات الاسطول الاندلسي[٣] ، فكانت المرية مرفأ أساطيل الاندلس ، وكانت دار الصناعة بالمرية تقوم بانشاء السفن والعدة والآلات اللازمة للسفن وما يقوم به الاسطول[٤]. وكانت هذه الدار تنقسم الى قسمين متميزين : قسم تصنع فيه المراكب الحربية والآلات والعدد ، والثاني يضم القيسارية ، قد رتب كل صناعة منها حسب ما يشكل لها[٥] ، وكان يحصن دار الصناعة برج يقوم على بابها[٦]، مهمته تدعيم أسوارها والدفاع عنها في حالة اقتحام الاعداء لثغر المرية .

وكان لقائد أسطول المرية في عصر الخلافة أهمية خاصة ، وقد أشار صاحب كتاب « الازهار المنثورة في الاخبار المأثورة » الى أهمية منصب قائد اسطول المرية في الدولة الاموية ، فذكر أن اكثر شؤون

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١١٩
(٢) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ص ١٩٠ .
(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المرية قاعدة الاسطول الاندلسي ، مجلة الرابطة ، ص ٧٨
(٤) ابن غالب ، قطعة من فرحة الانفس ، ص ١٤
(٥) العذري ، ص ٨٦
(٦) نفس المصدر ، ص ٨٣

الخلفاء الامويين أهمية لم يكن يقطع فيها برأي دون الرجوع الى ثلاث شخصيات : الاول قائد جيش سرقسطة حاضرة الثغر الاعلى لاهمية موقعها . والثاني قاضي قرطبة . والثالث قائد أسطول المرية [١] .

ويرجع سر اختيار الخليفة عبد الرحمن الناصر لهذه المدينة لتكون مرفئا لاساطيل الاندلس وقاعدة للحط والاقلاع الى حصانتها من جهة البر . وكثرة حصونها المتوزعة حولها . مثل قصبة المرية المعروفة بقلعة خيران . وحصن برجة الواقع في الجنوب الغربي من المرية في واد شديد الخصب . وحصن شنش الواقع على مرحلة منها . وحصن القبطة ويقع الى الجنوب الشرقي من خليجها . كل ذلك ساعد على تدعيم نظامها الدفاعي وزيادة منعتها . والحصانة والمنعة شرط من الشروط اللازم توافرها في المدن الساحلية في رأي ابن خلدون [٢] . وبالاضافة الى هذا الشرط تمتاز المرية بتوافر شرط آخر وهو ان تقع المدينة الاسلامية بالقرب من نهر أو أن يكون بازائها عيون عذبة . والمرية تقع على مصب نهر صغير هو وادي بجانة . والى جانب هذه المزايا التي اختصت بها المرية . كان خليجها شديد الاتساع والعمق بحيث يمكنه ان يضم عددا كبيرا من السفن . بالاضافة الى أنه كان يمتاز بهدوء مياهه وقلة أمواجه .

والى جانب الاهمية الاستراتيجية للمرية كقاعدة لاسطول الاندلس الحربي ، اكتسبت المرية منذ قيامها كميناء ومرسى ، شهرة كبرى في التجارة العالمية . وقد عرفت بأنها باب الشرق ومفتاح التجارة والرزق [٣]. على الرغم من قلة خيرات اقليمها . واعتمادها على ما كان يجلب اليها من

---

(1) Lévi-Provençal, L' Espagne musulmane au Xe siécle, pp. 85, 86.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة

(٣) ابن غالب ، ص ١٤ — ابن سعيد ، ج ٢ ص ١٩٢

ساحل العدوة من ميرة وأقوات . والسبب في شهرتها التجارية يرجع الى أنها كانت محط السفن القادمة من المشرق الاسلامي والاقطار الاوروبية. وكانت مراكب التجار تصل اليها من الاسكندرية والشام كله [١] ، ولم يكن بالاندلس كلها أيسر مالا من أهلها ، ولا أتجر منهم في الصناعات وأصناف التجارة تصريفا وادخارا ، وقد حافظت المرية على هذه الشهرة التجارية في العصور الاسلامية التالية .

ج ـ غارة النورمان الثالثة في عامي ٣٥٥ ، ٣٦٠ هـ وفشلها :

في سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) عمل ريتشارد الاول ، حفيد رويـون النورماني ، ودوق نورمانديا على توجيه النورمان الدانيين الى الاندلس ، بقصد تخليص بلاده منهم . وكانت قطع الاسطول الاندلسي قد زادت في عهد عبد الرحمن الناصر من مائتي سفينة الى ثلثمائة [٢] ، ثم تضاعف عدد سفنه في بداية خلافة الحكم المستنصر الى ستمائة جفن بين غزوي وغيره [٣] . وكانت معظم وحدات الاسطول ترابط في القاعدة الرئيسية بالمرية لمواجهة الخطر الفاطمي الذي كان ما يزال ماثلا . في حين كانت اشبيلية مقرا للاسطول المرابط على سواحل المحيط . ولقد عمل الحكم المستنصر منذ توليه الخلافة على تدعيم قاعدة المرية . ففي سنة ٣٥٣ هـ انتقل بنفسه اليها لتوقعه غزوا فاطميا ، ولمعاينة ما استكمله بها من الحصانة وتفقد رابطة القبطة [٤] . ويذكر ابن عذاري أنه في أول رجب سنة ٣٥٥ هـ قدمت سفن النورمان الى مياه غرب الاندلس ، ففي هذا

---

(١) الادريسي ، ص ١٩٧ ، ١٩٨

(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق الاستاذ محمد عبدالله عنان ، ج١ ، القاهرة ١٩٥٥ ص ٤٨٧ .

(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٤٢

(٤) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج٢ ص ٢٥٢

اليوم » ورد كتاب من قصر أبي دانس على المستنصر بالله يذكر فيه ظهور أسطول المجوس ببحر الغرب بقرب هذا المكان ، واضطراب أهل ذلك الساحل كله لذلك ، لتقدم عادتهم بطروق الاندلس من قبله فيما سلف ، وكانوا في ثمانية وعشرين مركبا . ثم ترادفت الكتب من تلك السواحل بأخبارهم ، وأنهم قد أضروا بها ووصلوا الى بسيط أشبونة . فخرج اليهم المسلمون ، ودارت بينهم حرب استشهد فيها من المسلمين وقتل فيها من الكافرين . وخرج اسطول اشبيلية فاقتحموا عليهم بوادي شلب . وحطوا عدة من مراكبهم ، واستنقذوا من كان فيها من المسلمين، وقتلوا جملة من المشركين ، وانهزموا اثر ذلك خاسرين »[1] . وبعد هذه المعركة البحرية التي انتصر فيها الاسطول الاندلسي في الغرب عاد هذا الاسطول الى قاعدته اشبيلية ، أما النورمان فقد انصرفوا من ساحل الغرب مخذولين ، منهزمين .

ويبدو أن سفن النورمان كانت تمتاز بمزايا خاصة كالسرعة في الحركة ، مما دعا الخليفة المستنصر بالله الى اصدار الامر لابن فطيس بانشاء أسطول في اشبيلية على هيئة مراكب النورمان اذ كان يتوقع طروقهم لسواحل الغرب . وقد صح ما توقعه الخليفة المستنصر بالله ، فلم تكد تمضي خمس سنوات على معركة وادي شلب حتى ظهرت سفن النورمان في مياه الاندلس الغربية . ويروى ابن حيان أنه في « صدر رمضان (سنة ٣٦٠ هـ) منها وقع الارجاف بتحرك المجوس الاردمانيين — لعنهم الله — وظهورهم في البحر الشمالي ، وورمهم سواحل الاندلس الغربية على عادتهم ، فانزعج السلطان لما سيق اليه خبرهم ، وعهد الى عبد الرحمن بن رماحس قائد البحر وهو حاضر بقرطبة بالخروج الى

(١) نفس المصدر ، ص ٢٥٦

المرية والتأهب [١] للركوب الى ناحية الغرب [٢] ، فنفذ لامره يوم الاثنين لست خلون من شهر رمضان المؤرخ ، وأحضر الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن الناصري . وكان حاضرا يومئذ بقرطبة ، فخصه بالتكلم معه فيما طرقه من خبر هذا العدو المرهوب جانبه ، وأهاب به له ، وحول اليه صائفة عامه الآزفة . وقلده العود لها ، والتهمم بها برا وبحرا لضلاعته وغنائه . وعلمه بثقوب نظره ومحسود اكتفائه ، وحد لـه حدودا أمره بالتزامها والوقوف عليها . وبسطه أتم بسط ، وقربه أفضل تقريب ، واستودعه الله عز وجل ، وأمره بالنهوض ، والاخذ في شأنه . فودع ، وانطلق وهو يشيعه بدعائه ويسأل الله له وللمسلمين جميل صنعه وحسن عاقبته » [٣] .

ونخرج من النص السابق بالحقائق الآتية : ـ

١ ـ أن عبد الرحمن بن رماحس المذكور ورث أبـاه محمد بن رماحس في ولاية الشرطة العليا وقيادة البحر في الاندلس .

٢ ـ أن أساطيل الاندلس الهامة كانت لها قاعدتان : الاولى في المرية للدفاع عن السواحل المطلة على البحر المتوسط ، والثانية في اشبيلية لحماية السواحل الغربية المطلة على المحيط الاطلسي .

---

(١) ذكرها ابن عذاري كما يلي : « والتاهب لركوب الاسطول منها الى اشبيلية وجمع الاساطيل كلها للركوب الى ناحية الغرب » . ابن عذاري ، ج٢ ص ٢٦٠ .

(٢) أورد ابن الخطيب رواية مخالفة لرواية ابن حيان ذكر فيها ان الخليفة تحرك الى المرية وقد حصر المجوس حصن القبطة ، فاوقع بهم (ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٤١ ، ٤٢) . ولا تتفق هذه الرواية مع طبيعة الاحداث التي جرت ، ولذلك نعتقد انها ملفقة .

(٣) ابن حيان ، المقتبس في أخبار بلد الاندلس ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي ، ص ٢٤

٣ — ان الاندلس كانت مجهزة بأجهزة لمخابرة اولي الامر في قرطبة وابلاغهم بتحركات النورمان فور دخولهم في مياه البحر الشمالي ، اما عن طريق عيون . أو بفضل تحركات عدد من السفن السريعة .

٤ — أن غالب بن عبد الرحمن الناصري كان اكبر قواد الاندلس زمن الحكم المستنصر . وكانت له خبرة بشؤون الحرب في البر والبحر ، ونستدل من نص آخر لابن حيان أنه كان يقود الاساطيل الثقيلة [1] .

٥ — أن الخليفة الحكم المستنصر رسم مع غالب الخطة الحربية لمواجهة الغزوة النورمانية . مما يقطع بقدرة الخليفة الحكم في التنظيم الحربي .

ويبدو أن النورمان نزلوا بساحل جليقية ، ودخلوا نهر دويرة ، وتوغلوا حتى مدينة شنت برية Santaver ، ولكنهم انهزموا ، وعادوا الى سفنهم [2] ، فقد وصل الى قرطبة رسول من القومس غند شلب Gonzalo Menendez في ٢٥ من رمضان سنة ٣٦٠ هـ بكتاب الى الخليفة يتضمن خبر نزول النورمان بجليقية وانصرافهم مهزومين ، ولعله كان يقصد من ذلك تنبيه الحكم المستنصر الى الخطر النورماني المقبل حتى يتأهب المسلمون لتلقي الغزاة ، وبذلك يكون غند شلب قد قدم خدمة جليلة الى الخليفة . والحقيقة أن الحكم المستنصر كان يعلم مقدما بقدوم النورمان ، منذ أن أبلغه عيونه بظهور سفنهم في مياه البحر الشمالي .

ومع ذلك فقد واصل المستنصر بالله بذل الجهود واعداد العدة

---

(١) ابن حيان ، نفسه ، ص ٥٨
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧

والتأهب الكامل لتلقى النورمان عند اقترابهم مـن السواحـل الغربية للاندلس ، فأنفذ مباركا ومبشرا الفتيين الى كورة رية وشذونة لشحـن الاطعمة منها وارسالها الى الاسطول المجهز باشبيلية الى ساحل المغرب . وفي آخر رمضان تحرك عبد الرحمن بن رماحس قائد أساطيل الاندلس من مرية بجانة ليركب منها الى البحر الشمالي الـذي ظهرت فيه سفن النورمان [١] .

وما ان وصل ابن رماحس الى اشبيلية قائدا لاسطول المرية حتى بادر بجمع أسطول اشبيلية استعدادا للاقلاع لملاقاة النورمان بمجرد أن تصله الانباء بدخولهم المياه الاسلامية ولكن الانباء وافته بعودة سفن النورمان الى بلادهم بعد أن تأكد لديهم استعـداد المسلمين لحربهم ، وعزمهم على قصدهم ، فاضطر الى الاقلاع من اشبيلية منصرفا بأسطول المرية في ٢٥ من ذي القعدة سنة ٣٦٠ هـ، ويعتبر ابن حيان عن ذلك بقوله: « وفي يوم الاثنين لاربع بقين من ذي القعدة منها وافى الخبر باقـلاع صاحب الشرطة العليا قائد البحر عبد الرحمن بن محمد بن رماحس من مدينة اشبيلية بالاسطول منصرفا الى المرية ، عافا عن اجرائه الى جهـة المجوس الظاهرين في البحر الشـمالي ، اذ وردت الانباء وتوالت بهزيستهم، وهربهم بعـد اقدامهم وتلجيجهم في البحر الشمالي لا يلوون على شيء بحـسن دفاع الله عن المسلمين ، اذ اتصل بهم وصح لديهم صمد الخليفة المستنصر بالله لحربهم ، ونصبه التدبير عليهم ، وتجريده القائـد الوزير غالب بن عبد الرحمن مدير حروبه نحوهم ، وقصدهم في البر ، ونهوض القواد بالاساطيل الى ناحيتهم، وتحريكه نحوهم الجنود الحسنة، والاساطيل الثقيلة التي لم يجد أعداء الله عند سماعهم بها من نفوسهم معينا علـى

---

(١) ابن حيان ، ص ٢٨ .

التعرض لملاقاتها ، والانبساط في السواحل التي احسوا بهم فيها ، فولوا على أعقابهم ناكصين ، وما رجوه من انتهاز فرصة من المسلمين خائبين ، وكفى الله المؤمنين القتال . وكان الله قويا عزيزا » [١] .

وكما عاد اسطول المرية الى قاعدته عاد الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن من غزاته الى سواحل الغرب الى قرطبة بعد أن أحجم النورمان عن ملاقاة المسلمين ، فوصل فحص السرادق من قرطبة في ٢ صفر سنة ٣٦١ هـ [٢] .

وعلى الرغم من انصراف اسطول النورمان عن متابعة غارته على سواحل الاندلس ، وزوال خطرهم عنها فقد كان الخليفة ما يزال يخشى عودتهم من جديد بأسطول كبير لغزو هـذه السواحل ، فلـم يطمئن لعودتهم المبكرة الى بلادهم ، وظل يتوقع قدومهم ، ففي ٥ من رمضان سنة ٣٦١ هـ استدعى الى مجلسه الخاص مع الوزراء قائدين من قواده هما زياد بن افلح وهشام بن محمد بن عثمان ، فأمرهما أن يتأهبا للخروج على صائفة ذلك العام الموجهة الى الغرب ، وعند خروجهما من قرطبة في ١١ من رمضان دعاهما لمقابلته ، وأوصاهما بالمبادرة وتجنب التواني ، والاخذ بأمحص الرأي المقارن للعزم ، واستشارة اولى الرأي فيما يقع عليه التدبير ، وزودهما بكثير من الوصايا ، وخلع عليهما [٣] .

ومضت الحملة التي جردها المستنصر بالله الى وجهتها ، فانتهت الى شنترين ، وهناك تأكد لدى قائدي الحملة أن النورمان قد أحجموا

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٨

(٢) نفسه ، ص ٦٦

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، ص ٧٨ ، ٧٩

عن ملاقاة المسلمين بعـد أن بلغتهم أخبار شخوص المسلمـين اليهم والاستعداد برا وبحرا . وزاد تأكد القائدين من هذه الانباء بعد وصول الجواسيس الذين كانا قد سيراهم الى شنت ياقب من قاصية بلد العدو لتقصي أخبارهم . فقفل الجيش عائدا بعد أن انتهى من مهمته ، ووصل القائدان الى مدينة الزهراء في ٥ ذي القعدة من نفس السنة [١] .

د ـ نشاط أسطول الاندلس في سواحل المغرب وسـواحـل غرب الاندلس :

ظهر في أيام المستنصر بالله عدد كبير من قادة الاندلسيين . نخص بالذكر منهم عبد الرحمن بن محمد بن رماحس وغالب بن عبد الرحمن ، وقيصر ، وسعد الجزري ، ورشيق بن عبد الرحمن المعروف بالبرغواطي، وعبدالله بن شعيب . وابن الازرق البحري ، وعبد الرحمن بن يوسف ابن أرمطيل ، واسماعيل بن عبد الرحمن بن الشيخ ، وعبد الرحمن بن أبي جوشن ، وعبدالله بن مروان المعروف بابن مسلمة ، وعبدالله بن رياحين . وكان عبد الرحمن بن رماحس هو القائد العام للاساطيـل الاندلسية ، وكان يلقب بصاحب البحر [٢] .

وقد أبدى هؤلاء القواد نشاطا كبيرا في البحر المتوسط وفي المحيط الاطلسي ، وأسهموا في حوادث المغرب : ففي ١٢ من رمضان سنة ٣٦١ هـ توجه عبـد الرحمن بن رماحس بالاسطول الـى العدوة [٣] ، كمـا اشترك في هذا الشهر نفسه اسطول المرية وأسطول اشبيلية بقيادة قيصر

---

(١) نفسه ، ص ٩٢ ، ٩٣

(٢) نفسه ، ص ١٠٥

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٠

وسعد الجزري ورشيق وابن الشيخ وابن أرمطيل وابن أبي جوشن في احدى الغزوات البحرية [١] . وفي غرة ذي القعدة سنة ٣٦١ هـ قام عبدالله بن رياحين قائد المستنصر على البحر بسهاجية طنجة من البحر [٢]، ونجح عبد الرحمن بن رماحس قائد البحر في ذي القعدة من سنة ٣٦٢ هـ في افتتاح طنجة [٣] ، واشترك هذا القائد مع القائد غالب بأسطوليهما في مهاجمة أصيلا واستنزال الحسن بن قنون [٤] .

ثم أنشأ المنصور محمد بن أبي عامر أسطولا ضخما في قصر أبي دانس . وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين ، وحمل الاقوات والاطعمة والعدد والاسلحة ، وسير هذا الاسطول في سنة ٣٨٧ هـ ايشترك في غزو مدينة شنت ياقب ، فسارت السفن في نهر دويرة . وبفضل هذا الاسطول أغار المسلمون على جزيرة شنت مانكش وغيرها [٥] .

هـ ـ مغامرات الاندلسيين في بحر الظلمات في القرن الرابع الهجري :

كان من أثر تقدم البحرية الاسلامية في الاندلس في عصر الخلافة الاموية ان سرت في نفوس فريق من شباب المسلمين في هذه البلاد روح المغامرة البحرية للكشف عن مجاهل البحر المحيط المعروف ببحر الظلمات

---

(١) نفس المصدر ، ص ٨١
(٢) ابن عذاري ، البيان ، ج٢ ص ٢٦٥
(٣) ابن حيان ، ص ٩٠
(٤) نفس المصدر ، ص ١١٦
(٥) ابن عذاري ، ج٢ ص ٤٤١ ـ ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٦٧ ـ المقري ، نفح الطيب ، ج١ ص ٣٩١

الظلمات أو الاوقيانوس أو البحر الاخضر . والتأكد من وجود أرض تقع غربي هذا المحيط ، اذ كان الظن أن الساحل الغربي للاندلس هو آخر المعمور من الارض وأن البحر المحيط لا أرض وراءه [١] .

ولا شك أن الرغبة في الكشف عن المجهول لا تحدث الا في أعقاب نهضة حضارية كبيرة . والاندلس في عصر الخلافة كانت قد بلغت الذروة في التقدم الحضاري ، وكان جغرافيوها قد اسهموا بنصيب كبير في تعريف أهل البلاد بالطرق والمسالك في البر والبحر ، معتمدين في ذلك على مصنفات الاغريق واللاتين أمثال بطليموس وهروشيش [٢]. ويبدو أن القول بنظرية كروية الارض [٣] وهي نظرية عرفها الجغرافيون العرب عن الاغريق (بطليموس وغيره) كانت حافزا على قيام بعض المغامرين من أهل الاندلس برحلات عبر المحيط للكشف عن مجاهله معتمدين في هذه الرحلات على بعض المعلومات الجغرافية عن البحار وعن الارض والفلك. دون أن يتزودوا بخرائط ملاحية لهذا المحيط أو بآلات تعين على الاتجاه نحو الغرب ، فمن المعروف أن آلة البوصلة لم يعرفها العرب الا في القرن

---

(١) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ليدن ، ١٨٩٢ ص ٦٨ ـ مروج الذهب ، ج١ ص ١١٨ ـ ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٥ ـ الحميري ، ص ١ ، ٢ ، ٢٨ . وفي هذا البحر المحيط يقول الادريسي : « ولا يعلم احد ما خلف هذا البحر المظلم ولا وقف بشر منه على خبر صحيح لصعوبة عبوره ، وظلام انواره ، وتعاظم امواجه وكثرة اهواله وتسلط دوابه وهيجان رياحه ، وبه جزائر كثيرة ومنها معمورة ومغمورة وليس احد من الربانيين يركبه عرضا ولا ملججا وانما يمر منه بطول الساحل ولا يفارقه ، وامواج هذا البحر تندفع منغلقة كالجبال لا ينكسر ماؤه » (الادريسي ، ص ١٦٥) .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٢٠٠ وما يليها .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج١ ص ٨٦ ، ٩١ ـ ابن رسته ، ص ٨ ـ ابن الفقيه الهمذاني ، ص ٤ .

الحادي عشر الميلادي [١] .

وتتمثل اولى هذه المغامرات فيما رواه الادريسي في نزهة المشتاق ، ونقله عنه الحميري في الروض المعطار . في رحلـة المغربين او المغررين وخلاصتها أن جماعة من المغامرين الاندلسيين خرجوا من أشبونة في بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه ، والى أين انتهاؤه . وكانوا ثمانية رجال كلهم ابناء عم . أنشأوا مركبا حمالا وزودوه بما يكفيهم من الطعام والشراب عدة أشهر . ثم اقلعوا بمركبهم في البحر المحيط ودخلوا في أول طاروس الريح الشرقية . فدفعهم التيار نحوا من ١١ يوما الى أن وصلوا الـى موضع من المحيط « غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش قليل الضوء. فايقنوا بالتلف . فردوا قلاعهم في اليـد الاخرى . وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوما » [٢] فوصلوا الى جزيرة سموها بجزيرة الغنم تمتاز بكثرة أغنامها ، ثم غادروها . وواصلوا الاتجـاه في البحر جنوبا مدة اثني عشر يوما اخرى . فلاحت لهم جزيرة فقصدوها . ولكن أهل هذه الجزيرة وكانوا شقرا زعرا . شعور رؤوسهم سبطة . طوال الاجسام . خرجوا اليهم بالزوارق فأسروهم واعتقلوهم في بيت ثلاثة أيام، ثم أدخلوا عليهم في اليوم الرابع رجلا يتحدث بالعربية . أحضرهم أمام ملك الجزيرة ، وسألهم عن قصدهم وغايتهم . فأخبروه بخبر مغامرتهم ، والهدف من رحلتهم . فروى لهم أن قوما من عبيده حاولوا نفس المحاولة وأخفقوا في كشف ما وراء المحيط . ثم انه وعدهم خيرا . وصرفهم الى

---

(١) خوان بيرنيط ، هل هنالك أصل عربي اسباني لفن الخرائط البحرية ، تعريب الدكتور مختار العبادي ، مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية ، مدريد ، العدد الاول ، السنة الاولى ، ١٩٥٣ ، ص ٨٧ . والاصل نشره المؤلف بعنوان Influencias musulmanas en el origen de la cartografia nautica, publicaciones de la Real sociedad geografica, No 289, Madrid, 1953.

(٢) الادريسي ، ص ١٨٤ ـ الحميري ، ص ١٦

موضع معتقلهم . فأقاموا فيه الى أن بدأ موسم الرياح الغربية ، فوضعوا في زورق . وتركوا في البحر . فحملهم التيار بعد ثلاثة أيام الى بر المغرب عند بلدة آسفى • ومن المعتقد أن هؤلاء الفتية المغررين وصلوا في مغامرتهم الى احدى جزر المحيط الاطلسي القريبة من ساحل المغرب ولعلها احدى جزر الازور أو ماديرا ؛ وهي التي سموها بجزيرة الغنم ، واعتقد أنهم نزلوا بعد ذلك في احدى جزر كناريا ، ومنها حملتهم الريح ودفعت قاربهم الى ساحل آسفى •

والمغامرة الثانية قام بها فتى من أهل قرطبة وأحداثها يقال له خشخاش مع فتية من أصحابه ، ويعتقد الاستاذ ليفي بروفنسال أن خشخاش هذا هو أحد البحريين الذين أقاموا في بجانة . ولعله خشخاش ابن سعيد بن أسود من عرب اليمن [١] • ركب هؤلاء المغامرون في البحر المحيط في مراكب أعدوها لهذا الغرض ، فغابوا فيه مدة . ثم عادوا يحملون معهم غنائم كثيرة [٢] • وقد يكون هؤلاء البحريين قد ادركوا احدى جزر البحر الكاريبي وهو أمر بعيد الاحتمال . وأغلب الظن أنهم لم يصلوا الى أبعد من جزر الازور المعروفة عند الجغرافيين العرب بالجزائر الخالدات لقربها من ساحل المغرب • أما الوصول الى جزر البحر الكاريبي وساحل القارة الامريكية فلم يتم فيما يظهر الا ابان القرن الرابع عشر الميلادي ؛ عن طريق الرحلتين اللتين قام بهما محمد الجاوي [٣] •

---

(1) Lévi - Provençal, Histoire, t. I, P. 354

(٢) المسعودي ، ج١ ص ١١٩ — الحميري ، ص ٢٨

(٣) راجع ما ذكره الاستاذ خوان بيرنيط في هذا الصدد في بحثه السابق ، ص ٨٥، ٨٦

الفصل السادس

تدهور البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس في القرن الخامس الهجري

(١) سياسة الزيريين البحرية حتى منتصف القرن الخامس الهجري

(٢) ضعف البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس في القرن الخامس الهجري •

(٣) سقوط صقلية في أيدي النورمان

(٤) جهاد الزيريين في البحر منذ أيام تميم بن المعز

(٥) استيلاء النورمان على المهدية •

الفصل السادس

تدهور البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس في القرن الخامس الهجري

(١)

سياسة الزيريين البحرية حتى منتصف القرن الخامس الهجري

سادت العلاقات الودية بين الدولة الفاطمية في مصر والدولة الصنهاجية في افريقية في امارة ابي الفتوح يوسف بن بلكين بن زيري ، وكان أبو الفتوح يسعى الى أن يعيد للبحرية التونسية مكانتها التي فقدتها بعد انتقال الاسطول الفاطمي الى مصر عند انتقال الفاطميين اليها نهائيا ، باستثناء عدد قليل من السفن التي تركوها له لمعاونته في حماية املاكه من الخطر الاموي في الاندلس [١] ، فأمر في ذي الحجة سنة ٣٦٥ هـ واليه عبدالله بن محمد الكاتب أن يقيم اسطولا بالمهدية ، وأن يزوده بالرجال والعتاد . فشرع عبدالله في حشد البحريين من كل البلاد بالقوة ، وزج بمن امتنع منهم في سجون القيروان وأصبح للمهدية في عصر الزيريين أسطول في أقل من عام واحد خرج في أول المحرم سنة ٣٦٦ هـ من مياه المهدية ، فتعذرت عليه الريح ، فأقام البحريون والنواتية بسفنهم في موضعهم من البحر حتى فرغت أزوادهم ، وعدموا الماء ، فهربوا الى الساحل بعد أن نهبوا ما في المراكب من عدة وسلاح [٢] .

---

(١) ارشيبالدلويس ، ص ٣١٢

(٢) ابن عذاري ، ج١ ص ٢٢٧

ولما توفي يوسف بن بلكين في سنة ٣٧٣ هـ وخلفه ابنه أبو الفتح المنصور . ابدى ميلا صريحا الى الانفصال الروحي والسياسي عن الخلافة الفاطمية . ولكن العزيز بالله الفاطمي اصطنع معه سياسة الملاطفة وبذلك ظلت العلاقات الودية في الظاهر سائدة بين مصر وافريقية في عصر نصير الدولة باديس بن المنصور . ولكنها كانت في الحقيقة قناعا زائفا يخفي وراءه ما كان قائما بالفعل بين الخليفة الفاطمي وباديس من تغاير . وقد حرص باديس على تدعيم قوته الحربية والبحرية فنراه يزور سواحل افريقية في عامي ٣٨٦ ، ٣٨٧ هـ كالمهدية وسوسة وسردانية ، وعندما وصل الى المهدية في هذه الرحلة لعبت المراكب بين يديه . ورمى النفاطون بالنفط (١)

وعندما تولى المعز بن باديس امارة افريقية ساءت العلاقات بينه وبين الخليفة المستنصر بالله الفاطمي . وتوترت فيما يقرب من سنة ٤٤٠هـ توترا ادى في النهاية الى قيام المعز باعلان انفصاله عن الخلافة الفاطمية . وكان انتقام الخليفة الفاطمي شديدا . فقد سير قبائل بني هلال وبني سليم النهابة الى افريقية وأطلق لهم العنان في استباحة البلاد التونسية ، وما كاد هؤلاء يصلون الى نواحي افريقية حتى عاثوا في البلاد فسادا . وخربوا الديار ، وأتوا على عمران البلاد ، ووصلوا الى القيروان واستباحوها ، وطمسوا معالمها . ثم زحفوا الى قابس وبونة ، واضطر المعز بن باديس الى الانتقال الى المهدية ، التي اتخذها مقرا له ، كما اضطر بنو حماد الى الانتقال غربا الى بجاية . واقتصر ملك تميم بن المعز ابن باديس على شريط ساحلي ضيق . ونتج عن انحسار ملك الزيريين في افريقية الى الساحل بسبب الضغط الذي كانت تمارسه قبائل العرب على

---

(١) ابن ابي دينار القيرواني ، المؤنس في تاريخ افريقية وتونس ، ص ٧٤

المدن الداخلية . ازدياد عناية الصنهاجيين بشؤون البحر [١] ، فوجهوا أنظارهم الى صقلية وجنوبي ايطاليا ، وعاود التونسيون نشاطهم البحري منذ أن أصبحت المهديـة حاضرة الزيريين الجديدة . وهكذا أخـذ الزيريون يتطلعون الى البحر بعد أن مضى زمن طويل لم يبرحوا خلاله أرض افريقية . وقد ظل الزيريون يشتغلون بالغزو البحري منذ ايام المعز ابن باديس حتى آخر عهد الدولة الزيرية [٢] . وكان المعز بن باديس قد أمر في سنة ٤١٤ هـ بحشد البحريين والتعجل باصلاح القطائع وعمارة دار الصناعة بالمهدية . وآخذ في انشاء العدد البحرية . فأنشيء في امـد قصير أسطول ضخم [٣] بلغ عدد قطعه في سنة ٤١٦ هـ أربعمائة قطعة ، وكان المعز يهدف من انشاء هذا الاسطول مواجهة منافسيه في طرابلس الغرب التي أصبحت في ظل خليفة بن وروا قوة بحرية يخشى بأسها [٤] ، ومواجهة الحملة البيزنطية التي سيرها بسيل الثاني في سنة ٤١٦ هـ الى قلورية وصقلية لوضع حد لغارات المسلمين التي بلغت بلاد البلوبونيز ، وقد حاصر هذا الاسطول البيزنطي بلرم ، فاستنصر أهلها بالمعز بن باديس الذي لم يتردد في نصرتهم بعد أن تخلت الخلافة الفاطمية عنهم ولكـن أسطول ابن باديس لم يلبث ان تعرض لأنواء عاتية بالقرب من قوصرة ، فغرقت سفنه ، وهلك كثير من عسكره [٥] ، ولم يصل منها الى صقلية الا عدد قليل . وانقذ موت بسيل الثاني أهل صقلية من غزو اكيد ، اذ مال خليفته (قسطنطين الثامن) الى الصلح مع الخلافة الفاطمية ، وتم ذلك في سنة ٤١٨ هـ [٦] . ومن الملاحظ ان العلاقات بين صقلية وبين افريقية

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فترة حاسمة ، ص ٢٨

(٢) اومبرتو ريتسيانو ، النورمنديون ، ص ١٧٧

(٣) ابن عذاري ، ج١ ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١

(٤) سعد زغلول ، ص ٢٤ — أرشيبالد ، ص ٢١٢ .

(٥) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٢

(٦) أرشيبالد لويس ، ص ٢٠٩

بدأت تقوى وتشتد اواصرها منذ أن مدت صقلية يدها الى المهدية لنصرتها . فنالت منها النصرة . ومنذ ذلك الحين حول امراء صقلية أنظارهم في طلب العون عن خلفاء القاهرة .

غير أن الصلح الذي انعقد بين البيزنطيين والمسلمين كان قصير الامد . اذ سرعان ما نقضه الامبراطور رومانوس أجريروس مع الفاطميين بغارته على بلاد الشام . وعندئذ عاود المسلمون توجيه غاراتهم الى سواحل اليونان وجزرها القريبة في سنة ٤٢٧ هـ . الا أن أمير صقلية لم يلبث ان اعترف بسيادة بيزنطة . وفي نفس الوقت عقدت القاهرة معاهدة مع البيزنطيين تعهدت فيها بعدم تقديم المساعدة لاهل صقلية اذا قام عداء بينهم وبين البيزنطيين . فاطمأن البيزنطيون عندئذ الى الفاطميين . وانفسح لهم مجال العمل في صقلية . فأعدوا حملة بقيادة ميناس نزلت في صقلية ، وافتتحت سرقوسة والقسم الشرقي من الجزيرة في سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) . ولكن الحملة فشلت بعودة ميناس الى اليونان ومقتله .

ويبدو أن بني زيري اشتركوا فيما بين عامي ٤٣٠ ، ٤٣٥ هـ بوحدات من أسطولهم ضد البيزنطيين . كما استطاع اسطولهم اخماد الحركات المناوئة في سوسة في سنة ٤٤٥ هـ ، واحراق مراكب الثوار ، وكانت تربو على ستين مركبا أكثرها لاهل سوسة [١] . ولكن ظهور قوى النورمان في جنوب ايطاليا منذ سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) وازدياد نشاطهم في أبوليا وبنفنت ، بعد انتقال الزعامة في اشد فرقهم عنفا الى روبرت جسكارد بعد سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) ، على حساب أمراء ايطاليا المحليين ، واعتراف البابا به في ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) . كان له أعظم الاثر في اضعاف

---

(١) التجاني ، ص ٢٩

البحرية الاسلامية في صقلية وافريقية ، فسرعان ما نجح أخـوه روجر جسكارد في فتح قلورية والتقدم منها في سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١ م) الى مسينى . التي كانت المنطلق الاول لافتتاح النورمان لجزيرة صقلية كلها .
ومن صقلية يبدأ النورمان يتطلعون الـى افريقية ، وينتهي الامر بتدمير الصرح الزيري الاخير بالاستيلاء على المواقـع الساحلية من البـلاد التونسية فيما بين المهدية وطرابلس الغرب في عامي ٥٤١ ، ٥٤٣ [١] .

---

(1) Robert Brunschvig, la Berberie orientale sous les Hafsides, t. I, Paris, 1940, p. 4.

(٢)

ضعف البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس في القرن الخامس الهجري

تدهورت القوى البحرية في المغرب وصقلية تدريجيا بعد رحيل الفاطميين من المغرب الى مصر ، في نفس الوقت الذي ضعفت فيه البحرية البيزنطية بعد بسيل الثاني . وعلى الرغم من قيام الزيريين مرتين بانشاء اسطول افريقي في المهدية في عامي ٣٦٥ ، ٤١٦ هـ ، الا أن هذا الاسطول كان ينقصه في المرة الاولى الرجال والملاحين ، وفي المرة الثانية تعرض لكارثة اطاحت بمعظم قطعه . واذا كان قد أصبح للبحرية الزيرية شأن في عهد تميم بن المعز وخلفائه . فانما كان مرجع ذلك الى اعتماده على البحريين المسلمين الذين هاجروا من صقلية والجزر المجاورة بعد دخول النورمان في مسرح الاحداث . واشتغلوا بعد ذلك بأعمال القرصنة والغزو البحري .

ولم تكن قوة البحريةالحمادية في المغرب الاوسط تفوق الزيرية على الرغم من أن دار صناعة بجاية ودار صناعة مرسى الخرز كانتا تنتجان المراكب والسفن الحربية التي تغزو الى بلاد الروم ، بسبب توافر الخشب في اودية بجاية وجبالها . والزفت البالغ الجودة والقطران والمعادن [١] . الا ان انتاج السفن الحربية كان محدودا لاعتماد المغرب الاوسط على البحرية التجارية في تصريف منتجاته [٢] .

وبينما كانت البحرية التونسية في طريقها الى التدهور المحتوم ،

(١) البكري ، ص ٥٥ — الادريسي ، ص ٩٠.
(٢) عثمان الكعاك ، مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

كانت بحرية الاندلس أيضا بعد عصر الدولة العامرية تسير سيرا حثيثا نحو الاضمحلال ، فقد أعقب سقوط الخلافة الاموية واختلال ميزان الامن والنظام في البلاد ، وتفتت الوحدة السياسية للاندلس أن تجزأت البلاد الى دويلات مستقلة حافظت كل منها على استقلالها في امكانياتها المحدودة • ولم تعد هذه الدويلات تحتفظ بأساطيل قوية تحركها السلطة المركزية في قرطبة ، كما كان الحال في عصر الخلافة ؛ وانما اعتمدت هذه الدويلات وخاصة الساحلية منها . ومعظمها كانت تخضع لعناصر صقلية ، على اساطيل محلية صغيرة هي اجزاء من الاسطول الاندلسي الذي اقتسمته فيما بينها [١] ، ولم تلعب هذه الدويلات دورا ذا قيمة في الصراع البحري يومئذ في حوض البحر المتوسط الغربي باستثناء دويلات قليلة كان لها دور بحري واضح في احداث هذا العصر ، ونخص بالذكر منها دولة بني عباد باشبيلية ودولة بني صمادح بالمرية ، وعلى الاخص دولة مجاهد العامري في دانية والجزائر الشرقية . الذي يعتبر اكثر ملوك الطوائف جميعا عناية بالاساطيل . والذي لعب دورا هاما في الجهاد البحري في البحر المتوسط الغربي •

أما بنو عباد فقد اهتموا بشؤون البحر لوقوع معظم ثغورهم على المحيط الاطلسي ، فكان لهم اسطول تتوزع قطعه عند مصب الوادي الكبير وفي مياه شلب ، ويبدو أن داري صناعة شلب واشبيلية كانتا تنتجان أعدادا كثيرة من السفن في عصر بني عباد ، ومما يؤكد ذلك أن العود بجبال شلب كان يحمل منها الى سائر مملكة اشبيلية لصناعة السفن [٤] ، وقد ساهمت قطع من اسطول اشبيلية ومن بينها سفينة

---

(1) Henri Pérès, La Poésie andalouse, p. 214

(٢) الحميري ، ص ١٠٧

ضخمة كأنها قصر مبنى على الماء في مهاجمة سبتة الخاضعة لسقوت البرغواطي وولده المعز [١] في صفر سنة ٤٧٦ هـ ، كما ساهم أسطول اشبيلية في نقل جيوش المرابطين من سبتة الى الجزيرة الخضراء [٢] • غير أن معظم سفن اشبيلية تعرضت للتدمير عندما اقتحم المرابطون اسوار اشبيلية من جهة الوادي •

أما المرية فقد ظلت بعد سقوط الخلافة بقرطبة تحتل المركز الاول بين قواعد الاسطول الاندلسي في زمن الطوائف ، لكثرة سفنها ، ونشاط دار الصناعة بها في الانتاج، وخاصة في عهد المعتصم بن صمادح، الذي نجح في انشاء أسطول قوى يرسو في خليج المرية • وكانت كل غايته العناية بهذا الاسطول [٣] ، وكان هذا الاسطول يتألف من عدد كبير من الجواري والفلك [٤] والاجفان [٥] • وقد وصف الشاعر ابن الحداد أسطول المعتصم بن صمادح فقال :

هام صرف الردى بهام الاعادي ان سمت نحوهم لها أجياد
وتراءت بشرعها كعيون دأبها مثل خائفها سهاد
ذات هدب من المجاذيف حاك هدب باك لدمعه اسعاد
حسم فوقها من البيض نار وكل من أرسلت عليه رماد
ومن الخط في يدي كل در ألف خطها على البحر صاد [٦]

---

(١) ص ابن بسام في كتاب الذخيرة نشره الدكتور خواكين فالفي Joaquin Vallvé نشره بعنوان Bermejo Suqut al—Bargawati, rey de Ceuta في مجلة الاندلس al — Andalus ، مجلد ٢٨ ، قسم ١ مدريد ١٩٦٣ ص ٢٠٢

(٢) الحميري ، ص ٨٧ ـ المقري ، نفح الطيب ، ج ٦ ص ٩٢

(٣) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، طبعة مصر ١٣٢٠ هـ ص ٤٨

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٨ . والجواري هي السفن السريعة

(٥) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ص ١٩٢

(٦) المقري ، نفح الطيب ، ج٥ ص ١٩٨ .

غير أن معظم قطع هذا الاسطول لم تلبث أن أحرقت على يدي معز الدولة بن المعتصم عندما تغلب المرابطون على المرية ، واستبقى منها ثلاثة قطع للفرار عليها بنفسه وماله [١] .

أما مملكة دانية والجزر الشرقية التي استقل بها مجاهد العامري فكانت أكثر هذه الدويلات جميعا اهتماما بالاساطيل وجهادا في البحر ، وكان مجاهد وقت سقوط الخلافة الاموية وقيام الفتنة مقدما على جزر البليار الثلاثة ، فلما استقل بها بادر بضم دانية في سنة ٤١٣ هـ وتسمى بالموفق بالله [٢] . ومن جزر البليار غزا جزيرة سردانية في سنة ٤٠٦ هـ في أسطول من ١٢٠ سفينة [٣] ، فاقتحمها . وتغلب على أكثرها ، ويبدو أنه أغار منها على سواحل ايطاليا وهاجم لوني وما حولها من المناطق الساحلية [٤] . وقد أثارت هذه الغارات عليه غضب اهل جنوة وبيشة (بيزا) ، فتعاونوا على ردعه ، وخرجوا بأسطول كبير لمهاجمته في سردانية، واشتبك اسطول الموفق مع الاسطول الجنوي البيشي في وقعة شنيعة دارت على سواحل سردانية وانتهت بهزيمته ، وأسهمت الطبيعة في هذه الهزيمة ، اذ تعرضت سفنه لرياح عاتية ، أغرقت معظمها . بحيث لم ينج من أسطوله الضخم الا عدد يسير من القطع لا يتجاوز خمسة مراكب واربعة قوارب ، وقد عاد الموفق منكوبا من هذه الغزوة [٥] . ولم تثنه هذه الهزيمة الشنعاء عن معاودة الجهاد والغزو البحري ، فقد ظل هو ومولاه الاغلب ، واليه على ميورقة، يجاهدان الفرنجة في البحر، ويهاجمان

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٩٢
(٢) ابن عذاري ، البيان ، ج٣ ، باريس ١٩٣٠ ص ١٥٥
(٣) ابن الخطيب ، نفس المصدر ، ص ٢١٩
(٤) ارشبالد لويس ، ص ٢١٤ — Amari, Storia, t. III, p. 5-8
(٥) الضبي ، ص ٤٥٨ ـ ابن الخطيب ، ص ٢٢٠ ـ الحميري ، ص ٢٢١

برشلونة وأربونة [١] .

هذا وقد ساعد على اضعاف البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس نمو القوى البحرية لبيشة وجنوة وساحـل ايطاليـا الشمالي الغربي ، واقبالها على الملاحة في البحر منذ أن نجح كونت وليام ، حاكم بروفانس في سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) ، في طرد غزاة المسلمين من فراكسينت [٢] . ولم يأت عام ١٠١٥ م (٤٠٦ هـ) الا وقد أصبحت جنوة وبيشة قوتين بحريتين عظيمتين تمكنتا من ايقاع الهزيمة بأسطول مجاهد العامري، كما ذكرنا، في بحر سردانية، ثم استفحلت قوة بيشه البحرية في سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٤ م) الى حد أنها تجرأت على غزو مدينة بونة عندما لمست ضعف البحرية الزيرية [٣] . ولم يكن الدافع على هذا النشاط البحري حماية طرق التجارة في البحر من غارات المسلمين ، وانما كان المحرك عليه الرغبة في نهب التجارة الاسلامية ومدن المسلمين الساحلية .

وفي سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) عظمت قوة بيشة وجنوة البحريـة بحيث أصبحت تشكل خطرا جديا على سواحل افريقية نفسها ، ففي هذا العام اشتركت الاساطيل البيشية (البيزية) والجنوية التي وصل عدد قطعها الى ٣٠٠ سفينة وقيل ٤٠٠ ، بتحريض من البابا فكتور الثالث في هجوم بحري على المهدية ، عاصمة الدولة الزيرية ، وتمكـن البيشيون والجنويون بالاشتراك مع قوات من أمالفي، من مفاجأة المسلمين في المهدية، في غيبة عسكر الامير وتجرد كافة الناس من الاسلحة والعدد ، وتهـدم الاسوار ، وسوء تدبير عبدالله بن منكوت ، متولي أمور الدولة ، اذ

---

(١) ابن خلدون ، ج٤ ص ١٦٥ — ارشبالد ، ص ٢١٤

(٢) ارشبالد ، ص ٢١٤

(٣) نفس المرجع

خالف عثمان بن سعيد المعروف بالمهر مقدم قائد الاسطول الزيري في الخروج للقاء الاعداء ومنعهم من النزول في البر ، كل ذلك أدى الى نجاح الايطاليين في التغلب على المهدية وزويلة ونهبهما واستباحتهما [١]. واضطر الامير تميم بن المعز أن يقدم الى الغزاة مبلغا من المال قدره مائة ألف دينار ، وقيل ٣٠ ألف دينار (ابن الاثير) دفعه بين ناض واوان ذهبية وفضية ثمنا لانسحاب هذه القوات من المهدية وزويلة ، مع تعهده لهم بعدم التعرض مستقبلا للسفن الايطالية في المياه الافريقية ، فأقلع الغزاة بذلك كله وبعدد كبير من اسرى المسلمين [٢] . وأحدثت هذه الغزوة الايطاليةالمشتركة دويا هائلا في المغربالاسلامي. ثم أعاد الايطاليون الكرة مرة أخرى في سنة ٤٩٨ هـ ، فقدموا في أجفان كثيرة حربية تعرف بالشواني و ٢٣ مركبا . ويذكر ابن عذاري انهم كانوا يهدفون في هذه المرة الى ايجاد وسيلة لدخول المهدية كالمرة السابقة ، « فقصدوا الى باب دار الصناعة ليمنعوا أسطول المهدية من الخروج اليهم ، فخاب ظنهم وخرج أسطول المهدية اليهم فهزموهم ، وقتلوا كثيرا منهم » [٣] .

أما البندقية فقد تمكنت عقب نجاحها في التغلب على المسلمين في أبوليا من السيطرة على مياه البحر الادرياتي . كذلك ساعد على اضعاف البحرية الاسلامية في المغرب ظهور النورمان في جنوب ايطاليا واستيلائهم بالتدريج على صقلية ، وانسحاب الزيريين من الميدان الصقلي في سنة ٤٦١ هـ بعد اختلافهم مع أهلها . ومنذ ان استولى النورمان تماما على

---

(١) ابن عذاري ، ج١ ص ٤٣٢ — ابن ابي دينار ، ص ٨٠

(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٣ — ابن الخطيب ، القسم الثالث من اعمال الاعلام ، ص ٧٨ — ابن خلدون ، ج٦ ص ٢٢٨ — النويري ، نهاية الارب ، ج٢٢ ص ١٦٧

(٣) ابن عذاري ، ج١ ص ٤٣٤

صقلية وذلك بعد سقوط سرقوسة آخر معقل اسلامي فيها سنة ٤٨٠ هـ تمت للنورمان السيطرة البحرية على مياه البحر المتوسط الغربي ، وتحكموا ، بعد استيلائهم على جزيرة مالطة ، في المضايق الحيوية بين افريقية وصقلية [١] .

(١) ارشيبالد لويس ، ص ٣٧٦

(٣)

سقوط صقلية في أيدي النورمان

سقطت صقلية في أيدي النورمان عقب نزاع قام بين أحـد ثوار صقلية المسلمين ويدعى ابن الثمنة الملقب بالقادر بالله وبين القائد ابـن الحواس على بن نعمة ، وتفصيل هذا النزاع أن جزيرة صقلية توزعت بعد سنة ٤٢٧ هـ بين القائد عبدالله بن منكوت بمازر والقائد ابن الحواس بقصريانة وجرجنت ، وابن المكلاتي بسرقوسة بقطانية . ثم حدث ان استولى ابن الثمنة على مدينة سرقوسة ، وهاجم قطانية وقتل ابن المكلاتي الذي كان متزوجا من ميمونة أخت علي بن الحواس . ثم طلب ابن الثمنة الثائر من ابن الحواس ان يزوجه من ميمونة ، فوافـق ابن الحواس ، وزوجها من ابن الثمنة . ولكن ابن الثمنة قام ذات يوم ــ وكان ثملا ــ بفصدها حتى اشرفت على الموت ، لولا أن ادركها الاطباء فعولجت حتى برأت . فلما علم ابن الحواس بما فعله ابن الثمنة بأخته ، عمل على الانتقام من صهره . ولم يمض وقت طويل حتى كان الرجلان قد استعدا للقتال، وقامت الحرب بينهما ، فانهزم ابن الثمنة ، ورحل الى رجار النورماني صاحب مليطو او ملطيه Mileto[١] منذ سنة ٣٧٢هـ، وخاطبه وخاطب خاصته قائلا : « أنا أملكك الجزيرة ، فقالوا ان فيها جندا كثيرا ولا طاقة لنـا بهم ، فقال : انهـم مختلفون وأكثرهم يسمعون قولـي ولا يخالفون امري » [٢] . وتردد روجار في نصرة ابن الثمنة خوفا من أن يقحم نفسه

---

(١) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ص ٢٧٦ — النويري ج٢٢ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩

(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٦

في مغامرة قد تسبب لجيشه كارثة ،ولكن ابن الثمنة ما زال به يهون عليه الامر . ويغريه بفتح صقلية ، حتى طمع في فتحها . وتذكر المصادر الايطالية ان ابن الثمنة قدم ابنه رهينة الى روبرت أخي رجار ، وكان يحكم مدينة ريو Reggio مبالغة منه في اظهار حسن نيته . وعندئذ دخلت جيوش النورمان بقيادة روبرت ورجار وابن الثمنة جزيرة صقلية ، واشتبكت مع قوات ابن الحواس في رجب سنة ٤٤٤ هـ في موقعة دارت أمام اسوار قصريانة . فانهزم ابن الحواس . وزحف النورمان داخل الجزيرة . فاستولوا على مواضع كثيرة منها ، وعندئذ هاجر عدد كبير من أهل صقلية الى افريقية لائذين بالمعز بن باديس وكان من بين هؤلاء الصقليين المهاجرين الشاعر ابن حمديس الصقلي [١] . واستنجد هؤلاء بأمير افريقية ليحرر صقلية من الغزو النورماني . وجاءت هذه الصيحة في وقت تعرضت فيه البلاد التونسية للغزوة الهلالية المدمرة ، وعز على ابن باديس ان تضيع صقلية من المسلمين ، كما خاف في نفس الوقت من سقوطها في ايدي النورمان فتصبح على هذا النحو معبرا لهم الى الساحل الافريقي . وجسرا يوصلهم الى ثغور افريقية ، فعزم على التدخل لاستنقاذها . وعمر أسطولا كبيرا شحنه بالمقاتلة والاسلحة ، وابحر هذا الاسطول من المهدية في فصل الشتاء ، وما كاد الاسطول الزيري يصل الى جزيرة قوصرة حتى تعرض لعاصفة بحرية عاتية دمرت أكثر سفنه ، ولم ينج منها الا عدد قليل [٢] .

ثم شغل المعز بن باديس عن انقاذ صقلية بما أصابه بعد ذلك على أيدي العرب حتى توفي في سنة ٤٥٣ هـ ، وفي نفس الوقت تمكن بعض

---

(١) اومبرتو ريتسيانو ، ص ١٧٦ ـ احسان عباس ، العرب في صقلية ، ص ٢٣٦
(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٧ ـ النويري ، ج٢٢ ص ٢٣٩

خصوم ابن الثمنة من قتله . واستغل النورمان فرصة انصراف تميم بن المعز عنهم بمشاكل بلاده وأخذوا يتغلبون تدريجيا على مدن صقلية دون أن يقاومه اهلها مقاومة فعالة . وما ان تمكن تميم من التفاهم بعض الشيء مع زعماء العرب الهلالية حتى تفرغ لتحقيق مشروع أبيه . فبعث الى صقلية اسطولا زوده بالرجال والعدة . وقدم عليه ولديه أيوب وعليا . فوصل الاسطول الى جرجنت .

وقابل أهل صقلية نبأ وصول النجدة الزيرية في سعادة وفرحة . واستقبلوا أيوبا استقبالا حارا أغضب ابن الحواس . فأمر أهل جرجنت باخراجه عنها . فخالفوه . وأدى ذلك الى نشوب القتال . وأصيب ابن الحواس بسهم غرب صرعه على الفور . غير أن مسلمي بلرم لم يحتملوا سيادة بربر افريقية عليهم . فقامت فتنة أدت الى قيام الحرب بين المسلمين. ولم يجد أيوب وأخوه على بدا من العودة بالاسطول الى افريقية في سنة ٤٦١ هـ . وصحبهما جماعة من أعيان صقلية تاركين الجزيرة المنكوبة لمصيرها التعس . وخلا المجال للنورمان ولم يبق لهم مانع ولا مدافع . فاستولوا على بلرم في سنة ٤٦٥ هـ . وأخذت مدن صقلية تتساقط في أيديهم الواحدة اثر الاخرى . ولم يبق في حوزة المسلمين سوى مدينتا جرجنت وقصريانة . فحاصرهما النورمان . وضيقوا على المسلمين الحصار حتى اكلوا الميتة . وعدموا الاقوات . فاستسلمت جرجنت في سنة ٤٨١ هـ . اما قصريانة فظلت تقاوم وحدها ثلاث سنوات أذعن أهلها بعدها الى التسليم . فاستولى عليها رجار في سنة ٤٨٤ هـ [١].

---

(١) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٧ — النويري ، ص ٢٣٩ — الحميري ، ص ١٥٨ — ابن أبي دينار ، ص ٨٣ — Marçais, La Berberie, p. 219—220

(٤)

جهاد الزيريين في البحر منذ أيام تميم بن المعز

اسس تميم بن المعز أسطولا ضخما بدار الصناعة بالمهدية ، وقام هو وابنه من بعده يحيي بن تميم بشن الغارات البحرية المتواصلة على جزيرة صقلية . وعلى السواحل الايطالية [١] . وكان دخول صقلية في ملك النورمان قد دفع كثيرا من رجال البحر المسلمين الى الهجرة الى افريقية والاشتغال بالجهاد البحري والغزو . وقد قام يحيي بن تميم (٥٠١ — ٥٠٩ هـ) بدور كبير في هذا الجهاد . « فقد كانت له غزوات بحرية عملها الى بلاد الروم الى أن طلبوا سلمه [٢]» ففي سنة ٥٠٣ هـ جرد من أسطوله خمسة عشر غرابا لغزو بلاد الروم . فأصيب منها ستة . وعادت السفن الباقية الى المهدية [٣] . وفي سنة ٥٠٧ هـ أغار اسطول المهدية على بلاد الروم . وعاد بسبي كثير في ربيع الآخر [٤] . وكان لهذه الغارات أثر كبير في قيام النورمان بتوجيه ضرباتهم الى المهدية . وتشير المصادر الى أن يحيي بن تميم كان يوجه سفنه للاغارة على سواحل سردانية وجنوة وبروفانس [٥] . وأنه صرف همه الى « غزو النصارى في الاساطيل البحرية ؛ فاستكثر منها واستبلغ في اقتنائها ؛ وردد البعوث الى دار الحرب فيها حتى اتقته أمم النصرانية بالجزي من وراء البحر من بلاد افرنجة وجنوة وسردانية [٦] » . ولكن يحيى لم يوجه غاراته الى

---

(١) مختار العبادى ، سياسة الفاطميين ، ص ٢٢ .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج٣ ، ص ٨٠ .

(٣) ابن عذاري ، ج١ ص ٣٨) — ابن أبي دينار ، ص ٨٣

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٩ ؛

(٥) اومبرتو ريتسيانو ، ص ١٨٣

(٦) ابن خلدون ، ج٦ ص ٣٢٩

صقلية . اذ كان أبوه مرتبطا بمعاهدة مع رجار الاول عقـدت في سنة ٤٦٨ هـ . وظلت سارية المفعول في عهد تميم بن المعز وولده يحيي ثم في عهد علي بن يحيي (٥٠٩ — ٥١٥ هـ) • غير أن المنافسات التجارية بين صقلية والمهدية ادت في النهاية الى نقضها [١] •

وحدثت بين رجار وعلي بن يحيي بن تميم جفوة شديـدة سادت العلاقات بينهما بسبب خلاف قام بين علي ابن يحيي ورافع بن مكي بن كامل بن جامع الرياحي المتغلب على قابس . مرجعه رغبة علي بن يحيي في احتكار التجارة البحرية • وقد ادى هذا الخلاف الـى خروج علي لحصار قابس في سنة ٥١١ هـ . فاستعان رافع برجار صاحب صقلية الذي أمد رافعا بأسطول ضخم يتألف من ٢٤ شينيا . ولكن أسطول علي تمكن من ايقاع الهزيمة بأسطول النورمان في مياه قابس [٢] • وبدأ علي منذ ذلك الحين يدعم اسطوله ويقويه استعدادا للحرب . فعمر عشرة مراكب حربية وثلاثين غرابا وشحنها بالرجال والعدد والنفط [٣] • ولما كان يدرك تماما عـدم قدرته على مواجهة رجار وحده ، فقـد كاتب المرابطين بمراكش وطلب من أميرهم الاجتماع معه على الدخول في صقلية وكف رجار عما يعتزمه [٤]. ويذكر ابن عذاري ان رجار أرسل في ٥١٢ هـ رسولا الى علي بن يحيي « يلتمس تجديد العقود وتأكيد العهود ، ويطلب أموالا كانت له موقفة بالمهدية . وذلك بعنف وغلظة ، فرد على رسوله

---

(١) Marçais, La Berberie, P · 221

(٢) ابن الاثير ، ج٨ ص ٢٧٩ — ابن خلدون ، ج٦ ص ٢٣٠ ، ٢٤٢ — التجاني ، ص ٩٨ ، ٩٩ — النويري ، ج ٢٢ ص ١٧٢ ، ١٧٣ — محمد المرزوقي ، قابس ، القاهرة ١٩٦٢ ص ١٧٢

(٣) النويري ، ج٢٢ ص ١٧٣

(٤) ابن عذاري ، ج١ ص ٤٤٤

دون جواب . وجبهه بالقول . فتزايدت الوحشة بينه وبين رجار ، فأوسع شرا . وحاول بعد ذلك مكرا . »[1] .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٣

(٥)

استيلاء النورمان على المهدية

توفي علي بن يحيي في سنة ٥١٥ هـ وخلفه ابنه الحسن آخر أمراء بني زيري ، وحدث في عهد الحسن أن قام أبو عبدالله بن ميمون قائد أسطول علي بن يوسف بن تاشفين بالاغارة على صقلية في سنة ٥١٦ هـ ، فافتتح مدينة نقوطرة Nicotera من عمل رجار الثاني ، وسبى نساءها وأطفالها ، وقتل شيوخها ، وسلب جميع ما وجده فيها ، فلم يشك رجار في أن المحرك لتلك الغارة المرابطية هو أمير افريقية الحسن بن علي ، فصمم على الانتقام منه ، « فاستنفر أهل بلاد الروم قاطبة ، فالتأم له ما لم يعهد مثله كثرة » [١] ، وأعد الحسن بن علي عدته ، وتأهب لتلقي أساطيل رجار ، وجمع مائة الف راجل وعشرة آلاف فارس [٢] .

واتخذت حملة رجار طابع الحملات الصليبية . وكان الاسطول يتكون من ثلاثمائة جفن تحمل على ظهرها ثلاثين آلف مقاتل وزهاء الف فارس ، يقودهم جورجي بن ميخائيل الانطاكي . وعبد الرحمن النصراني ابن عبد العزيز . وكان جورجي هذا نصرانيا مشرقيا هاجر من الشام بعد أن تعلم العربية ، فاصطنعه تميم وجعله ناظرا على أمواله . فلما توفي تميم ، خاف جورجي على نفسه من يحيي ، ورحل هو وأهله وذويه الى صقلية بعد أن تزيا بزي البحريين ، وحظى في صقلية بصحبة رجار له ، فسيره رسولا الى الخليفة الفاطمي بمصر [٣] . ثم استخدمه على قيادة

---

(١) نفسه ص ٤٤٢

(٢) ابن ابي دينار ، ص ٨٤ ــ اتحاف اهل الزمان ، ص ١٤٣

(٣) التجاني ، ص ٣٣٣

اسطوله . فلما عزم رجار على مهاجمة المهدية بعثه في اسطوله المذكور في سنة ٥١٦ هـ • وبالغ رجار في اخفاء تحركات هذا الاسطول عن المسلمين حتى يفاجيء به المهدية . فيسهل عليه التغلب عليها . ولكن سفينة من سفنه دفعتها الرياح الى الساحل . فانكشفت خطة رجار . وتأهب الحسن بن علي لاستقباله . واستعان بقبائل العرب ، فقدموا أفواجا بنية خالصة في الجهاد • ونزل الاسطول في آخر جمادي الاولى سنة ٥١٧ الى ساحل افريقية . فافتتح جرجي جزيرة قوصرة . ثم استولى على جزيرة الاحاسي. وهي جزيرة تقع على بعد عشرة أميال من المهدية ذات أحساء ، بينها وبين البحر مجاز متداني المعبر . هين خوضه على الفارس والراجل [1] • ثم استولى النورمان في ٢ جمادي الآخرة على قصر الديماس ، وزحفوا من هنالك في البر بالرجال والخيل الى المهدية . وعندئذ اجتمع المسلمون . وخرجوا من المدينة كالموج . فانهزم النورمان وتراجعوا الى سفنهم ، ودخل المسلمون جزيرة الاحاسي . وغنموا غنائم هائلة • ثم حاصروا قصر الديماس ، فاضطر عسكر النورمان الى طلب الامان من الحسن في ١٤ جمادي الآخرة . ولكن العرب الذين اشتركوا معه في القتال رفضوا ذلك. فخرج النورمان في منتصف جمادي الآخرة . فأخذتهم سيوف العرب . وأبيدوا عن آخرهم • أما النورمان الذين فروا من الجزيرة أحياء فقد اقلعوا بما تبقى من السفن . وعددها مائة ، عائدين الى صقلية [2] • وقد صور الشاعر ابن حمديس الصقلي انتصار المسلمين في واقعة الديماس بقوله :

---

(١) التجاني ، ص ٢٢٨ — الحميري ، الروض المعطار ص ١٨١

(٢) ابن عذاري ، ج١ ص ٤٤٢ — ابن خلدون ، ج٦ ص ٢٢١ — التجاني ، ص ٢٢٥ — ابن ابي دينار ، ص ٨٤

هناك شفي الاســلام منهم غليله بطعن لــه بتر وضرب لــه هبر
وكانــوا رأوا مهديتيك وفيهمــا لعز الهــدى أمر فهالهــم الأمر
فما للعلوج امتــد في الغي جهلهم أما كان فيهم من لبيب له حجر
فكم قسوا في الظن أميال أرضنا ولم يطئوا منها مكانا هو الشبر[1]

وادرك رجار بعد هذه الهزيمة أن الوقت لم يحن بعد لفتح المهدية ، فأرجأ ذلك الى فرصة مواتية . وأخذ يعد العدة لحملة جديدة .

وكان في امكان الحسن بن علي ان يكون ندا عتيدا لرجار لولا أنه اصطدم وقتذاك بأطماع يحيي بن العزيز بالله الحمادي صاحب بجاية. فاضطر الى مداراة رجار ، ووقع معه هدنة في سنة ٥٢٩ هـ . وثار أهل المهدية لذلك ، وكاتبوا يحيي بن العزيز وأطمعوه في المهدية ووعدوه بتسليمها اليه . فوثق بهم ، وبعث اليهم جيشا في البر ومراكب في البحر ، ونازل المهدية برا وبحرا فأرسل رجار أسطولا من ٢٠ سفينة لمساعــدة الحسن ، وأراد مقدم الاسطول النورماني أن يقضي على سفن صاحب بجاية . فنهاه الحسن عن ذلك . وعادت مراكب بجاية الى قواعدهــا ، كما عادت سفن رجار الى صقلية [2] . وكان رجار قد أدرك بعد أن قدم مساعدته للحسن ضعف قوته البحرية ، فعزم على الاستيلاء على المهدية وعلى غيرها من موانيء افريقية . ففي سنة ٥٢٩ هـ أرسل رجار اسطولا الى جزيرة جربة ، فافتتحها بالسيف في غفلة من أهلها ، وقتل رجالها وسبى حريمها [3] . وفي سنة ٥٣٦ أغــار جرجي الانطاكي على مرسى المهدية في أسطول يتألف من ٢٥ غرابا ، واستولى على ما كان راسيا به

---

(١) أومبرتو ريتيــيانو ، ص ١٨٥
(٢) ابن أبي دينار ، ص ٨٥
(٣) ابن عذاري ، ص ٤٥٠ — ابن أبي دينار ص ٨٥ — محمد أبو راس الجربي ، ص ١٠١

من السفن [١] . ومن بينها مركب ضخم كان قد صنعه الحسن من أخشاب مركبين مصريين غيطاني وعجزي كانا قد قدما من الاسكندرية في سنة ٥٣٢ هـ للعزيز بن المنصور بن علناس صاحب بجاية . فاستولى عليهما الحسن [٢] . وفي سنة ٥٣٧ هـ آغار اسطول صقلية على طرابلس . ولكن النورمان لم يتمكنوا في هذه الغارة من الاستيلاء عليها لحصانتها وشدة دفاع أهلها عنها . ولكن حظ هذا الاسطول كان أكثر توفيقا في جيجل اذ تمكن من انتزاعها عنوة . وسفك النورمان دماء اهلها وسبوا حريمها . وأحرقوها بالنار . واستولى رجار في نفس السنة على جزيرة قرقنة . وسبى أهلها [٣] .

ثم عزم رجار على محو هزيمته في طرابلس ، فقام بعد سنتين بالاغارة عليها في قوة بحرية صغيرة للتمويه . ثم أعاد الكرة في سنة ٥٤١ هـ في أسطول ضخم عدته مائتا سفينة . فاقتحم النورمان أسوارها ، وتغلبوا عليها، وسفكوا دماء أهلها ، ونهبوا اموالهم [٤] . وفي العام التالي افتتح النورمان مدينة قابس .

ثم اغتنم رجار فرصة اشتداد المجاعة بافريقية في سنة ٥٤٣ ، وهجرة عدد كبير من سكانها ، وعمر أسطولا من ٣٠٠ شينيا مشحونة بالسلاح والرجال ، ووصل الى المهدية في ٢ صفر ، وخادع أهلها ودخلها بدون مقاومة [٥] . وظفر النورمان بجميع تحف القصور ونفائسها ، وغنموا مراكب الامير الحسن ومن بينها سفينة كان قد انشأها ليهديها الى الخليفة

(١) ابن عذاري ، ج١ ص ٤٥١
(٢) ابن القطان ، قطعة من نظم الجمان ، ص ٢٢٤ — ابن عذاري ، ص ٤٥١
(٣) ابن أبي دينار ، ص ٧٦
(٤) النويري ، ج ٢٢ ص ١٧٤
(٥) ابن عذاري ، ص ٤٥١ — التجاني ، ص ٢٤٠ — النويري ، ص ١٧٥

الفاطمي الحافظ تعرف باسم « نصف الدنيا » [١] . ولعله كان يعد هذه السفينة ليركبها الى مصر لاجئا . ثم استولى جرجي الانطاكي على سفاقس وسوسة في نفس السنة [٢] .

أما الامير الحسن فقد خرج من المهدية بحاشيته الى قسنطينة ، وكان بها سبع بن العزيز صاحب بجاية ، فأرسله الى جزائر بني مزغنة حيث أقام الى أن افتتح الموحدون هـذا الثغر في سنة ٥٤٧ هـ ، فكرمه الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي . واشترك الحسن معه في تحرير المهدية من النورمان في ١٠ من المحرم سنة ٥٥٥ هـ [٣] .

السيد عبد العزيز سالم

---

(١) التجاني ، ص ٢٤٠ — اتحاف اهل الزمان ، ص ١٤٣

(٢) النويري ، ص ١٧٦ — ابن ابي دينار ، ص ٨٧

(٣) ابن ابي زرع ، الانيس المطرب ، طبع حجر ، ص ١٢٥

قائمة المراجع

١ ـ **ابن الابار** (أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعى) : كتاب الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣

٢ ـ **ابن الاثير** (على بن أحمد بن أبى الكرم) : كتاب الكامل في التاريخ ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ

٣ ـ **الادريسي** (الشريف أبو عبدالله محمد بن العزيز) : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشره دوزى ودى غويه ، ليدن ، ١٨٩٣

٤ ـ « « : صفة البلاد الايطالية ، نشره أمارى ، رومة ١٨٧٨ م

٥ ـ **ارسلان** (الامير شكيب) : تاريخ غزوات العرب ، مصر ، ١٣٩٢ هـ

٦ — **Amari (M.) : Storia dei Musulmani di Sicilia, t. I, Catania, t. 1933.**

٧ ـ **الانصاري السبتي** (محمد بن القاسم) : اختصار الاخبار ، نشره الاستاذ ليفي بروفنسال ، مجلة هسبريس Hesperis ، ج ١٢ ، كراسة ٢ ، الرباط ، ١٩٣١

٨ ـ **الانطاكي** (يحيى بن سعيد) : صلة كتاب سعيد بن بطريق ، المسمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ، ١٩٠٥

٩ — Brunschvig (R.) : La Berberie Orientale sous les Hafsides, t. II, Paris, 1940.

١٠ — **بعيو** (مصطفى عبدالله) : دراسات في التاريـخ اللوبي . الاسكندرية . ١٩٥٣

١١ — **البلاذري** (أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان . تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٦ — ١٩٥٧

١٢ — **البكرى** (ابو عبيدالله عبدالله بن عبد العزيز) : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق البارون دي سلان ، الجزائر ، ١٩١١

١٣ — Pellegrin (Arthur) : Histoire de la Tunisie, Tunis, 1948.

١٤ — Bernet (Juan) : Influencias musulmanas en el origin de la cartografia nautica, pub. de la R. S. G. No 289, Madrid, 1953.

والترجمة العربية للدكتور أحمد مختار العبادي ، في مجلة المعهد المصري للداسات الاسلامية بمدريد بعنوان : « هل هناك أصل عربي اسباني لفن الخرائط البحرية » ، العدد الاول . السنة الاولى . مدريد . ١٩٥٣

١٥ — Pérès (Henri) : la poésie andalouse en Arabe classique au XIe siècle, Paris, 1937.

١٦ — **التجاني** (أبو محمد عبدالله بن محمد) : رحلة التجاني ، تحقيق الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ، ١٩٥٨

١٧ — **ابن تغرى بردى** (ابو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦

١٨ — Torres Balbàs (L.) : Atarazanas hispanomusulmanas, al-Andalus, vol. XI, 1946.

١٩ — » » : Ràbitas hispanomusulmanas, al-Andalus, vol. XIII, 1948.

٢٠ — » » : Almeria Islamica, al - Andalus, vol. XXII, 1927.

٢١ — Garcia y Bellido (A.) : La Espana del siglo primero de nuestra era, segun Mela y plinio, colleccion Austral, Madrid, 1947.

٢٢ — **ابن جبير** (أبو الحسين محمد بن أحمد) : الرحلة ، تحقيق وليم رايت ، ليدن ، ١٩٠٧

٢٣ — **الجربي** (محمد أبو راس) : مؤنس الاحبة في أخبار جربة ، تحقيق محمد المرزوقي . تونس ، ١٩٦٠

٢٤ — **الجزنائي** (أبو الحسن على) : كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، نشره الفريد بل ، الجزائر ، ١٩٢٢

٢٥ — **ابن حزم** (أبو محمد على بن أحمد) : جمهرة أنساب العرب، تحقيق الاستاذ ليفي بروفنسال . القاهرة ، ١٩٤٨

٢٦ — **الحميدي** (أبو عبدالله محمد بن فتوح) : جذوة المقتبس في ذكر رجال الاندلس ، حققه الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي . القاهرة . ١٣٧١ هـ (١٩٥٢ م)

٢٧ — **الحميري** (ابن عبد المنعم) : صفة جزيرة الاندلس ، من

كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق الاستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧

٢٨ — **الحميري** : منتخبات من الروض المعطار متعلقة بجزيرة صقلية ، نشرها الدكتور امبرتو ريتيسيتانو ، بمجلة كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٨ ، ج ١ ، مايو ، ١٩٥٦

٢٩ — **ابن حوقل النصيبي** : صورة الارض ، طبعة بيروت ، ١٩٦٢

٣٠ — **ابن حيان** (أبو مروان حيان بن خلف) : قطعة من كتاب المقتبس في تاريخ رجال الاندلس ، من عهد الامير عبدالله ، نشرها الاب ملشور أنطونية ، باريس ، ١٩٣٧

وقطعة من المقتبس من عصر الامير عبد الرحمن الاوسط ، تحقيق الدكتور محمود على مكى ، بيروت ١٩٦٩ .

وقطعة ثالثة من المقتبس من عصر الخليفة الحكم المستنصر ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن على الحجى ، بيروت ١٩٦٥

٣١ — **ابن خاقان** (الفتح بن محمد) : قلائد العقيان ، طبعة مصر ، ١٣٢٠ هـ

٣٢ — **ابن الخطيب** (لسان الدين محمد) : كتاب أعمال الاعلام ، تحقيق الاستاذ ليفي بروفنسال ، طبعة بيروت ، ١٩٥٦

٣٣ — « « : كتاب أعمال الاعلام ، الجزء الثالث الخاص بالمغرب ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى والاستاذ محمد ابراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤

٣٤ ـ **ابن الخطيب** :الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج ١ ، تحقيق الاستاذ محمد عبدالله عنان ، القاهرة ، ١٩٦٦

٣٥ ـ **ابن خلدون** :(عبد الرحمن) : كتاب العبر ، المقدمة ، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٧

٣٦ ـ « « : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ، طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ

٣٧ ـ **ابن دحية** : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق الاستاذ ابراهيم الابياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور احمد أحمد بدوى ، القاهرة ، ١٩٥٤

٣٨ — Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, nouvelle édition, t. I, Leyde, 1932.

٣٩ — Diehl (charles) : Histoire du Moyen-âge, t. III; Le Monde oriental, de 395 à 1081, Paris, 1936.

٤٠ ـ **الذهبى**:(أبو عبدالله محمد) : العبر في خبر من غبر ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، الكويت ، ١٩٦٠

٤١ ـ **ابن رستة**: (أبو على أحمد بن عمر) : الاعلاق النفيسة ، الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، تحقيق دي غوية ، ليدن ، ١٨٩٢

٤٢ ـ **الزاوى** :(الاستاذ الطاهر أحمد) : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، القاهرة ، ١٩٦٣

٤٣ ـ **ابن ابى زدع** (على بن محمد الفاسي) : الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، طبع حجر .

٤٤ ــ **زيادة** (دكتور نقولا) : لمحات من تاريخ العرب . بيروت . ١٩٦١

٤٥ ــ **سارنللى** (كليكيا) : مجاهد العامري ، القاهرة ، ١٩٦١

٤٦ ــ **سالم** (دكتور السيد عبد العزيز) : المرية قاعدة الاسطول الاندلسي . مجلة الرابطة . القاهرة ، مايو ــ يونيو ١٩٥٩

٤٧ ــ « « : تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي . الطبعة الاولى ، الاسكندرية ، ١٩٦١ . والطبعة الثانية ١٩٦٩

٤٨ ــ « « : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، بيروت ، ١٩٦٢

٤٩ ــ « « : المغرب الكبير ، الجزء الثانــي : العصر الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٦

٥٠ ــ « « التأريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٦٧

٥١ ــ « « دراسات في تاريخ العرب . الجزء الاول : عصر ما قبل الاسلام . الاسكندرية . ١٩٦٨

٥٢ ــ **ابن سعيد المغربى** (على بن موسى) : المغرب في حلى المغرب. تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥٣ ــ ١٩٥٥

٥٣ ــ **السلاوى** (أبو العباس احمد بن خالد) : الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤

٥٤ — Scott : History of the moorish empire in Europe, vol. II. London, 1904.

٥٥ — Simonet (Francisco Javier) : Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1897—1903,

٥٦ ــ **السيوطى** (جلال الدين) : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . ج ١ . طبعة مصر ١٣٢٧ هـ

٥٧ ــ **Cheira** (M. A.) : La Lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947.

٥٨ ــ **الشيال** (دكتور جمال الدين) : أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي . القاهرة . ١٩٦٥

٥٩ ــ « « : المجمل في تاريخ دمياط . الاسكندرية . ١٩٤٩

٦٠ ــ **الضبى** (أبو جعفر أحمد) : بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس . تحقيق كوديرة . مدريد . ١٨٨٥

٦١ ــ **طرخان** (دكتور ابراهيم) : المسلمون في أوربا . القاهرة . ١٩٦٦

٦٢ ــ **الطرطوسي** (مرضى بن على بن مرضى) : تبصرة أرباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء . نشره الاستاذ كلود كاهن Claude Cahen في مجلة :

Bulletin des Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas, t. XII, année 1947—1948.

٦٣ ــ **الطبرى** (محمد بن جرير) : تاريخ الامم والملوك . تحقيق دى غوية . ليدن . ١٨٨٠ ــ ١٨٨٣

٦٤ ــ **العبادي** (دكتور أحمد مختار) : سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس . صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد . المجلد ٥ . ١٩٥٧

٦٥ ــ « « دراسات في تاريخ المغرب والاندلس . الاسكندرية ١٩٦٨

٦٦ — **عباس** (دكتور احسان) : العرب في صقلية ، القاهرة

٦٧ — **ابن عبد الحكم** : (عبد الرحمن القرشي) : كتاب فتوح مصر والمغرب والاندلس ، تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١

٦٨ — **عبد الحميد** (دكتور سعد زغلول) : فترة حاسمة في تاريخ المغرب ، مجلة كلية الاداب والتربية بالجامعة الليبية ، المجلد الاول . بنغازي ، ١٩٥٨

٦٩ — « « : الاسكندرية الاسلامية ، مقال في كتاب محافظة الاسكندرية منذ اقدم العصور ، الاسكندرية ، ١٩٦٣

٧٠ — **عبد الوهاب** (الاستاذ حسن حسنى) : قصة جزيرة قوصرة ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني ، عدد ٢ ، اكتوبر ، ١٩٤٩

٧١ — **عثمان** (دكتور فتحى) : الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ٢ . القاهرة ، ١٩٦٧

٧٢ — **العدوى** (دكتور ابراهيم) : الاساطيل العربية في البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٥٧

٧٣ — « « : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة ، ١٩٥٨

٧٤ — « « : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الثاني ، اكتوبر ، ١٩٥٠

٧٥ — « « : قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٣

٧٦ ــ **ابن عذارى** (أبو العباس أحمد المراكشي) : البيان المغرب في أخبار المغرب ، جزآن طبعة بيروت ، ١٩٥٠

٧٧ ــ « « : البيان المغرب في أخبار المغرب ، الجزء الثالث ، تحقيق الاستاذ ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٣٠

٧٨ ــ **ابن العذرى الدلائي** (أحمد بن عمر بن أنس) : ترصيع الاخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك الى الممالك ، نشره الدكتور عبد العزيز الاهوانى ، مدريد ، ١٩٦٥

٧٩ ــ **العمرى** (شهاب الدين أحمد بن فضل‌الله) : وصف افريقية والمغرب والاندلس من كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار ، تحقيق الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٩٠٦

٨٠ ــ **عنان** (الاستاذ محمد عبدالله) : مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، القاهرة ، ١٩٢٩

٨١ ــ **عواد** (الاستاذ ميخائيل) : المآصر في بلاد الروم والاسلام ، بغداد ، ١٩٤٨

٨٢ ــ **ابن غالب** (محمد بن أيوب الاندلسي) : قطعة من كتاب فرحة الانفس في تاريخ الاندلس ، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٦

٨٣ — Vasiliev ; Byzance et les Arabes, t. I : La dynastie d'Amorium, Bruxelles, 1935.

والترجمة العربية بعنوان « العرب والروم » للدكتور محمد عبد الهادي شعيرة

٨٤ — Vallvé (Joaquin) : Suqut al-Bargawati, rey de Ceuta, al-Andalus, vol. XXVIII, fasc. 1, Madrid, 1963.

٨٥ — **ابو الفداء** (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) : المختصر في أخبار البشر ، صيدا ، ١٩٥٩

٨٦ — Fahmy (Dr. Aly Moh.) : Muslim sea - power in the eastern Mediterranean, Cairo, 1966.

٨٧ — **ابن القطان** (أبو الحسن على بن محمد الكتامى الفاسي) : جزء من كتاب نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود على مكى ، منشورات كلية الآداب ، جامعة محمد الخامس ، بالرباط ، تطوان .

٨٨ — **ابن قتيبة الدينورى** (ابو محمد عبدالله) : كتاب الامامة والسياسة ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٣٧

٨٩ — **ابن القوطية** (أبو بكر محمد بن عمر) : تاريخ افتتاح الاندلس ، نشره دون خليان ريبيرا ، مدريد ، ١٩٢٦

٩٠ — de las Cagigas (Isidro) : Andaluces en Africa, Boletin de la Real academia de ciencias, Bellas letras, y nobles artes de Cordoba, ano VIII, 1929.

٩١ — **القيرواني** (ابن أبى دينار) : المؤنس في تاريخ افريقية وتونس ، تونس ١٢٨٦ هـ

٩٢ — **ابن الكردبوس** : تاريخ الاندلس ، نص نشره الدكتور أحمد مختار العبادي ، بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد ١٣، مدريد ١٩٦٥ ، ١٩٦٦

٩٣ — **الكعاك** (الاستاذ عثمان) : مراكز الثقافة في المغرب ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العليا ، القاهرة ، ١٩٥٨

٩٤ ـ **الكندى** (أبو عمر محمد بن يوسف) : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق الاستاذ رفنجست ، بيروت ، ١٩٠٨

٩٥ ـ **لويس** (ارشيبالد) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٠

٩٦ — Lévi - Provençal (E.) : Inscriptions arabes d'Espagne, 2 vols., Paris - Leyde, 1931.

٩٧ — » » : L'Espagne musulmane au xe siècle, Institutions et vie sociale, Paris, 1932.

٩٨ — » » : Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, Paris, 1953.

٩٩ — » » : Les citations du Muqtabis d'Ibn Haiyyan relatives aux agrandissements de la grande mosquée de Cordoue, au IX e siècle, Arabica, t. I, fasc. 1, Leiden, 1954.

١٠٠ ـ **ليفى بروفنسال** : الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٠١ ـ **المالكي** (أبو بكر عبدالله بن ابى عبدالله) : كتاب رياض النفوس ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١

١٠٢ ـ **ماهر** (دكتورة سعاد) : البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ، ١٩٦٧

١٠٣ ـ **مجهول** : أخبار مجموعة في تاريخ الاندلس ، نشره دون لافونت القنطرة ، مدريد ١٨٦٧

١٠٤ ــ **مجهول** : كتاب الاستبصار في عجائب الامصار . نشره الدكتور سعد زغلول عبد الحميد . الاسكندرية ، ١٩٥٨

١٠٥ — Marçais (G.) : La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen-âge, Paris, 1946.

١٠٦ ــ **المرزوقي** (الاستاذ محمد) : قابس ، القاهرة ١٩٦٢

١٠٧ ــ **ابن مرزوق** (الخطيب) : نخب من كتاب المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن ، نشره ليفي بروفنسال في مجلة هسبريس . العدد الاول ، سنة ١٩٢٥

١٠٨ ــ **المسعودي** (أبو الحسن على) : كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق الاستاذ محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٠٩ ــ « « : التنبيه والاشراف ، ليدن ، ١٨٩٣ ، وطبعة مصورة عنها ببيروت ، ١٩٦٥

١١٠ ــ **المسعودي** (أبو عبدالله محمد الباجى) : الخلاصة النقية في أمراء افريقية ، تونس ، ١٣٢٣ هـ

١١١ ــ **المقدسي** (شمس الدين أبو عبدالله محمد) : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦

١١٢ ــ **المقرى** (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب ، تحقيق الاستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

١١٣ ــ **المقريزي** (تقى الدين أحمد) : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ ، وطبعة بيروت ، ١٩٥٦

١١٤ ـ **المقريزي** : اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، الجزء الاول نشره الدكتور جمال الدين الشيال عن المخطوطة الكاملة بمكتبة سراى أحمد الثالث باسطنبول ، القاهرة ، ١٩٦٧

١١٥ ـ **مكى** (دكتور محمود على) : التشيع في الاندلس ، مقال بصحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية ، بمدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤

١١٦ ـ **المكتبة الصقلية** ، نصوص عربية جمعها الاستاذ ميخائيل أمارى ، ونشرها في ١٨٥٧

١١٧ ـ **مؤنس** (دكتور حسين) : غارات النورمانيين على الاندلس بين سنتي ٢٢٩ ، ٢٤٥ هـ ، المجلة التاريخية المصرية ، عدد ١ مجلد ٢ مايو ، ١٩٤٩

١١٨ ـ « « : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧

١١٩ ـ **النعمان** (القاضي أبو حنيفة بن محمد) : قضية اقريطش في عهد المعز لدين الله ، تحقيق فرحات الدشراوي ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثاني ، ١٩٦٥

١٢٠ ـ **النويرى** (شهاب الدين أحمد) : نهاية الارب في فنون الادب ج ٢٢ ، نسخة مصورة من المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة •

١٢١ ـ **النويرى السكندرى** (محمد بن قاسم) : الالمام بما جرت به الاحكام المقضية في وقعة الاسكندرية ، نسخة مصورة من المخطوطة نسخة الهند المحفوظة بمكتبة كلية آداب الاسكندرية برقم ٧٣٨ م

١٢٢ ــ **الهمذاني** (ابن الفقيه) : مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن ، ١٨٨٥

١٢٣ ــ **ياسين الحموى** (الاستاذ محمد) : تاريخ الاسطول العربي . دمشق ، ١٩٤٥

١٢٤ ــ **ياقوت الحموى** (شهاب الدين أبو عبدالله) : معجم البلدان ، خمسة مجلدات ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥

١٢٥ ــ **اليعقوبي** (أحمد بن جعفر) : كتاب البلدان ، الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ، ١٨٩١

١٢٦ ــ « « : تاريخ اليعقوبي ، ٣ أجزاء ، طبعة النجف ، ١٣٥٨

القسم الثاني

البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس

منذ قيام دولة المرابطين حتى سقوط مملكة غرناطة

رأينا أنه خلال القرن الخامس الهجري (١١ م) ، حدث تغيير كبير في ميزان القوى في غربي حوض البحر المتوسط : فالسيطرة الاندلسية على هذه المنطقة قد ضعفت رغم المحاولات الجريئة التي قام بها مجاهد العامري في سبيل استعادة هذا النفوذ القديم الذي كان للدولة الاموية من قبل .

كذلك نلاحظ في الوقت نفسه أن قوى بحرية جديدة مثل جنوه وبيزا وبرشلونة وغيرها ، قد أخذت تقوى وتزدهر حتى تمكنت اساطيلها من السيطرة على البحر المتوسط وتجارته .

ولعل أصدق مثال يصور هذه الحالة ، هو ما ذكره أبو الاصبغ نباتة الحارثي الاندلسي ، من أن المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، بعث الى الشاعر الصقلي أبي العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي الزبيري مبلغ خمسمائة دينار بصقلية وامره ان يتجهز بها ويتوجه اليه ، فكتب اليه ابو العرب معتذرا بقوله :

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى
وأعجب لاسود عيني كيف لم يشب

البحر للروم لا يجري السفين به
الا على الغرر [1] والبر للعرب [2]

---

(١) الغرر (بفتح الغين والراء) التعرض للهلاك

(٢) راجع (أماري : المكتبة العربية الصقلية ص ٦٢٨ — ٦٢٩)

البحرية على عهد المرابطين

المرابطون أو الملثمون ، قوم صحراويون من قبائل صنهاجة اللثام . خرجوا من صحراء موريتانيا برسالة دينية سامية تقوم على جهاد المارقين عن الدين الحنيف من قبائل برغواطة وغماره في بلاد المغرب شمالا [١] . واستطاع هؤلاء المرابطون المجاهدون أن ينتصروا على هذه القوى الضالة. وأن يسيطروا على جميع بلاد المغرب الاقصى ما عدا بعض الثغور الشمالية مثل سبتة وطنجه التي سيطرت عليها امارة بحرية قوية . وهي امارة سقوت البرغواطي . وكانت دراية المرابطين بالشئون البحرية قليلة في ذلك الوقت. ولهذا لم يتمكنوا من احتلال تلك الثغور . ومن ثم شرع يوسف بن تاشفين في اعداد أسطول لهذا الغرض . كما استنجد في الوقت نفسه باساطيل جيرانه ملوك الطوائف بالاندلس . وقد استجاب بعضهم لندائه . لان هذه الامارة البرغواطية . كانت بحكم وضعها الجغرافي في منطقة سبتة وطنجه ، تمتلك اسطولا بحريا وتتحكم في مضيق جبل طارق ، وكثيرا ما أثارت الذعر والاضطراب بسبب أعمال القرصنة التي كانت تقوم بها ضد السفن الاندلسية والمغربية المارة هناك . وفي ذلك يقول ابن بسام :

« من رجل — أي سقوط البرغواطي — استعان بالشر ، وتهاون بالامر ، لا سيما في البحر ، فانه اضرم بلججه نارا . ولقى ريحه اعصارا ، أخذ كل سفينة غصبا ، وأضاف الى كل رعبا ، فضجت منه الارض والسماء، والتقت الشكوى عليه والدعاء [٢] .

---

(١) راجع تفاصيل قيام هذه الدولة في مقالنا (الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٦) .

(٢) راجع مفاخر البربر ص ٥٥ — ٥٧ حيث وردت هذه النصوص نقلا عن كتاب الذخيرة لابن بسام .

واستطاع أسطول سقوت البرغواطي بقيادة ولده المعز أن ينتصر في مياه سبته على الاسطول الذي أعده يوسف بن تاشفين لقتالهم سنة ٤٧٦ هـ وأن يستولى على قطعة جليلة منه ، مما أدى الى ارتياع محلة المرابطين لاخذ تلك القطعة حتى هموا بالاحجام ، وقوضوا بعض الخيام [١] . ولكن في ذلك الوقت وصلت نجدة المعتمد بن عباد ملك اشبيليه وهي سفينة حربية ضخمة ، تقدمت — كما يقول ابن بسام — نحو سبتة ، « فأطلت على أسوارها ، ورفعت صوتها ببوارها ، وأفضت بدولة صاحب سبتة الى سوء قرارها ، ليلة الجمعة من صفر المؤرخ ٤٧٦ هـ ، فلجأ المعز بن سقوت الى البحر ، فهم بركوبه فأعوزه الفرار ، ودفع في صدره المقدار . وكر راجعا فدخل دارا تعرف بدار شوير ، وبدرت جماعة من المرابطين ، فاقتحموا عليه بعد مرام وقتال شديد حتى ضاق اضطرابه ، وفر عنه أصحابه . ولما أحس بالشر ، دفع ذخائر كانت عنده الى بعض أصحابه ، فبلغني أنه عثر عليها ، فوجدوا فيها جوهرا كبيرا ، ونشبا من نشب الملك خطيرا . ووجـد في جملتها خاتـم يحيى بن علي بن حمود الادريسي ، وخرج بالمعز بن سقوت حين وضح الفجر ، فلقيه المعز بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فطلب منه المال فقال له : « ألخازن أبيك كنا نجمع المال ؟ فجلله الحسام ، وحكم فيه الجمام ، تعالى من لا يرد قضاؤه ولا تبيد آلاؤه » [٢] .

ولا شك أن احتلال المرابطين لهذه الثغور الشمالية ، كان خطوة ايجابية في بناء أسطول مغربي قوى ، اذ انهم استفادوا من دور صناعتها وما فيها من سفن وآلات ، وقد أشار بعض المؤرخين الى أن أول عمل

---

(١) و (٢) راجع مفاخر البربر ص ٥٥ — ٥٧ ويلاحظ أن سقوط البراغواطي كان في الاصل مملوكا لبنى حمود الادارسة حكام هذه المنطقة ثم تمكن من الاستقلال بها .

اهتم به يوسف بن تاشفين بعـد دخوله سبتة ، هو اصلاح أحوالهـا وسفنها [١] .

وعندما استنجد الاندلسيون بالمرابطين ضد أطماع الملك الفونسو السادس ، اشترط عليهم يوسف تسليمه ثغر الجزيرة الخضراء كي يستطيع التحكم في مضيق جبل طارق ويضمن سلامة قواته وخطوط مواصلاته بين العدوتين ذهابا وايابا ، واضطر المعتمد بن عباد ، الذي كانت الجزيرة الخضراء ضمن ممتلكاته ، أن يستجيب لطلبه ، فأمر ابنه الراضي باخلاء هذه المنطقة الجنوبية وتسليمها ليوسف بن تاشفين [٢] ، ثم جاز يوسف ابن تاشفين بجيوشه الى الاندلس ، وكان أسطوله حتى ذلك الوقت يتألف من سفن النقل أكثر من سفن القتال ، لان الغرض الاساسي منه وقتئذ هو نقل الجنود والمعدات وحفظ المواصلات بين المغرب والاندلس [٣] .

وأحرز المرابطون نصرهم المشهور على جيوش الفونسو السادس ، في وقعة الزلاقة غربي الاندلس سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٦ م) ، وقد مكنهم هذا النصر من توطيد نفوذهم في الاندلس وخلع ملوك الطوائف بعد ذلك ، ولا شك ان المرابطين قد استفادوا بما كان في الاندلس من امكانيات مادية [٤] وكفايات بشرية في الشئون البحرية ، فأولوها عنايتهم ،

---

(١) راجع (ابن أبى زرع : روض القرطاس جـ ٢ ص ٥٢ .

(٢) الحلل الموشية ص ٢٨ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٨٢ (القسم الثاني) .

(٣) اشباخ . تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين جـ ٢ ص ٢٢٧ ترجمة عبدالله عنـان .

(٤) اشار الادريسي الذي كان معاصر للمرابطين الى دور الصناعة في طرطوشة ودانية وقصر ابى دانس وشلب التي كانت محاطة بغابات تصلح اخشابها لبناء السفن

(Torres Balbas : Atarazanas Hispanomuslmanas, Al **Andalus,** **1946,** Vol. XI, fasc. 1 P. 184).

وخلقوا منها قوة بحرية منظمة موحدة ، وقيادات حكيمة ماهرة ، مثل اسرة بني ميمون التي قادت اساطيل المرابطين الى النصر في معظم المعارك التي خاضتها مع القطلانيين والنورمانديين في صقلية • وقد مدح الشقندي بعض أفراد هذه الاسرة بقوله • « وفي المرية . كان ابن ميمون القائد الذي قهر النصارى في البحر ، وقطع سفرهم فيه . وضرب على البلاد الرومانية ، فقتل وسبى وملأ صدور أهلها رعبا . حتى كان منه كما قال أشجع :

فاذا تنبه رعته واذ غفا سلت عليه سيوفك الاحلام [١]

ومن الطريف ان الشقندي ينسب هذه الاسرة الى المرية ، بينما ينسبها صاحب المعجب الى دانية [٢] . أما ابن خلدون فيرى أنهم من قادس [٣] ، كما يفهم من ابن الكردبوس أنهم خدموا في ميورقة [٤] والواقع أننا لو أنصفنا هذه الاسرة المجاهدة . لجعلنا من البحر وطنا لها وأحسب أن هذا كان شعورها ايضا بدليل ما أورده صاحب المعجب من أن أهل المرية حاولوا اقامة القائد أبى عبدالله بن ميمون واليا عليهم ولكنه اعتذر بقوله : « ان وظيفتي البحر . وبه عرفت ، فكل عدو جاءكم من البحر فأنا لكم به ، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيري » [٥] •

هذا وقد أشار ابن خلدون الى قوة الاسطول المرابطى تحت قيادة هذه الاسرة بقوله « وكان الجانب الغربي من هذا البحر موفور الاساطيل ،

---

(١) راجع المقرى . نفح الطيب جـ ٤ ص ٢٠٦

(٢) عبد الواحد المراكشي . المعجب في تلخيص اخبار المغرب ص ٢١٠

(٣) ابن خلدون . المقدمة ص ٢٥٥

(٤) ابن الكردبوس . كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ص ١٢٢ ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد سنة ١٩٦٥ .

(٥) عبد الواحد المراكشي : نفس المرجع ص ٢١٠ .

ثابت القوة . لم يتحيفه عدو . ولا كانت لهم به كرة (بتشديد الراء) . فكان قواد الاسطول به لعهد لمتونة (أى المرابطين) بنى ميمون رؤساء جزيرة قادس . وانتهى عـدد أساطيلهم الى المائة من بـلاد العدوتين جميعا » [١] .

وقد فسر بعض المؤرخين كلمة أسطول التي وردت في كـلام ابن خلدون بأنها تعنى القطعة الواحدة وليس مجموعة من السفن [٢] . وان كان يبدو أن هذا التفسير لا يتفق هنا مع عظمة الاسطول المرابطى الذي بسط نفوذه على سواحل المغرب الاقصى والاوسط وسواحل الاندلس . فكيف نتصور أن مجموع أساطيل هذه الامبراطورية ، مائة قطعة فقط في حين كان أسطول احد ملوك الطوائف وهو مجاهد العامري ، أكثر من ذلك !؟ [٣] هذا في الوقت الذي كانت فيه أساطيل القوى المسيحية مثل جنوا وبيزا والنورمانديين في صقلية . تزيد كل منها على ثلاثمائـة قطعة [٤] . وأغلب الظن أن المقصود من كلام ابن خلدون هنا هو عدد مجموعات السفن الحربية التي كانت موزعة على جميع قواعـد المغرب والاندلس . يؤيد ذلك قول ابن الكردبوس أن أمير المؤمنين علي بن يوسف ابن تاشفين أمر بتعمير ثلاثمائة قطعة لانقاذ جزيرة ميورقة [٥] .

أما عن المعارك البحرية التي خاضها الاسطول المرابطى ضد القوى المسيحية في حوض البحر المتوسط . فالمصادر التي لدينا لا تشير للأسف

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٥ .

(٢) انظر Aly Mohamed Fahmy : Muslim sea-power in the eastern mediterranean p. 128.

(٣) راجع الصفحات القليلة السابقة من هذا الكتاب .

(٤) أمارى : المكتبة العربية الصقلية ص ٢٨٢ ، ٢٩٣ :

(٥) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء ص ١٢٣ .

الى تفاصيلها . ولكنها تشير الى بعض العمليات الحربية التي قام بها الاسطول في بعض الجزر الشرقية (البليار) سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) وفي جزيرة صقلية سنة ٥١٦ هـ .

وكانت جزر البليار في بادىء الامر يحكمها ولاة من قبل صاحب دانية مجاهد العامري وولده علي بن مجاهد . وعندما استولى أمير سرقسطة ، المقتدر بن هود على دانية ، وسجن أميرها علي بن مجاهد ، أعلن والي هذه الجزر عبدالله المرتضى استقلاله بحكمها . ثم خلفه بعد موته مولاه مبشر بن سليمان ناصر الدولة .

وقد فضل المرابطون في بادىء الامر ترك هذه الجزر في يد أصحابها ما داموا يقومون بأعباء الدفاع عنها ويغزون ما وراءهم من بلاد الاعداء الا انهم اضطروا الى احتلالها في سنة ٥٠٩ (١١١٥ م) تتيجة للغارات والاعتداءات المتكررة التي شنها المسيحيون على شواطىء تلك الجزر وعلى سكانها المسلمين . وكانت أخطرها تلك الغارة الوحشية التي قام بها سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) حلف مشترك من أساطيل جمهوريتي بيزا ، وجنوه ، وأمير برشلونة رامون برنجر الثالث Ramon Berenguer ، وأميري ناربون ومونبلييه بفرنسا [١] . وبلغت سفن هذه الاساطيل المتحدة نحو خمسمائة سفينة ، اتجهت في بادىء الامر نحو جزيرة يابسة Ibiza ، فاستولت عليها ثم اتجهت نحو ميورقة كبرى هذه الجزر ، ونزلوا فيها وضربوا حصارا حول عاصمتها مدينة ميورقة التي تعرف الآن باسم بالما

---

(١) راجع Jacinto Bosch Vila : Los Almoravides p. 191, Tetuan 1954.

دي ميورقة Palma de Mallorca [1] . قال ابن الكردبوس : « وفي خلال ذلك الحصار ، كان ناصر الدولة (أي مبشر بن سليمان) كتب الى أمير المسلمين (علي بن يوسف) يستصرخه ويستنصره . ووجه كتابه مع القائد أبي عبدالله بن ميمون . وكان اذ ذاك عنده قائد غراب بين يديه ، فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب معسرا ليلا من دار الصناعة عليه . فانطلق في الحين يقفو أثره . وأتبعه نحو عشرة أميال والظلام قد ستره فلما قطع يأسه في الظفر به ، رجع خاسئا على عقبه . فوصل ابن ميمون بالكتاب الى أمير المسلمين ، فأمر في الحين ، بتعمير ثلاثمائة قطعة . وأن تلقى بعد شهر دفعة . فامتثل أمره في ذلك ، واندفعت بجملتها من هنالك ، واذ ذاك تعين ابن ميمون عند أمير المؤمنين . فلما شعر العدو بخروج ذلك الاسطول. أخلى وصدر عن الجزيرة ، وعينه بما احتمل من السبي والاموال ى ريرة . فلما وصل الاسطول ، وجد المدينة خالية على عروشها محرقة سوداء مظلمة منطبقة . فعمرها قائد الاسطول ابن تافرطاس بمن معه من المرابطين والمجاهدين وأصناف الناس ، وجلب اليها من كان فر عنها الى الجبال فاستوطنوها وعمروها وسكنوها . وانصرف الاسطول الى مكانه . وعاد الى موضع مقره واستيطانه .

وفي انصراف العدو الى اوطانه هبت عليه ريح ببحار طامية فحملت منه أربع قطائع الى ناحية دانية ، فعسر اليها قائد البحر أبو السداد . ففرت أمامه وغرقت واحدة منها قدامه ، وعكس الثلاث (أي جعلها

(١) راجع ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء ص ١٢٢ في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد سنة ١٩٦٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٦٥ ، ج ٦ ص ٢٤٢ ، الحميري : الروض المعطار ص ١٨٨ وكذلك : (Alvaro Campaner ; Op. cit p. 91.)

مراكب اسلامية) [١] .

وهكذا احتل المرابطون جزر البليار بدون قتال على عهد علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥/١١١٦ م) والجدير بالذكر أنه في أثناء حصار العدو لميورقة ، مات مبشر بن سليمان ناصر الدولة . وقام بالامر من بعده قريبه القائد أبو الربيع سليمان بن لبون الذي تسميه المصادر المسيحية Burabé (أي أبو الربيع) وقد دافع هذا القائد عن بلده ببسالة حتى غلب عليه وتسلك العدو البلد في ٧ ذي القعدة ٥٠٨ هـ وأحدثوا فيها خرابا يجل عن الوصف كما هو واضح من النص السالف الذكر .

ولقد تعاقب على حكم هذه الجزائر بعد ذلك عدد من قواد المرابطين [٢] ، ثم وليها في سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) القائد المرابطي محمد ابن علي بن غانية المسوفي ، مؤسس أسرة بني غانية التي ظل فيها حكم هذه الجزر من بعده .

ولم يقتصر نشاط الاسطول المرابطي على محاربة أطماع الايطاليين والفرنسيين والقطلانيين بل حاول أيضا وقف اطماع النورمانديين في ممتلكات الزيريين بافريقية . وكان هؤلاء النورمانديون قد استقروا في بداية أمرهم

---

(١) راجع (عبد الملك بن الكردبوس : كتاب الاكتفاء في اخبار الخلفاء ص ١٢٢ — ١٢٤ صحيفة معهد مدريد سنة ١٩٦٥) .

(٢) انظر Alvaro Campaner, y Fuerts : Bosquejo historico de la dominacion islamita en las Islas Baleares p. 100.

(٣) راجع اسماء هؤلاء الولاة في (ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢١٥)

في ولاية قلورية (كلابريا) في جنوب ايطاليا ثم تسكنوا بزعامـة ملكهم رجار الاول Roger (١٠٧٠ — ١١٠١ م) من انتزاع صقلية من أيدي المسلمين سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩٢ م)[١] . ومن هناك أخذوا يشنون الغارات على سواحل الدولة الزيرية طمعا في احتلال عاصمتها المهدية . واستنجد الزيريون الصنهاجيون بأبناء عمومتهم المرابطين فلبوا نداءهم . وسير أمير المسلمين على بن يوسف قائد أسطوله أبا عبدالله ابن ميمون[٢] الى جزيرة صقلية سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) . فشن الغارة على بعض نواحيها . وافتتح بها مدينة نقوطرة Nicotra[٣] من عمل رجار (الثاني) وسبى نساءهـا وأطفالها وقتل شيوخها وسلب جميع ما وجده فيها ؛ فلم يشك رجار الثاني (١١٠١ — ١١٥٤ م) أن المحرك لذلك والمسبب له هو أمير افريقية الحسن ابن على بن يحي[٤] . فاستنفر أهل بلاد الروم قاطبة[٥] ضده ... الا أنه يلاحظ ان الملك روجار الثاني . كثيرا ما كان يعمل حسابا لقوة المرابطين فيعدل عن خططه العدوانية ضد الزيريين[٦] . ولعل مما يلفت النظر في هذا الصدد أن استيلاء روجار الثاني على المهدية لم يتم الا في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) أي بعد سقوط دولة المرابطين بقليل[٧] .

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الثالث ص ١٢. حاشية .

(٢) يرد اسم هذا القائد احيانا باسم محمد بن ميمون ، واحيانا أخرى باسم علي ابن ميمون .

(٣) يذهب البعض الى أن هذه المدينة تقع في اقليم كلابريا في جنوب ايطاليا . راجع مادة نقوطرة في فهرس المكتبة الصقلية لامارى .

(٤) هو الحسن بن علي يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي آخر ملوك بنى زيرى الصنهاجيين على افريقية .

(٥) امارى : نفس المرجع ص ٢٨٢ .

(٦) أمارى المكتبة العربية الصقلية ص ٢٧١ .

(٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٥٦ — ٥٨ ، وكذلك مقالنا (سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧) .

ولقد كان سقوط دولة المرابطين على يد قوة فتية مغربية جديدة هي دولة الموحدين • ومن الطريف ان احداث نهاية هذه الدولة قد اقترنت ببحريتها عندما حاول السلطان المرابطي تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين أن يستعين بأسطوله في الفرار الى الاندلس ، فرحل الى ثغر وهران Oran بالجزائر سنة ٥٣٩ هـ ، وأقام هناك ينتظر قائد أسطوله أبا الحسن على بن عيسى بن ميمون [١] ، الى أن وصل اليه من المرية في عشر سفن حربية ، فأرسى قريبا من معسكره ، غير أن الموحدين بقيادة عبد المؤمن ابن علي أحاطوا بالمدينة من كل جانب • ولجأ تاشفين الى ربوة هناك مشرفة على البحر ، فأحدقوا بها وأضرموا النار حولها ، حتى اذا غشيهم الليل ، خرج تاشفين من الحصن راكبا على فرسه ، فتردى من بعض حافات الجبل فمات في ٢٧ رمضان من تلك السنة [٢] • وبموت تاشفين ثم ولده ابراهيم من بعده ٥٤١ هـ (١١٤٦) • تنتهي هذه الدولة المجاهدة •

والخلاصة ان المرابطين كانوا قوما مجاهدين عرفوا جيدا المعاني النبيلة لكلمة الرباط أو المرابطة وفخموا من شأنها الى درجة انها صارت اسما علما لهم ، كما صارت كلمة مرابط بعد ذلك بمثابة وسام عسكري يمنحه كل سلطان مرابطي لاتباعه المجاهدين ليؤكد من جديد سنة أسلافه في ايثار الجهاد والرباط والذود عن الاسلام • ويكفي أن نشير الى سلسلة الرباطات والمحارس التي انتشرت في أيامهم على طول السواحل المغربية والاندلسية • ولعل من أهمها ذلك المحرس او الطالع العظيم الذي بنوه في مدينة سبته ليشرف على كل حركة في المضيق • وقد شرح أهميته أبو القاسم الانصاري السبتي بقوله : « ومنها الطالع الكبير الفذ النظير ،

---

(١) الحميري . الروض المعطار ص ١٩٧ والترجمة الفرنسية ص ١٧٦ ، ويلاحظ ان السلاوى الناصري قد أورد اسم هذا القائد على أنه محمد بن ميمون (الاستقصاء جـ٢ ص٦٤) .

(٢) راجع السلاوى : نفس المرجع جـ ٢ ص ٦٤ .

طالع سبتة الذي بأعلى جبل مينائها المعروف عندنا بالناظور • ابتناه المرابطون هنالك المناظر الراتب ، به حصنا وبه قلهرة كبيرة[1] • وبداخل القلهرة مسجد . وكان ذلك على يد القاضي أبي الفضل عياض • وهذا الطالع من أعجب الطلائع لكونه يكشف البرين ويشرف على العدوتين الى بادس من بر الريف ، ومن مالقة شرقا والى ما وراء طريف غربا ، فلا يخفى عليه من الزقاق شيء لكونه تحت أسوار وأبواب داخل المدينة ، وفي حكم أهلها اذا تقع فتنة أو يحصل حصار [2] •

البحرية على عهد الموحدين :

قامت دولة الموحدين على أساس دعوة دينية اصلاحية تهدف الى تحقيق وحدة اسلامية شاملة كما هو واضح في كتابات مؤرخيهم وشعرائهم •

ثم بدأ الخليفة الموحدي الاول عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ — ٥٥٨ هـ = ١١٣٠ — ١١٦٣ م) عملياته العسكرية في المغرب والاندلس ، اذ كان من الطبيعي لهذه القوة الموحدية الفتية أن ترنو بأبصارها شمالا عبر المضيق نحو الاندلس ، وشرقا عبر المغرب العربي الكبير كي يتم لها توحيد المغرب الاسلامي وتكتيله ضد القوى الصليبية في البر والبحر •

ولم يلق عبد المؤمن صعوبة في ضم الاجزاء الغربية والوسطى من الاندلس، اذ سارع أمراء هذه المناطق باعلان ولائهم وانضمامهم للموحدين وكانت ولاية شريش Jerez في طليعة هذه الولايات (٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م) ولذا سمى أهلها بالسابقين الأولين . وصاروا مقدمين على غيرهم في

---

(١) قلهرة بمعنى قلعة أو برج القلعة (Dozy : Suppl, II p. 401)

(٢) راجع محمد بن القاسم الانصاري السبتي : وصف سبتة (القرن ١٥ م) نشر ليفي بروفنسال في (Hesperis 1931, Tome XII fasc. II p. 156)

التشريفات الملكية بالعاصمة مراكش • كذلك انضم الى الموحدين في السنة التالية أمير البحر علي بن عيسى بن ميمون قائد اسطول المرابطين الذي كان قد استقل بمدينة قادس عقب سقوط دولتهم • كذلك انضمت اشبيلية الى الموحدين ، وسافر وفد من أعيانها برئاسة القاضي أبى بكر بن العربى المعافري ، الى العاصمة مراكش لمبايعة الخليفة عبد المؤمن بن علي [١] •

أما الاقليم الشرقي للاندلس Levante • فقد عارض امراؤه فكرة الوحدة مع المغرب، وأعلنوا استقلالهم باماراتهم [٢] ومثال ذلك مدينة المرية التي استقل بها أهلها من رجال الاسطول (القطائع) وغـزاة البحر ، وكونوا فيها امارة بحرية مستقلة ، وصاروا يغيرون منها بأساطيلهم على شواطىء أسبانيا المسيحية وفرنسا وايطاليا •

ولقد تكالبت على هذه الامارة البحرية أساطيل برشلونة ومونبلييه وجنوا وبيزا ، بالاضافة الى جيوش قشتاله وقطلونيا ونافارا وجليقيـة وأشتوريش ، التي حاصرت المرية من البر والبحر مدة ثلاثة أشهر ، ثم احتلتها عنوة سنة ٥٤٢ (١١٤٧ م) ، وسلمتها لملك قشتاله وليون الفونسو السابع الملقب بالسليطن • غير أن هذا الاحتلال الصليبي لم يدم أكثر مـن عشر سنوات ، اذ تمكنت جيوش الموحدين من استعادة المريـة سنة ٥٥٢ هـ [٣] •

---

(١) راجع (السلاوى : الاستقصاء جـ ٢ ص ١٠٤) وقد توفي القاضي أبو بكر ابن العربى وهو في طريق عودته بالقرب من مدينة فاس ، ودفن خارج الباب المحروق سنـة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ، ولا يزال قبره يزار هناك الى اليوم بجوار قبر ابن الخطيب .

(٢) اذا تصفحنا تاريخ هذا الاقليم الشرقي الاندلسي في مختلف العصور الاسلامية ، نجد أنه كثيرا ما جنح الى الاستقلال واثارة القلاقل في وجه الامويين والمرابطين والموحدين وكذلك في أيام بنى نصر ملوك غرناطه ، وهذه ظاهرة تدعو الى الالتفات والدراسة .

(٣) اشباخ : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين جـ ١ ص ـ ٢٢٤

وما يقال عن المرية يقال أيضا عن الجزر الشرقية (البليار) التـي استقل بها محمد بن غانية وأولاده من بعده • وبنو غانية كانوا في الاصل من قبيلة مسوفة الصنهاجية ومن كبار قواد المرابطين في الاندلس ، ويقال انهم عرفوا ببني غانية على اسم أمهم غانية [١] • وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين ، اذ نجد كثيرا من قوادهم ينسبون الى أمهاتهم مثل ابن عائشة وابن فاطمة وابن الصحراوية وغيرهم •

ولقد ظل بنو غانية شوكة في جنب الدولة الموحدية مدة طويلة . الا أنهم كانوا في نفس الوقت غزاة بحريين ضد القوى الصليبية في حوض البحر المتوسط ، فكثيرا ما أغاروا بأساطيلهم على سواحل قطلونيا وجنوب فرنسا ، وهاجموا سفنهم في البحر • كذلك كانت تربطهم في بعض الاحيان بجمهوريتي جنوا وبيزا الايطاليتين علاقات تجارية طيبة . وعلى الرغم من أنهم ساروا على سنة أسلافهم المرابطين في الدعاء للخلفاء العباسيين في بغداد ، واتخاذ ألويتهم السوداء شعارا لهم ، الا أنهم كانـوا في نفس الوقت يهادنون الموحدين ويدارونهم بالهدايا والاموال تجنبا لخطرهم ، وفي ذلك يقول عبد الواحد المراكشي في سيرة اسحاق بن محمد غانية : « وأقبل على الغزو ، وصرف عنايته اليه . فكان له في كل سنة سفرتان الى بلاد الروم ، يغنم ويسبي وينكي في العدو أشد نكاية الى أن امتلأت أيدي أصحابه أموالا ، فقوى بذلك أمره وتشبه بالملوك • وكان يراسل الموحدين ويهادنهم ويختصهم من كل ما يسبى ويغنم بنفيسه وجيده ، يشغلهم بذلك عنه مع احتقارهم لامر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم اليها • وخرج في سنة ٥٧٩ هـ الى بلاد الروم غازيا ، فاستشهد رحمه الله هناك [٢] • ولـم

---

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٦٧ — ٢٧٦

(٢) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٦٩

تخضع هذه الجزر لسلطان الموحدين الا في سنة ٥٩٩ هـ أيام الخليفة الناصر .

كذلك استقل بولايتي بلنسية ومرسية في شرق الاندلس ، الامير محمد بن سعد بن مردنيش . وواضح من اسمه أنه من أصل أسباني وهو مارتين Martinez . غير أن هذه الامارة لم تلبث أن انضمت الى الموحدين بعد موت عاهلها في عهد يوسف بن عبد المؤمن وصار أبناء ابن مردنيش من كبار قادة الاسطول الموحدي .

وهكذا نجد أنه باستثناء بعض الامارات الشرقية ، فان معظم الاندلس قد انضم الى الموحدين منذ أيام الخليفة الاول عبد المؤمن ابن علي .

أما بالنسبة للمغرب العربي فلقد قام عبد المؤمن منذ سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) بعمليات عسكرية برية وبحرية واسعة النطاق انتهت بتوحيده لاول مرة في تاريخ المغرب منذ أن افتتحه العرب : فبدأ أولا بضم وطنه الاصلي المغرب الاوسط [1] ، ثم احتل تونس وسوسه وصفاقس وطرد النورمانديين من المهدية وغيرها من بلدان سواحل افريقية ، كما استولى على طرابلس وما وراءها ، وبذلك تم له توحيد المغرب الكبير من الحدود المصرية شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ، والى الصحراء الكبرى جنوبا وفي ذلك يقول صاحب كتاب الاستبصار : وكلمة التوحيد والهداية

---

(١) يقال ان عبد المؤمن حينما مر بمسقط رأسه وهي قرية تاجرا بارض كومية بالجزائر، تشبثت به أمرأة عجوز وهي تصيح في زهو وافتخار « هكذا يعود الغريب الى بلاده » وهي عبارة جميلة تعبر عما ينبغي على الشباب عمله وهم في بلاد الغربة كي يعودوا الى بلادهم ظافرين مرفوعي الراس .

متصلة من طرابلس الى مدينة غانة [١] .

ولقد شارك الاسطول الموحدي مشاركة فعالة في تلك العمليات الحربية السالفة الذكر ولا سيما في حصار المهدية التي كانت محاطة بالبحر من معظم جهاتها وكأنها كف في البحر وزندها متصل بالبر، فيروى المؤرخون أن عبد المؤمن زحف اليها بجيوشه والاسطول يحاذيه في البحر . وكان يتكون من سبعين شينيا [٢] وطريدة [٣] وشلندى [٤] بقيادة محمد بن عبد العزيز بن ميمون من البيت المشهور في قيادة البحر [٥] ، وابن الخراط وأبى الحسن الشاطبي وغير هؤلاء ممن هو مثلهم في المعرفة والشهرة ، ثم ضرب حول المهدية حصارا من البر والبحر [٦] . ثم ركب عبد المؤمن سفينة حربية من أسطوله وطاف بالمدينة من ناحية البحر ليتفقد حصانتها

---

(١) كتاب الاستبصار في عجائب الامصار (لمؤلف مجهول من كتاب الموحدين) ص ١١١ نشر سعد زغلول .

(٢) الشيني أو الشواني السفينة الحربية الضخمة التي كانت تتكون من عدة طبقات كالقلعة Galér .

(٣) الطريدة والطراد سفينة صغيرة سريعة أطلق عليها الاسبان اسم

(٤) الشلندى وجمعها شلنديات ، وهي نوع من المراكب الحربية الكبيرة المسطحة لحمل المقاتلة والسلاح .

(٥) تجدر الاشارة هنا الى ان امير البحر ابا الحسن علي بن عيسى بن ميمون الذي كان قائدا للمرابطين ثم انضم الى الموحدين حتى صار يسمى بصاحب البحر الموحد ، قد انتهت حياته عندما تعقب فارس المرابطين يحيي بن ابى بكر بن يوسف بن تاشفين الملقب بالصحراوى او ابن الصحراوية فيروى البيذق ان هذا القائد الصحراوي حينما فر الى سبتة ارسل عبد المؤمن وراءه صاحب البحر علي بن عيسى الذي حاصر سبتة باسطوله ، فخرج اليه الصحراوى وقال له : اريد أن يكون توحيدي على يديك يا أبا الحسن . فقال له نعم احملك الى الخليفة . ولما أنس له هبط علي بن عيسى من الغراب واراد الجلوس معه فرأى في وجه يحيى الصحراوي الغضب ، فاراد أن يرجع الى الغراب فرمى عليه يحيى حصانه وضربه بالرمح فوصل بين الكتفين حتى نفذه . (راجع البيذق : كتاب أخبار المهدى وابتداء دولة الموحدين ص ١٠٦ — ١٠٧ ، ٢٠٠ والترجمة الفرنسية ص ١٦٠ حاشية ٢ ، نشر وترجمة بروفنسال) وكذلك (المراكشي : المعجب ص ١٩٩ — ٢٠٠) .

(٦) راجع رحلة التجاني ص ٢٤٧ وما بعدها .

من هذه الناحية فهاله أمرها ، وعلم أنها لا تفتح بقتال وليس لهـا الا مطاولة الحصار . فتمادى حصاره لها ستة أشهر ..

ويؤثر عن عبد المؤمن أنه قال للحسن بن علي الصنهاجي آخر أمراء بني زيرى الذي كان صاحبها قبل احتلال النورمانديين لها ٥٤٣ هـ (١١٤٨م) « ما الذي أخرج هذا المعقل من يدك ؟ » فقال له « أخرجه انقضـاء الامر وعدم الثقة بأحد » . فصدقه عبد المؤمن واستحسن كلامـه . وحاول ملك صقلية النورماندي وليام بن رجار (١١٥٤ — ١١٦٦ م) انقاذ المهدية . فأرسل اليها أسطولا كبيرا من مائة وخمسين شينيا غير الطرائد . فلما ظهرت طلائعه في الافق : تقدم مقدم الاسطول الموحدى ابن ميمون بين يدي الخليفة عبد المؤمن وقال له : هذا الاسطول قد أقبـل وهو لا يصل الا متفرقا بحكم النوء ، فلتأذن لنا بالخروج اليه فسكت عبد المؤمن، فاغتنموا سكوته وبادروا الى القطع فملأوها بما تحتاج اليه من العدد ، واصطفت عساكر المسلمين على الساحل . فلما قاربت شوانى الفرنـج المهدية . حطوا قلاعهم ليدخلوا الميناء ، فخرج اليهم أسطول عبد المؤمن ، فاستعظم الفرنج ما رأوا من كثرة العساكر ، ودخل الرعب قلوبهم ، وبقي عبد المؤمن يمرغ وجهه على الارض ويبكي ويدعو للمسلمين بالنصر ، واقتتلوا في البحر ، فانهزمت شوانى الفرنج ، وأعادوا القلوع ، وتبعهم المسلمون ، فأخذوا منهم سبع شوانى ، ولـو كان معهم قلوع لاخذوا أكثرهم . وعاد أسطول المسلمين ظافرا منصورا فسجد عبد المؤمن شكرا لله . وفرق في غزاة الاسطول اثني عشر ألف دينار مؤمنية [١] .

ويبدو أن ملك صقلية وليام بن رجار قد رأى في ذلك الوقت عدم

---

(١) أورد أمارى في المكتبة العربية الصقلية معظم روايات المؤرخين العرب حول فتح المهدية ، وذلك في الصفحات ٣٠٢ ، ٣١٨ — ٣٢١ ، ٤٠١ — ٤٠٣ — ، ٥١٨ ، ٥٠٦ ، ٥٤٠ .

التورط في حرب مع الموحدين كي يتفرغ لحرب فردريك الاول (بربروسا) امبراطور ألمانيا . فترك المهدية لمصيرها المحتوم [١] . ولما يئست حامية المدينة من النجدة . طلبوا الامان على أنفسهم وأموالهم وأن يعودوا الى بلادهم ، فأجابهم عبد المؤمن الى طلبهم ودخل المدينة بكرة عاشوراء من المحرم ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) [٢] . ولقد وجه عبد المؤمن عنايته نحو انشاء وتعمير المراسي ودور الصناعـة المنتشرة على طول السواحـل المغربية والاندلسية . ولا شك ان اهتمام هذا الخليفة بانشاء بحرية قوية كان ضرورة حتمية فرضتها عليه طبيعة تلك الانتفاضة الدينية الاصلاحية التي قام بها الموحدون والتي اتسمت بطابـع العظمة والتوسع والزعامـة الاسلامية . ولم يجد عبد المؤمن صعوبة في الحصول على خامات الحديد والخشب وكل ما هو ضروري لبناء السفن ، اذ أن كل ذلك كان متوفرا في جبال وغابات العدوتين . ومن ثم استطاع أن ينشيء أقوى أسطول في البحر المتوسط على حد قول اندريه جوليان [٣] . وقد أشار صاحب كتاب روض القرطاس الى انه في سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) انتجت دور الصناعة في العدوتين أسطولا من أربعمائة قطعة : منها في سلا والمعمورة ١٢٠ قطعة . وفي مراسي سبته وطنجه وبادس ومراسي الريف مائة قطعة وفي مراسي وهران وهنين وتونس مائة قطعة ، وفي مراسي الاندلس ثمانين قطعة [٤] وفي هذا المعنى يعطينا المؤرخ المعاصر ابن صاحب الصلاة وصفا يدل على مدى الاستعداد والقوة والرخاء في ذلك العهـد . فيقول : « وأن أمير المؤمنين ــ عبد المؤمن ــ رضى الله عنه ، أضمر غزوة عظمى

---

(١) انظر (André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord p. 110)

(٢) امارى : المرجع السابق

(٣) (A. Julien. Histoire de l'Afrique du Nord p. 124.)

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس جـ ٢ ص ١٦٤ ــ ١٦٥

والرجاء . فأمر بانشاء القطائع في سواحل العدوة [١] والاندلس ، فصنع للروم بجزيرة الاندلس برا وبحرا ليلقي الله بها يوم القيامة بالفوز لديه منها زهاء مائتي قطعة . أعد منها في مرسى المعمورة بحلق البحر على وادي سبو بسقربة سلا مائة وعشرين قطعة، وقفت عليها وعددتها بالمرسى المذكور، وأعد باقي العدد الذي ذكرته في أرياف [٢] العدوة والاندلس — وأمر بكتب الرجال والرؤساء والابطال لعمارتها والقيام بحمايتها والنظر في آلاتها . وأعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادى سبو بالمعمورة المذكورة مما عاينته مكدسا كأمثال الجبال ، بما لم يتقدم لملك قبله . ولا سمعنا به في جيل من الاجيال . بقى في ذلك الموضع معدا من عام سبعة وخمسين الى عام اثنين وستين وخمسمائة ، حتى فنى في أكداسه وعاد ترابا ورمادا باحتراقه في بعض ، وافساد الزمان له فسادا [٣].

والى جانب دور الصناعة السالفة الذكر ، كانت توجد أيضا دار صناعة في قصر مصمودة [٤] التي كانت تبنى فيها مراكب النقل التي يسافر

---

(١) المقصود بالعدوة هو بلاد المغرب بصفة عامة ، والعدوة (بضم العين او كسرها او فتحها) شاطىء الوادي وجانبه والنسبة اليها عدوى ، لهذا اطلقت على عدوتى المغرب والاندلس لان بينهما مضيق جبل طارق ، وعدوتى سلا والرباط ويفصلهما وادى ابو الرقراق، وعدوتى فاس وبينهما وادى فاس او وادى الجواهر . كذلك اصطلح على اطلاق كلمة العدوة ، لا على المغرب الاقصى وحده بل على المغرب العربي الكبير ايضا ، ونجد ذلك واضحا في جغرافية الادريسي مثلا على اعتبار أن المغرب الكبير يمثل جانبا مقابلا لاوربا وبينهما البحر المتوسط .

(٢) سبقت الاشارة الى ان المقصود بالريف في المغرب والاندلس هو ريف البحر او الاراضي المتاخمة للبحر او المحيط ، بينما تطلق ، في مصر على الاراضي الداخلية المتاخمة للنيل

(٣) راجع (ابن صاحب الصلاة : كتاب المن بالامامة ص ٢١٣ — ٢١٥ ، نشر عبد الهادي التازى) .

(٤) قصر مصمودة او قصر المجاز او القصر الصغير الذي بناه من قديم احد زعماء قبيلة مصمودة بالقرب من طنجة ايام طارق بن زياد . وتقابله بلدة طريف Tarifa في العدوة الاندلسية المقابلة ، والمسافة بينهما عبر المضيق ١٢ ميلا (ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢١٠ — ٢١١) .

عليها الجنود ومعداتهم الى الاندلس . كذلك كانت توجد دار صناعة كبيرة في الموضع المعروف حتى اليوم باسم الحبالات (بضم الحاء وتشديد الباء) شرقي فاس عند ملتقى وادي فاس بوادي سبو . وكانت تنشأ بها القوارب والسفن الصغيرة ثم تنساب منها الى وادي سبو ، وتصعد فيه حتى مصبه في المحيط الاطلسي . وقد أنشأ هذا المصنع الخليفة عبد المؤمن عندما أراد أن يتوجه لفتح المهدية سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) [١] .

كذلك اهتم عبد المؤمن بوسائل الدفاع الساحلية لمنع نزول الصليبيين الاراضي المغربية ، فأنشأ القصور والقلاع والرباطات ذات المناور او الطلائع التي تشعل النار على قممها ليلا ويتبعث منها الدخان نهارا لانذار الاهالي في حالة وقوع غارة بحرية معادية . هذا الى جانب استخدام الطبول الضخمة للغرض نفسه وهي تقابل الاجراس والابواق عند المسيحيين . ومن أمثلة تلك الحصون نذكر رباط تيط على ساحل المحيط الاطلسي جنوبي الجديدة (مازيغان) بنحو ١٢ ك م . ويؤرخ بناء هذا الحصن في حوالي منتصف القرن السادس الهجري (١٢ م) [٢] . كذلك نذكر قصبة المهدية التي بناها عبد المؤمن سنة ٥٤٥ هـ عند مصب وادي أبي الرقراق في مكان مدينة الرباط أو قصبة الوادية الحالية على ساحل المحيط الاطلسي . وقد سماها بالمهدية تيمنا باسم المهدي بن تومرت . وأجرى لها الماء في سرب تحت الارض من بين عين غبوله التي تقع في جنوب

---

(١) الجزنائي : زهرة الآس ص ٢٧ ، وقد ورد في النص اسم المكان على شكل الهبالات وصحته الحبالات . وهو اليوم عبارة عن بساتين وحقول في القسم الشرقي من مدينة فاس . راجع (الترجمة الفرنسية لكتاب الجزنائي ص ٦٨ حاشية ٢ ترجمة الفرد بل Alfred Bel الجزائر ١٩٢٣)

(٢) راجع (Georqes Marcais : L'architecture musulmane d'Occident p. 222, Paris 1954).

غرب الرباط بنحو تسعة عشر كيلو مترا . وما زالت آثار السقاية المتفرعة منها باقية الى الآن [١] .

وقد نقش الخليفة على الباب الشرقي لهذه القصبة تلك الآية الكريمة التي ترمز الى جهاد العدو المهاجم من البحر « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم مـن عذاب أليـم . تؤمنون بالله ورسوله . وتجاهدون في سبيل الله ...... الى قوله وبشر المؤمنين [٢] .

ولا يبعد ان يكون قصد الخليفة الموحدى في اطلاقه اسم المهدية على هذه القلعة . هو تقليد الفاطميين في تسميتهم للمهدية الشرقية بتونس . وان كانت الرواية السائدة تقول بأن أهل الاثر وكذالك المهدي بن تومرت كانوا قد بشروا ببناء مدينة في هذا المكان والزمان [٣] .

وكيفما كان الامر فالمهم هنا هو عدم الالتباس بين مهدية الموحدين التي صارت رباط الفتح عاصمة المغرب الآن . وبين مدينة المهدية الحالية أو المعمورة التي تقع على الضفة اليسرى لمصب وادي سبو بالقرب مـن القنيطرة على ساحل المحيط الاطلسي . فهذه المدينة الاخيرة سميت بالمهدية أيام العاهل المغربي المولى اسماعيل سنة ١٠٩٢ هـ (١٦٨١ م) عندما ضيق الحصار على الجيش الاسباني المرابط فيها . فخرج راهبها مستسلما وبيده مفاتيح المدينة كهدية للسلطان . فأمنه وقبل هديته ثم دخل المدينة وسماها

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢١٨ ، ٤٤٨ ، ابن ابى زرع : روض القرطاس جـ ٢ ص ١٦٧ ، السلاوى الاستقصا جـ ٢ ص ١٢٨ وكذلك
(Caillé : La Ville de Rabat p. 27).

(٢) راجع (محمد المنونى : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص ١٣)

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالآمامة ص ٤٤٧

المهديه [١] .

هذا ولم ينس عبد المؤمن أن يربط بين قصبة المهدية وبين مدينة سلا المقابلة لها . بجسر من السفن المشدود بعضها ببعض بالسلاسل عبر وادي الرمان (أبو الرقراق الحالي) وعليها الواح خشبية كي تمر عليها جيوشه ومعداته المتجهة الى أسبانيا [٢] .

على أن العمل العسكري الهام الذي توج أعمال عبد المؤمن وخلد ذكراه هو تلك المدينة البحرية الحصينة التي بناها على سفح جبل طارق سنة ٥٥٥ (١١٦٠ م) وسماها مدينة الفتح لتكون قاعدة عسكرية كبرى لتجمعات جيوشه القادمة من المغرب ومنذ ذلك الوقت صار جبل طارق يعرف أيضا بجبل الفتح [٣] . وقد قام ببناء هذه القلعة البحرية عدد كبير من العمال والبنائين الاندلسيين ، كما أشرف على بنائها مجموعة من العرفاء أو المهندسين المشهورين أمثال الحاج أبن يعيش المالقي ، والعريف احمد ابن باسه ، اللذين قاما بأعمال في هذا الجبل وفي غيره من المشروعات العمرانية ، تشهد لهما بالبراعة والنبوغ ، كما تشهد لعصر الموحدين بالنهضة والتقدم [٤] .

---

(١) عبد الهادى التازى : مهدية المولى اسماعيل ، مجلة المغرب مايو ١٩٦٣ ، عبد الرحمن ابن زيدان : : اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس جـ ٢ ص ٧٢ وكذلك:
(Caillé : La Ville de Rabat p. 63).

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٤٥.

(٣) عبد الواحد المراكشي : المعجب ض ٢١٣ ، الحل الوشيسة ص ١١٩ – ١٢٩ ، الحميرى : الروض المعطار ص ١٢١

(٤) الحاج ابن يعيش المهندس هـ الذي صنع في اعلا جبل طارق أول رحى تدار بالريح لطحن الافوات ، اذ أن الطواحين في العصور الوسطى هي الطواحين المائية التي تدور مع جرية الماء . كذلك ينسب الى هذا المهندس صنع مقصورة المسجد الجامع بمدينة مراكش التي كانت

< كث

ومن الطريف أنه حينما تم بناء مدينة الفتح ، ركب الخليفة عبد المؤمن سفينة من أسطوله وطاف بها حول جبل طارق ليتفقد حصون المدينة الجديدة ، ويعاين أحوال البناء [١] فيها ، وهذا يذكرنا بما فعله من قبل بمدينة المهدية التونسية قبل الاستيلاء عليها •

ومن حسن الحظ ، أنه يوجد لدينا ضمن مجموعة الرسائل الموحدية التي نشرها المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ، الخطاب الرسمي الذي وجهه عبد المؤمن الى رعاياه حول تفاصيل هذا المشروع الكبير [٢] • كذلك توجد تفاصيل أخرى هامة في هذا الموضوع في كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة [٣] ، هذا الى جانب القصائد الشعرية التي قيلت بمناسبة زيارة عبد المؤمن لهذه المدينة بعد انتهاء العمل فيها ، وقد تضمنت اشارات هامة في وصف الاسطول الموحدي الذي صحب الخليفة في هذا المهرجان الكبير [٤] •

الى جانب هذه المصانع المادية التي تنتج السفن الحربية وما يلزمها من معدات وآلات ، اهتم عبد المؤمن أيضا بالمصانع البشرية التي تتولى تربية الجيل الناشيء واعداده للحرب والجهاد فيروي المؤرخون أن عبد المؤمن

←

تتحرك بطريقة آلية فترتفع عند خروج الخليفة عبد المؤمن وتنخفض عند دخوله . اما المهندس ابن باسه فهو الذي قام ببناء جامع اشبيلية وصومعته الشهيرة باسم الخيرالدا ومعناها بالاسبانية الدوارة .

راجع (ابن صاحب الصلاة : المن الامامة ص ١٤٢ ، ٤٦٧ — ٤٦٩ ، ٤٧٤)

(١) ابن صاحب الصلاة نفس المرجع ص ١٤٤ .

(٢) انظر (Levi - Provençal ; Trente Sept - lettres officielles Almohades p. 95 - 99 (Rabat 1941).

(٣) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ١٢٧ وما بعدها

(٤) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ١٥٩ — ١٦٤ ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

أنشأ في حاضرته مراكش مدرسة لتخريج رجال السياسة وقادة الجيش والاسطول . وأنه كان يستدعي اليها الشبان (الحفاظ) من أبناء أشبيليه وقرطبة وفاس وتلمسان وغيرها . ويتولى تربيتهم على حفظ القرآن والحديث . وتآليف المهدى بن تومرت الخاصة بعقيدة الموحدين . وكان يجمعهم كل يوم جمعة بعد الصلاة في قصره ، وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة . فيمتحنهم فيما درسوه ويزودهم بنصائحه تشجيعا لهم على الاجتهاد . ثم يعمد في أيام اخرى الى تدريبهم على فنون الحرب المختلفة كالطعن بالحراب والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل والركض ، ثم في تعلم السباحة وخوض المعارك البحرية وذلك في بحيرة خاصة أنشأها لذلك الغرض على مقربة من قصره في الحي المعروف اليوم باكدال (أي المنتزه) . وأعد فيها طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة ليتمرن الشباب فيها على القتال في البحر والتجذيف وقيادة السفن والوثب الى سفن العدو . ومزاولة جميع التمارين البدنية التي تقتضيها الخدمة البحرية ، وكان تعليمهم جميعا على نفقة الدولة [١] .

كذلك يؤثر عن عبد المؤمن أنه كان يشجع الناس على قراءة ونشر الكتب التي تتحدث عن الفروسية أو سيرها او كتب المغامرات . ومن القصص التي كانت شائعة على هذا العهد قصة جازية والشريف التي يرويها باختصار ابن خلدون في تاريخه عند حديثه عن دخول العرب الهلالية لافريقية. وهي في الواقع ما هي الا قصة أصل ابي زيد الهلالي الشهيرة[٢] .

وهكذا استطاع هذا المجاهد الكبير . الذي يعتبره المؤرخون

---

(١) الحلل الموشيه ص ١٢٥ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٩ ، أشباخ : نفس المرجع جـ ٢ ص ٥١ .

(٢) نقل هذه القصة السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٤٩ .

المحدثون من أعظم قواد العصور الوسطى ، أن يخلق من المغرب الاسلامي قوة موحدة مجاهدة في البر والبحر تمهيدا لغزو الممالك النصرانية في شمال اسبانيا ، ويؤثر عنه أنه قال لأشياخ وقادة دولته في هذا الصدد « أشيروا علينا كيف تكون هذه العزوة الى بلاد الروم فقد عزمنا عليها برا وبحرا » فقال القائد الاندلسي أبو محمد سيد رأى ابن وزير القيسي [١] : نقسم العساكر على روم جزيرة الاندلس الى أربع جهات تكون جهة ابن الرنك [٢] بقلمرية [٣] أولا ، وجهة الببوج [٤] بالسبطاط [٥] ثانية ، وجهة أدفونش [٦] بطليطلة ثالثة ، وجهة برشلونة رابعة ، فقال له الخليفة أحسنت يا أبا محمد ! ثم قام جميع الاشياخ وبايعوا الخليفة على تلك الخطة [٧] وبينما كان عبد المؤمن مقيما في مدينة سلا والجيوش تحتشد ، والاساطيل تستعد لنقلها الى الاندلس ، فاجأه الموت بعد مرض قصير فلم يسهله حتى يحقق عزمه ، ونقل جثمانه الى مدينة تينملل [٨] بجبال أطلس حيث دفن بجوار أستاذه ابن تومرت سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) .

---

(١) يعتبر من كبار القادة الاندلسيين الذين شاركوا في غزوات الموحدين ، وكان يجيد اللغة القشتالية ، ولهذا كانت له دراية بأحوال اسبانيا وقد اعتمد بن صاحب الصلاة على روايته مرارا . (راجع كتاب المن بالامامة ص ١١٧ حاشية ٣) .

(٢) ابن الرنك هو الفونسو انريك Alfonso Enrique ملك البرتغال

(٣) قلمرية Coimbra قاعدة البرتغال في ذلك الوقت

(٤) الببوج هو فرناندو الثاني ملك ليون ويلقب بالببوج El baboso بمعنى الكثير اللعاب اي الاحمق .

(٥) السبطاط هي مدينة رودريجو Ciudad Rodrigo غربي آبلة Avila

(٦) الاذفونش هو ملك قشتالة الفونسو الثامن الملقب بالصغير El chico

(٧) راجع (ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢١٨ — ٢٢١)

(٨) تينملل كلمة بربرية مؤلفة من شقين : تين بمعنى ذات ، وملل بمعنى الحواجز التي توضع في سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقي . وهذه القاعدة الجبلية الحصينة كانت مهد دولة الموحدين ، وبها بنى المهدى بن تومرت داره ومسجده ثم دفن بها بعد مماته . راجع (الادريسي : نفس المرجع ص ٦٦ ، الاستبصار ص ٢٠٨ ، محمد الفاسي : الاعلام

←

وولى بعد عبد المؤمن ولده أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ ١١٦٣ — ١١٨٤ م) الذي كانت سياسته استمرارا لسياسة والده الجهادية. فيروى أنه أمر العلماء بالقاء المحاضرات في الجهاد على الموحدين ليدرسوها وأنه شارك في القائها . فكـــان يمليها عليهم بنفسه ، وكان كل واحـــد من هؤلاء الطلبة يحمل لوحا يكتب فيه ما يملي عليه [١] . وما يقـــال عـــن اهتمام هذا الخليفة بتربيـــة النشء وتوجيهه ، يقـــال أيضا عـــن اهتمامه بتقوية بحريته ، وقد لاحظ ابن خلدون أن تفوق الاسطول في عهده كان تفوقا ملحوظا بز من قبله ومن بعده . وفي ذلك يقول : « ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة ، وملكوا العدوتين ، أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد . وكان قائد أساطيلهم احمد الصقلي أصله من صدغيان الموطنين بجزيرة جربة من سدويكش ، أسره النصارى من سواحلها وربى عندهم ، واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك . وولى ابنه فأسخطه ببعض النزعات وخشي علـــى نفســه ، فلحق بتونس ، ونزل على السيد بها من بني عبد المؤمن ، فأجازه الى مراكش ، فتلقاه يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة ، وأجزل له الصلة وقلده أمر أساطيله ، فجلى في جهاد أمم النصرانية ، وكانت له آثار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين ، وانتهت اساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه [٢] .

كذلك يروى المراكشي أن ملك صقلية (وليام الثاني) صالحه وأرسل اليه بالاتاوة بعد أن خافه خوفا شديدا . فقبل منه ما وجه به اليه ، وهادنه

< ... الجغرافية ، مجلة البينة ، مايو ١٩٦٢) كذلك :
(Basset et Terrasse : Tinmel, Hespéris 1924)

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٥ ، أمارى : المكتبة العربية الصقلية ص ٤٦١ — ٤٦٢.

على أن يحمل اليه في كل سنة مالا اتفق عليه [١] .

هذا ويلاحظ ان مهمة الاسطول الموحدي منذ عصر عبد المؤمن لم تقتصر على جهاد الصليبيين ، بل أخذ على عاتقه أيضا مهمة قمع حركة القرصنة التي كانت منتشرة بين المسيحيين والمسلمين على السواء . ذلك لان سياسة الموحدين البحرية كانت تقوم على مبدأ احترام نواميس التجارة الدولية وضمان السلام والطمأنينة في البحار ، وهم بهذا العمل ــ كما تقول بعض المؤرخين الاوربيين ــ قد لقنوا أوربا درسا في بعض مبادئها التي تنادي بها [٢] . وحسبنا الآن أن نضرب على ذلك مثلا بتلك الغارات البحرية التي شنها الخليفة أبو يعقوب يوسف على حصن طبيرة Tavira الذي كان وكرا للقراصنة المسلمين بزعامة ثائر يدعى عبدالله بن عبيد الله . ويقع هذا الحصن في منطقة غرب الاندلس Algarve على ساحل المحيط الاطلسي على نحو ٦٠ ك.م غربي مدينة فارو (شنتمرية الغرب) . وقد ظل هذا الحصن شجى على أهل المغرب والاندلس في نهب اموال المسافرين والتجار في البراري والبحار منذ سنة ٥٤٦ هـ حتى آخر سنة ٥٦٣ هـ عندما استولى عليه الخليفة أبو يعقوب يوسف وقضى على فساقه [٣] .

هذا وقد شارك الاسطول الموحدى أيضا في معظم العمليات الحربية التي دارت ضد القوى المسيحية في أسبانيا . ففي عهد هذا الخليفة يوسف

---

(١) عبد الواحد المراكشي : نفس المرجع ص ٢٥٢ .

(٢) راجع (عبد العزيز بن عبدالله : البحرية المغربية والقرصنة ، مجلة تطوان العددان ٣ ، ٤ ، ١٩٥٨ — ١٩٥٩) . وكذلك
André Julien. Histoire de l'Afrique du Nord p. 123.

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، ابن الابار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٢١٨ .

نشبت عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطلانيين على مقربة من برشلونه وأحرز الاسطول الموحدى كثيرا من ضروب التفوق [١] • على أن معظم العمليات البحرية في الواقع قد تركزت بصفة خاصة في غرب الاندلس حيث مملكة البرتغال الناشئة التي كانت في ذلك الوقت قد استقلت عن مملكة قشتالة . وأخذت تنمو وتتسع جنوبا على حساب المسلمين بقيادة ملكها الفونسو انريكث Alfonso Enriquez الذي تسميه المصادر العربية بابن الرنك او الريق • ثم لم تلبث هذه الدولة أن اعترف بها البابا كدولة مستقلة ومنح أميرها المذكور لقب ملك سنة ١١٧٩ م ورأى الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن أن يركز حملاته على هذه الجبهة الغربية البرتغالية لانها كانت أقرب وأشد الممالك الاسبانية وطأة على المسلمين ؛ ثم لانها كانت أيضا معبرا هاما الى قلب مملكة قشتالة التي كان ملكها الفونسو الثالث قد أخذ هو الآخر يغير على الاراضي الاسلامية المتاخمة له •

وقد استغرقت الحرب مع البرتغال فترة طويلة اضطر الخليفة خلالهما أن يعمل على تحصين البلدان الغربية الاندلسية التي كانت عرضة لغارات هذا العدو برا وبحرا عن طريق الوادي الكبير ؛ وهتم يوسف بصفة خاصة بمدينة أشبيلية حاضرة الموحدين المفضلة بالاندلس • فعقد على واديها (اي الوادي الكبير) جسرا من السفن عظيم [١] الهندسة يمتد الى أطريانه Triana احدى حواضر اشبيلية وذلك لاجازة الجيوش المتجهة

---

(١) أشباخ نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٤٧

(١) يلاحظ أن هناك فارقا بين الجسور وبين القناطر في أن الاولى متحركة مثل الكبارى حاليا بينما تكون الثانية ثابتة مثل القناطر الخيرية مثلا . وكانت الجسور عبارة عن سفن يشد بعضها ببعض بواسطة سلاسل بعرض النهر وتوضع الواح خشبية عليها لمرور الناس والدواب عليها ثم تفتح عند اللزوم لمرور السفن ويذكرنا هذا بالخليفة العباسي ابي جعفر المنصور حينما قال له احد المهندسين في مدح موقع بغداد « وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر أو قنطرة فاذا قطعت الجسر أو خربت القناطر لم يصل اليك عدوك » .

الى تلك الجهات الغربية . ويشير ابن صاحب الصلاة أن الخليفة حضر افتتاح هذا العمل الهندسي الحربي في صفر سنة ٥٦٧ هـ ، وأمر بأن تكون جيوش النجدة المتجهة الى مدينة بطليوس التي يهددها العدو ، هي أول من يعبر على هذا الجسر العظيم [١] . كذلك أمر عامله في اشبيلية أبا داود يلول بن جلداسن ، ببناء سور حصين على قصبة اشبيلية من مبدأ بنائه أمام رحبة ابن خلدون داخل اشبيلية حتى مسجد المدينة ، وبناء دار صنعة للقطائع (أي الاسطول) تتصل من سور القصبة الذي على الوادي بباب القطائع الى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل [٢] . هذا الى جانب بناء قصبتها الجوانية والبرانية وترميم أسوارها ولا سيما المطلة على الوادي، وتعمير ثغورها الخارجية بعد أن كانت قفرة من كلب النصارى عليها [٣] .

ولم يقتصر اهتمام الخليفة على تحصين اشبيلية وحدها بل شمل مدنا أخرى في هذه الجبهة الغربية الساحلية مثل قول صاحب الصلاة « وهو الذي حمى بطليوس من الكفر وابتنى لها قصبتها الشاهقة المانعة ، وسرب الماء اليها من الوادي فقطع العدو أمله عنها بما أشحنها من الآلات والعدد من الأسلحة والرجال المنتخبة [٤] .

وفي خلال ذلك الوقت التحمت أساطيل الموحدين بأساطيل البرتغاليين في معارك بحرية ، فأحيانا كانت تنتصر وأحيانا أخرى كانت تنهزم ولكن الغلبة عامة كانت للمسلمين . يروى ابن عذاري أنه في سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) اشتدت وطأة البرتغاليين في البر والبحر ، فولى الخليفة أمير

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن الامامة ص ٦٢، ، ٢٣٢ .
(٢) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٨١،
(٣) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .
(٤) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٢٣٦ .

البحر غانم بن مردنيش [1] قيادة أسطول سبته . فعبر غانم البحر غازيا الى مدينة لشبونه وتغلب فيها على قطعتين من قطائع البرتغاليين الراسية هناك وعاد بهما الى سبته .

ولقد كان رد البرتغاليين على ذلك بأن أغاروا على جزيرة سلطيش [2] Salte . وأسروا فيها من المسلمين عددا كبيرا [3] . وفي السنة التاليـة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) ، عندما كان الخليفة يوسف متوجها الى افريقيـة (تونس) ، أمر أمير البحر غانم بن مردنيش بأن يواصل هجماته وغاراته على سواحل البرتغال ، فأقلع غانم وأخوه أبو العلا بالاسطول من سبته في شهر مايو من تلك السنة ونزلوا بقواتهم في ميناء سان مارتين دوبورتو San Martin do Porto ، ثم توغلوا في داخل البلاد البرتغالية محاولـين الاستيلاء على بلدة بورتو دي موس Porto de Mos ، غير أن أمـير البحر البرتغالي فواس روبنهو Fuas Roupinho استطاع بمساعدة أهالي شنترين Santaren وألكنينا Alcanena أن يعد كمينا للغزاة المسلمين في

---

(١) هذا القائد هو ابن أمير بلنسية وشرق الاندلس ابى عبدالله محمد بن سعد بن مردنيش الذي رفض الاعتراف بحكم الموحدين ودخل في حرب معهم الى ان مات سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) واضطر أبناؤه أبو القمر وهلال وغانم وابو العلا وغيرهم أن يدخلوا في طاعة الموحدين وقد عوضهم الخليفة ابو يعقوب يوسف عن ممتلكاتهم بمناصب يتقلدونها واراضي تقطع لهم في مملكته كما تزوج اختا لهم تدعى الزرقاء المردنيشية وولع بها وتغلبت عليه حتى صار الناس يضربون المثل بحب الخليفة لها . وواضح من المتن أن معظم أبناء ابن مردنيش قد أسندت اليهم قيادات في البحرية المغربية . راجع (ابن عذارى : نفس المرجع جـ ٤ ص ٩٥ ، ١٠٨ ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٧١ (القسم الثانى) .

(٢) جزيرة ساحلية صغيرة أمام مدينة اونبه Huelva في جنوب غرب الاندلس ، ويروى صاحب الروض المعطار انه كان يوجد بها دار صناعة الحديد الذي يعجز عن صنعه اهل البلاد لجفائه ، وهي صنعة المراسي التي ترسو بها السفن (الحميري : الروض المعطار ص ١١٠) .

(٣) (ابن عذارى : نفس المرجع جـ ٤ ص ١١٢) .

جبال منديجا Mandiga عند منابع نهر بورتو دي موس. ففوجيء المسلمون بالعدو في هذا المكان الوعر . فأسقط في أيديهم ، واستشهد منهم عدد كبير بينما أسر القائد غانم بن مردنيش وأخوه أبو العلا ، وخمسون من الموحدين ، كما استولى البرتغاليون على تسع قطع من مراكب المسلمين بمن عليها من الملاحين وانصرفوا بها الى لشبونه (١) .

وكتب امير البحر غانم بن مردنيش من موضع اعتقاله الى الخليفة يوسف يشكو له سوء حاله ، فوصل كتابه وهو بتلمسان ، فأمر الامير أبا القمر هلال بن مردنيش بالذهاب الى مدينة مراكش لينظر في فداء أخويه غانم وأبي العلا ويأمر بانشاء واعداد الاساطيل في الحال . فلما وصل أبو القمر الى مراكش أحضر المال وبعث به الى أشبيلية ، فانصرف الفكاك به ودفعه الى البرتغاليين ، وانطلق غانم المذكور من الاسر وكذلك أخوه ومن بقي من أصحابه (٢) .

وتشير المصادر البرتغالية الى أن هذا النصر الذي أحرزه البرتغاليون قد شجع قائدهم فواس روبينهو على الخروج بأسطول قوى والاغارة على سواحل الاندلس الغربية ثم على مدينة سبته بعد ذلك (٣) . أما المصادر العربية فتشير الى غضب الخليفة والمسلمين من هذه الاعتداءات ، وكيف أن نفوسهم جميعا قد نشطت لجهاد أعداء الله ، والاخذ بثأر اخوانهم ، « فخرج القائد عبد الله بن جامع بأسطول سبته سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م)

---

(١) راجع (ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٤ ص ١١٦) وكذلك :
(Huici Miranda ; Historia politica del Imperio Almohade. I' pp. 279, Tetuan 1957).

(٢) المرجعان السابقان في حاشية رقم (١)

(٢) المرجعان السابقان في حاشية رقم (١)

كما خرج القائد أبو العباس الصقلي من أشبيلية بأسطولها أيضا. واجتمعوا جميعا عند ثغر قادس وقد استكملوا أربعين قطعة ، فنهضوا منها بجمعهم الى جهة شلب Silves والتقوا بالاسطول البرتغالي نفس المكان والزمان الذي أسر فيه غانم بن مردنيش في منتصف المحرم من العام الفارط ، وهذا من أغرب الاشياء . وقد نصر الله المسلمين في هذا اليوم نصرا مبرورا ، وقتل من النصارى وأسر منهم نحو الالف وثمانمائة ، ولم يمت فيه من المسلمين الا عدد قليل ، وأخذت للعدو من القطائع نحو العشرين مع أسلابهم وأسلحتهم ، وانصرفوا ظاهرين ظافرين الى موضعهم » [١] . ولقد اعترفت المصادر البرتغالية بهذه الهزيمة التي حاقت بأسطولها كما أنها تجمع على أن أمير البحر البرتغالي فواس روبينهو قد لقي مصرعه في هذه المعركة [٢] .

ويضيف ابن عذاري أن هذا الهجوم البحري قد صحبه هجوم بري قام به قائد جيش الموحدين في أشبيليه أبو عبد الله بن وانودين الذي استطاع أن يعيد مدينة يابره Evora ، وأن يستولى على بعض الحصون المجاورة لها وأن يسبى من النساء اربعمائة بين كبيرة وصغيرة ومن الرجال مائة وعشرين ثم يعود ظافرا الى أشبيلية حيث بيع السبى وكثر عند الناس الخدم [٣] .

واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين في البر والبحر دون أن

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٤ ص ١١٧ ــ ١١٨ .

(٢) راجع :

(Cronicas dos sete primeros reis de Portugal, I, p. 125 y sig. & Huici Miranda : Op. cit. 1, p. 280.

(٣) ابن عذارى : نفس المرجع جـ ٤ ص ١١٧ .

تسفر عن نتائج حاسمة . ولهذا عزم الخليفة أبو يعقوب يوسف على أن يقود غزو البرتغال بنفسه ، وحشد لهذه الغاية قوات عظيمة وأسطولا ضخما من سفن القتال ومراكب النقل لشحن آلات الحصار والمؤن والسلاح بقيادة أمير البحر أبي العباس الصقلي [١] . ثم عبر الخليفة الموحدي مضيق المجاز ونزل اشبيلية سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) ، وكانت خطته تقضي بمهاجمة مدينة لشبونه من البر بينما يحاصرها الاسطول من جهة البحر عند مصب نهر التاجو Tajo . ولكنه رأى لانجاح خطته أن يستولي اولا على مدينة شنترين Santaren ، مفتاح التاجو ، المجاورة لها . فضرب حولها حصارا واستطاع أن يستولي عليها ما عدا قلعتها .

ولما طال حصار المسلمين لهذه القلعة ، أمر الخليفة بأن يرحل معظم الجيش الى لشبونه كي يتعاون مع الاسطول في حصارها . ويبدو أن هذا القرار قد جاء مفاجئا لجنوده ، اذ وقع اضطراب في صفوفهم خصوصا بعد أن ترددت الشائعات بأن الخليفة قد رحل . وبينما كان الهرج يسود هذا الانسحاب ، اذ بحامية قلعة شنترين تخرج فجأة أثناء الليل وهي تصيح الري ! الري ! أي أقصدوا السلطان لان كلمة ري Rey معناها الملك . ثم انقض أفرادها على معسكر الخليفة ، وتمكن بعضهم من النفاذ الى شخصه واصابته بجراح قاتلة استشهد على أثرها في ربيع الثاني سنة ٥٨٠ هـ (يوليو ١١٨٤ م) [٢] .

كانت وفاة خليفة الموحدين بهذه الصورة المفاجئة ضربة قاسية أصابت

---

(١) ابن عذارى : نفس المرجع جـ ٤ ص ١٢٢ .

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع جـ ٤ ص ١٢٤ ، ابن ابى زرع : روض القرطاس ص ١٤١ ، اشباخ جـ ٢ ص ٧٤ .

حركة الموحدين بنكسة قوية في المغرب والاندلس اذ استغل اعداؤهم هذه الفرصة لتحقيق أطماعهم ، ومثال ذلك بنو غانية حكام الجزر الشرقية (البليار) الذين خرجوا عن سياسة مهادنة الموحدين وأظهروا الغدر والعصيان ، وتصادف في ذلك الوقت أن بعض وحدات الاسطول الموحدي كانت في زيارة رسمية لجزيرة ميورقة بقيادة أبي الحسن بن الربرتير [١] . فتظاهر الميورقيون باستقباله والحفاوة به ، ثم بعثوا سرا الى مراكبه من استولى عليها وأسر بحارتها ، فلم يكن للقائد أبي الحسن محيد عن الاستسلام ، واعتقلوه في دار الضيافة التي كانوا قد أنزلوه بها ، ووكلوا به من الحرس والرقباء ما أمنوا به مكره واحتياله [٢] .

ويضيف ابن عذاري أن بني غانية خرجوا بعد ذلك بأساطيلهم ورجالهم الى الساحل الافريقي حيث استولوا على مدينة بجاية بالمغرب

---

(١) الربرتير Reveerter أو Reberter هكذا ضبط اسمه دوزى حسب نصوص الحولية اللاتينية للامبراطور الفونسو السابع . اما المصادر العربية فقد ذكرته باشكال مختلفة مثل الدبرتير والدبرتين والابرتير ... الخ . وواضح من اسم هذا القائد انه من اصل مسيحى ، اذ كان ابوه فارسا قطلانيا من برشلونة ثم وقع أسيرا في يد أمير البحر علي بن ميمون الذي حمله الى سلطانه علي بن يوسف بن تاشفين بمراكش . فعينه السلطان قائدا على جنوده الاسبان الذين في خدمته فقام بمهمته خير قيام وابلى بلاء حسنا في الدفاع عن دولة المرابطين الى ان قتل في معركة ضد الموحدين عد تلمسان سنة ٥٣٩ (١١٤٥ م) وقد أعتنق ابنه الاسلام وتسمى بابى الحسن علي بن الربرتير . ولما قامت دولة الموحدين انخرط في خدمتهم وصار من كبار قوادهم في البر والبحر الى ان انتهت حياته هو الآخر في المعركة التي دارت بين المنصور الموحدى وبنى غانية بافريقية عند بلدة عمره من اعمال قفصة سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) .

راجع (ابن عذارى : البيان المعرب جـ ٤ ص ١٦ ، ١٥٩ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٩٦) راجع كذلك :

(Dozy : Recherches II pp. 437 - 442 & Lévi - Provençal : Documents inedits d'histoire Almohade p. 139 note I)

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ص ١١٦ وما بعدها .

Campaner y Fuertes :Op. cit. p. 147.

الاوسط سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) . ومن هناك أخذوا في اثارة الفتن والاضطرابات ضد نفوذ الموحدين ، وتحالفوا مع قبائل الاعراب من بني هلال وسليم في شرقي المغرب ، وكذلك مع جنود الغزو المرتزقة الذين قدموا من مصر واستقروا في قابس بقيادة الامير المملوكي قراقوش التقوى [١] . واستطاعت هذه القوى المتحالفة بزعامة بني غانية أن تسيطر على بلدان المغرب الادنى والاوسط وأن تدعو على منابرها لبني العباس أعداء الموحدين [٢] .

ولم تكن الحالة في الاندلس أقل خطورة من المغرب ، اذ انتهز البرتغاليون فرصة الاضطراب الذي حل بصفوف الموحدين عقب استشهاد خليفتهم يوسف ، وأخذوا بمخنق غرب الاندلس برا وبحرا . وقد ساعدتهم الظروف في ذلك الوقت أن قوات صليبية كبيرة من الالمان والانجليز والفلمنكيين[٣] قد أخذت تتجه تباعا الى فلسطين عقب سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) وكانت هذه الاساطيل الصليبية كثيرا ما ترسو في الموانيء البرتغالية اما رغبة أو اضطرارا .

فتصادف في سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) أن اسطولا من خمسين سفينة فرنسية عليها جماعة كبيرة من هؤلاء الصليبيين الالمان والفلمنك ، اضطر الى الرسو في ثغر لشبونه ، فانتهز ملك البرتغال سانشو الاول Sancho I Enrquez هذه الفرصة ، وطلب من هؤلاء الصليبيين معاونته

---

(١) هو شرف الدين قراقوش التقوى مملوك تقى الدين عمر ابن اخى صلاح الدين الايوبى ، وهو شخصية اخرى غير بهاء الدين قراقوش الاسدى وزير صلاح الدين ونائبه في مصر ومملوك اسد الدين شيركوه .

(٢) ابن عذارى جـ ٤ ص ١٤٧ ، رحلة التجانى ص ١١٢

(٣) سكان الاراضي الوطيئة Netherlands وهي الاراضي الهولندية .

في قتال جيرانه المسلمين ، فاستجابوا لندائه وتقدموا جميعا نحو مدينة شلب Silves وأحدقوا بها من جميع جهاتها . وقد دافع أهلها ببسالة نادرة ولكنهم اضطروا الى الاستسلام بعد أن تسكن العدو من الاستيلاء على بئر قراجه الذي يسد المدينة بالمياه [١] .

وهكذا نجد أن سلطان الموحدين في المغرب والاندلس قد أصيب بنكسة شديدة استمرت عدة سنوات بعد استشهاد عاهلهم أبى يعقوب يوسف . وفي خلال هذه المدة كان الموحدون قد بايعوا بالخلافة لولده المجاهد الكبير أبي يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ ــ ٥٩٥ هـ = ١١٨٤ ــ ١١٩٩ م) . وكان أول عمل اهتم به المنصور منذ توليه الحكم هو اعادة الوحدة المغربية ، والضرب على أيدي المفسدين فيها أمثال بني غانية وحلفائهم الغز والاعراب في المغرب الشرقي . فقام في الحال بتعبئة قواته البرية والبحرية لغزو تلك الجهات ، وأسند قيادة الجيوش البرية الى السيد أبى زيد بن أبى حفص ، كما تحركت الاساطيل من سبتة على اختلاف أشكالها ، وعليها أبو محمد بن ابى اسحاق بن جامع ، وأبو محمد بن عطوش الكومى ، والقائد أبو العباس الصقلى ومن دونهم من الرؤساء والاعيان والانجاد والشجعان ، والكل تحت رعى الشيخ أبى محمد بن جامع والى نظره تحت ما يراه من نهيه وأمره ، ومشى الجميع على قواعد من تظافر البر والبحر ، وتلاقى الفريقين على الفتح والنصر ، فارتجت الارض برا وبحرا [٢] .

---

(١) راجع (ابن عذارى : نفس المرجع جـ ٤ ص ١٧٥) وكذلك
& Huici Miranda : Op. cit. I, p· 342 Las cronicas dos sete primeros reis de Portugal I, p. 152 - 158.

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع جـ ٤ ص ١٤٩

ولقد مهد المنصور لهذه الحملة بارسال عيونه وأعوانه في تلك الجهات وهو ما يعرف الآن باسم الطابور الخامس ، اذ يقول ابن عذاري : « وكان أبو يوسف المنصور أتبع أمراء الجيوش البرية والبحرية كتبا لاهل سائر البلاد المغلوب عليها بالأمن والأمان والصفح والاحسان . ولما دنت الحملة من البلاد ، دسوا بالكتب جواسيس رحلوا بها ليلا الى البلاد . واجتمعوا بها مع من يوثق به للامن . فلما وقفوا عليها ورأوا أنهم قد أمنوا غوائل العذاب ، وأن العفو والرحمة لهم مفتحة الابواب . وثبوا على من كان عندهم من الاعداء ، وأرصدوا لفرارهم بالمضايق . وقبضوا على أكثرهم بتلك المخانق [١] » .

ويشير ابن عذاري بعد ذلك الى النصر العظيم الذي حققه الاسطول الموحدي في هذه الحملة سنة ٥٨١ هـ بقوله : « وسبقت الاساطيل ففتحت مدينة الجزائر قبل وصول أهل البر . وضربت الطبول في يوم واحد مع فتح الجزائر ومليانه . وقبض على يحيي صاحب الجزائر ثم على بدر بن عائشة صاحب مليانه ... وتقدم القائد أبو العباس الصقلي الى بجاية بقطعة واحدة مع بعض أهل البلد . ودسوا لهم كتبا بما وراءهم من الاسطول والجيوش الواصلة . فلما وصل الاسطول الى بجاية ضجت العامة وفتحت الابواب ودخلت عساكر الاساطيل [٢] » .

ثم توجه الخليفة المنصور الى أفريقية في السنة التالية (٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م) حيث تولى قيادة العمليات للعسكرية بنفسه ، واتخذ من مدينة تونس مقرا لقيادته ، واستطاع بفضل شجاعته وحزمه أن ينتصر على

---

(١) ابن عذارى : نفس المرجع جـ ٤ ص ١٥٠ .
(٢) ابن عذارى : نفس المرجع والصفحة .

خصومه . وفر على بن غانية الى الصحراء حيث ظل محتميا بها الى أن مات سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) أما قراقوش وجنوده الغز وحلفاؤهم الاعراب . فقد أنضموا الى جيوش الموحدين وصح توحيدهم . وأرسل المنصور عددا كبيرا منهم الى المغرب والاندلس برسم الجهاد [١] .

وفي خلال ذلك الوقت استطاع قائد الخليفة المنصور . أبو الحسن عبي بن الربرتير الذي كان معتقلا في جزيرة ميورقة ، أن ينتهز فرصة غياب معظم أمراء بني غانية في افريقية . ويداخـل بعض مواليهـم وجنودهم المسيحيين المرتزقة الذين كانوا في خدمتهم ويرغبون في العودة الى بلادهم . فوعدهم بتحقيق رغباتهم . وقام معهم بانقلاب في الجزيرة ضد حكم بني غانية في اواخر سنة ٥٨١ هـ (١١٨٦ م) . وانضم اليهم حاكـم الجزيرة السابق محمد بن اسحاق بن غانية الذي كان أخوته قد خلعوه واعتقلوه بالجزيرة . فأقامه الثوار حاكما على الجزيرة باسم الموحدين . ثم عاد على ابن الربرتير الى مراكش بعد أن سرح الجنود المسيحيين بأموالهم وأهليهم وأعادهم الى بلادهم حسب وعده لهم .

على أن نفوذ الموحدين على جزيرة ميورقة لم يدم طويلا . اذ سرعان ما علم بنو غانية في افريقية بأخبار هذا الانقلاب ورجع الى الجزيرة فورا عن طريق صقلية الامير عبدالله بن غانية . ويرجح المؤرخ الفرنسي الفرد بل في البحث الذي كتبه عـن بني غانية أن ملك صقلية وليـام الثاني (١١٦٦ ـ ١١٨٩ م) قد أمد هذا الامير ببعض سفنه كي يسترد ملكه في الجزيرة [٢] . واستطاع الامير عبدالله بمساعدة مواليه وجنوده وعلى

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٥٥ ـ ١٥٧

(٢) انظر (Alfred Bel : Les Banou Ghanya p. 71, Paris 1903)

رأسهم علج يدعى نجاح أن يحتل الجزيرة ويطرد منها أخاه محمدا الذي فر الى الاندلس حيث ولاه الموحدون مدينة دانية [١] .

وحاول الخليفة المنصور انقاذ الجزيرة . فأرسل اليها أسطولا بقيادة أمير البحر أبى علي بن جامع . غير أن زمام الموقف كان قد أفلت من يده لا سيما بعد أن تدخل أسطول ملك أراجون بدور الثاني Pedro II في صالح الميورقيين [٢] . على أن المنصور وأن كان قد فشل في احتلال كبرى جزر البليار . الا انه قد نجح في احتلال صغراها . جزيرة يابسة [٣] Ibiza على يد أمير البحر ابى العباس الصقلى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) [٤].

وهكذا نرى أن الخليفة المنصور الموحدى قد نجح في اعادة توحيد المغرب الكبير من ليبيا شرقا الى المحيط الاطلسي غربا . وبذلك أصبح في مقدوره أن يعبر في أطمئنان الى الاندلس لجهاد الممالك الاسبانية المعادية كالبرتغال وقشتالة .

ولقد اختار المنصور مدينة المهدية التي أسسها والده أبو يعقوب يوسف على ساحل المحيط . وبنى قصبتها قبل ذلك جده عبد المؤمن [٥] .

---

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٧٦ .

(٢) راجع (Huici Miranda : Op. Cit. II p. 396)

(٣) اشتهرت جزيرة يابسة بشجر الصنوبر الجيد العود الذي كان يصلح للانشاء وعدة المراكب .

راجع (الحميري : الروض المعطار ص ١٨٨)

(٤) يعلق ابن عذارى على هذا التاريخ بانه يوافق تاريخ سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين الايوبى راجع (ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٦٩ ـ ١٧٠)

(٥) راجع الصفحات القليلة السابقة عن بناء هذه القصبة في عهد عبد المؤمن . أما عن تاسيس المدينة على يد الخليفة ابى يعقوب يوسف ، فيصفه ابن صاحب الصلاة بقوله :

السلون قاعدة تتجمع فيها جيوش الموحدين قبل ان تتجه الى اسبانيا برسم الجهاد والفتح . ولهذا اطلق عليها المنصور اسم رباط الفتح [١] وأمر بتعميرها وتحصينها حتى صارت كما يقول ابن عذارى « معقل الدنيا ارتفاعا ووثاقة ومناعة » [٢] . ولم يلبث اسم رباط الفتح أن غلب على هذه المدينة التي قدر لها أن تصبح اليوم عاصمة للمملكة المغربية [٣] .

وتظهر براعة هذا المجاهد الكبير في انه استطاع ان يتجنب لقاء أعدائه في أسبانيا مجتمعين وأن ينفرد بهم واحدا بعد الآخر . وهذه الخطة هي التي سار عليها نابليون بونابرت في العصور الحديثة . وكانت سر عظمته . وقد شرح المنصور هذه السياسة اللولبية المرنة في خطاباته الرسمية التي وجهها الى رعاياه . اذ بين فيها أنه قد آثر التحالف مع ملكي قشتالة وأراجون كي يتفرغ لمحاربة ملك البرتغال ، ثم رأى أن يتحالف مع ملكي ليون وأراجون كي ينفرد بملك قشتالة في المعركة [٤] .

وبدأ المنصور حركته الجهادية سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) بمهاجمة

وتقدم الخليفة جيوشه على فرسه الى ان بلغ اسوار القصبة المهدية التي بناها والده ثم دار بفرسه حتى صار مواجها لجنوده ، فبارك جمعهم وطلب منهم البقاء والبناء ، فأخذ الناس يتنافسون في ذلك .

(١) سبقت الاشارة الى أن مكان هذه المدينة كان رباطا على برغواطه من قديم ثم جاء المنصور فاكد هذا المعنى حينما أطلق عليها اسم رباط الفتح . ومن الطريف أن عبد الواحد المراكشي سماها في كتابه المعجب ص ٢٦٦ اسكندرية المغرب لانها كانت تشبهها في اتساعها وحصانتها وحسن تقسيمها (السلاوى جـ ٢ ص ١٨١) .

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع جـ ٤ ص ٢٣٩

(٣) كان ذلك منذ سنة ١٩١٢ م حينما اختارها المارشال الفرنسي ليوتي Lyautey مركزا اداريا للمغرب .

(٤) نشر هذه الرسائل ليفي بروفنسال تحت عنوان :

(Lèvi Provençal : Les Trente Sept Lettres Officielles Almohades pp. 218 - 228 (Rabat 1941)

البرتغال التي سبق أن استشهد فيها والده . فهاجمها برا وبحرا . واكتسح أراضيها ، ولم يجرؤ ملكها سانشو انريكث Sancho I Enriquez (ابن الرنك) على مواجهة المنصور في معركة عامة مكشوفة . بل ظل مختفيا وراء جدرانه لا حول له ولا قوة . وكان للاسطول الموحدى قصب السبق في هذه الحملة . اذا استطاع قبيل المعركة بقليـــل أن يحرز نصرا على الاسطول البرتغالي سنة ٥٨٦ هـ ، ويعكس عدة من أجفانه فيصيرها اسلامية بعد أسر جميع من كان فيها . وقد اعتبر هذا النصر من بواكر الفتوحات . وهنىء الخليفة المنصور على ذلك مثل قول الشاعر ابن مجبر

دلائل فتح كان يذخرها الدهر فلما أردت الغزو أبرزها النصر [١]

كذلك شاركت البحرية خلال هذه الحملة بنقل المعـدات وآلات الحصار والتعاون مع القوات البرية في الهجـوم على الثغور الساحلية البرتغالية . وقد انتهت هذه العمليات باسترداد مدينـة شلب Silves والاستيلاء على القاعدة البحرية الهامة قصر أبي دانس Alcacer do Sal سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) وقد أشاد ابن عذاري بالخفة والسهولة التي امتازت بها تحركات قطع الاسطول الموحدي بقوله : « ووصلت الاجفان البحرية بالعدد الحربية وقد تسابقت لدخول الوادي بتيسير يعجز العقول عن تكييفه . فبهت الذي كفر . وسقط في أيدي المشركين من كل من ألقى السمع وأبصر [٢] » . ويبدو أن قوة البرتغاليين قد انهارت تماما بعد هذه الحملة بدليل أننا لم نعد نسمع بعد ذلك عن دخولهم في حرب ضد المنصور .

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب جـ ٤ ص ١٧٧

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع جـ ٤ ص ١٨٤ ، عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٨٠.

ثم تحول المنصور نحو مملكة قشتالة في قلب أسبانيا . وانتصر على ملكها الفونسو الثامن الملقب بالصغير El Ghico عند حصن الارك Alarcos من اعمال قلعة رباح Calatrava سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) . ثم اعقب هذا النصر بسلسلة من الانتصارات الاخرى في شمال قشتالة خرب فيها أرباض طليطلة واستولى على بعض الحصون المحيطة بها مثل مجريط Madrid ووادي الحجارة Cuadalajara ووصل الى أراض لم تطأها أقدام المسلمين منذ ايام المنصور بن ابي عامر . ولعل هذا هو السبب الذي جعل المؤرخين يشبهون المنصور الموحدي بالمنصور بن أبي عامر [1] . ولا شك أن البحرية كانت من وراء هذه الانتصارات البرية ، تعمل على حراسة المضيق وحماية المواصلات ونقل الحشود والمعدات والرقاصين (عمال البريد) بين العدوتين .

ولعل اكبر دليل على اختصاص الموحدين في ذلك الوقت بالاساطيل الحربية ، هو ما ترويه المصادر من أن عاهل مصر صلاح الدين الايوبي أرسل في سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) سفيرا من قبله وهو الامير عبد الرحمن ابن منقذ الى خليفة المغرب يعقوب المنصور ، يطلب اعانته بالاساطيل لتحول بين اساطيل الصليبيين وبين امداد النصرانية بالشام ، ولمنازلة ثغور عكا وصور وطرابلس التي سقطت في أيدي الصليبيين . وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور قد رفض هذا الطلب لان صلاح الدين لم يلقبه في

---

(١) راجع تفاصيل معركة الارك في (ابن عذارى جـ ٤ ص ١٩٣ — ٢٠٥ ، الشريف أبو القاسم محمد الغرناطي : كتاب رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة جـ ٢ ص ١٥٦ (القاهرة ١٣٤٤ هـ) راجع كذلك Huici Miranda la Campana de Alarcos p. 25-27 Revista del Instituto de Estudios Islamicos de Madrid, Vol. II, 1954.

رسالته بأمير المؤمنين اي لم يعترف بخلافة الموحدين . فقد ذهب بعض المؤرخين الى ان المنصور قد ارسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع الصليبيين من سواحل الشام [١] .

كذلك أورد صاحب روض القرطاس مثلا آخر يدل على تفوق البحرية في ذلك الوقت ، وهو الخطاب الذي أرسله ملك قشتاله الفونسو الثامن الى الخليفة المنصور يطالبه فيها بارسال أسطول من المراكب والشواني والطرائد والمسطحات . كي يجوز اليه بجيوشه ويقاتله في بلده [٢] . هذا الى جانب رواية ابن سعيد المغربي (ق٧هـ) عن تجنيد المغاربة المقيمين في مصر للعمل في الاسطول المصري استنادا الى الفكرة التي كانت شائعة في المشرق عن اختصاصهم بهذا العمل لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر [٣] . فأمثال هذه الروايات ان دلت على شيء فانما تدل على تفوق البحرية المغربية والاندلسية في ذلك العهد .

ثم توفي الخليفة يعقوب المنصور سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٩ م) . وقد أثارت وفاته حزنا عميقا في الاوساط الاسلامية [٤] . الا انها في الوقت

---

(١) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٢ — ١٦٣

(٢) ابن ابى زرع : روض القرطاس ص ١٤٠ والمسطحات من أكبر السفن الاسلامية وربما سميت كذلك لان لها سطحا .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١١١ — ١١٢

(٤) يقال ان الكثيرين من الناس كذبوا وفاته ، وقال البعض انه قد تخلى عن الملك وذهب خفية الى الاندلس حيث يرابط في ثغورها لجهاد الكفار ، وقال البعض الاخر بل انه توجه الى البيت الحرام وجاور في المدينة عند قبر الرسول حيث يخفى امره ، وقال فريق ثالث بل انه رحل الى الاراضي المقدسة بفلسطين لجهاد الصليبيين هناك . وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وقالوا بأن المنصور مات في المغرب ودفن بجوار أبائه في تينملل .

راجع (الزركشي : تاريخ الدولتين ، الموحدية والحفصية ص ١١ — ١٢ ، الشريف الغرناطي : رفع الحجب المستورة جـ ٢ ص ١٥٥ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٤٣١ — ٤٣٢ ، ابن عذارى جـ ٤ ص ٢١١) .

نفسه حركت أطماع الطامعين من أعداء الدولة من جديد . فعاد بنو غانية الميورقيون الى شن غاراتهم على افريقية ، وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد . والدعاء فيها للخليفة العباسي جريا على عادة أسلافهم المرابطين .

كذلك حاول عبدالله بن غانية في سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) أن يسترد جزيرة يابسة Ibiza من أيدي الموحدين ، فتحرك اليها باسطوله من جزيرة ميورقة وحاصرها من جميع نواحيها ولكن أهلها قاوموه بشدة . واستنجدوا بأسطول الموحدين ، الذي كان قريبا منهم ، فأسرع لنجدتهم بقيادة أمير البحر ابن ميمون ، واشتبك مع ابن غانية في معركة بحرية انتصر عليه فيها ، وظفر منه بطريدتين أضرمها نارا ، ورجع عبدالله بن غانية خائب الوجه [١] .

ورأى الخليفة الموحدي الجديد أبو عبدالله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور (٥٩٥ — ٦١١ هـ ١١٩٩ — ١٢١٤ م) أن استقرار نفوذ الموحدين في افريقية لن يستتب الا اذا استولى على جزر البليار ، قاعدة بني غانية ، ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدون في افريقية . لهذا صمم الناصر على احتلالها كلها [٢] .

ولقد أعد الناصر لهذا الغرض حملة ضخمة في ثغر دانية Denia ، أسند قيادة الاسطول فيها الى عمه ابي العلاء ادريس بن يوسف عبد المؤمن ، كما أسند قيادة الجيش الى شيخ الموحدين أبى سعيد عثمان بن

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢١٦

(٢) يلاحظ أن الجزيرة الصغرى يابسة كانت في يد الموحدين منذ سنة ٥٨٣ أيام المنصور ، والمراد هنا احتلال جزيرتي ميورقة ومنورقة .

أبي حفص • وكانت الحملة تتكون من الفين ومائتي فارس • والرماة سبعمائة. والرجالة خمسة عشر ألفا، غير رجال الاسطول• وكان الاسطول في ثلاثمائة جفن، منها سبعون غرابا، وثلاثون طريدة. وخمسون مركبا كبارا، وسائرها قوارب منوعة • وأما العدد والسلاح والمجانيق والسلالم والمساحي والفؤوس والمعاول والرقائق والحبال فشيء لا يأخذه عدد، وكذلك الدروع والرماح والبيضات والاتراس والدرق والقسي وصناديق النشاب وجملة وافرة من الطعام، فأدوا صلاة الجمعة بيابسة، وأقلعوا غدوة السبت الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٩٩ هـ • (١٢٠٣)، فأتوا ميورقة Mallorca ونزلوا فيها وتقدم الجنود نحو المدينة. بينما دار الاسطول بالمرسى مع ابي العلاء. وخرج اليهم عبدالله بن غانية بجموعه، ودافع كل الدفاع ثم انهزم وقتل. وأغلقت المدينة بابها. فأحاطت بها الرماة وغزاة البحر، فتغلبوا عليها. فدخلت ونهبت ولم يسلم الا قصبتها • ودخل البلد السيد ابو العلاء قائد الاسطول، والشيخ ابو سعيد قائد الجيش، ورأس عبدالله ابن غانية معهما على قناة بيد رجل غزى كان قطعه، فنهيا الناس عن النهب، وأمرا بضرب عنق رجل فعل ذلك وخالف النهى، وطيف برأسه، وأمنا الناس، ونودى بالامن في الأزقة والقصبة، فخرج الناس وأمنوا. وكتبا الى الملك الناصر بالفتح [١]• ويضيف ابن عذاري أن السيد أبو العلاء أسرى بأسطوله الى الجزيرة الثانية منورقة Menorca، وكان ابن غانية قد ترك عليها مولى أبيه ابن نجاح [٢] • السالف الذكر، فبطش الاسطول بأهلها قبل التئام أحوالهم وترتيب قتالهم، فدخل البلد عنوة،

---

(١) راجع (عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٣١٤ — ٣١٥، الحميري : الروض المعطار ص ١٨٩).

(٢) يسميه المراكشي (المعجب ص ٢١٧) بالزبير بن نجاح ويقول بان الموحدين قتلوه وبعثوا برأسه الى مراكش.

وقبض على ابن نجاح وارسله الى العاصمة مراكش فهلك بها [١] . وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو البليار . وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يتبع الخليفة الناصر فلول بني غانية في افريقية . فتحرك اليهم بجيشه وأسطوله [١] سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) واستولى على تونس والمهدية . وفر يحيى بن غانية بأهله وولده الى صحراء طرابلس . ثم رأى الناصر أن استمرار بقاء نفوذ الموحدين في افريقية يتوقف على اقامة حاكم دائم فيها يكون له مطلق التصرف في ادارتها . فاختار لهذا الغرض واليا من قرابته وهو الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني جد الملوك الحفصيين [٢] .

وبعد أن تم للناصر توحيد المغرب الكبير ، تقدم بجيوشه وأساطيله نحو الاندلس للقيام بالدور الذي كان يحلو له ولآبائه من قبل وهو جهاد الممالك النصرانية في أسبانيا .

واستطاع الاسطول الموحدي في بادىء الامر ان يحرز نصرا باهرا على اسطول ملك اراجون اذ يقول ابن عذاري : وفي سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) تحرك السيد أبو العلا قائد أساطيل البرين الى بلاد برشلونة بجميع أجفان العدوة والاندلس على معاندة ومنافسة من أهل البلاد في الاحتفال ، وتسكن من العدد الوافرة والاموال ، فكانت أحسن حركة للمسلمين ، وأوحش فجيعة وأعم وقيعة جرت على الغزاة البحريين ، وأوقع خسارة كانت بقلوب الكافرين [٣] .

غير أن الاوضاع السياسية في أسبانيا في ذلك الوقت ، قد تغيرت عما

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢١٦ .

(٢) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٩٣ ، رحلة التجانى ص ٣٦٢ .

(٣) ابن عذارى : نفس المرجع جـ ٤ ص ٢٤٣ .

كانت عليه في عهد المنصور . ذلك أن الاسبان لم يكتفوا بتوحيد صفوفهم بل اعلنوا الدعوة لحرب صليبية في اوربا • وبارك البابا انوسنت الثالث حركتهم . فجاءتهم جيوش جرارة من ايطاليا وفرنسا والمانيا • ولم يستطيع الخليفة الناصر الصمود أمام هذه القوى الصليبية المتحالفة. فدارت الدائرة عليه وقضى على معظم جيشه في موقعة العقاب Las Navs de Tolosa سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) •

ولقد انهار تماما نفوذ الموحدين في الاندلس بعد هذه الكارثة ، وأخذت المدن الاندلسية تتساقط في يد المسيحيين • وقد شجعت هذه الحالة على قيام بعض الرؤساء الاندلسيين بمحاولة الاستقلال بحكم الاندلس بغية انقاذها من تلك النكسة ، ولعل الارجاف والنبوءات التي سادت البلاد في ذلك الوقت بتحديد اسم المخلص المنتظر ، لخير دليل على ما كانت تحس به البلاد من فراغ وشغور في الحكم . ومثال ذلك قول ابن الخطيب « وكان الناس يرتقبون ظهور طالب للأمر اسمه محمد واسم أبيه يوسف . وهي العلة المحركة لمحمد بن يوسف بن هود الثائر بمرسية ، ثم لمحمد بن يوسف بن نصر بن الاحمر بعده بأرجونة ، وجرى على الناس بسبب ذلك في زمن الموحدين امتحان شقي به قوم ممن وافق هذا الاسم أسماؤهم أو أسماء آبائهم ، وقتل بسبب ذلك شخصان من أهل جيان [1]•

ولقد استطاع ابن هود في بادىء الامر أن يجمع شمل معظم بلاد الاندلس ، كما أطاعته سبتة ورباط الفتح وسلا بعضا من الوقت • ولكي يكسب حكمه الشرعية اللازمة ، دعا للخليفة العباسي ببغداد المستنصر بالله الذي أرسل له بدوره خلعته وتقليده الذي يخول له حكم الاندلس •

---

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٧٨ (القسم الثاني) ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٥٦ .

واستعان ابن هود في قيادة جيوشه وأساطيله بشخصية طريفة مغامرة وهي شخصية المقدم الغشتي . وكان هذا الرجل في الاصل صعلوكا داعرا يقطع الطريق ، وتحت يده جماعة من انجاد الرجال ، وسباع البراز . ممن اشتهر أمرهم في تلك النواحي بشرق الاندلس ، مغاورين [١] فيها للروم المجاورين اليها حتى اشتد جنوده هنالك بالارض ومن عليها . فنهض اليه ابن هود . وعرض عليه الانضمام اليه ، فوافق الغشتي بشرط ان يوليه قيادة الاسطول بالاندلس اذا تم له الامر ، وقال له : نستفتح الامر بمغاورة الى ارض العدو باسمك وعلى سعدك : ففعلوا وجلبوا كثيرا من الغنائم والاسرى . ثم وفى ابن هود للغشتي بعهده . فولاه قيادة أسطول اشبيلية ثم اسطول سبتة مضافا الى امرتها . فلما علا سعده قام عليه اهل سبتة وأرادوا قتله ، ففر امامهم وخفى أثره الى أن تحقق بعد ذلك خبره . فقيل انه دخل في زورق صغير ليهرب فيه الى الاندلس ، فوقع في ايدي العدو اسيرا ، فحمل الى جهة غرب الاندلس ، ودام في الاسر أعواما كثيرة . ولو علموا أنه الغشتي لقتلوه او طلبوا منه مالا كثيرا ، لانه كان قد ضربهم في البحر ، وله فيهم جملة غزوات قتلهم فيها واستأصلهم وشاع ذكره في الآفاق حتى ضرب به المثل لزعامته وشهامته [٢] .

على أن جهود ابن هود في توحيد الاندلس ، لم تلبث ان اصطدمت

---

(١) انتقلت كلمة المغاور بمدلولها ولفظها الى اللغة القشتالية باسم Almogavar ومعناها المحارب الذي يغير على الحدود المجاورة وتطلق كذلك على قرصان البحر

راجع : (Eguilaz Glosario atimologico de las palabras espanolas p. 233).

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٢٥٥ — ٢٥٧ ، ويضيف ابن عذارى أن هذا القائد ترك الاندلس في شيخوخته ومات برباط اسفي بالمغرب . راجع كذلك (ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٧٩) .

بسطامع الاسبان من ناحية [١] . والرؤساء الاندلسيين من ناحية اخرى ، وكانت النتيجة ان جرت عليه وقائع وهزائم كثيرة ، وانتهى الامر باغتياله سنة ٦٣٥ (١٢٣٨ م) [٢] . وتحول حكم الاندلس الى بنى نصر أمراء غرناطة .

وفي خلال ذلك الوقت تكالبت قشتاله واراجون على اراضي المسلمين بالاندلس ، فاستولى ملك قشتالة وليون فرناندو الثالث الملقب بالقديس El Santo (١٢١٧ — ١٢٥٢ م) على نهر الوادي الكبير بما عليه من عواصم ومدن هامة مثل قرطبة سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) . واشبيلية وقادس وشريش سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ، فصار لهم منفذ الى مضيق جبل طارق بعد أن كان التحكم فيه للمسلمين فقط . اما ملك اراجون خايمي الاول الملقب بالفاتح El Conquistador (١٢١٣ — ١٢٧٦ م) ، فقد أغار بأساطيله وجيوشه على شرق الاندلس . وحاصر مدينة بلنسية برا وبحرا . وقد حاول أمير تونس ابو زكريا الحفصي انقاذ هذه المدينة . فأرسل اليها في المحرم سنة ٦٣٦ هـ أسطولا مزودا بالمال والسلاح والمؤن ، ولكن الاسطول لم يستطع اختراق الحصار المضروب حولها فاضطر الى العودة بعد ترك ماسوى المال من أطعمة واسلحة في مدينة دانية . ولم تلبث بلنسية بعد شهر واحد أن سقطت في يد العدو (صفر سنة ٦٣٦ هـ — ١٢٣٨م) [٣]

---

(١) يروى ابن الخطيب ان ابن هود ارسل الى البابا في روما رسولا من قبله ليطلعه على العقود المبرمة بينه وبين ملك قشتالة وكيف ان هذا الاخير قد نكث عهده ولم يف بشرطه . وكان سفير ابن هود هو ابو طالب بن سبعين ، أخو ابى محمد عبد الحق بن سبعين المتصوف المرسى المعروف وقد اشاد البابا بمنزلته .

راجع (ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، ورقة ٢٨١ — ٢٨٢)

(٢) (اغتاله ابن الرميمي عامله على المرية (ابن عذارى جـ ٤ ص ٢٥٨ ، ٣٣٥) .

(٣) ابن عذارى ص ٣٤٤ — ٣٤٥

وفي نفس هذه السنة التي سقطت فيها بلنسية . هاجم الجنويون ثغر سبتة بغية فصل المغرب عن الاندلس والتحكم في مضيق جبل طارق • غير أن يقظة حاكمها الحاج ابي العباس اليانشتي. وسرعة استنجاده بالقبائل المجاورة ، قضت على هذه المحاولة . واضطر الجنويون الى الفرار بعد ان ذبح معظمهم ونهبت اموالهم وفنادقهم التي بالمدينة • ولقد عاود الجنويون الهجوم على سبتة في مائة مركب للانتقام لضحاياهم ، فحاصروها ونصبوا المجانيق عليها ، ولكنهم لم يتمكنوا من النيل منها لقوة اسوارهـا . واضطروا الى الاقلاع عنها بعد أن دفع لهم اليانشتي مالا معلوما تعويضا لهم عن بعض خسائرهم [١] . [٢] •

ولم تقتصر فتوحات ملك اراجون خايمي الاول على مدن الساحل الشرقي ، بل شملت ايضا جزر البليار ، يعاونه في ذلك كثير من الجنويين وأهل بروفانس • فاستولى على جزيرة ميورقة سنة ٦٢٧ هـ [٣] (١٢٣٠م) ثم يابسة سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥م) • أما الجزيرة الوسطى منورقة ، فقد ظلت في يد أميرها ابى عثمان سعيد بن حكم الاموى (ت٦٨٠ هـ = ١٢٨١ م).

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٣٤٦ — ٣٤٧ وكذلك ص ٢٨١ حيث ترد اشارات عن قوة أسوار سبتة وعدم تأثرها بمقذوفات المجانيق .

(٢) يروى ابن عذارى ص ٣٤٧ ان بعض اهل سبتة يؤرخ هذه الحملة في سنة ٦٣٣ هـ وان كان الراى الغالب هو سنة ٦٢٦ هـ .

(٣) تذكر المدونات الاسبانية انه لما سقطت ميورقة في أيديهم وجدوا فيها مكانا محاطا باسوار وحصون ويحفظون بداخله السفن على الارض ويطلقون عليه اسم دارسانة Darzana ، وقد اهدى الملك خايمى الاول هذا المكان الى جماعة الفرسان الاستبارية كي يمكنهم عمل منازل جميلة بضم هذه السفن بعضها ببعض .

راجع) Granicas de los reyes de Castilla coleccion ordenada por don Cayetano Rosell, 1, cap. xvII p. 163 & Torres Balbas : Atarazanas Hispanomusulmanas, Al Andalus, 1946, fasc. 1 p. 136).

ثم ولده من بعده ابى عمر حكم بن سعيد حتى سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م)
وقد أفرد ابن الخطيب لكل منهما ترجمة وافية . وقد شرح في كلامه كيف
استطاع ابو عثمان سعيد بقوته ويقظته . أن يحمي منورقة من خطر الغزو ،
اذ يقول : « وكان من سيرته ان يقتل الناس عقابا على شرب الخمر ،
فقال له المحدث ابن مفوز (تشديد الواو مع كسرها) محتجا : حفظك الله،
تطلب مني رواية السنة وتصحيحها وتتعدى حدود الله هكذا ؟ . والله
لاسمعت مني حرفا أبدا . » فقال له : « يا فقيه ، هذه الجزيرة كثيرة
العنب ، والناس يشربون الخمر بها ويسكرون ، فيضيعون الاحتراس ،
فيظهر علينا العدو . » اما في ترجمة ابنه ابى عمر بن سعيد ، فيقص ابن
الخطيب كيف كانت نهايته المحزنة غرقا في البحر مع أهله جميعا وهو
في طريقه الى تونس ، بعد أن رفض ما عرضه عليه قائد السفينة من ركوب
الشانى الذي يتبع المركب لينجو به وحده » [1] .

وصف الشعراء لاسطول الموحدين :

كان أسطول الموحدين مثل غيره من الاساطيل الاسلامية الاخرى ،
موضع اطراء الشعراء ومديحهم . الا انه يلاحظ أن معظم القصائد التي
قيلت فيه ، كانت في مناسبات سياسية او حربية معينة ، وهذا أعطاها
قيمة تاريخية الى جانب قيمتها الادبية . ومثال ذلك القصائد التي انشدت
بمناسبة زيارة الخليفة عبد المؤمن للقاعدة البحرية « مدينة الفتح » التي
بناها على جبل طارق سنة ٥٥٥ هـ . وحسبنا أن نقتبس منها بعض الابيات
مثل قول الشاعر القرشي القرطبي المعروف بالطليق [2] :

---

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام (القسم الثاني) ص ٢٧٥ ــ ٢٧٧ ، ابن الابار :
الحلة السيراء جـ ٢ ص ٣١٩ .

(٢) يقال انه حفيد طليق النعامة الذي أفرج عنه المنصور بن ابى عامر بسبب اسطورة
النعامة .

راجع (المراكشي : المعجب ص ٢١٦ ــ ٢١٧)

يرمى بهم ظهر طرف بطن سابحة ... فالبر في شغل والبحر في صخب
وتعبر الماء منهم نار عادية ... يصلى بها عابد الاوثان والصلب
ملك اذا ما دعته الحرب من بعد ... طار السفين أمام الجحفل اللجب(١)

وفي هذه المناسبة أيضا يقول الشاعر الاندلسي ابو عبدالله الرصافي :

تسنم الفلك من شط المجاز وقد ... نودين: يا خير أفلاك العلا سيري
فرن يحملن أمر الله من ملك ... بالله منتصر في الله منصور
لما تسابقن في بحر الزقاق به ... تركن شطيه في شك وتحيير
ذي المنشئات الجواري في أجرتها ... شكل الغدائر من سدل وتضفير
من كل عذراء حبلى في ترائبها ... ردعان من عنبر ورد وكافور
تخالها بين أيد من مجادفها ... يغرفن في مثل ماء الورد مبخور
وربما خاضت التيار طائرة ... بمثل أجنحة الفتخ الكواسير (٢)

وفي سنة ٥٦٠ هـ تحرك السيد الاعلى أبو حفص عمر بن عبد المؤمن من مراكش لمقابلة أخيه السيد ابى سعيد أمير اشبيلية في جبل طارق . وفي اليوم التالي من وصوله سبتة عبر غراب طيار من الجزيرة الخضراء يعلم بحلول السيد ابى سعيد بجبل الفتح فعبر السيد أبو حفص البحر في ذلك اليوم ، ومعه جبلة الناس في القطائع المعدة لعبوره في هيئة عظيمة للنظارة من نشر البنود وقرع الطبول كذلك برز السيد ابو سعيد في قطائعة بجبل الفتح براياته ما أبهت الحاضرين . وفي هذا اللقاء انشد الشاعر أبو عمر ابن حربون قصيدة نذكر منها :

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ١٥٩ — ١٦٤ .
(٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

يا من رأى الفلك على الموج طافية　　كما كفأت قبابا وسطها العمد
ينساب منهن في أعلى غواربه　　أساود سكنت أجوافها أسد
بحر كأن أبا حفص بصهوته　　لقمان والمركب الجاري به لبد[١]
تعجبوا من غراب فوق غاربه　　نهلان ذو الهضبات الشم أو أحد[٢]

وحينما عبر الخليفة ابو يعقوب يوسف الى الاندلس في سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) مدحه الفقيه أبو محمد المالقى بقوله :

أو راكب فوق متن الماء مرتفق　　كأنه قيصر والقلع اكليل
فالبر كالبحر اذ تستن أدرعها　　والبحر كالبر اذ يصطف أسطول[٣]

كذلك أورد المقرى أبياتا عديدة في وصف الاسطول الموحدى نقلا عن شعراء عديدين امثال ابن الابار البلنسى وابى عمرو يزيد بن عبدالله اللخمى الاشبيلي وغيرهما [٤] .

البحرية في عهد بنى مرين ملوك المغرب

لما ضعف أمر الموحدين بالمغرب . واخذ كل رئيس يستقل بناحيته ، استطاع الفقيه الشريف ابو القاسم بن ابي العباس العزفي بمساعدة قائد البحر الاندلسي ابى العباس الرنداحى أن يستقل بسبتة وأعمالها سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) وقد أطاعه الناس جميعا لان بيت بني العزفي كان من بيوتات سبتة المعروفة بالدين والعلم والرئاسة .

---

(١) لقمان شخصية أسطورية ينسب اليها الحكم والاقوال والامثال ، ويقال انه ابو النسور ولبد آخر نسوره .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢٥٣ وما بعدها :

(٣) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٤٢١ — ٤٢٣ .

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ٥ ص ١٩٨ — ٢٠٠ ، أزهار الرياض جـ ١ ص ٣٣

وفي سنة ٦٦٣ هـ بعث الفقيه أبو القاسم العزفي اسطوله الى مدينة أصيلا فهدم اسوارها وقصبتها خوفا من احتلال الاسبان لها . ثم أعقب ذلك باحتلال مدينة طنجة سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) فصار مسيطرا بذلك على السواحل الشمالية للمغرب [١] .

ومن هذا الموقع الاستراتيجي الهام : أخذ ابو القاسم يبث سفنه في انحاء المضيق للتجسس على تحركات الاساطيل الاسبانية المعادية . واستطاع بفضل هذه السياسة اليقظة ان يحذر اهالي المراسي والسواحل المغربية قبل وقوع الغارة عليهم بوقت كاف . ومثال ذلك تحذيره لاهالي مدينة سلا من الغارة البحرية التي شنها عليهم ملك قشتاله الفونسو العاشر (العالم El Sabio) سنة ٦٥٨ هـ قبل وقوعها بأيام قلائل [٢] .

وقد وجه اليه الخليفة المرتضى الموحدى رسالة شكر على تحذيراته ونصائحه [٣] . [٤] .

ولما قامت دولة بني مرين بالمغرب ، وقضت على نفوذ بني عبد المؤمن

---

(١) السلاوي : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٤ - ٢٥ .
(٢) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٤ ص ٤٢٣ .
(٣) ابن عذاري : نفس المرجع ص ٤٢٥ .
(٤) يؤثر عن هذا الفقيه ابى القاسم العزفي انه اول من احتفل بالمولد النبى (١٢ ربيع الاول) احتفالا رسميا ، وجعله عيدا من أعياد الدولة الوطنية الرسمية شاركت فيه بأموالها ونفوذها فاكسبته بما يستحقه من روعة وبهجة . ولم تلبث هذه العادة أن انتقلت الى فاس وغرناطة وتلمسان وتونس وعمت جميع بلاد المغرب الاسلامي فصار يحتفل به رسميا هنالك الى اليوم : وما زالت مدينة سلا تختص بموكب الشموع الذي يخرج منها في هذه الليلة العظيمة . هذا ومن المعروف أن الفقيه أبا القاسم العزفى قد ألف كتابا حول هذا الموضوع اسماه « الدر المنظم في مولد النبى المعظم » .
وقد توفي هذا الحاكم العالم سنة ٦٧٧ هـ . راجع (ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٤٥٢) .

نهائيا سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) وجدت أن اتمام توحيـد المغرب يقتضي ضرورة الاستيلاء على هذه القواعد البحرية الشمالية التي تحت طاعة بني العزفي • واستطاع السلطان ابو يوسف يعقوب بن عبد الحـق المريني (٦٥٦ ـ ٦٨٥ هـ ـ ١٢٥٨ ـ ١٢٨٦ م) أن يستولى على مدينة طنجة من أيديهم سنة ٦٧٢ هـ • أما مدينة سبتة فقد استعصت عليه واضطر ان يبرم اتفاقا مع صاحبها ابي القاسم العزفي ينص على أن يبقى هذا الاخير معتصما بحصنه . وان يؤدي لسلطان المغرب خراجا معلوما كل سنة [١] •

ولقد أخذ المرينيون منذ ذلك الوقت يوجهون عنايتهم نحو الاسطول. وكان السلطان ابو يوسف يعقوب هو اول المهتمين به . وينسب اليه بناء دار الصناعة بمدينة سلا . على يد المهندس الاندلسي محمد بن علي بن عبدالله بن محمد بن الحاج الاشبيلي الاصل (ت ٧١٤ هـ) • وقد بنيت قبلي مدينة سلا من جهة وادي أبي الرقراق . وجعل لها بابان كان الوادي يدخل من احداهما ويخرج من الآخر بصناعة هندسية . حيث جلب الماء من الوادي الى الباب المسامت لجامع حسان في ترعة عميقة . فاذا صنعت سفينة جديدة بهذه الدار . وأريد ارسالها في الوادي . فتحت الترعـة فيدخل الماء وتعوم فيه السفينة . فتخرج من الباب القبلي سابحة على وجه الماء الى ان تقع في الوادي . ولذلك ارتفع قوس الباب القبلي جدا . ليخرج المركب منشور القلاع [٢] كذلك اهتم السلطان يعقوب بتحصين

---

(١) السلاوى : الاستقصا جـ ٣ ص ٣٤ ـ ٣٥ . ولقد استمرت سبتة في طاعة بنى العزفى الى ان استولى عليها سلطان غرناطة ابو سعيد سنة ٧٠٣ هـ ثم استعادها سلطان المغرب ابو الربيع سليمان المرينى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) وظل بنو العزفى يتمتعون بنفوذهم القديم في ظل الدولة المرينية (السلاوى : الاستقصا جـ ٣ ص ٨٢ ، ١٠١) .

(٢) راجع (محمد بن على الدكالى السلاوى : الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز ، مخطوط بخزانة الرباط رقم D 1320 ولا يزال هذا الباب القبلى لدار

بعض القواعد البحرية التابعة له على الضفة الاخرى للمضيق ومثال ذلك البنية او المدينة التي بناها بجوار الجزيرة الخضراء لينزل فيها جيشه بعيدا عن الاهالي [١] .

وجاء بعد السلطان يعقوب ولــده يوسف (٦٨٥ — ٧٠٦ هـ ١٢٨٦ — ١٣٠٦ م) الذي استمر على سياسة والده في انشاء الاجفان الغزوية بدار صناعة سلا ، كما بنى قصبة تطوان سنة ٦٨٥ هـ ، ثم بنى سور قصر المجاز الذي يعرف ايضا بقصر مصمودة والقصر الصغير بجوار طنجة سنة ٦٨٦ هـ [٢] .

على أن البحرية المرينية لم تبلغ ذروتها وقوتها الا في عهد السلطان ابى الحسن علــى المرينى (٧٣١ — ٧٤٩ هـ = ١٣٣١ — ١٣٤٨ م) . فيروى ابن خلدون ان هذا السلطان استكثر من بناء الاساطيل حتى بلغ مجموعها مثل عدة النصرانية وعديدهم [٣] . كذلك يذكر السلاوى ان

أساطيل هذا السلطان التي جاز بها في حملته على تونس في اواخر آيامه بلغ عددها نحو الستمائة قطعة . هذا ولم يتردد ابو الحسن في الاستعانة بخبرة الملاحين الجنويين في تنظيم بحريته حتى يضارع بها بحرية مملكتي أراجون وقشتاله في أسبانيا [٤] .

←

صناعة سلا قائما حتى اليوم ويعرف بباب الملاح اذ انه يجاور حارة لسكنى اليهود ، وقد جرت العادة في المغرب اطلاق اسم الملاح على الاحياء اليهودية . راجع كذلك (محمد المنونى . نظم الدولة المرينية ، مجلة البحث العلمى الرباط ، العدد الثانى مايو ١٩٦٤) .

(١) ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا ابى الحسن نشر نخبا منه ليفى بروفنسال في مجلة هسبريس سنة ١٩٢٥ ، السلاوى جـ٣ ص ٢) .

(٢) السلاوى : الاستقصا جـ ٣ ص ٨٩

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٦ .

(٤) السلاوى : نفس المرجع جـ ٣ ص ١٧١ . وهذا الاسطول للاسف عصفت به ←

ولم تقتصر عناية السلطان ابى الحسن المرينى على بناء الاساطيل ، بل اهتم ايضا بانشاء المحارس والمناظر على طول الساحل المغربي . كما بنى أبراجا للمراقبة في داخل البحر امام ميناء سبتة ليحول دون دخول سفن العدو في مرساها . وقد وصف كل ذلك الكاتب والخطيب المعاصر ابو عبدالله محمد بن مرزوق العجيسى التلمساني (ت ٧٨١ هـ) في الكتاب الذي ألفه عن هذا السلطان [1] وفيه يقول :

أنشأ هذا المولى من المحارس والمناظر ما لم يعهد بشله في عصر من الاعصار ، وحسبك ان من مدينة آسفى وهي آخر المعمور الى بلاد الجزائر ، جزائر بنى مزغنان ، آخر وسطى الغرب ، وأول بلاد افريقية ، محارس ومناظر اذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة ، ، وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين ، وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار وطلاع يكشفون البحر فلا تظهر في البحر قطعة تقصد بلاد المسلمين الا والتنيير يبدو في المحارس يتحذر أهل كل ساحل من السواحل ساحلهم . فأمنت السواحل في ايامه السعيدة.

ومن أعجب ما انشأه في هذا النمط : الابراج التي اجتمع أهل الخبرة بالمباني وعرفاء العمارة قبل أن تنشيء ليتصور بناؤها على الوجه الذي قدره واراده ، فجرت على اتم الوجوه والاحسان . فمنها برج الماء

< ... ريح شديدة حطمت معظمه وغرق الكثير من رجاله وفيهم جملة من العلماء والفقهاء . وفيهم جملة من العلماء والفقهاء . ونجا السلطان من الموت باعجوبة اذ قذف به الموج والماء على الساحل الجزائرى بنواحى تدلس .

(١) هو كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا ابى الحسن للخطيب بن مرزوق ، وقد نشر نخبا منه المستشرق الفرنسي ليفى بروفنسال في مجلة هسبرس تحت عنوان :

Lévi provençal : un *nouveau* texte d' histoire Mérinide
Le Musnad d' Ibn Marzuk, Hespéris ' tome V 1925)

الذي انشاه داخل البحر ووسط الامواج ببحر بسول من ساحل سبتة . وقد حضرت انشاءه . وكان قد اجتمع الملأ على عدم امكان بنائه هنالك . فنقلت الصخور التي هي كالروابي . والاحجار التي لا يتزحزح مثلها الا بهندسة واحكام وعجل . فالقيت في تلك النروش . وضم اليها امثالها حتى صارت جزيرة في وسط البحر ، فأقام عليها ذلك البرج المشيد المعروف هنالك . ثم امر بعمل جسر يسر من الساحل الى هذا البرج بحيث يتمكن مشي البهيمة عليه واتصال ممشاه من البر الى البرج . صان ذلك البرج جميع المرسى . فلا يتهيأ لاحد من المراكب الدخول لذلك المرسى الا ان يكون صديقا . والا فهو يشرف على جميع ما يدخل تحته ، وهو من أعاجيب معمورات المعمور . ومنها البرج الذي على الشحن أيضا من المدينة المذكورة ، وآخران من هذا النمط بالجبل المحروس [1] . (أي جبل طارق) .

كذلك اهتم السلطان أبو الحسن بتحصين القواعد البحرية التابعة للمرينيين على الضفة الاندلسية المقابلة . وأهمها جبل طارق الذي حرره من أيدي القشتاليين سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) وعمل على تحصينه وتزويده بالعدد والآلات .و قد زاره عقب ذلك الرحالة الطنجي المعاصر ابن بطوطة ووصفه بقوله « وتطوفت على الجبل ، فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن رضى الله عنه ، وما أعد فيه من العدد ، ووددت ان لو كنت من رابط به الى نهاية العمر » ثم يقول : « وبنى به مولانا ابو الحسن ، رحمه الله المأثرة العظمى — أي برجا كبيرا — بأعلى الحصن ، وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم بأحجار المجانيق ، فبناها مكانه وبنى به دار الصناعة لانشاء السفن ، ولم يكن به دار صنعة ، وبنى السور الاعظم المحيط

---

(١) ابن مرزوق : المرجع السابق ص ٢٠ — ٢١

بالتربة الحمراء الآخذ من دار الصنعة الى القرمدة [١] • (أي مصنع الآجر والقراميد) •

ولقد خاض السلطان ابو الحسن بأسطوله معارك بحرية عديدة ضد أساطيل اراجون وقشتاله انتصر في بعضها وانهزم في البعض الآخر ، وكلها تدخل في نطاق الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق الذي أفردنا له فصلا خاصا بعد ذلك نظرا لتشعب احداثه مع القوى الاخرى •

وولي بعد ابي الحسن ولده ابو عنان فارس (٧٤٩ — ٧٥٩ هـ = ١٣٤٨ — ١٣٥٨) الذي اهتم باعادة بناء الاسطول المغربي بعد تلك العاصفة المدمرة التي اودت بمعظمه خلال حملة القيروان المشئومة في اواخر أيام والده • وقد اشار ابن بطوطة الى الجهد الذي بذله السلطان ابو عنان في هذا الصدد بقوله : « ومما شاع من أفعال مولانا — أيده الله — انشاؤه الاجفان بجميع السواحل واستكثاره من عدد البحر ••• وأكد ذلك بتوجهه بنفسه الى جبال جاناتة [٢] في العام الفارط ليباشر قطع الخشب للانشاء ، ويتولى بذاته أعمال الجهاد » [٣] •

ولا شك ان هذه الاساطيل لم تكن تصنع بسلا فقط ، بل كانت تبنى أيضا في دار صناعة سبتة التي كانت تسمى ايضا بدار الانشاء • ولقد اشتهرت سبتة بسنجراتها او مناجرها ، وهي مصانع النجارة التي كانت تصنع

---

(١) ابو عبدالله محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ج ٤ ص ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، نشر وترجمة دفريمرى وسانجونيتي (باريس ١٩٢٢) .

(٢) جاناته في غرب زمور بأقليم الرباط . راجع (محمد المنوني : المرجع السابق ص ٢٢٣) .

(٣) ابن بطوطة : المرجع السابق ج ٤ ص ٢٥١

بها لوازم السفن وأنواع القسى المختلفة . كذلك اشتهرت سبتة بمراميها أو جلساتها التي يرابط فيها الرماة على ابعاد مختلفة لصد المغيرين . اذ كان الرمي من طبع أهلها فلا تجد منهم شريفا ولا مشروفا ولا كبيرا ولا صغيرا الا وهو بصير بالرمي وله تقدم فيه [1] .

هذا وقد سار ابو عنان على سياسة والده ، في توجيه عنايته نحو جبل طارق باعتباره قاعدة بحرية امامية هامة لبلاده . وقد بلغ من اهتمامه بهذه القاعدة أن أمر بعمل مجسم أو مثال لهذا الجبل ليضعه امام عينيه في قصره وفي ذلك يقول ابن بطوطة : —

« وجدد مولانا امير المؤمنين ابو عنان عهد تحصينه وتحسينه وزاد بناء السور بطرف جبل الفتح وهو اعظم اسواره غناء وأهمها نفعا وبعث اليه العدد الوافرة والاقوات والمرافق العامة ... وبلغ من اهتمامه بأمور هذا الجبل ان أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور ، يمثل فيه أشكال اسواره وابراجه وحصنه وابوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده وأهرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء . فصنع ذلك بالمشور السعيد فكان شكلا عجيبا أتقنه الصناع اتقانا يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال ، وما ذلك الا لتشوقه ، أيده الله الى استطلاع احواله وتهممه بتحصينه واعداده [2] » .

ولقد كان الاسطول في عهد السلطان أبى عنان موضع مديح عدد من الشعراء نذكر منهم كاتب الدولة في عهده ابا القاسم بن رضوان المالقي في قوله :

---

(١) راجع (محمد بن القاسم الانصارى السبتى . وصف سبتة في القرن التاسع الهجرى ، نشر ليفي بروفنسال ، مجلة هسبرس سنة ١٩٣١ ، الجزء الثاني عشر ص ١٥٦)

(٢) ابن بطوطة نفس المرجع ص ٢٥٧ ، ٢٥٩

ولمـا استقامت بالزقاق أساطل له   واستقامـت للسعود محامـلا
رآها عدو الله وانفض جمعـــه   وأبصر أمواج البحار أساطـلا
ومن دهش ظن السواحـل أبحرا   ومن ذهب خال البحار سواحلا
ومـن جندكم هبت عليه عواصف   تدمر ادناها الصلاب الجنادلا [1]

كذلك نذكر الشاعر احمد بن يحيى بن ابى حجلة التلمساني نزيل القاهرة في أبيات يخاطب بها أبا عنان :

فللـه مـا انشأته مـن مراكـب   ترادفها في البحر منـه تكاوس
قطائعها مثـل النجوم قلوعهـــا   وغربانها قطـع من الليل دامس
كـأن مجاديـف الغراب قـوادم   يطير بها والنسر في الافق كانس

وهذه الابيات قالها ابن ابي حجلة بمناسبة قدوم غراب لابي عنان في الرسالة الى الاسكندرية ، مما يدل على ما كان للاسطول العنانى من شهرة في الشرق العربي [2] .

كذلك يورد ابن الخطيب رسالة في هذا المعنى موجهة من سلطان غرناطة ابى الحجاج يوسف الى السلطان ابى عنان يقول فيها :

وقد كان ذاع الخبر الذي تروق فوق اعطاف الاسلام منه الحبر ، بما صرف الله اليه عزمكم من تجديد ما درس ، واحياء ما القح سلفكم واغترس ، من الاساطيل السابحة ، والتجارة الرابحة ، والاعمال الباقية الصالحة ، وأن الانشاء قد استدعى اليه الخلق ، والعزم تبلج منه الصباح

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٢٣٤

(٢) محمد المنونى : نفس المرجع ص ٢٢٣ نقلا عن مخطوط بعنوان منطق الطير بمكتبة الرباط رقم ١٩١٠ .

الطلق ، وشيم منه البرق وذهب الفرق . فلا تسألوا عن موقع هـذه الانباء من صديق يعدها من الله فضلا ومنا ، وعدو يسيء بها ظنا . فلكل منها شرب معلوم ، وحفظ مقسوم [١] .

أما عن قيادة الاساطيل فهي — كما يقول ابن خلدون — من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وافريقية ، ومرؤسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الاحوال ، ويسمى صاحبها في عرفهم الملند بتفخيم اللام منقولا من لغة الافرنجة [٢] .

ولقد رأس الاسطول المريني عدد من كبار قواد البحر في ذلك العصر نذكر منهم يحيى الرنداحي الذي تولى قيادة الاسطول في سبتة حتى سنة ٧٢٠ هـ ، وهو ينتمي الى بيت اندلسي عريق في القيادة البحرية بمدينة المرية [٣] ثم آلت القيادة بعد ذلك في عهد السلطان أبي سعيد عثمان والد أبي الحسن الى ثلاثة اخوة من بني العزفي بسبتة وهم أبو زيد عبد الرحمن بن أبي طالب الذي تولى قيادة اسطول سبتة ، ومحمد بن علي الذي تولى رئاسة دار الصناعة بمينائها ، ثم أبو زكريا يحيى الذي عين واليا على مدينة سبتة نفسها [٣] .

وفي عهد السلطان أبي الحسن المريني برز في هؤلاء الاخوة قائد

---

(١) ابن الخطيب . ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب جـ ٢ لوحة ٥٤ ، محمد المنوني : المرجع السابق .

(٢) لعلها الكلمة الاسبانية Almirante وأصلها امير البحر . راجع (ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٢) .

(٣) راجع (ابن القاضي : درة الحجال في غرة أسماء الرجـال جـ ١ ص ٧١ نشر علوش ، ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٢٤٧) .

(٤) راجع : (Levi provencal : Le Musnad d' Ibn Marzuq Hespéris, 1925, Tome V, p. 18.

البحر محمد بن علي الذي تولى القيادة العليا للاسطول وانتصر علــى أساطيل قشتالة وأراجون في مياه الجزيرة الخضراء سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠م) واستمر هذا القائد في منصبه الى أن قتــل بعد وقعــة القيروان سنة ٧٤٩ هـ [١] .

وفي عهد السلطان ابى عنان آلت القيادة العليا للاسطول الى الامير الغرناطى محمد بن يوسف بن الاحمر ، بينما تولى أحمد بن الخطيب قيادة أسطول طنجة . كما ولى أبو القاسم بن ابى بكر بن بنج قيادة اسطول جبل طارق [٢] . ولم يلبث هذا الاخير أن صار قائدا أعلى للاسطول في عهد السلطان ابى سالم المرينى (٧٦٠ — ٧٦٢ هـ) . ويوصم اسم هذا القائد بن بنج بتلك المأساة التي حلت بصغار امراء بنى مرين على يديه ، وقد وصفها ابن الخطيب وصفا مؤثرا بقوله :

« وصرف السلطان — أبو سالم — وكده الى اجتثاث شجرة أبيه ، وأن لا يدع من يصلح للملك ولا من يترشح للامر ، فالتقط من الصبية بين مراهق ومحتلم ومستجمع ، طائفة تناهز العشرين غلمانا روقة من اخوانه وأبناء اخوانه . فاركبوا البحر الى رنده ، ثم تعقب النظر فيهم ، فأركبهم جفنا غزويا موريا بتغريبهم الى المشرق مبعدا اياهم عن حدود أرضه ، ثم طير الى قائد الاسطول ابى القاسم بن ابى بكر بن بنج يأمره بتغريقهم عند انصرافه عن مليلة (Melilla) ، فأخرجوا ليلا من جوف السفينة من بين أمهاتهم الثكالى بعد أن جللتهم الذلة ومسهم الضر ، وعاث في شعورهم الحيوان لطول مقامهم في البحر شهورا عدة وأغرقوا : يركب الصبى منهم

---

(١) السلاوى . الاستقصا جـ ٢ ص ١٢٥

(٢) المنونى : نظم الدولة المرينية مجلة البحث العلمى بالرباط ، العدد الثانى مايو سنة ١٩٦٤ .

زبنى من تلك الزبانية ليخرجه الى البر ، فاذا خاض به الغسر . وقارب الضحضاح ظبه ، وأمسك أصحابه بيديه وغمسوا رأسه في الماء حتى تفيض نفسه ، الى أن كمل منهم تسعة عشر بدور ملك وشموس امارة . غذوا بالنعيم ، ومهدت لهم الارائك ، لم تعلق بهم شبهة توجب اباحة قطرة من دمائهم . حدثنى متولى هذا المكروه بهم بهول مصرعهم فقال : لقد علا منهم ليلتئذ الجثث حتى صارت هضبة ، وحفر لهم أخدود هيل عليهم ترابه [١] .

ومن العجيب ان ابن الخطيب الذي أعطانا هذا الوصف المؤلم . يورد أيضا خطابا وجهه الى هذا القائد ابى القاسم بن بنج يهنئه فيه على مولود أنجبه ، قال فيه :

« أبقاك الله أيها القائد الذي بأسه ضرم ، وشأنه شجاعة وكرم . ومحل ولايته من العدو حرم ... بلغنى الطالع لديك ، والوارد من حضرة المواهب الالهية عليك ، جعله الله أسعد مولود على والد ، وأقر عينك منه بالقائد بن القائد بن القائد . وقد نظمت له أبياتا ان أدركته بعدها حياتي بر وشكر ، أو كانت الاخرى رحم وذكر هى :

ارفع قسى المنشآت بسعـده	واستنجز النصر العزيز لوعده
وانظر اليه تلح اليـك بوجهه	سـة الشجاعة من أبيه وجده
لله من سيف لنصرك صـارم	ينساب ماء الحسن فوق فرنده
صدرت اليك بشارتي وتفاؤلي	بالامر قبل بروزه مـن غمده
يستبشر الاسطول منه بقائـد	كالبدر تحت شراعه او بنـده

---

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ص ٢٦٧ نشر احمد مختار العبادي .

والبحر يفخر منه يـوم ولاده   بملنده بن ملنده بن ملنده [١]

أما عن تحركات الاسطول ووصف مناوراته البحرية ، فحسبنا ان نورد في هذا المعنى بعض النصوص على سبيل المثال • فيقول السلاوى في وصف عبور السلطان ابى الحسن بجيوشه الى الاندلس : ثم شرع السلطان أبو الحسن في أجازة العساكر ، وانتظمت الاساطيل سلسلة واحدة من العدوة الى العدوة . ولما تكاملت العساكر بالعبور وكانت نحو ستين الفا ، أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعمائة ونزل بساحة طريف [٢] •

كذلك يصف أحد المعاصرين المناورة البحرية التي أشرف عليها أبو عنان في مياه بجاية فيقول :

« أمتثالا لتعليمات ابى عنان ، اصطفت اساطيل البلاد البحريـة المتوكلية [٣] يتقدمهم القائد الاعلى ابن الاحمر في طريدته ، ثم أسطول طنجة يتقدمه قائده ابن الخطيب في غرابه ، وبعد هذا ترتبت بقية الاساطيل وقوادها حسبما اقتضته المدن التي تولوا امر بحرها • وقد لزم قائد كل أسطول مكانه من مصطف الاجفان التي كان يكسوها طـلاء السواد الحالك ، وتظهر صواريها شبه المآذن بينما شحن داخلها بالابطال : بين رام وسائف [١] ورامح ، وقد لبـسوا الحديد ، ورفعوا عقائرهم بالتحميد والتمجيد • فما شوهد ابدع من تلك الاجفان وقد صدحت موسيقى : فقرعت الطبول ، وعلت أصوات البوقات والانفار ، كما دوت طلقـات

---

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ١٩٣ — ١٩٤
(٢) السـلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٣٥
(٣) نسـبة الى لقب ابى عنان وهو المتوكل على الله
(١) سائف اي حامل السيف

الانفاط ، بكل متأجج الشواط . والرايات خفقت حول اعالي الرماح . وقد تنوعت ألوانها ، كأنها قوس قزح ، سوى طريدة القائد الاعلى فقد كانت رايتها بيضاء [١] » .

البحرية في عهد بني الاحمر ملوك غرناطة

مملكة غرناطة هي البقية الباقية لدولة العرب في اسبانيا بعد ان تمزقت دولتهم وسقطت مدنهم في ايدي المسيحيين . لهذا كانت غرناطة هي الملجأ الطبيعي لمعظم المهاجرين الاندلسيين الذين فروا أو طردوا من بلادهم بعد سقوطها في يد الاسبان . ولا شك ان هذه العناصر المهاجرة قد أعطت لهذا الوطن الجديد كل خبراتها وسواعدها مما كان له أثر كبير في أزدهار هذه المملكة وبقائها في مواجهة الاسبان أكثر من قرنين ونصف من الزمان (١٢٣٨ — ١٤٩٢ م) ولقد وهبت الطبيعة مملكة غرناطة جبالا شامخة مثل جبال شلير Sierra Nevada والبشرات Alpujarras التي سهلت مهمة الدفاع عنها . كما وهبتها أيضا ساحلا طويلا يمتد من المرية شرقا الى جبل طارق والجزيرة الخضراء جنوبا . وهذا جعلها — رغم صغر حجمها — دولة بحرية من دول البحر المتوسط . ولقد عرفت هذه المنطقة الساحلية الغرناطية باسمها القديم وهو البلاد البحرية التي ظلت عامرة بالاساطيل ودور الصناعة والمحارس التي ورثتها عن الاسلاف المجاهدين منذ أيام الامويين . وقد أعطانا المؤرخ المعاصر ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٨ هـ) وصفا قيما لاسطول غرناطة ونشاطه وقواعده في هذه المنطقة بقوله : وبالبلاد البحرية اسطول حراريق [٢] للغزو في البحر

---

(١) محمد المنوني : المرجع السابق ص ٢٢٦

(٢) الحراريق والحرافات ومفردها حراقة ، هي نوع من السفن الحربية التي تستخدم

الشامي يركبها الانجاد من الرماة والمغاورين والرؤساء المهرة ، فيقاتلون العدو على ظهر البحر ، وهم الظافرون في الغالب ، ويغيرون على بلاد النصارى بالساحل او بقرب الساحل ، فيستأصلون أهلها ذكورهم واناثهم ، ويأتون بهم بلاد المسلمين . فيبرزون بهم ويحملونهم الى غرناطة الى السلطان فيأخذ منهم ما شاء ويهدي ويبيع . والبلاد البحرية اولها من جهة الشرق :

المرية . وهي ذات مرسى على البحر الشامي ، وهي اول مراسي البلاد الاسلامية بالاندلس ، وكانت العمارة قبل لبجانة (Pechina) فانتقلت الى الساحل لمنافع الناس . والمرية ثلاث مدن . الاولى من جهة الغرب تعرف بالحوض الداخلي . لها سور محفوظ من العدو بالسمار والحراس ، و لاعمارة بها . ويليها الى الشرق المدينة القديمة ، وتليها المدينة الثالثة المعروفة بمصلى المرية وهي اكبر الثلاث . والقلعة تحوز القديمة من جهة الشمال وتسمى القصبة بألسنتهم . وهما قصبتان في غاية الحسن والمنعة . وساحل المرية أجمل السواحل وحولها حصون وقرى كثيرة الفواكه . وبها دار صناعة لانشاء الحراريق لقتال العدو . ويأتيها الان ولاة من صاحب غرناطة وقد كانت فيما مضى مملكة مستقلة ، وبينها وبين غرناطة مسيرة ثلاثة ايام .

ويلي المرية من البلاد البحرية من جهة الغرب بلدة شلوبين [1]

لحمل الاسلحة النارية ، كالنار الاغريقية ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو في البحر . وقيل هي المرامي انفسها . انظر (محمد ياسين الحموى : تاريخ الاسطول العربي ص ٣٥) .

(١) ينسب الى هذه البلدة امام النحاة في الاندلس ابو علي عمر بن محمد — المعروف بالشلوبين نسبة الى بلده هذا . له مصنفات كثيرة مثل كتاب التوطئة في النحو وشرح كتاب سيبويه ، وكانت وفاته سنة ٦٤٥ هـ . راجع (السيوطي : بغية الوعاة ص ٣٦٤ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ٢٩٠) .

(Salobrena) وهي معدة لارسال من يغضب عليه السلطان من أقار. ه
ويزرع بها قصب السكر • ويليها المنكب [١] ((Alemunecar)) وه. .
مدينة دون المرية . بها دار صناعة لانشاء السفن ، وبها قصب الـ .
والموز ويلى المنكب مالقة (Malaga) وهي مدينة بديعة كثيرة الفوا.
لها ربضان عامران أحدهما عن علوها والآخر عن سفلها . وبها دار صنا.
لانشاء الحراريق ، وجامعها بديع وبصحنه نارنج [٢] ونخل • يلى مالقة
مدينة مربلة (Marbella) ويليها اشتبونة (Etepona) ، ثم جبل الفـ.
وهو طود شامخ منيع جدا يخرج في بحر الزقاق ستة أميال ويلى جبـ ل
الفتح من الغرب على الساحل ، الجزيرة الخضراء (Algeciras) وهي
مدينة أمام مدينة سبتة من بر العدوة من بلاد المغرب ، ومرساها من أحسن
المراسى وهي آخر البلاد البحرية الاسلامية للاندلس وليس بعدها اي
بـــلاد [٣] •

والى جانب هذه القواعد البحرية وما فيها من دور صناعة لبناء
الاساطيل وجدت كذلك الرباطات والمراقب الساحلية •

ولا شك ان الرباطات القديمة التي سمعنا عن نشاطها من قبل في هذه

---

(١) اشتهرت هذه المدينة بنزول عبد الرحمن الداخل الاموى على مرساها عند دخوله الاندلس في طلب الملك سنة ١٢٨ هـ ، وهي الآن مصيف هادىء صغير ، ولا سيما لاهل غرناطة .

(٢) اباح الامام عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعى (ت ١٥٧ هـ .) غرس الاشجار في صحون المساجد ومذهب الاوزاعى الشامى هو أول مذهب انتشر في الاندلس ، وقــد انتشر معه عادة غرس اشجار النارنج والليمون في صحون المساجد ، وظلت هذه العادة مستمرة بعد انتشار المذهب المالكي في هذه البلاد .

(٣) راجع (ابن فضل الله العمرى : كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار الجزء الخاص بوصف أفريقية والاندلس ص ٤٤ ـ ٥٠ ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب بتونس) .
انظر كذلك (القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٢١٧ وما بعدها)

المنطقة . قد ظلت تؤدي دورها في حراسة هذه السواحل والدفاع عنها فالوزير الغرناطي ابن الخطيب يشير الى رابطة القبطة [١] بساحل المرية Cabo de Gata . وذلك في خلال كلامه عن غرق سفينة غرناطية بمن عليها من الطلبة والادباء وأبناء السراة والحسباء بأحواز هذا المكان سنة ٧٣٩ هـ [٢] . كذلك نجد في بعض الظهائر الرسمية التي كان يصدرها سلطان غرناطة محمد الغنى بالله الى رعيته ، الحض على بناء الحصن بجبل فارو [٣] Gibralfaro الذي يشرف على مرسى مالقة ، اعانة للمسافرين وانجادا لجهاد الكافرين [٤] . هذا الى جانب المدونات الاسبانية المسيحية التي وصفت غرناطة عقب سقوطها في يد الملكيين الكاثوليكيين فرناندو وازابيل (١٤٩٢ م) ، وأشارت الى وجود عدد كبير من الربط والقصور الساحلية التي كانت ترجع في معظمها الى العصر الاسلامي [٥] .

ولقد برز من أبناء هذه البلاد البحرية قادة مهرة تولوا قيادة الاسطول الغرناطي والمغربي أيضا . ونذكر منهم على سبيل المثال بنى الرنداحى [٦] في المرية الذين استمرت في بيتهم هذه الخطة منذ أواخر أيام الموحدين . وقد برز منهم شخصيات متعددة في المراجع الاسلامية .

---

(١) رباط القبطة او القابطة حصن حربى مشهور في كتب التاريخ منذ أيام الامويين .
(٢) ابن الخطيب . الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٢٥ .
(٣) لا يزال يعرف هذا المكان الى اليوم بنفس الاسم
(٤) المقرى : نفح الطيب ج ٩ ص ١٠٩ - ١١٠ .
(٥) راجع (Alfonso Gamir Sandoval : Organizacion de la defensa de la costa del reino de Granada, desde su reconquista hasta finales del siglo XVI pp 265 - 275).

(٦) ورد هذا الاسم كذلك في معظم المراجع ، ويرى سيبولد استنادا الى الادريسي أن صحته الرانداجى نسبة الى بلدة في صقلية اسمها الرانداج Randazzo.

راجع C. F. Seybold : Analecta Arabo-Italica, en Centenario della Nascita di Michele Amari, Volume II p 213 Palermo 1910.

فنسمع عن ابى العباس الرنداحى [١] الذي ساعد بأسطوله الد..
أبا القاسم العزفى عندما استقل بسبتة وطنجة عن طاعة الحفصيين ،
٦٤٧ هـ • ونسمع كذلك عن جحفون الرنداحى [٢] الذي ولاه الخ..
المرتضى الموحدى على قيادة الاساطيل بالمغرب • وهناك أبو الحسن ...
الرنداحى [٣] الذي تولى قيادة أسطول المرية وقام بدور كبير في الد...
عنها عندما حاصرها ملك اراجون خايمى الثاني سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م).

ثم هناك أبو على الرنداحى [٤] الذي أشار اليه ابن الخطيب كقا..
عام للبحرية الغرناطية على أيامه . ولعله ابن أبى الحسن على الرندا..
السالف الذكر . كذلك يشير ابن خلدون الى يحيى الرنداحى كقا..
لاسطول سبتة حتى سنة ٧٢٠ هـ [٥] وكل هذا يدل على اختصاص هذ..
الاسرة بالقيادة البحرية •

ومن القادة الذين تولوا قيادة الاسطول الغرناطى نذكر أيضا ا..
عبدالله محمد بن سلبطور الهاشمي . وواضح من اسمه Salvador أنه
من أصل اسبانى . وهو ابن اخت ابى علي الرنداحى وقد أفرد له ا..
الخطيب ترجمة في احاطته قال فيها :

كان من وجوه المرية وأعيانها . متجندا ظريفا . دربا على ركوب الب..
وقيادة الاساطيل . ناب في القيادة البحرية عن خاله القائـد أبى على

(١) ابن عذارى . البيان المغرب جـ ٤ ص ٤٠٠ .
(٢) ابن خلدون . العبر جـ ٧ ص ١٨٦ .
(٣) ابن القاضي . درة الحجال في غرة اسماء الرجال جـ ١ ص ٧١ ، نشر علوش الرباط سنة ١٩٣٤ .
(٤) ابن الخطيب . الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ١٨ — ١٩ .
(٥) ابن خلدون . العبر جـ ٧ ص ٢٤٧ .

الرنداحي . وولي أسطول المنكب برهة . وكان أديبا جيد الشعر والكتابة ، ثم انحط في هواه انحطاطا أضاع مروءته . استهلك عقاره ، وهد بيته ، والجأه أخيرا الى اللحاق بالعدوة وتوفي بمراكش سنة ٧٥٥ هـ [١] .

ومن قادة الاسطول الغرناطي أيضا نذكر القائد الوزير أبا الحسن ابن كماشة الذي أفرد له ابن الخطيب ترجمة وافية في احاطته قال فيها : كان جده من المنتزين ببعض حصون الاندلس طليطاطة (Tablada) وخدم طاغية الروم ببعضها وانخرط في جملته يشهد بذلك مكتوبات تلقاها بشماله ووراء ظهره صانها حافده المترجم به في خرقة من السرق لا يزال يعرضها في سبيل الفخر على من يصل الى باب السلطان من رسل الروم . ولقد عرضها أيام سفارته الى ملك قشتاله على وزيره سمويل اليهودي وطلب تجديدها . وهذا الرجل حسن الشكل كثير الهشة جيد الرياش ، كثير التعلق والتوسل ، شديد المداخلة لاذيال الامراء ، متصامم على أغراضهم متنفق بالسعاية متبذل في أسواق الخدمة ... أطمع خلق الله وأبخلهم بما لديه ، وأبعدهم في مهاوى الخسة ، أما فلسه فمخزون ، وأما

---

(١) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسوريال ، لوحة ١٨ ـ ١٩ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص١٩٢ ، ابن القاضي : درة الحجال جـ ١ ص ١٩٦) وقد ورد في هذه المصادر السابقة نماذج من شعر هذا القائد مثل قوله في مدح السلطان ابى الحجاج يوسف عندما زار المرية :

أثغرك أم سمط من الدر ينظم ۝ وريقك أم مسك به الراح تختم

وقوله مخاطبا الشاعر أبا القاسم محمد بن خاتمة ردا على قطعة خاطبه بها مطلعها البيت الاخير من هذه الابيات :

وفاضت دموعى بفرط ولوعى ۝ وبين ضلوعى هوى شب نار
فكم ذا أقاسى وقلبك قاسى ۝ ومالى آسى لطول النفار
اترضى مماتي وانت حياتى ۝ اذا لم توات فكيف اصطبار
خلعت عذارى بوادى المزار ۝ وسمع القمارى وسيف العقار

خوانه فمحجوب . وأما زاده فسنوع . وأما ثوبه فحبيس التخت الى يوم القيامة [١] .

ومن الطريف أنه بينما يتحامل ابن الخطيب على هذا القائد ويصفه بالبخل والطمع اذا بالشاعر ابن خاتمة يصفه بالكرم أثناء ترجمته للشاعر ابن خميس بقوله : وقدم ابن خميس المرية سنة ست وسبعمائة فنزل بها في كنف القائد أبى الحسن ابن كماشة فوسع له في الايثار والمبرة . وبسط له وجه الكرامة طلق الاسرة . فقال في مدحه .. الخ [٢] . ولعل تحامل ابن الخطيب على ابن كماشة راجع الى موقف هذا الاخير من سلطانه محمد الغنى بالله حينما تخلى عنه أثناء مطالبته بعرشه [٣] .

والى جانب هذه المعلومات التي أوردها ابن الخطيب عن قائد الاسطول الغرناطى . فقد أعطانا أيضا بعض المعلومات عن بحارة الاسطول . ومثال ذلك اشارته الى اهتمام الدولة بزيادة أجورهم على أيامه [٤] . ثم وصفة لمهارة هؤلاء الملاحين وخفة حركاتهم عند قوله :

وبحرى تلاعب في شريـــط   وحى الفعل متصل الصموت
تدلى وارتقى وسما وأهـوى   وأعجب في التماسك والثبوت
وقلنـا ان يكن بشرا سويـا   ففيه غريزة من عنكبوت [٥]

كذلك يفهم من قصائد شاعر الحمراء عبدالله بن زمرك ان الاعلام

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٢٩٧

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٢٨٢

(٣) راجع الجزء الخاص بالوزارة في عهد بنى الاحمر ص ٢٢٩ من كتابنا دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس .

(٤) ابن الخطيب . الاحاطة جـ ٢ ص ٣٠ — ٣١ (طبعة القاهرة)

(٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسوريال ، لوحه ١٥٤

التي كانت ترفرف على الاسطول الغرناطي كانت حمراء اللون جريا على شعار بني الاحمر ملوك هذه الدولة . ومثال ذلك قوله في مدح السلطان محمد الغني بالله :

اعلامك الحمر فوق السفن خافقة   وريح سعدك تجريها على قدر [١]

أما عن سياسة غرناطة البحرية . فكانت مرتبطة بسياستها العامة التي امتازت بالمهارة والمرونة . لقد كانت غرناطة تمتلك قوة بحرية منظمة قادرة على حماية سواحلها وتجارتها بل وامداد جارتها قشتالة [٢] ببعض وحداتها البحرية أثناء حروبها مع أراجون . الا ان غرناطة مع ذلك كانت دولة صغيرة محدودة القوة والموارد والامكانيات . ومحاطة بدول تفوقها عدة وعددا مثل أراجون وقشتالة والبرتغال والمغرب. لهذا كانت سياستها تعتمد أولا على مهارتها الدبلوماسية تجاه تلك الدول المحيطة بها . وعدم التورط في خوض قتال خطير بمفردها . ثم على الاستعانة بقوة جيرانها المغاربة عندما تضطرها الظروف الى مجابهة اعدائها المسيحيين في ميدان القتال برا أو بحرا . وهذا الموقف جعل غرناطة تحرص دائما على أن يكون مضيق جبل طارق مفتوحا أمام النجدات المغربية . وبعيدا عن السيطرة المسيحية كي يظل اتصالها بالعدوة المغربية آمنا مستمرا . وقد اضطرت غرناطة في هذا السبيل الى التنازل أحيانا للمغرب عن بعض قواعدها الجنوبية المطلة على المضيق مثل جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف ورنده ليتولى بنفسه مهمة الدفاع عن تلك القواعد . واتخاذها رأس جسر للتدخل في

---

(١) المقري ازهار الرياض جـ ٢ ص ١٢٨

(٢) يلاحظ أن مملكة اراجون كانت دولة بحرية بحكم وضعها الجغرافي في شمال شرق أسبانيا ، على عكس مملكة قشتالة التي كانت دولة برية بحكم نشاتها في قلب أسبانيا ، غير ان انتصاراتها الاخيرة على المسلمين مكنتها من احتلال بعض القواعد البحرية . الامر الذي جعلها ترسم لنفسها سياسة بحرية منذ ذلك الوقت .

وقت الجهاد، ولقد أدركت كل من قشتالة وأراجون اهداف تلك السياسة
فحاولت من جانبها فرض سيطرتها على المضيق واحتلال قواعده . لكي
تحول دون اتصال المغرب بالاندلس • ومن هنا نشأ صراع طويل بين
جميع هذه القوى حول السيطرة على مضيق جبل طارق La empresa del
estrecho de Gibraltar • ولما كانت سياسة غرناطة في هـذا الصراع
مرتبطة بسياسة الاطراف الاخرى المشتركة فيه، فقد آثرنا ان نفرد لهذا
النزاع موضوعا مستقلا •

الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق

ذكروا ان الغالب بالله محمد الشيخ مؤسس غرناطة ، كان له صهر من أهل بلدة أرجونة يعرف بابي الحسن بن الحسن بن أشقيلولة [١] شاركه في فتوحاته وفي تأسيس ملكـه . فلما استقر الامر للغالب بالله بغرناطة ، زعموا أنه عرض على صهره الامر . فقال له « أنا أمي ، لا أكتب ، وعزك من عزي ، وملكك ملكي ! » فأسكنه بالقصبة وقدمه على الجيش . ثم توفي الرئيس ابن اشقيلولة وخلف ولدين : أبا اسحاق ، وأبا محمد ، فصاهرهما السلطان على ابنتيه . مؤمنة وشمس ، وولي الاول على مدينة وادي آش Guadix كما ولي الثاني على مدينة مالقة Malaga ، وأنجبوا البنين والبنات وصارت أحوالهم مستقيمة ، وأمورهم تحت نعمة جدهم السلطان جاريه ، الى أن كبر ابن السلطان وولي عهده محمد . فنافس هؤلاء الابناء بني اشقيلولة وقلق بهم [٢] .

---

(١) والصح أن هذا الاسم ليس عربيا وانما من أصل اسباني وقد وردت كتابته بصيغ مختلفة .

راجع (Diccionario de Historia de Espana I, p. 368)

(٢) يروى ابن الخطيب في احاطته (نسخة الاسوريال ورقة ٢١١) أن ثورة بني اشقيلولة بدأت في اواخر أيام السلطان محمد الشيخ ، وانهم امتنعوا بحصونهم في مالقة ووادي آش مما ادى الى قيام الحرب بينهما . ثم يروى نادرة لطيفة تدل على انسانية هذا السلطان وشفقته اذ يقول وبينما كان السلطان ينازل مالقة ، ركب في ثلاثة من مماليكه متخفيا كاتما غرضه وذهب الى باب المدينة ، فلما ابصر به القائمون به هالهم الامر وادهشتهم الهيبة

←

ولما مات السلطان محمد الشيخ وآل الامر الى ولده محمد الثاني المعروف بالفقيه (٦٧١ — ٧٠١ هـ — ١٢٧٢ = ١٣٠٢ م) زادت النفرة بين بني اشقيلولة وبين خالهم السلطان الجديد. فأظهروا الامتناع والعصيان بمدينتي وادي آش ومالقة . ثم أعلنوا ولاءهم وتبعيتهم لسلطان المغرب أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني (٦٥٦ — ٦٨٥ هـ = ١٢٥٨ ١٢٨٦ م) وانتهز سلطان المغرب هذه الفرصة وأعلن تأييده للثوار واستولى على مدينة مالقة واقام بها عيد النحر سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٧ م) [١] وتخوف السلطان من أطماع سلطان المغرب وظن به الظنون . وخشي أن يغلبه على بلاده كما فعل يوسف بن تاشفين مع المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف . فلجأ الى جيرانه المسيحيين . وعقد مع سانشو الرابع Sancho IV ملك قشتالة وخايمي الثاني Jaime II ملك أراجون معاهدات دفاعية ضد ملك المغرب .

واستطاع كل من الملكين سانشو وخايمي ان يقنع سلطان غرناطة بضرورة احتلالهما بصفة مؤقته لبعض قواعد المضيق مثل طريف Tarifa والجزيرة الخضراء Algeciras التي كانت في يد المرينيين . لانها تعتبر

فافرجوا له موقرين لحاله آنسين لقلة أتباعه ، فدخل وقصد القصبة ، وطير الخبر الى الرئيس محمد بن اشقيلولة فبادر اليه راجلا مهرولا حافيا ولما دنا منه ترامى على رجليه يقبلهما اظهارا لحق ابوته وتعظيما لقدره ودخل معه الى بنته اي بنت السلطان وحفدته فترامى الجميع على اطرافه يلثمونها ويتعلقون بأذياله وادرانه وهو يبكي اظهارا للشفقة والمودة . واقام معهم بياض يومه ثم انصرف الى محلته .

(١) عن ثورة بني أشقيلولة راجع (ابن الخطيب . أعمال الاعلام ، القسم الخاص بالاندلس ص ٢٨٧ — ٢٩١) ولاهمية هذا النص فقد ترجمه علوش الى الفرنسية (Hesperis xxv, 1938) كما ترجمة سانشث البرنث الى الاسبانية (Sanchez Albornoz ; La Espana Musulmana II, p. 352).

رأس جسر لعبور القوات المغربية الى الاندلس . ووافق سلطان غرناطة على ذلك بشرط أن تسلم له هذه القواعد بعد ذلك .

ثم نازلت أساطيل أراجون وقشتالة مدينة الجزيرة الخضراء ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ولكنها منيت بهزيمة فادحة امام الاسطول المغربي والسبتى ، واضطرت الى الاقلاع عنها خائبة السعي وتمكن سلطان المغرب من العبور بجيوشه الى اسبانيا . وكانت مالقة في خلال ذلك الوقت قد استردها سلطان غرناطة بعد أن داخل واليها من قبل المرينيين وعوضه عنها بالمنكب وشلوبانية . فنازلها ملك المغرب وكانت عليها حرب عظيمة بلغت فيها حملات الجيش المرينى الى ان صادمت الاسوار رؤوس الخيل ، ولكنه عجز عن احتلالها ، واضطر سلطان المغرب الى فك الحصار عن مالقة والعودة الى الجزيرة الخضراء . واستمرت المناوشات والحروب قائمة بين الفريقين الى ان تم الاتفاق بينهما على أن يتنازل سلطان غرناطة عن مدينة وادى آش قاعدة بنى اشقيلولة لسلطان المغرب ، بينما يتنازل سلطان المغرب عن مدينة القصر الكبير [١] في شمال المغرب لبنى اشقيلولة . وفي سنة ٦٨٧ هـ هاجر بنو اشقيلولة بأموالهم وأهليهم ورجالهم الى مدينة القصر الكبير وأعمالها ، واستقروا بها الى أن انقرضت أيامهم في اواخر الدولة المرينية [٢] .

على ان سلطان غرناطة رغم هذا الاتفاق السالف الذكر ، لم يأمن جانب بنى اشقيلولة ، وتوقع أغراءهم به من صاحب المغرب وعودتهم اليه ،

---

(١) القصر الكبير مدينة في شمال المغرب في جنوب سبتة وكانت تسمى ايضا بقصر كتامه وقصر عبد الكريم .

(٢) السلاوى : الاستقصا جـ ص ٦٨ .

ولهذا استولى على مدينة وادى أش وطرد عامل المرينيين منها . كما استنجد بالقوى المسيحية الاسبانية لسد المضيق بأساطيلهم : وفي سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) قام سانشو الرابع ملك قشتالة بمحاصرة طريف برا بينما حاصرها ملك اراجون باساطيله من البحر . أما ملك غرناطة . فانه آكتفى بمهاجمة مدينة أسطبونة احدى القواعد الاندلسية التابعة لسلطان المغرب ، واتنهت هذه العمليات بسقوط طريف في ايدي القشتاليين بعد حصار دام ستة أشهر [١] .

على أن ملك قشتالة لم يلبث أن نسي وعوده السابقة لملك غرناطة . ورفض تسليمه ثغر طريف بل واحتفظ أيضا بالحصون الغرناطية التي كان محمد الثاني قد سلمها اليه في مقابل تسليمه قاعدة طريف . وثارت ثائرة سلطان غرناطة لهذه الخدعة ، ولم يجد وسيلة أمامه سوى العبور الى سلطان المغرب ابى يعقوب يوسف سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٣ م) ليطلب منه الصفح على مسلكه السابق . وليطلب منه أيضا معونة حربية لاسترداد طريف [٢] .

واستجاب سلطان المغرب لطلبه . وهاجمت الجيوش والاساطيل المغربية والغرناطية قاعدة طريف ولكنها لم توفق في احتلالها . وترجع المصادر الاسبانية هذا الفشل الى بطولة قائد حامية المدينة قزمان الطيب Cuzman el Bueno الذي فضل أن يقتل المسلمون ولده أمام عينيه على

---

(١) راجع (ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٩١) وكذلك .
Gimenez Soler : La corona de Aragon y Granada Boletin de la real academia de buenas letras de Barcelona : num. 19, 1905).
وراجع كذلك (ابن خلدون ، العبر جـ ٧ ص ٢١٦) .

(٢) ابن ابى زرع : روض القرطاس ص ٢٦٥ ، ابن خلدون . العبر جـ ٧ ص ١٧ ٢.

أن يسلم المدينة [١] .

غير أن السلطان محمد الثاني ، وأن كان لم يوفق في استعادة طريف، الا انه استطاع ان ينتزع من القشتاليين مدينتين من أعمال جيان وهما قيجاطة Quesada سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) [٢] والقبـذاق Alcuadete سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) . ثم انتهت هذه الحروب بعقد صلح بين غرناطة وكل من قشتالة وأراجون سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) .

وفي أوائل القرن الثامن الهجري (١٤ م) قامت في بلاد المغرب ثورات واضطرابات داخلية ، ولم يلبث السلطان نفسه أبو يعقوب يوسف أن مات مقتولا بيد بعض عبيده سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) .

ولقد حركت انباء هذه الفوضى ، أطماع سلطان غرناطة الجديد محمد الثالث (٧٠٢ـ ٧٠٩ هـ ١٣٠٢ ـ ١٣٠٩ هـ) في السيطرة على المضيق ، فانتهز هذه الفرصة وأمر ابن عمه ابا سعيد فرج صاحب مالقة بالاستيلاء على سبته ، فاقتحمها بأساطيله وجنده واستولى عليها سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) وقبض على ولاتها من بنى العزفى وأرسلهم أسرى

---

(١) راجع (Pedro Barrantes Maldonado : Illustraciones de la case de Niebla, memorial historico Espanol, t IX p. 145 - 170, Gimenez Soler : La corona de Aragon. y Cranada, B. R. A. B. L. B., no 19 (1905) p. 162).

(٢) راجع تفاصيل هذا الفتح في (ابن الخطيب : الاحاطة نسخة الاسكوريال : لوحات ٤٨ ـ ٥٢) .

انظر كذلك (Melchor Antuna : Conquista de Quesada y Alcuadete por Muhammad II de Granada, Religion y Cultura, 1932 XIX, XX).

الى غرناطة [١] .

وغضب سلطان المغرب ابو ثابت عامر (٧٠٦ — ٧٠٨ هـ) من ه[١]
التدخل الغرناطي في شئون بلاده . وقام من فوره بتأسيس مدينة تطوان [٢]
جنوبي سبتة لتكون قاعدة عسكرية ضد الجيوش الغرناطية في سبتة . و ل
يعش السلطان ابو ثابت طويلا لكي يحقق أماله ولكن ابنه ابو الر
سليمان (٧٠٨ — ٧١٠ هـ = ١٣٠٨ — ١٣١٠ م) واصل سياسته بضرور
استعادة سبتة وتحالف مع مملكتي قشتالة وأراجون ضد غرناطة .

ورأى كل من ملك قشتالة فرناندو الرابع . وملك أراجون خايمي
الثاني : ان الفرصة باتت سانحة للقضاء على مملكة غرناطة . فتحالفا على
غزوها في وقت واحد على ان تقوم الجيوش القشتالية بمهاجمة مدينة
الجزيرة الخضراء من الجنوب . بينما تهاجم الاساطيل الاراجونية مدينة
المرية من الشرق ثم يتقابل الجيشان في مدينة غرناطة العاصمة [٣] .

وحينما علمت غرناطة بأنباء هذا العدوان المشترك على أراضيها .
ثارت ثائرة ابنائها . وأخذوا يستعدون للقتال . وساءهم ان يجدوا سلطانهم

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٥٣ ، ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٢٨ — ٢٢٩

(٢) يلاحظ ان قصبة تطوان بناها السلطان ابو يوسف يعقوب ١٢٨٥ م ثم جاء السلطان ابو ثابت فبنى المدينة نفسها لكى يهدد منها مدينة سبتة راجع (السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٦١) .

(٣) راجع التفاصيل (Gaspar Remiro : Relaciones de Aragon con los estados musulmanes de Occidente : El negocio de Ceuta entre Jaime II de Aragon y abu Rabi Solaiman sultan de Fez, contra muhammad III de Granada & Angel Canellas : Aragon y la empresa del Estrecho en el siglo XIV, estudios de Edad media de la Corona de Aragon Vol. II, p. 17 & Gimenez Soler : Expedicion de Jaime II a Almeria, B. R. A. B. L. B., ho 14 (1904) P. 292).

محمد الثالث قد استنفد جميع المخزون من المؤن والغلال أثناء عملياته العسكرية في بلاد المغرب ، فقاموا بثورة ضده ، انتهت بخلعه ونفيه الى ثغر المنكب Almunecar ، وتولية أخيه ابى الجيوش نصر سلطانا على غرناطة (٧٠٨ — ٧١٣ هـ = ١٣٠٩ — ١٣١٤ م) [١] .

ورأى سلطان غرناطة الجديد ضرورة اعادة العلاقات الودية بين غرناطة وفاس لتوحيد الجبهة الاسلامية ضد الخطر المسيحي المنتظر . فعبر الى سلطان المغرب ابى الربيع سليمان ، وتنازل له عن مدينتي رنده والجزيرة الخضراء . كما أعاد اليه ثغر سبتة الذي سبق ان استولى عليه أخوه . ثم توج هذا كله بعقد قرانه على أخت سلطان المغرب [٢] .

ثم رأى سلطان غرناطة ، بعد أن القى عن عاتقه مهمة الدفاع عن الجزيرة الخضراء ورنده ، ان يتقرب الى ملك قشتالة فرناندو الرابع ، ويعرض عليه بعض الحصون الغرناطية مقابل تخليه عن حليفة ملك أراجون . غير أن ملك قشتالة رفض هذا العرض ، وأعلن الحرب على غرناطة وعلى سلطان المغرب ايضا لانه « كذب عليه وعلى ملك أراجون [٣] .

وفي عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) هاجم ملك قشتالة جبل طارق وتمكن من الاستيلاء عليه . ثم تقدم نحو الجزيرة الخضراء محاولا احتلالها ولكنه فشل واكتفى بحصارها . وفي الوقت نفسه (٧٠٩ هـ) حاصر ملك أراجون خايمي الثاني بجيوشه وأساطيله ثغر المرية .

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢) بن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ . ابن الخطيب : اللمحة البدريه ص ٥٨ .

(٣) راجع (Gimenez Soler : Expedicion de Jaime II a Almeria, Op. cit p. 301-302).

غير أن هذا الهجوم المزدوج انتهى بالفشل اذ استطاعت كل من المدينتين الصمود امام العدوان ولا سيما مدينة المرية التي تعرضت في هذه الحرب لاشد هجوم عرفته في تاريخها • ولهذا اهتم به المؤرخون القدامى والحديثون وكتبوا عنه في شيء من التفصيل [١] •

ولقد انتهى هذا المشروع الحربي الفاشل بأن عقدت كل من قشتالة وأراجون صلحا مع غرناطة والمغرب ، وقامت بعد ذلك علاقات طيبة بين هذه الدول الاربع تشهد بها مجموعة المراسلات المتبادلة بينها ، والمحفوظة الآن في أرشيف تاج أراجون بمدينة برشلونة [٢] •

وفي سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤ م) حدث انقلاب داخلي في مملكة غرناطة انتهى بخلع سلطانها ابى الجيوش نصر ونفيه الى مدينة وادى آش وتولية

---

(١) وصف هذه المعركة بالتفصيل ابن القاضي في كتابه درة الحجال في غرة أسماء الرجال (جـ ١ ص ٧١ وما بعدها) ولاهمية هذا النص ترجمة علوش الى الفرنسية في (Hespèris 1939 XVI p . 122) كما ترجمه الى الاسبانية سانشث البرنث (Sanchez Albornoz : La Espana Musulmana II p. 386) وقد رأينا من المفيد ايراد هذا النص كضميمة في آخر الكتاب . ومن النصوص العربية الهامة التي تناولت وصف هذه المعركة ، زجل شعبى اندلسي لشاعر يدعى القيسي ، ورد في مخطوط عنوانه مفتاح الدين في المجادلة بين النصارى والمسلمين .

وقد نشر ليفي بروفنسال هذا الزجل في مجلة الاندلس الاسبانية بعنوان :

(Levi — Provençal : Un Zagal hispanique sur L' expedition aragonaise da 1309 contre Almeria,al Andalus, Vol. VI, fasc . 2, 1941.)

اما المصادر الاوروبية فنذكر منها :

Geronimo Zurita; Los anales de la Corona de Aragon I p. 435 & Gimenez Soler : El sitio de Almeria (1309) p. 392.

(٢) جمعت هذه الوثائق في كتاب :

(Alarcon y Linares : Los decumentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona de aragon pp. 14, 20 — 23).

ابن عمه ابى الوليد اسماعيل الاول (٧١٣ — ٧٢٥ هـ ١٣١٤ — ١٣٢٥ م). وقد حاول السلطان اسماعيل ان يحافظ على العلاقات الودية التي تربط غرناطة بقشتالة وأراجون . غير أن محاولاته باءت بالفشل وخصوصا مع قشتالة التي أظهرت تأييدها للملك نصر المخلوع وأعلنت الحرب على غرناطة [١] .

ثم قام الاميران بدرو وخوان ، الوصيان على ملك قشتالة الطفل الفونسو الحادوى عشر ، بحملة على مملكة غرناطة أحرزت بعض النجاح في منع السلطان اسماعيل من استعادة جبل طارق ، ولكنها انتهت بمقتل الاميرين القشتاليين في مروج غرناطة سنة ٧١٩ هـ (١٣١٩ م) وتذهب الرواية الاسبانية الى أن الاميرين المذكورين ماتا موتة طبيعية في هذه المعركة ، الاول (بدرو) مات بالسكتة القلبية ، والثاني (خوان) مات من الحر والعطش [٢] . ولكن هذا يتعارض مع الحقيقة التاريخية التي نراها واضحة في رواية الوزير ابن الخطيب عند قوله « وتقدم لتربيته والنيابة عليه عمه دون بطره Pedro ، وهو الذي وقعت عليه وقيعة المرج بظاهر غرناطة ، وسيقت جثته الى البلد ، وجعلت في صندوق خشب ببعض الابراج ، عن يمين الصاعد الى الحمراء لصق بـاب يعقوب . وصارت الصبيان يرمون ذلك التابوت بالحجارة الى أن غطته ، واحتيج الى بناء البرج ، وأنا نائب عن السلطان اذ ذاك ، واضطر الى الكشف عن التابوت،

---

(١) راجع :
(Angel Canellas : Aragon y la empresa del Estrecho en el siglo XIV, Op. cit. p. 17) .

(٢) راجع :
Gimenez Soler. La expedicion a Granada de los Infantes don Juan y don Pedro en 1319).

فالفى قد عفن ، واستؤذنت فيما يفعل بتلك الرمة . فأمرت بأن يتخذ لها تابوت جديد ، وينقلها نصارى السلطان المستخدمون في المبانى حسبما يريده اساقفتهم . فلما أخرجت الرمة لتنقل الى التابوت ، الفى بين الفقارات منها سنان صغار الجرم قد أثبته فيها يد مجاهدة يوم الوقيعة كانت سببا للفتح . فاستعبرت رقة ، وقبلت ذلك السلاح الكريم . وامرت برده بمكان بنائه وأعدت الصندوق لحاله ، لما رأيت في ذلك من التذكير بأيـام الله ونكاية الكفـار اذا مروا بـه . وتخليد الفخـر للدين ما شاء الله [1] » .

وسارعت قشتالة بعد هذه الكارثة الى عقد صلح مع غرناطة سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) ولكنها نكبت في العام التالي بوفاة الملكة ماريا دي مولينا Maria de Molina جدة الملـك القاصر الفونسو الحـادى عشر والوصية عليه بعد وفاة اعمامه . وادى موتها الى قيام منازعات داخليـة بين أمراء قشتالة حول الوصاية عـلى العرش . وانتهز سلطان غرناطة اسماعيل هذه الفرصة واستولى على بعض المدن القشتالية مثل بسطة Baza وأشكر Huescar سنة ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ — ١٣٢٥ م) . وتنبغى الاشارة هنا الى أنه في احتلال هذه المدينة الاخيرة استخدم الغرناطيون المدفع لاول مرة في الاندلس . وقد أورد ابن الخطيب وصفا هاما لهذا السلاح الجديد وما احدثه من ذعر في صفوف الاعداء وهـذا الوصف يعتبر في الواقع من أقدم النصوص التاريخية عن استعمال الاسلحة النارية وفيه يقول :

---

(١) راجع (ابن الخطيب اعمال الاعلام ، القسم الثانى ، ص ٣٢٤) وكذلك (العمرى : مسالك الابصار ص ٤٣ ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب) .

نازل السلطان أشكر ••• ونشر الحرب عليها . ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرة محماة طاقة البرج المنيع . فعاثت عيات الصواعق السماوية ونزل اهلها قسرا على حكمه • وفي ذلك يقول شيخنا الحكيم ابو زكريا بن هذيل :

وظنوا بأن الرعد والصعق في السما فحاق بهم من دونها الصعق والرعد
غرائب أشكال سما هرمس بها مهندمة تأتي الجبال فتنهد
ألا انها الدنيا تريك عجائبا وما في القوى منها فلا بد أن يبدو[1]

ومن الطريف أن المصادر الاسبانية المعاصرة في وصفها لاحداث هذه الحرب . أشارت الى هذا السلاح الرهيب . ففي مدونة ثوريتا نجد العبارة التالية : « وانتشرت الاشاعات في مدينة لقنت Alicante بأن ملك غرناطة يمتلك سلاحا جديدا مميتا »[2] .

ورأى أمراء قشتالة أن خير وسيلة لحسم منازعاتهم الداخلية . هي أن يباشر الملك الفونسو الحادي عشر حكم بلاده بنفسه رغم صغر سنه

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٧٢ ، ويلاحظ ان كلمة نفط استعملها المسلمون بمعنى النار الاغريقية الحارقة وبمعنى المدفع المدمر الهادم كما هو واضح هنا في المتن .

(٢) راجع (J. Zurita : Anales, II, p. 31, 99) حيث يرد النص بالاسبانية على الوجه التالي :

" Se extendia el rumor que el rey de Granada estaba en posesion de una mueva arma mortifera ,,

هذا وقد توصل المغاربة الى اختراع المدفع قبل اخوانهم الغرناطيين بنحو خمسين سنة اذ يروى ابن خلدون (العبر ج ٧ ص ١٨٨) ان السلطان يعقوب المريني عندما هاجم مدينة سجلماسة سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) نصب عليها هندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدرة بارئها . راجع ما كتبناه في هذا الموضوع في (Hespéris, 1959, 3 — 4 Trimestres p. 264)

(١٥ سنة) وقد تم ذلك فعلا في أغسطس سنــة ١٣٢٥ م • وفي الس
التالية هاجم هذا الملك مملكة غرناطة منتهزا فرصة الاضطرابات التي حل
بها نتيجة لمقتل سلطانها اسماعيل وتولية ابنه محمد الرابع (٧٢٥ ــ ٧٣٢ ه
١٣٢٦ ــ ١٣٣٣ م) •

وأمام النجاح الذي أحرزه الهجوم القشتالى في الاراضي الغرناطية
أسرع محمد الرابع الى سلطان المغرب ابى سعيد عثمان الثاني . واتفق معه
على التعاون عسكريا ضد قشتالة • وقد رد ملك قشتالة على ذلك بان
عقد اتفاقا مع ملك أراجون ضد خطر الغزو المغربي . وهي اتفاقية طركونة
Tarragona سنة ١٣٢٨ م [١] •

ثم بدأت الحرب في صيف ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) . وكانت شديدة في
الجبهة القشتالية . ضعيفة في الجبهة الاراجونية . ويبدو أن الفونسو
الرابع ملك اراجون لم يكن جادا في هذه الحرب . اذ لم يهاجم ميناء
المرية كما كان متفقا عليه . واقتصر على ارسال حملة الى منطقة لورقة
Lorca [٢] أما قشتالة فقد تحملت عبىء القتال وحدها . واستطاع
الفونسو الحادى عشر أن يحتل عدة حصون غرناطية . ولكن الجيوش
الغرناطية بالتعاون مع الاساطيل المغربية التي أرسلها السلطان أبو الحسن
على المرينى (٧٣١ ــ ٧٤٩ هـ ــ ١٣٣١ ــ ١٣٤٨ م) بقيادة ولده أبي
مالك تمكنت في نفس الوقت من استرداد جبل طارق سنــة ٧٣٣ ه
(١٣٣٣ م) وحاول ملك قشتالة انقاذ هذه القاعدة الهامة ولكــن بعد

---

(١) راجع (Angel Canelles : Op. cit. p. 25 — 26)

(٢) راجع Gimenez Soler : La Corona de aragon y G.anadas Op Cit Num. 27 (1907) p. 163.

فوات الاوان [١] .

ومن المؤسف أنه بينما كان سلطان غرناطة محمد الرابع في طريق عودته الى عاصمته بعد هذا النصر ، اذا به يقع صريعا بيد بعض المتآمرين من جنوده . وخلفه على عرش غرناطة أخوه ابو الحجاج يوسف الاول (٧٣٢ ــ ٧٥٥ هـ = ١٣٣٣ ــ ١٣٥٤ م) . واستطاع أبو الحجـاج أن يصل الى اتفاق مع ملك قشتالة . وأن يعقد معه معاهدة اشترك فيها سلطان المغرب أيضا أبو الحسن المرينى سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م) وكان من شروط هذه المعاهدة ان يسود السلام بين هذه الدول الثلاث مـدة أربع سنوات . على ألا تسر قوا تمغربية الى الاندلس اللهم الا ما يتعلق باستبدال جنود الحاميات المغربية في الاندلس . وفي نفس تلك السنة عقدت معاهدات سلمية مماثلة مع ملك أراجون [٢] .

على أن كل هذه المعاهدات ، لم تحل المشكلة القديمة القائمة . وهي مشكلة السيطرة على مضيق جبل طارق . فكل من أسبانيا والمغرب لم يقل كلمته الاخيرة بعد . وانتهز كلاهما فرصة السلام للتسابق على التسلح والاستعداد للحرب وكان اهتمام كل فريق موجها نحو تقوية بحريته لانها الضمان الاساسي للسيطرة البرية بعد ذلك . ورأى سلطان المغرب أبو الحسن المرينى أن يستعين في هـذا المضمار بخبرة الملاحين الجنويين وبأصهاره الحفصيين ملوك تونس [٣] ، بينما رأى ملك قشتالة الفونسو

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٧٦ ــ ٨٠ ، ابن بطوطة : تحفة النظار جـ ٤ ص ٢٥٦ .

(٢) انظر (Gimenez Soler : La Corona de Aragon y Granada, Op, Cit Num 28 (1907) p. 200).

(٣) تزوج ابو الحسن المرينى أحدى بنات السلطان يحيى الحفصي سنة ٧٢٠ م ويروى ان العروس جاءت في حاشية كبيرة الى ميناء غساسة بالقرب من مليلة . ومنها انتقلت الى فاس

الحادي عشر ان يستعين بأساطيل ملك أراجون • وقد أمده بالفعل بدرو
الرابع ملك أراجون بأسطول تحت قيادة Gilabert de Gruylles [١]
بينما أرسل الخليفة المتوكل أبو يحيى الحفصي اسطولا من ست عشرة
قطعة الى المغرب بقيادة زيد بن فرحون قائد أسطول بجاية • ويذكر ابن
خلدون أن أساطيل المغرب وتونس التـي تجمعت بمرسى سبتة كانت
تناهز المائة . وأن السلطان أبا الحسن المرينى عقد عليها لمحمد بن علي
العزفي حاكم سبتة [٢] . بينما تذكر المصادر القشتالية أن أساطيل المغرب
بلغت مائتين وخمسين شراعا •

وكيفما كان الامر . فقد بدأت المعركة في ربيع ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م)
عندما حاول القائد الاراجونى Gilabert de Gruylles عبور المضيق
والاتصال بقائد الاسطول القشتالى Alonso Jofre Tenorio في ميناء
أشبيلية عندئذ تصدى له الاسطول المغربي ليحول دون هذا الاتصال
ودارت بينهما معركة عنيفة في مياه الجزيرة الخضراء انتهت بغرق معظم
الاسطول الاراجوني وقتل قائده . وانسحاب فلوله الى برشلونة بقيادة
نائب القائد المقتول Pedro de Moncada •

ولا شك ان انسحاب الاسطول الاراجوني من ميدان المعركة . كان
ضربة قاضية للاسطول القشتالى الذى لم يستطع الصمود وحده أمام
اسطـول المغرب . فمنى هـو الآخر بهزيمة ساحقـة وقتـل قائـده

---

(١) راجع (Gautier Dal- 32 & A. Canellas : Op. cit. P. 28 -uche : Quelques aspects de la lutte pour la maitrise du detroit de Gibraltar au XIV siecle, Comité Marocain de documentation historique de la Marine, Bulletin no 7 mars 1958)

(٢) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٢٥

Alonso Jofre Tenorio واستولى المسلمون على بعض قطعه • وبهذا النصر الباهر أصبح السلطان ابو الحسن المريني سيـدا بلا منازع على مضيق جبل طارق . وصار من السهل عليه نقل قواته الى أسبانيا في سهولة ويسر •

واتجهت أنظار هذا المجاهد الكبير الى مدينة طريف القاعدة الباقية في أيدي الاسبان من ثغور المضيق • فلو أنه استولى عليها لصار المضيق كله في يده . كما صار الطريق امامه مفتوحا الى قادس وأشبيلية . لهذا عول على احتلالها وأجاز اليها بجيوشه وأساطيله وأحاط بها من كل جانب برا وبحرا في المحرم سنة ٧٤١ هـ • واشترك معه في هذا الحصار سلطان غرناطة ابو الحجاج يوسف الاول بجيوشه ايضا •

وشعر ملك قشتالة الفونسو الحادي عشر بخطورة الموقف . فاستنجد بملك أرجوان بدرو الرابع . كما استنجد بصهرد ملك البرتغال الفونسو الرابع . وهرع الجميع الى ساحة طريف بغية انقاذها . وفي ٧ جمادى الاولى سنة ٧٤١ هـ (أكتوبر سنة ١٣٤٠ م) دارت بين الفريقين معركة حاسمة انتهت بهزيمة المسلمين وقتل عدد كبير منهم • وسميت هذه الموقعة في المصادر العربية باسم موقعة طريف . أما المصادر الاسبانية فقد سمتها بوقعة نهر سلادو el rio Salado على اسم النهر المجاور لطريف في جنوب أسبانيا. كما سمتها أيضا بوقعة الملوك الاربعة de los cuatro reyes [1] •

---

(١) راجع (Cronica de Alfonso onceno, ed. Rosell, p. 323 & Canellas : Aragon y la empsesa del Estrecho,. pb. 28 — 32 & Miguel Cuartero : El Salado, revista « Ejercito » num. 13, Febrero de 1941 & Creasy : Las batallas decesivas en la historia del mundo p. 287).

ولدينا نص مختصر عن سبب هزيمة المسلمين أورده ابن الخطيب الذي فقد أباه وأخاه [١] في هذه المعركة • يقول فيه : « ودون النصارى — ملك البرتغال — هو الذي أمد صاحب قشتالة يوم طريف بنفسه . وكان مصافه بازائنا أهل الاندلس . وحملنا عليه وكدنا نفضه لولا أنهم جعلوا جيشا وراءهم فاصلا عن الملكين . يسد من ظهر به اختلال وتضعضع : فبادر الى عدونا فقواه وسبب له الظهور [٢] •

ويضيف ابن الخطيب ، في موضع آخر سببا ثانيا لهذه الهزيمة وهو خروج أهل البلد المحصور واشتراكهم في القتال ضد المسلمين فيقول وكان اللقاء بظاهر طريف . وساء التدبير • واختل مصاف المسلمين وأضاعوا الحزم. وخرج أهل البلد المحصور وهم شوكة حادة. وضيقت مجال القتال . وأجفان الروم ناضجة بأساليب السهام حتى دخل البلد فرسان الروم . فوقعت الهزيمة التي حصدت شوكة المسلمين وأهلكت نفوسهم واكتسحت أموالهم . وأسلم السلطان مضاربه . ومن جملة ما بها أزواجه من بنات الملوك ، وقعت بهن المثلة بعد القتل . وكان الخطب على الاسلام قل أن يجتمع مثله » [٣] •

وانتهز ملك قشتالة فرصة الاضطرابات التي حلت بجيوش المسلمين بعد هذه الهزيمة . وواصل هجومه على غرناطة فاستولى على قلعة

---

(١) حاول الاب انقاذ ولده حين كبا به فرسه ، وقد غشي العدو فكان آخر العهد بهما . راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ٢١٥ — ٢١٨) .

(٢) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٣٧ ويفهم من هذا ان الجيش البرتغالى كان يواجه الجيش الغرناطى بينما كان الجيش القشتالي يواجه الجيش المغربي .

(٣) ابن الخطيب . كتاب رقم الحلل في نظم الدول ص ٩٣ (تونس ١٣١٦ هـ)

يحصب [١] Alcala la Real وباغو Priego ثم حاصر أخيرا مدينة الجزيرة الخضراء سنة ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م)، ودام هذا الحصار مدة طويلة تقرب من السنتين ، وذاعت أنباؤه في أنحاء أوربا . وسارع اليه عدد كبير من الفرسان الانجليز والالمان والفرنسيين للمشاركة فيه ، وسقط بعضهم قتلى بسيوف المسلمين [٢] ، كذلك شاركت أراجون في هذا الحصار بجزء من أسطولها بقيادة الامير Bernardo de Cabrera [٣] .

وحاول كل من سلطان المغرب وسلطان غرناطة انقاذ هذه القاعدة الهامة بشتى الطرق السلمية والحربية ، ولكن محاولاتها باءت بالفشل . وانتهى الامر باستسلام الجزيرة الخضراء في ربيع سنة ٧٤٤ هـ [٤] (١٣٤٤ م) ثم عقدت معاهدة سلمية بين قشتالة وغرناطة والمغرب مدتها عشر سنوات [٥] .

وقبل انتهاء أمد هذه المعاهدة . حاول الملك الفونسو الحادي عشر تحقيق أمنية طالما فكر في تحقيقها وهي الاستيلاء على جبل طارق ، فأناخ عليه بجيوشه وأساطيله وأحاط به من كل جانب ، ولكن وباء الطاعون

---

(١) قلعة يحصب وتسمى كذلك بقلعة بني سعيد ، أسرة المؤرخ المعروف ابن سعيد المغربي .

(٢) راجع (Gimenez Soler : la Gorona de aragon y Granada, Op. cit 1907 num 28,, p. 214).

(٣) Zurita : Anales, II. p. 149 & A. Canellas : Op. cit p. 32

(٤) راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ١٢٠ — ١٢٨ حيث يرد الخطاب الذي وجهه سلطان المغرب الى سلطان مصر يصف فيه سقوط الجزيرة الخضراء) .

(٥) هذه المعاهدة نشرها كانيلياس ضمن الوثائق الملحقة ببحثه . راجع (A. Canellas ; Aragon y la empresa del Estrecho, documento num. 17).

انتشر في معسكره . ولم يلبث هو نفسه ان راح ضحية لهـذا الم،
الاسود في مارس سنة ١٣٥٠ م (٧٥١ هـ) .

وحينما علم السلطان أبو الحجاج يوسف بخبر وفاته . أمر جن...
بعدم التعرض للجيوش القشتالية العائدة بجثمان مليكها الى اشبيليه [١] .
وقدر ملك قشتالة الجديد بدرو [٢] الاول . لسلطان غرناطة ولـــ
هذا الصنيع . فعقد معه معاهدة ود وصداقة [٣] . كذلك عقدت أرا...
مع ملك غرناطة معاهدة سلمية مماثلة وتبادلت معه خطابات ودية [٤] .

وما كادت غرناطة تنعم بالسلم والهدوء من جانب جيرانها المسيح
حتى دب نزاع جديد بينها وبين سلطان المغرب أبى عنـان فارس [٥]

(٧٤٩ ــ ٧٥٩ هـ = ١٣٤٨ ــ ١٣٥٨ م) والسبب في هذا النزاع ير...
الى أن اثنين من اخوة أبى عنان وهما الاميران أبو الفضل وأبو سالم
خرجا عن طاعة أخيهما السلطان. وهربا الى سلطان غرناطة ملتمسين حمايته.

---

(١) راجـع (Lopez de Ayala : Cronica de los reyes de Cast-illa, I. p. 12).

(٢) يلقب بالقاسي el cruel ويلقب أيضا بالعادل justiciero لانه قتل زوجاته. وبدرو هذا هو الابن الشرعى الوحيد للملك الفونسو الحادى عشر من وزجته ماريا البرتغاليه.
راجــع : A. Ballesteros : Historia be Espana, III, p. 133.

(٣) راجع Argote de Molina : Nobleza de Andalucia, fol 228

(٤) انظر Alarcon y Linares : Los documentos arabes diplom-aticos del archivo de la Corona de Aragon p, 133.

(٥) هذا السلطان ثار على أبيه ابى الحسن المرينى بتلمسان سنة ٧٤٩ هـ واستولى على المغرب الاقصى واضطر ابو الحسن ان يحتمى بشيوخ هنتانة بجبال اطلس الى ان مات في تلك السنة راجع تفاصيل تلك الثورة واسبابها في (ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٧٨ ـ ٢٨٧ ، ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٩٢ ـ ٩٥ ابن الاحمر : روضـة النسرين ص ٢٢ ـ ٢٤) .

وقبل ابو الحجاج يوسف طلبهما وآواهما في بلاطه . وقد أثار هذا العمل غضب السلطان المريني ، فأرسل الى سلطان غرناطة خطابا شديد اللهجة ، مليئا بعبارات الاحتجاج والتهديد ، وكان رد السلطان يوسف عليه واضحا ، اذ أوعز الى الامير ابي الفضل بالسفر الى قشتالة وطلب معونة من ملكها بدور الاول لمحاربة أخيه وانتزاع الملك منه . ووافق ملك قشتاله على طلب الامير المغربي أبي الفضل لانه كان متخوفا من أطماع أبي عنان ، فأمده بالاساطيل والاموال وأنزله بنواحي السوس في جنوب المغرب كي يشعل حربا أهلية ضد أخيه . وثارت ثائرة السلطان أبي عنان لهذا العمل العدائي ، وطلب من ملك أراجون أن يتعاون معه على محاربة غرناطة وقشتالة [١] . غير أن الظروف سرعان ما هدأت من روعه عندما مات أخوه أبو الفضل أثناء حروبه بالمغرب ، وقتل سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف أثناء تأديته لصلاة عيد الفطر في شوال سنة ٧٥٥ هـ [٢] (أكتوبر سنة ١٣٥٤ م) .

وولي عرش غرناطة بعد أبي الحجاج يوسف ولده السلطان محمد الخامس الغني بالله (٧٥٥ — ٧٦٠ . ٧٦٣ — ٧٩٣ هـ ١٣٥٤ — ١٣٥٩ ، ١٣٦٢ — ١٣٩١ م) . وحاول هذا السلطان الجديد ان يعيد العلاقات الودية بين غرناطة والمغرب بعد أن تأزمت في عهد والده ، فأرسل الى فاس سفارة لهذا الغرض برئاسة وزيره لسان الدين بن الخطيب الذي يبدو أنه نجح في سفارته ، اذ يروى أنه حينما مثل بين يدي السلطان وقبل أن يسلم عليه ، أنشده قصيدة يقول في مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر علاك مالاح في الدجى قمر

---

(١) راجع (ابن خلدون : كتاب العبر جـ ٧ ص ٢٩٢ — ٢٩٤)

(٢) قتله مخبول في المسجد الاعظم بقصر الحمراء .

فاهتز أبو عنان لابياتها وقال لابن الخطيب : « ما ترجع اليهم الا بجميع طلباتهم » وقد علق أحد الحاضرين على ذلك بقوله : لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان الا هذا [١] .

غير أن السلطان أبا عنان لم يلبث أن راودته أحلامه القديمة بغزو الاندلس ، والسيطرة على المضيق ، خصوصا بعد أن تم له ضم المغرب الاوسط الى ملكه . وقد لاحظ ابن خلدون ذلك عند قوله : « وكان ابو عنان يؤمل في ملك الاندلس » [٢] . ورأى أبو عنان أنه من الصعب عليه تنفيذ مشروعه ما دام هناك حلف قائم بين غرناطة وقشتالة . ولهذا حاول أن يقنع سلطان غرناطة بالتخلي عن هذا الحلف الذي جعله يدين بالتبعية لملك قشتالة ويدفع له الجزية ، غير أن محمد الخامس رفض هذا العرض لانه كان يجنح دائما الى مسالمة قشتالة [٣] ، أو لانه ، كما يبدو ، كان يشك في نوايا سلطان المغرب . عندئذ رأى أبو عنان أن يتحالف مع بدرو الرابع ملك أراجون الذي رحب من جانبه بهذا المشروع لانه كان فعلا في حرب مع قشتالة ، ووقع الاتفاق بين الملكين بمدينة سرقسطة في يوليو سنة ١٣٥٧ م [٤] (٧٥٨ هـ) .

---

(١) المقرى : أزهار الرياض جـ ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ، ابن الخطيب : الاحاطة جـ ٢ ص ٦ (طبعة القاهرة) .

(٢) ابن خلدون : كتاب العبر جـ ٧ ص ٣٠٤ .

(٣) راجع الرسائل المتبادلة بينهما في (ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب : وهو مخطوط بالاسكوريال رقم ١٨٢٥ ، وقد نشر منه جاسبار راميرو المراسلات المتبادلة بين ملوك المغرب وملوك غرناطة تحت عنوان :
Gaspar Remiro : Correspondencia diplomatica entre Granada y Fez en el siglo XIV p. 253 — 257.

(٤) راجع (ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٠٤) وكذلك : (Capmany Antig- nos tratados de paces y alianzas entre algnnos reyes da Aragon y diferentes principes de Asia y Africa desde e sigle XIII hasta el siglo XV p. 18 & Capmany : Memorias sobre la marina, Comercio y artes de Barcelona, tome III p. 202, tome IV p. 121).

ويبدو أن الاستعدادات للحرب قد بدأت فعلا بدليل قول ابن خلدون بأن الاساطيل المغربية والاراجونية قد أخذت تتجمع في مضيق جبل طارق منتظرة الامر بالهجوم ، وأن السلطان أبا عنان أرسل الى حليفة ملك أراجون هدية فاخرة عربونا لصداقته وامتنانه [١] .

غير أن هذه المشروعات الحربية لم تلبث ان توقفت فجأة نتيجة لوفاة او مقتل السلطان ابى عنان [٢] في سنة ٧٥٩ هـ (ديسمبر ١٣٥٨ م). اذ انتهز ملك تلمسان المخلوع أبو حمو الثاني هذه الفرصة واستعاد ملكه بالمغرب الاوسط ، بينما سادت المغرب الاقصى حروب أهلية بين أولاد السلطان المتوفي طمعا في العرش . ورأى الوزير حسن بن عمر الفودودي ان يستأثر بالنفوذ في الدولة فدبر من قتل ولى العهد أبا زيان ، واختار طفلا من اخوته يدعى السعيد أبو بكر ، فأقامه سلطانا على المغرب وصار يحكم باسمه .

على أن هذا الاختيار لم يعجب الكثيرين من زعماء المغرب ، فاتجه بعضهم الى غرناطة وبايعوا الامير أبا سالم ابراهيم المرينى الذي سبق ان التجأ اليها فرارا من أخيه ابى عنان وظن أبو سالم أن غرناطة سوف تساعده على تحقيق آماله في ملك المغرب نظرا للعداء الذي كان بينها وبين

---

(١) راجع وصف هذه الهدية في عبد الرحمن بن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٠٢ – ٣٠٤ وكذلك في كتاب أخيه يحيى ابن خلدون : بغية الرواد فيذكر ملوك بنى عبد الواد جـ ٢ ص ٢٧. ويلاحظ ان هذه الهدية لم تصل الى ملك أراجون اذا استولى عليها ملك تلمسان ابو حمو الثانى عندما استرد ملكه عقب وفاة ابى عنان وكانت الهدية لا تزال في بلاده .

(٢) راجع أخبار وفاته في (ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٢٩٩ ، السلاوى الاستقصا جـ ٢ ص ٢٠٤) كذلك يرى ابن الخطيب انه مات قتيلا مثل قول (رقم الحلل ص ٨٤) :

ومات فيما قيل شر ميتة ... بفيلة لنفسه مفيته
لم تغن عنه البأس والبسالة ... وأصبحت مهجته مسالة

حكومة فاس على عهد أخيه ؛ ولكن سلطان غرناطة فضل أن يسلك سياسة محايدة في تلك الظروف المضطربة . واضطر أبو سالم الى الفرار الى ملك قشتالة بدور الاول بسدينة اشبيلية طالبا مساعدته في الوصول الى عرش المغرب . وكان رأى المستشارين في البلاط القشتالي عدم الموافقة على مساعدة الامير المغربي ، لان من مصلحة قشتالة ان يكون سلطان المغرب طفلا قاصرا مثل السعيد ابي بكر ؛ ولكن الملك بدرو لم يستجب لهذا الرأى . وقرر مساعدة الامير أبى سالم بعد أن أخذ عليه الضمانات والمواثيق بالوقوف الى جانبه ضد أراجون . ثم أمده بالاموال وبالاساطيل التي عبرت به الى الساحل المغربي ؛ وهناك تمكن ابو سالم بعد أحداث وحروب من التربع على عرش المغرب في شعبان ٧٦٠ هـ . (يوليو سنة ١٣٥٩ م) [١] .

وكان من الطبيعي أن تتجه سياسة هذا السلطان الجديد نحو محالفة كل من قشتاله وغرناطة ؛ والتخلى عن سياسة التحالف مع أراجون التي رسمها أبو عنان من قبل . وكانت الحرب وقتئذ قد استعرت بين هاتين المملكتين الاسبانيتين قشتالة وأراجون ؛ وصمم ملك قشتالة على مهاجمة خصمه في مياهه الاقليمية ليثبت له أنه قادر على منازلته في البحر الذى هو ميدانه . واستعان في ذلك بحليفه محمد الخامس الذي لم يتردد في امداده بأسطول غرناطى من عشر شوانى حربية بجميع بحارتها وأسلحتها كما سمح له باستخدام القواعد البحرية الغرناطية ليستعين بها في تموين أساطيله [٢] .

---

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ٢١٥ وما بعدها ، ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٠٤ — ٣٠٦ .

(٢) راجع Lopez de Ayala. Cronicas de los Reyes de Castilla, I p. 286 Zurita : Los anales de la Corona de Aragon II p. 244 & Cascales : Historia de Murcia fol 102).

وبينما كان ملك قشتالة منهمكا في غاراته البحرية ضد ميناء برشلونة وغيرها من الموانى الاراجونية [١] اذا بحليفه محمد الخامس يعانى انقلابا داخليا في مملكته انتهى بخلعه وتولية أخيه ابى الوليد اسماعيل الثاني مكانه وذلك في رمضان سنة ٧٦٠ هـ (أغسطس ١٣٥٩ م) [٢] . وتمكن السلطان المخلوع من الفرار ليلا على ظهر جواده الى مدينة وادى آش Guadix التي تعهدت بحمايته . ومن هنالك بعث محمد الخامس الى حليفه سلطان المغرب يطلب منه قبوله كلاجىء سياسي في بلاطه . وقبل السلطان ابو سالم هذا العرض لانه رأى أن وجوده بجانبه يفيده كسلاح ضد حكومة غرناطة وضد أمراء بنى مرين المقيمين في كنفها اذا ما فكروا يوما في غزو المغرب . وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون : « وأراد أن يعده زبونا (أي حربا وقوة) على اهل الاندلس ويكف به عادية القرابة المرشحين هنالك متى طمحوا الى ملك المغرب » [٣] .

ثم أرسل السلطان أبو سالم رسولا خاصا من قبله ليصحب محمد الخامس في رحلته الى المغرب بعد أن أقنع المتغلب على غرناطة بذلك . وفي ذي الحجة سنة ٧٦٠ هـ (نوفمبر سنة ١٣٥٩ م) خرج محمد الخامس من مدينة وادى آش ومعه وزيره لسان الدين بن الخطيب وشاعره عبدالله ابن زمرك وجماعة من مماليكه وأتباعه متجها الى ميناء مربله Marbella ، ومن هنالك أبحر عبر مضيق جبل طارق الى مدينة سبتة ثم سار الى

---

(١) راجع التفاصيل في (Lopez de Ayala : Op. cit. I p. 277 — 286)

(٢) راجع تفاصيل هذا الانقلاب في مقالنا (فترة مضطربة في تاريخ غرناطة ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد المجلد السابع ١٩٥٩) .

(٣) ابن خلدون : كتاب العبر جـ ٧ ص ٣٠٦ ، ازهار الرياض جـ ١ ص ٢٠٧

العاصمة فاس حيث استقر بها تحت كنف السلطان أبي سالم ورعايته (١) .

ولم يكد يمر عام على هذا الوضع حتى عانت مملكة غرناطة انقلابا آخر طوح برأس سلطانها ابي الوليد اسماعيل الثاني في شعبان سنة ٧٦١هـ (يونيو ١٣٦٠ م) . وتولى مكانه قاتله وهو زوج أخته وأحد أبناء عمومته محمد أبو سعيد المعروف في المصادر الاسبانية باسم البرميخو El-Bermejo ومعناه اللون البرتقالى الضارب الى الحمرة . وهو لون لحيته وشعره (٣) . ورأى هذا السلطان المغتصب ان التحالف مع قشتالة أمر يتعذر تحقيقه نظرا للصداقة التي تربط ملكها بالسلطان المخلوع محمد الخامس ولهذا اتجه نحو بدرو الرابع ملك أراجون ، وانضم اليه في حروبه ضد قشتالة (٤) .

وقدر ملك قشتاله . بعد انضمام غرناطة الى أراجون . صعوبة الحرب في جبهتين في آن واحد . ولذا اضطر الى أن يستجيب لوساطة البابا بعقد صلح مع أراجون في ١٣ مايو سنة ١٣٦١ ، كي يتفرغ بذلك لمحاربة غرناطة (٥) .

ولكي يبرر ملك قشتاله شرعية هذه الحرب . أعلن نفسه مدافعا

---

(١) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة جـ ٢ ص ١٣ (طبعة القاهرة) ، ابن خلدون العبر جـ ٧ ص ٣٠٩ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٢٣ ــ ٢٥ ، ازهار الرياض جـ ١ ص ٢٠٣ ــ ٢٠٧) .

(٢) حفيد عم أبيه . انظر (ابن الخطيب : أعمال الاعلام ق ٢ ص ٢٥٤) .

(٣) راجع (P, Mariana : Historis general de Espana II, p. 221

(٤) راجع (Bleda : Cronica de los moros de Espana p. 537, Ayala : Op. cit. I p 326 & Alarcon y Linares : Documentos arabes diplomaticos de la Corona de Aragon P. 142).

(٥) Ayala ; Op. cit I, 326

عن حقوق السلطان الشرعى المخلوع محمد الخامس ضد الغاصب أبى سعيد البرميخو [١] . وعلى هذا الاساس طلب من سلطان المغرب أن يسلمه سلطان غرناطة المخلوع كي يساعده في العودة الى عرشه . ولكن السلطان أبا سالم تلكأ في تنفيذ هذا الطلب . اذ يبدو أنه اتفق مع البرميخو سرا على منع محمد الخامس من العبور الى اسبانيا في مقابل أن يقوم البرميخو باعتقال جميع أمراء بنى مرين المقيمين عنده بغرناطة [٢] .

وغضب ملك قشتالة من موقف سلطان المغرب . وهـدده بالحرب والاستيلاء على جميع القواعد المغربية في أسبانيا ان لم ينفذ مطلبه . واضطر السلطان أبو سالم أمام اصرار بدور القاسي وتهديده أن يرضخ لمطالبه . فأمر أساطيله بالتجمع في مضيق جبل طارق أمام ميناء سبتة . متظاهرا بحرب الاسطول الاراجوني ، بينما كان غرضه الحقيقي هـو اجازة السلطان المخلوع الى الساحل الاندلسي . وفي الوقت نفسه وصلت الاساطيل القشتالية الى ميناء سبتة للقيام أيضا بمهمة اجازة السلطـان محمد الخامس الى أسبانيا . وهنا تترك المؤرخ المعاصر لسان الدين بن الخطيب يصف لنا رحيل سلطانه من فاس الى الاندلس كما شاهـده بنفسه ، فيقول [٣] .

وألح سلطان قشتالة في تسليم السلطان ابى عبدالله [٤] اليه ، ليتولى شد أزره ، ويجتهد في جبر حاله . وألقيت اليه المعاذير فنبا عنها سمعه ،

---

(1) Garibay : Op. cit, p. I 103, Bleda : Op. cit 537, Ayala Op. cit. I p. 331.

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٢١٦ .

(٣) راجع ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ص ١٨٤ – ١٨٥ ، ٢٨٥ ، نشر أحمد مختار العبادى) .

(٤) اي السلطان محمد الخامس الغني بالله .

ورفق عن غرضه في رفع السلم عند اخفاق مطلبه . ولم يقبل العوض من
ضروب ملاطفته فترجح الرأي على توجيهه الى الاندلس • وقد كان
الاسطول [١] تألف بفرضة المجاز من سبتة موريا بجهاد من ظهر به من
عدو برشلونة • ووصلت اساطيل الروم [٢] المسخرة في غرض اجازته . ١٠
اركبها ملك النصارى [٣] وجوه خدامه : فقعد السلطان أمير المسلمين
بالمغرب [٤] في قبة العرض المتخذة بجنة المصارة • ووقع البريح ببروز
الناس الى الفضاء الافيح . واستحضرت البنود والطبول وأوعية المال
صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال من عام التاريخ [٥] .
واستحضر السلطان [٦] فصعد الى القبة ثم نزل وقد ألبس خلعة الملك .
وقيدت له فرس شقراء مطهمة . حليهـا ذهب بحت . ونشرت حوله
الالوية . وقرعت الطبول . وركب السلطان [٧] مشيعا اياه غلوة ثم
انصرف عنه وقد التف عليه كل من جلى عن الاندلس من لدن الكائنة
الواقعة بها في جملة كثيفة • وبلى من رقة الناس وأجهاشهم وعلو أصواتهم
بالدعاء ما قدم به العهد . اذ كان مظنة ذلك سكونا وعفافا وقربا قد ظلله
الله برواق الرحمة . وعطف عليه وشائج المحبة الى كونه مظلوم العهد .
منتزع الحق . فتبعته الخواطر وحميت له الانفاس ••• وحث السلطان ابو
عبدالله بن نصر الموجه الى الاندلس ركابه الى سبتة . لا يصدق بالافلات.
ولا يثق بالنجاة . فعارت له خيل ونفقت حموله لشدة السير . واستقر

---

(١) يقصد الاسطول المغربي .
(٢) اي اساطيل قشتالة .
(٣) بعرو الاول الملقب بالقاسي ملك قشتالة .
(٤) ابو سالم ابراهيم المستعين بالله سلطان المغرب .
(٥) عام ٧٦٢ هـ (٢٠ أغسطس ١٣٦١ م) .
(٦) اى سلطان غرناطة المخلوع محمد الخامس .
(٧) اي سلطان المغرب ابو سالم .

بسبتة . واستعجل الجواز . وحل بجبل الفتح بعد مراوضة كبيرة لقواد الاسطول [١] الرومى ومحاورة . اذ تبرعوا باجازته . ولم يسمحوا في خلاف ذلك ليجلبوا الفخر لسلطانهم وينسبوا الحركة اليه . فأعملت الحيلة ولفقت الحجة وقطع السلطان السنتهم بمال بذله مكارمة لهم . وأركب أجفانهم طائفة من كبار قرابته واستقر بجبل الفتح . وطال به مقامه تتردد الرسل بينه وبين ملك الروم . ثم ارتحل نحوه [٢] في لمة من مماليكه ووجوه قرابته . وتحفى السلطان ـ بدرو ـ بمقدمه . وبالغ في بره . وأفرط في التنزل لوجهته . وأبعد المدا في خطا تلقيه . وأرجل الاكابر لاداء حقه . وتوسع في نزله . وعم بالملاحظة جميع من في صحبته . وأعطاه صفقة يمينه بالمظاهرة والمعاضدة . وسلمه ثلاثين ألف دينار من الذهب العين لنفقته . وشرط له أن لا يبتزه حصنا . ولا ينقصه فتحا . ولا يعلق بـه طماعية . وأنه يصل معه السلم مدة حياته . ويتركه وصية في عقبه وانصرف مجبورا قرير العين . منشرح الصدر . فلحق بسائر الجيش المرينى ومن تخلف عنه من قومه بظاهر رنده [٣] .

واتخذ محمد الخامس من مدينة رنده [٤] Ronda مقرا لـه ولحكومته المؤقتة . وكانت في ذلك الوقت . تابعة لسلطان بنى مرين . ومن هنالك أخذ محمد الخامس يكاتب زعماء غرناطة ويحرضهم على ترك

---

(١) اى الاسطول القشتالى

(٢) يشير ابن الخطيب في كتابه رقم الحلل في نظم الدول ص ١٢١ الى ان اللقاء بين محمد الخامس وبدرو الاول كان بمدينة اشبيلية . وهذا يتفق مع ما ورد في المصادر الاسبانية. راجع (Garibay p. 1103 Bleda p, 537) .

(٣) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ١٨٤ ، ٢٨٥ .

(٤) تمتاز رنده بموقع استراتيجي مرتفع يشرف على حدود غرناطة الغربية
Bastion de la Frontera occidental.

طاعة البرميخو والانضمام اليه . كما أخذ يعد العدة لمحاربة هذا السلطان المغتصب . وقد أمده سلطان المغرب بست سفن حربية . كما أمده ملك قشتالة بخمس أخرى. ووعداه بمزيد من الاساطيل والجيوش لاسترداد ملكه . ويضيف ابن الخطيب ان محمد الخامس آخذ يرصد رجاله امام الطريق على رجال البرميخو وسفاراته المتجهة الى المغرب . ومن الطريف أن من بين الذين وقعوا في أسره الفقيه محمد بن على بن محمد البلنسي الذي كان مقرئا في قصره أيام سلطنته . وقد اضطر محمد الخامس الى العفو عنه حنينا الى حسن تلاوته [1] .

ولدرأ هذا الخطر . رأى السلطان المغتصب أبو سعيد البرميخو ان يستنجد بحليفه ملك أراجون ، فكتب له خطابا بتاريخ ٣ من ذي القعدة سنة ٧٦٢ هـ (٤ سبتمبر سنة ١٣٦١ م) يخبره فيه بأنه تفاديا لشروط المعاهدة المبرمة بين قشتاله وأرجوان ، فانه يرى ان يتكفل الاسطول الاراجونى بمقاومة هجوم سلطان المغرب . بينما يتكفل الاسطول الغرناطي بمحاربة الاسطول القشتالي [2] .

ولم يكتف البرميخو بهذا التكتيك الحربي بل صمم على ارسال بعض المرشحين لعرش المغرب من امراء بنى مرين المقيمين عنده الى المغرب لاشعال نار الحرب الاهلية ضد السلطان ابى سالم جزاء مساعدته لمحمد الخامس ، واختار لهذا الغرض اثنين من أولاد عم سلطان المغرب وهما عبد الحليم وعبد المؤمن . وحاول هذان الاميران الابحار من ثغر المنكب Almunecar على ظهر سفينة حربية غرناطية . غير أن أسطول المغرب

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٩٢ .

(٢) راجع نص الرسالة في Alarcon y Linares : Los documentos arabes diplomaticos de la Corona de Aragon p. 142 — 143).

وقشتاله المكلف بمساعدة محمد الخامس وحراسة مضيق جبل طارق ؛ هاجم هذه السفينة واضطر بحارتها الى غرسها في الرمال فتعذر سيرها بعد ذلك . على أن ركاب السفينة انتهزوا حلول الليــل . وغياب الاسطول المشترك لقضاء حاجته من زاد الماء . وأبحروا تحت جنح الظلام على ظهر سفينة أخرى صغيرة واتجهوا نحو ثغر هنين بالقرب من تلسان بالمغرب الاوسط [١] . وهناك رحب بهم أبو حمو الثاني ملك تلسان وآواهم عنده . ثم نادى بعبد الحليم سلطانا على المغرب الاقصى لانه اكبر سنا من أخيه عبد المؤمن ؛ وأمده بالمال والرجال . وكان الملك أبو حمو يهدف من وراء ذلك أن يثير حربا أهلية بين بني مرين الذين طالما شردوه وشردوا آباءه بني زيان من قبل . وضموا تلمسان الى ملكهم بالمغرب الاقصى [٢].

ونجحت سياسة كل من غرناطة وتلمسان في بث سمومها في فاس ؛ ففي ٢٢ ذى القعدة سنة ٧٦٢ هـ (٢٣ سبتمبر سنة ١٣٦١ م) اغتيل السلطان أبو سالم المريني على أثر انقلاب داخلي دبره وزيــره عمر بن عبدالله [٣] . وكان لهذا الحادث نتائج سريعة أثرت في الاحداث السياسية بمنطقة المضيق اذ صدرت الاوامر الى الاساطيل المغربية المكلفة بحراسة المضيق والاغارة على السواحل الغرناطية ؛ بالعودة الى قواعدها فورا .

كذلك صدرت أوامر مماثلة الى الجيوش المغربية المقيمة مع محمد الخامس في رندة ؛ تطلب منها التخلي عن مساعدته ولم يلبث الخامس أن

---

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) يحيى بن خلدون : بغية الرواد جـ ٢ ص ٩٠ — ٩٢ ، عبد الرحمن بن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٢١٦ — ٢١٤ .

(٣) ابن الخطيب : الاحاطة جـ ٢ ص ٢٢ (طبعة القاهرة) ، ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣١٣ .

وجد نفسه فجأة وحيدا خصوصا بعد أن تخلى عنه أيضا أقرباؤه واتباعه وفروا هاربين الى غرناطة أو المغرب [١] واضطر الغنى بالله في غمرة يأسه أن يترك مدينة رندة التابعة لبنى مرين ، وأن يتجه بمن تبقى معه من رجال الى أشبيلية لكى يتدبر الامر مع صديقه بدرو الاول ملك قشتالة . ورأى الملك بدرو أن الموقف قد تعقد بسبب موت ابى سالم حليفهما الثالث . وبسبب اقتراب حلول فصل الشتاء ، فاعتذر لمحمد الخامس عن عدم امكان مساعدته في هذه الظروف الصعبة ، ولكنه عمل على اكرامه وتطييب خاطره . وانزله هو واتباعه في ضيافته بمدينة استجة Ecija الجميلة المطلة على الثغور الغرناطية [٢] .

وكان المغرب الاقصى في خلال ذلك الوقت يعانى فتنة داخلية . اذ لم يرض الناس بسلطنة تاشفين بن ابى الحسن (الموسوس) ، الذي خلف أخاه أبا سالم . لضعف قواه العقلية . ورأى الوزير المستبد عمر بن عبد الله ان يستبدله بابن أخيه أبى زيان محمد بن أبى عبد الرحمن بن أبى الحسن المقيم ببلاط ملك قشتالة باشبيلية . واستعان الوزير المذكور في تنفيذ ذلك بمحمد الخامس نزيل استجه كي يتوسط لدى صديقه بدرو الاول في أن يسمح للامير أبى زيان بالعبور الى فاس . وقبل محمد الخامس القيام بهذه الوساطة واشترط في مقابل ذلك تسليمه مدينة رنده التي كانت تابعة لبنى مرين ووافق الوزير عمر بن عبدالله على هذا الشرط تحت تأثير صديقه المؤرخ المعروف عبد الرحمن بن خلدون ، وانتهى الامر

---

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ٢٠١

(٢) ابن الخطيب : المرجع السابق وكذلك (Ayala ; Op. cit I p. 24)

وقد اخطا ابن خلدون (التعريف ص ٨٠) عندما اعتبر استجه ضمن الارض الاسلامية في ذلك الوقت .

بأن نجحت الوساطة وانتقل محمد الخامس الى رندة كما اعتلى أبو زيان محمد الثاني عرش المغرب في صفر سنة ٧٦٣ هـ (نوفمبر ١٣٦١ م) [١] .

وفي ربيع تلك السنة ٧٦٣ هـ (١٣٦٢ م) قام ملك قشتالة بغارات صمم على الهرب فجمع ما في خزائنه من أموال وذخائر ، وفر ليلا الى الخامس الاراضي الغرناطية واستولى على انتقيرة Antequera ولوشه Loja ، وبليش Velez ، وقمارش Comarex ، والحمة Alhama ، ثم استولى على مالقة العاصمة الثانية لمملكة غرناطة [٢] .

ولما رأى السلطان أبو سعيد البرميخو انه لا فائدة من المقاومة ، صمم على الهرب فجمع ما في خزائنه من أموال وذخائر ، وفر ليلا الى أشبيلية دون اتفاق سابق مع ملكها كما يقضي العرف بذلك [٣] . وكان البرميخو يؤمل أنه بهذا العمل سوف يكتسب رضاء الملك بدرو وعفوه وحمايته غير ان بدرو القاسي او العادل لم يغفر للبرميخو ما اقترفه من آثام وذنوب فقتله كما قتل سبعة وثلاثين من فرسانه في طلياطة Tablada بضواحي اشبيلية في رجب سنة ٧٦٣ هـ (ابريل سنة ١٩٦٢ م) [٤] .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١١٢ ، التعريف ص ٨٠ ، المقرى : نفح الطيب ج ٧ ص ٢٩ ، ج ٨ ص ١١٩

(٢) راجع (Bleda : Op, cit. p 538) Ayala : Op cit. I p. 340
وكذلك (ابن الخطيب اللمحة البدرية ص ١١٧ ، العمرى : مسالك الابصار ص ٤٦

(٣) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ق ٢ ص ٢٥٥ ، الاحاطة ، نسخة الاسكوريال لوحة ٤٢٩ .

راجع كذلك (Gaspar Remiro ; correspondencia diplomàtica entre Granada y Fez p. 345)

(٤) راجع تفاصيل مقتله في (Ayala ; Op. cit. I P. 345 — 349 & Joaquin Guichot ; Don pedro de castilla, muerte delrey Bérmejo p. 61 — 80)

وحرص السلطان محمد الخامس بعد عودته الى عرشه ، على ان يظل حليفا مخلصا لملك قشتالة ، وقد نوهت المصادر الاسلامية والمسيحية بهذه الصداقة ، وأشارت الى أن ملك قشتالة بعث الى محمد الخامس برأس البرمخيو ورؤوس فرسانه الذين كانوا معه ، فأمر السلطان بتعليقها على أسوار قصر الحمراء .

وفي الوقت نفسه أعاد محمد الى الملك بدرو جميع الاسرى القشتاليين الذين كانوا في مملكته كما قدم له الهدايا الفاخرة رمزا لصداقته وامتنانه [١] .

اما سلطان فاس أبو زيان محمد ، فانه حاول استرجاع رنده الى سلطان بنى مرين وطالب السلطان محمد الخامس بردها مهددا بمنع أسرته التي كانت لا تزال بالمغرب ، من العودة الى غرناطة . ويذكر ابن الخطيب الذي كان مقيما هو الآخر بالمغرب ، في ذلك الوقت ، أنه تدخل لدى المسئولين في المغرب في هذا الشأن واستطاع حل هذه الازمة والعودة الى غرناطة صحبة الامير يوسف ولى عهد غرناطة وبقية الاسرة الملكية . ولم يذكر ابن الخطيب كيف حلت هذه المشكلة ، ولكن من الثابت ان رنده ظلت تابعة لمحمد الخامس بدليل ان الخطابات التي تبودلت بينه وبين ملوك قشتالة واراجون كانت تنص صراحة على اسم رندة بين البلاد الخاضعة له [٢] .

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة جـ ٢ ص ٢٢ (طبعة القاهرة) Ayala ; Op cit. I p. 347.

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ٤٧ ، جـ ٧ ص ٦ ، ابن الخطيب : الاحاطة جـ ٢ ص ١٥ .

وكيفما كان الامر ، فان هذا الحادث لم يؤثر في العلاقات الودية بين فاس وغرناطة اذ لم ينس أبو زيان محمد المجهودات التي بذلها كل من محمد الخامس وبدرو الاول في توليته عرش المغرب . ولهذا حرص على توطيد علاقته بهما ، فأوفد اليهما في سنة ٧٦٥ هـ (١٣٦٣ م) المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون كسفير له في هذا الغرض . وقد نجح ابن خلدون في مهمته ، قصد أول الامر بلاط غرناطة حيث احتفى به السلطان محمد الخامس وأكرمه وأقطعه قرية البيرة بضواحي غرناطة وقد تسرى ابن خلدون بجارية اسبانية تدعى هند . وبعث اليه صديقه الوزير الغرناطي ابن الخطيب برسالة من الادب المكشوف في هذا الموضوع نقلها المقرى في نفحه [١] .

ثم اتجه ابن خلدون بعد ذلك الى بلاط اشبيلية حيث حظى بلقاء بدرو الاول . ويقول ابن خلدون ان ملك قشتالة طلب منه البقاء في اشبيلية ووعده بأن يعيد اليه أملاك اجداده باشبيلية ولكنه اعتذر وعاد الى غرناطة ومنها الى فاس [٢] .

ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى شغل ملك قشتالة بثورة داخلية ضده قام بها أخوه الغير شرعى هنرى دي تراستمارا Henrique de Trastamara واستطاع هذا الامير الثائر ان ينال تاييد كل من البابا ، وملك فرنسا شارل الخامس ، وملك أراجون بدرو الرابع ، الذين اعترفوا به ملكا على قشتالة في مارس سنة ١٣٦٦ ، وأمدوه بالمال والرجال لمعاونته ضد أخيه .

---

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ٢٨٠ وما بعدها .

(١) راجع تفاصيل هذه السفارة في (ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ص ٨٠ — ٩٣)

وحاول ملك أراجون أن يضم الغرب الاسلامي الى هذا الحلف، فأرسل كتبه وسفراءه الى كل من سلطان فاس وغرناطة محاولا اقناعهما بمهاجمة قشتالة . مقدما لهما جميع التسهيلات الممكنة من مال وسلاح وأساطيل [١] وكان غرضه من وراء ذلك هو عزل مملكة قشتالة . وأحاطتها بشبكة من الاعداء . غير أن محاولات ملك أراجون في هذا السبيل لم تلبث ان فشلت تماما أمام الصداقة القوية التي كانت تربط كلا من ملك غرناطة وفاس بملك قشتالة بدرو الاول .

هذا ولم يكتف السلطان محمد الخامس برفض التحالف مع أراجون بل سارع الى امداد صديقه بدرو بقوة من خيرة فرسانه بقيادة القائد الغرناطي ابى الفرج رضوان المعروف في المصادر الاسبانية المعاصرة باسم دون فرج الكابثاني [٢] El - Cabezani ولعل معناها « ذو الرأس الصلبة أو الكبيرة » .

على ان الملك بدرو ، رغم ذلك ، لم يستطيع مقاومة الجيوش المتحالفة ضده ، واضطر الى ترك البلاد لمنافسه ، والالتجاء الى ملك البرتغال ثم ملك انجلترا طلبا للمعونة الحربية .

وشعر ملك غرناطة بخطورة موقفه بعد أن تخلى عنه حليفه ، فكتب الى ملوك المغرب والجزائر يعلمهم بحقيقة الموقف ويخبرهم بأن الجيوش الفرنسية والاساطيل الاراجونية قد وضعت خطة عدوانية تحت اشراف

---

(١) راجع السجل رقم ١٢٨٩ ورقة ٢٨ ، ٤٠ ظهر بأرشيف تاج أراجون ببرشلونة .

(٢) راجع (Ayala : Ob. cit, I p. 385) ولعله ابن الوزير ابى النعيم رضوان الذي قتل اثناء الانقلاب الذي انتهى بعزل محمد الخامس سنة ٧٦٠ هـ .

البابا للقضاء على أملاك المسلمين في المغرب والاندلس [١] . وكان لهذا النداء صدى عميق في نفوس اهل المغرب والجزائر ، اذ سارعت اساطيلهم محملة بالجنود والاقوات والاسلحة الى غرناطة [٢] . ثم قامت الجيوش الاسلامية مجتمعة تحت قيادة محمد الخامس بهجوم خاطف على المواقع الاستراتيجية القشتالية المهددة لمملكة غرناطة قبل أن يستتب الامر للملك القشتالي الجديد هنرى د ى تراستمارا . واستطاع المسلمون في شعبان سنة ٧٦٧ هـ (ابريل ١٣٦٦ م) الاستيلاء على حصنى برغه Burgo ، وباغو Priego ، اللذين كان القشتاليون يغزون منهما مدينة رندة وأحوازها [٣] وفي الشهر التالي استولوا على حصن آشر Iznajar [٤] . المنيع الذي يقع عند نقطة الالتقاء بين حدود المقاطعات الثلاث : غرناطة ، وقرطبة ، وأشبيلية ، كذلك استولوا على حصن السهلة بالقرب من جبل طارق . وقد لعبت الجيوش الجزائرية دورا بارزا في احتلال هذا الحصن الاخير [٥] .

أما أراجون ، فانها انتهزت هذه الفرصة ، وشنت هجوما بحريا على السواحل الغرناطية ، واستطاعت في ربيع الثاني سنة ٧٦٨ هـ (أواخر

---

(١) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة جـ ٢ ص ٢١ (طبعة القاهرة) ، يحيى بن خلدون : بغية الرواد جـ ٢ ص ١٧٢ – ١٧٣) راجع كذلك (: Gaspar Remrio Op cit. p 397).

(٢) يحيى بن خلدون : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٣) يحيى بن خلدون : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٧٨ – ١٧٩ ، ابن الخطيب الاحاطة جـ ٢ ص ٤٨ – ٥١

(٤) انظر (Graspar Remiro : Op. cit. p. 271) .

(٥) يحيى بن خلدون : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٨٠ ، ابن الخطيب : الاحاطة جـ ٢ ص ٥١ – ٥٢ .

سنة ١٣٦٦ م) أن تأسر سفينة غرناطية متجهة الى ثغر هنين [١] وعليها هدايا ثمينة ارسلها السلطان محمد الخامس الى صديقه أبى حمو الثاني ملك تلمسان [٢] .

ورأى سلطان غرناطة ، بعد أن ضمن سلامة حدوده ، أن يلجأ الى الحلول السياسية لمداراة اعدائه ودفع شرهم ، فأرسل سفراءه الى ملكي أراجون وقشتالة [٣] ، مبديا لهما استعداده لعقد سلم دائم معهما ان توقفا عن مهاجمته . ونجحت غرناطة في سياستها اذ فضل كل من بدرو الرابع ملك أراجون وهنرى دي تراستمارا ملك قشتالة قبول هذا العرض مؤقتا حتى يتفرغا لحل مشاكلهما الداخلية [٤] .

وفي خلال ذلك الوقت كان ملك قشتالة المخلوع بدرو الاول يسعى لدى ملكي البرتغال وانجلترا للحصول على معونة عسكرية تعيده الى عرشه ولم يستطع ملك البرتغال تحقيق رغبته بينما وافق ملك انجلترا ادوارد الثالث على مساعدته لان بلاده كانت في حرب مع فرنسا (حرب المائة عام) فأمده بجيش بقيادة ابنه وولى عهده امير الغال ادوارد الرابع المعروف بالامير الاسود نسبة الى لون درعه . وكان هذا الامير في ذلك الوقت مقيما في مدينة بوردو محاربا للفرنسيين في بلادهم [٥] .

---

(١) كانت هنين تقع على بعد ثلاثين كيلو مترا شرقى نيمور Nemours, في ولاية تلمسان وقد حلت وهران Oran محلها الآن .

(٢) راجع (يحيى بن خلدون : بغية الرواد جـ ٢ ص ١٩٢ — ١٩٤) .

(٣) يرد اسم السفير الغرناطي في الوثائق الاراجونية على شكل Galib AlcaPelli راجع (سجل رقم ١٣٨٩ ورقة ١ في أرشيف التاج الاراجوني ببرشلونة) .

(٤) راجع نصوص هذه الاتفاقيات في (Alarcon y Linares : op cit p. 149)

(٥) انظر (Merimée : Histoire de Don Pedro I roi de Castille p. 444).

واستطاع الجيش الانجليزي ان يحرز نصرا كبيرا على الجيوش الفرنسية والاراجونية المتحالفة في موقعة ناجره Najera بشمال اسبانيا في شعبان سنة ٧٦٨ هـ (ابريل ١٢٦٧ م) [١] وبهذا النصر استعاد الملك بدرو عرشه من جديد ولكنه ظل مع ذلك في حالة حرب مع أخيه وحلفائه. ولقد ساء موقف الملك بدرو بعد ذلك عندما انسحب الامير الانجليزي بجيشه من اسبانيا نتيجة لمرضه ولعدم قدرة بدرو على دفع نفقات حملته.

واضطر بدرو ان يطلب مساعدة صديقه محمد الخامس بعد أن أصبح وحيدا في الميدان. ولم يتردد ملك غرناطة في امداده بألفين من خيرة فرسانه بقيادة أبي الفرج رضوان وكان غرضه من ذلك ان يزيد الحرب اشتعالا بين الاخوين فيكفا عن مناوأة المسلمين [٢].

ولم يكتف محمد الخامس بذلك، بل انتهز فرصة انشغال الاخوين بحروبهما، وقام بهجوم واسع النطاق على قرطبة وجيان سنة ٧٧٠ هـ (١٣٨٦ م). وقد اشترك معه في هذا الهجوم جيش من المتطوعين المغاربة بقيادة شيخ الغزاة الامير عبد الرحمن بن على بن ابى يفلوسن. وقد أشادت المدونات القشتالية [٣] المعاصرة بشجاعة هذا القائد المغربي Abenfaluz أي ابن يفلوسن. وذكرت انه استطاع أن يخترق حصون قرطبة وأنه لولا هطول الامطار وكثرة الاوحال لتمكن المسلمون من الاستيلاء على عاصمتهم القديمة [٤].

---

(١) وأورد ابن الخطيب وصفا دقيقا مفصلا لهذه المعركة في كتابه الاحاطة جـ ٢ ص ٢ ٢– ٢٧ (طبعة القاهرة).

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٢٢٧

(٣) راجع (Ayàla ; Op . cit I, p. 525 — 527)

(٤) راجع Gaspar Remiro : Op cit . p . 328 حيث ترد الرسالة التي وجهها محمد الخامس الى سلطان تونس يصف فيها أحداث تلك الحملة على قرطبة.

كذلك يشير ابن الخطيب عند كلامه عن الحملة التي شنها الغرناطيون على مدينة جيان Jaen سنة ١٣٦٧ م ، أن صيحة المسلمين في هذه الحرب كانت : « والثارات أهل الاسكندرية » (١) . وهذه الصيحة تعبر عن موجة الغضب التي أثارتها بالاندلس تلك الغارة الوحشية التي شنها ملك قبرص بطرس لوزجنان Lusignan على مدينـة الاسكندريـة سنة ٧٦٧ هـ (٢) (١٣٦٥ م) كما أنها تحمل في طياتها معاني الاخوة والتضامن بين الشعوب الاسلامية امام الغدر والعدوان مهما بعدت بينها المسافات .

وكيفما كان الامر فان هذه الحروب التي قامت بين بدرو وأخيه هنرى انتهت بهزيمة بدرو ومقتله عند بلدة موتـيل Montiel وتولية هنرى عرش قشتالة سنة ١٣٦٩ م . ولما كان هنرى ابنا غير شرعـي لالفونسو الحادي عشر ، فقد أثارت توليته معارضة ملوك البرتغال ونافارا وانجلترا ، اذ ان كلا منهم كان يرى نفسه احق بملك قشتالة من هنرى بسبب اواصر القربى التي تربطهم بالاسرة الملكية الشرعية . ولم تلبث هذه المعارضات ان تحولت الى حروب بين الملك هنرى ومعارضيه .

ولقد انتهز السلطان محمد الخامس هذه الفرصة وعقد حلفا مع ملك البرتغال فرناندو الاول ، ومع سلطان المغرب عبد العزيز بن أبى الحسن المرينـى (٧٦٨ — ٧٧٤ هـ = ١٣٦٦ — ١٣٧٢ م) ، علـى أن يقوم

---

(١) راجع (ابن خلدون . التعريف ص ٢٨٨) وكذلك Caspar Remiro : correpondencia p. 288, 321 — 322.

(٢) عن هذه الحملة راجع (محمد بن قاسم النويرى السكندرى : الالمام بما جرت به الاحكام المقضية في واقعة الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ) وكذلك
Madelena Saz pomes : Lo3 Aragoneses en la conquista y saqueo de Alejiandria por pedro I de chipre, Estudio de edad media de la corona de Aragon V p. 361 — 405, Atiya Suiral The crusade in the later Middle ages p. 345 — 370).

ملــــك البرتغـال بمهاجمـة قشتالـــة مـن جهـة غاليسيـا فـي الشمال [١] ، بينما يهاجم سلطان غرناطة مدينة الجزيرة الخضراء في اقصى الجنوب يعاونه في ذلك اسطول سلطان المغرب من جهة البحر [٢] ونجحت هذه الخطة ، وسقطت الجزيرة الخضراء في ايدي المسلمين في ذى الحجة سنة ٧٧٠ هـ (يوليو ١٣٦٩ م) وان كان السلطان محمد الخامس قد عمد الى تدمير حصونها وأسوارها خوفا من سقوطها في يد العدو مرة اخرى [٣] .

ولقد انتهت هذه الاحداث المتشابكة بعقد صلح دائم بين كل من : قشتالة وأراجون وبين غرناطة والمغرب في سنة ٧٧١ هـ (١٣٦٩ — ١٣٧٠م) وتبودلت السفارات الودية بينهما .

على انه يبدو ان انتهاء المشاكل والاخطار الخارجية بالنسبة لغرناطة ، كان من العوامل التي شجعت وزيرها وراسم سياستهـا لسان الدين ابن الخطيب على الفرار الى المغرب حينما أحس بكثرة السعايات ضده ، وفساد الجو بينه وبين سلطانه . وقد صرح ابن الخطيب نفسه بانه لـم يغادر غرناطة الا بعد ان وطد امورهـا ، وتأكد السلم بينهـا وبين جيرانها [٤] .

غير انه يلاحظ ان ابن الخطيب كان في اواخر حكمه قد ربط سياسة

---

(١) Caribay Op. cit p. IIII, Ayala Op. cit II, p. 7 — 10

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة جـ ٢ ص ٥٦ — ٥٨

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٢٧ — ٣٢٨

(٤) راجع الخطاب الذي ارسله ابن الخطيب الى سلطانه محمد الخامس يبرر لـه فيه أسباب فراره الى المغرب (ابن خلدون : التعريف ص ١٤٧ وما بعدها) .

غرناطة بعجلة فاس ، وحرص على تنفيذ اوامر سطان المغرب عبد العزيز المريني ، وتحقيق رغباته في كل ما يطلبه من غرناطة [١] . وكان هدف ابن الخطيب من وراء ذلك هو سكنى المغرب [٢] والاستقرار فيه اذا ما عزل عن منصبه . وقد أثارت هذه السياسة شكوك السلطان محمد الخامس ـ الذي كان يخشى من اطماع السلطان المريني في بلاده خصوصا بعد أن ضم المغرب الاوسط الى ملكه واصبح قوة يخشى خطرها . ثم جاءت الاحداث بعد ذلك مؤكدة لهذه المخاوف والشكوك ، اذ يقول ابن خلدون: « فأجمع ـ ابن الخطيب ـ التحول عن الاندلس الى المغرب ، واستأذن السلطان في تفقد الثغور ، وسار اليها في لمة من فرسانه ، فلما حاذى جبل الفتح [٣] فرضة المجاز الى العدوة مال اليه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه . وقد كان السلطان عبد العزيز اوعز اليه بذلك ، وجهز له الاسطول من حينه ، فأجاز الى سبتة ، وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامتثال المراسم . ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (١٣٧١م) بمقامه من تلمسان ، فاهتزت له الدولة ، وأركب السلطان خاصته لتلقيه . وأحله من مجلسه بمحل الامن والغبطة ، واخرج لوقته كاتبه ابا يحيى بن ابى مدين سفيرا الى صاحب الاندلس في طلب اهله وولده ، فجاء بهم على اكمل حالات الامن والتكرمة ، ثم اكثر المنافسون له في شأنه ، وأغروا سلطانه بتتبع عثراته وابداء ما كان كامنا في نفسه من سقطاته ، واحصاء معايبه . وشاع على السنة اعدائه كلمات منسوبة الى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها ، ورفعت الى قاضي الحضرة ابى الحسن النباهي ، فاسترعاها ، وسجل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الاندلس رأيه فيه ،

(١) راجع امثلة على ذلك في : نفح الطيب جـ ٧ ص ٣٠.

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٣٢

(٣) كان جبل طارق في ذلك الوقت تابعا لسلطان بنى مرين في المغرب .

وبعث القاضي ابو الحسن الى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات ، وامضاء حكم الله فيه ، فصم على ذلك ، وأنف لذمته ان تخفر ولجواره ان يرد وقال لهم : هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ وأما أنا فلا يخلص اليه بذلك احد ما كان في جوارى ثم وفر الجراية والاقطاع له ولبنيه ولمن جاء من اهل الاندلس في جملته [١] ..

ويضيف ابن خلدون بعد ذلك بأن ابن الخطيب حرض السلطان عبد العزيز على ملك الاندلس ، وحمله عليه ، توعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان الى المغرب، ونمى ذلك الى ابن الاحمر (محمد الخامس) فبعث الى السلطان عبد العزيز بهدية لم يسمع بمثلها [٢] .

غير ان السلطان عبد العزيز لم يعش بعد ذلك طويلا اذ مات سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٢ م) وخلفه ابنه زيان محمد السعيد وكان طفلا في الرابعة من عمره ، فاستبد بالامر وزيره ابو بكر بن غازى الذي كان صديقا لابن الخطيب .

على أن هذا الوضع السياسي الجديد الذي اقتضى اقامة سلطان طفل على عرش المغرب ، قد أتاح الفرصة لظهور عدد كبير من الامراء الطامعين في الملك ، وكانت النتيجة أز دبت الفوضى والحروب الاهلية في المغرب ، واستولى بنو عبد الواد على تلمسان والمغرب الاوسط ففقد المغرب بذلك وحدته وقوته . وهنا يجد السلطان محمد الخامس الفرصة سانحة لتحطيم سياسة ابن الخطيب وابعاد الخطر المرينى عن بلاده . فعمل اولا على تأييد استقلال بنى عبد الواد — أعداء بنى مرين — بتلمسان ، ثم الغى من مملكة

---

(١) و (٢) راجع (المقرى : نفح الطيب ج ٧ ص ٣٠ — ٣٢)

غرناطة منصب شيخ الغزاة الذي كان يشغله احد امراء بنى عبد الحق (او بني مرين) وتولى هو واولاده قيادة الجنود الغزاة او المتطوعين المغاربة في غرناطة ، ثم اخذ بعد ذلك يتدخل في شؤون العدوة المغربية فبعث ببعض الامراء المرينيين المقيمين عنده الى المغرب ملوحا لهم بالعرش المغربي ومقدما لهم جميع المساعدات الممكنة . وواضح ان هدف السلطان محمد الخامس من وراء ذلك هو اثارة الفتن والقلاقل ضد الوزير المستبد بحكم المغرب ابى بكر بن غازي صديق ابن الخطيب .

واول امير ارسله سلطان غرناطة الى المغرب ، هو الامير عبد الرحمن ابن يفلوسن المرينى الذي سبق أن سجنه ابن الخطيب في غرناطة بايعاز من السلطان عبد العزيز .

ونزل هذا الامير بساحل غساسة او بطوية عند مصب وادى ملوية بنواحي مليلة ، واتخذ من الجبال هناك قاعدة عسكرية لقواته وأعلن عن مطالبته بعرش المغرب . وفي نفس هذا الوقت اتجه السلطان محمد الخامس بجيوشه الى جبل طارق الذي كان تابعا لبنى مرين في ذلك الوقت ، مظهرا العبور الى المغرب [1] .

وأمام هذا الخطر المزدوج ، رأى الوزير ابن غازى أن يعمل على حماية مدينة سبتة ، قفل العدوتين ، من أي هجوم يقع عليها من الاندلس . فأرسل ابن عمه محمد بن عثمان بن الكاس على رأس جيش كبير لحماية هذه المدينة وما حولها من قواعد عسكرية بما في ذلك جبل طارق ،

---

(١) راجع مقالنا عن حياة ابن الخطيب المغربية في (مجلة البينة العدد الاول الرباط مايو سنة ١٩٦٢) .

بينما اتجه هو الى محاربة المطالب بعرش المغرب الامير عبـد الرحمن ابن يفلوسن .

ورأى السلطان محمد الخامس ان يلجأ الى سياسة الحيلة والدهاء لتنفيذ اغراضه ، فاتصل من جنوب الاندلس بحاكم سبتة الجديد محمد ابن عثمان بن الكاس ، واستطاع اقناعه بأن من الخير للمغرب وأهله أن يكون سلطانه رجلا راشدا بدلا من هذا الطفل الذي لا يدرك شيئا ، واتفق معه على اقامة الامير المرينى ابى العباس احمد بن ابى سالم سلطانا على المغرب ، على ان يكون هو ـ أي ابن الكاس ـ وزيره في المستقبل ، ووعده بكل المساعدات المادية والعسكرية لتنفيذ هذه الخطة . وفي مقابل ذلك اشترط محمد الخامس على محمد بن الكاس أن يسلمه ثلاثة أشياء :

١) جبل طارق .

٢) لسان الدين بن الخطيب .

٣) الامراء المرينيين .

وتنفيذا لهذه الاتفاقية سلمت قاعدة جبل طارق الى سلطان غرناطة الذي أرسل بدوره جيشا غرناطيا صحبه الامـير ابى العباس ووزيره محمد بن عثمان بن الكاس لاحتلال عاصمة المغرب فاس [١] .

وعلم الوزير ابو بكر بن غازي بخيانة ابن عمه محمد بن عثمان ،

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٨٨ ، ٣٤١ وكذلك مقالنا السالف الذكر عن حياة ابن الخطيب المغربية .

فأسرع لملاقاته ومنعه من دخول فاس ، ولكنه هزم عند جبل زرهون سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) •

وهكذا أصبح المغرب تحت رحمة الاميرين المرشحين لعرش المغرب ابى العباس احمد ، وعبد الرحمن بن يفلوسن وهما من احفاد السلطان ابى الحسن المرينى • وبطبيعة الحال قام نزاع بين هذين الاميرين حول أحقية كل منهما في عرش المغرب ، واضطر سلطان غرناطة الى التدخل بينهما لتسوية هذا النزاع ، فطلب من عبد الرحمن الخضوع لابى العباس ومساعدته في احتلال فاس على أن يستقل هو بحكم عاصمة المغرب الثانية مراكش •

وهكذا صار السلطان محمد الخامس هو الحاكم الحقيقي للمغرب يولى ويعزل من يراه من أمراء بنى مرين • وكان طبيعيا ان يكون نتيجة هذا التدخل هو القبض على غريمه لسان الدين وقتله وحرقه بعد امتحانه وتعذيبه ومصادرة امواله وضياعه وذلك سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤م) [١] •

ولم يكد السلطان ابو العباس احمد تستقر له الامور في فاس حتى طمع في توحيد ملك بنى مرين تحت سلطانه ، فدخل في صراع طويل مع منافسه عبد الرحمن بن يفلوسن سلطان مراكش ، وانتهى الصراع بين هاتين العاصمتين بانتصار فاس على مراكش ومقتل عبد الرحمن سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ولم يكتف ابو العباس بهذا النصر الذي جعله سلطانا بدون منازع على جميع المغرب الاقصى ، بل اتجه ببصره نحو المغرب الاوسط

---

(١) راجع (المقرى نفح الطيب ج ٧ ص ٣٥) وكذلك مقالنا عن حياة ابن الخطيب المغربية في مجلة البينة ، العدد الاول سنة ١٩٦٢ .

يريد ضمه الى ملكه كما كان الحال في عهد آبائه • واستنجد سلطـان تلمسان أبو حمو الثاني بسلطان غرناطة محمد الخامس الذي كان يحرص بدوره على بقاء المغرب الاوسط مستقلا عن نفوذ المرينيين • ولهذا حاول سلطان غرناطة اقناع سلطان فاس بترك مشاريعه التوسعيـة في المغرب الاوسط ولكن دون جدوى واستولى ابو العباس على تلمسان وفـر صاحبها ابو حمو الى الصحراء • وكان رد سلطان غرناطة على هذا العمل ، أن أرسل الى سبتة اميرا مرينيا من أبناء ابى عنان يدعى موسى ، وزوده بالرجال والاموال والاسلحة كما أرسل معه كوزير له مسعود بن ماساى ، واستطاع موسى ان يحتل العاصمة فاس ويعلن نفسه سلطانا على المغرب سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) كما اعلن في الوقت نفسه ان مدينة سبتة تابعة لسلطان غرناطة [١] • أما أبو العباس فانه لم يلبث أن قبض عليه في تلمسان، وأرسله أسيرا الى غرناطة حيث عامله السلطان محمد الخامس معاملـة كريمة حسنة •

ولم يعش السلطان موسى أكثر من سنتين ، اذ مات سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦) ، وحاول سلطان غرناطة ان يقيم مكانه اميرا مرينيا آخر يدعى بالواثق ، ولكن الوزير مسعود بن ماساى ثار على هذا الوضع وقبض على هذا السلطان الجديد وعلى جميع من معه من الجنود الغرناطيين ورفض أن يطلق سراحهم الا بعد تسليم مدينة سبتة • ورد سلطان غرناطة على هذا التهديد بأن ارسل الى المغرب السلطان المخلوع ابا العباس احمد ليكون سلطانا للمرة الثانية، وارسل معه جيشا اندلسيا بقيادة احد قواده البارزين، وهو ابو الفرج رضوان الذي سبق له أن اشترك هو وفرسانه في صفوف ملك قشتالة بدرو الاول ضد أخيه هنرى وحلفائه الاراجونيين والفرنسيين

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٥٠.

واستطاع ابو العباس بهذه القوة الغرناطية ان يستولى على فاس ويقتل الوزير ابـن ماساى ويعلن نفسه سلطانا عـلى المغرب سنة ٧٨٩ هـ (١٣٨٧ م) [1] .

ولقد حرص السلطان ابو العباس في هذه المرة على أن يوطد علاقاته مع سلطان غرناطة ، فأخذ يتبادل معه الهدايا والسفارات ، ويفهم من قصيدة للشاعر الغرناطى المعاصر عبدالله بن زمرك (ت ٧٩٦ هـ) ان السلطان محمد الخامس زار مدينة سبتة [2] في خلال هذه الفترة مما يدل على قوة نفوذه في منطقة المضيق .

ثم توفي محمد الخامس الغنى بالله سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) وخلفه على عرش غرناطة أبنه يوسف الثاني ولا شك ان هذه الوفاة قد أثارت مطامع ابى العباس القديمة ، فيشير السلاوي الى أنه استطاع مد نفوذه الى تلمسان بالمغرب الاوسط ، وأنه كان يطمع في مملكة غرناطة نفسها ولكنه مات قبل ان يدرك غرضه سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م) [3] .

وتوالى على عرش غرناطة والمغرب عدد من ملوك بنى مرين وبنى الاحمر ، لم تكن لهم قوة اسلافهم ولا حذرهم وحيطتهم وشعورهم بالخطر المحدق بهم فعاشوا عيشة ترف ولهو . ومن تصاريف القدر العجيبة أنه في الوقت الذي اخذ الضعف فيه يدب الى كل من غرناطة وفاس ، كانت القوة قد بدأت تتجمع في كل من اسبانيا والبرتغال .

فالبرتغال قد سرت فيه نهضة حربية وملاحية كبيرة وخاصة منذ عهد

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٧ ، التعريف بابن خلدون ص ٢٧٧

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١٠ ص ٥٦ ، ازهار الرياض جـ ٢ ص ٨١

(٣) السلاوى : الاستقصا جـ ٤ ص ٧٦ ، ٨٢ .

الملك خوا نالاول (١٣٨٥ ـ ١٤٣٣ م) مؤسس اسرة أفيس Avis [١] التي حكمت البرتغال بعده • ولقد أبدى هذا الملك اهتماما خاصا بالبحرية والاساطيل ، واحتلال القواعد والمراكز البحرية التي تسيطر على منافذ البحار وطرق التجارة في منطقة المضيق •

واتهز هذا الملك فرصة اضطراب الاحـوال في المغرب ، وهاجم بنفسه مدينة سبتة Ceuta بأسطول كبير من مائتين وعشرين سفينة ، واستولى عليها وعلى منطقة جباله في أغسطس سنة ١٤١٥ (٨١٨ هـ) ، وفر حاكمها المدعو صلاح بن صلاح ، وأقام مكانه حاكما من قبله اسمه بدور منسس Pedro Meneses •

وذكر محمد القادري في كتابه نشر المثاني « قصة في كيفية استيلاء البرتغاليين على سبتة ، تشبه قصة قيصر [٢] مع الزباء قال رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق أن النصارى جاءوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعا وانزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمان عشرة وـثمانمائة وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالا عددهم اربعة آلاف من الشباب المقاتلة ، فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد [٣] •

---

(١) كان هذا الملك في الاصل رئيسا لنظام Avis العسكري الديني ثم انتخبه مجلس النبلاء ملكا على البرتغال واستمر الملك في عقبه فترة من الوقت ثم انهار نفوذ اسرة ملوك Avis هذه عقب كارثة وادى المخازن او القصر الكبير التي اندحرت فيهـا الجيوش البرتغالية سنة ٩٨٦ هـ (١٥٧٨ م) .

(٢) يقصد الامبراطور الروماني اورليان الذي استولى على مدينة تدمر سنة ٢٧١ م وأسر ملكتها الزباء التي تعرف عند الرومان باسم زنوبيا .

(٣) راجع (السلاوى : الاستقصا جـ ٤ ص ٩٢) وكذلك استقينا معظم المادة التالية

وحاول المسلمون استعادة هذه القاعدة الهامة سنة ١٤١٩ م (٨٢٢هـ). فهاجمها سلطان المغرب ابو سعيد المريني من البر ، بينما هاجمها سلطان غرناطة محمد الثامن من البحر ، ولكن البرتغاليون تمكنوا من احباط هذه المحاولة .

وولي بعد خوان الاول ابنه الاكبر ادوارد Duarte سنة ١٤٣٣ - الذي حاول احتلال طنجه ، وأرسل لهذا الغرض حملة بقيادة أخويه دون فرناندو ، ودون هنرى سنة ١٤٣٧ م (٨٤١ هـ) ونزلت الحملة في مدينه سبتة ثم اتجهت الى طنجة ، وهاجمها هنرى من ناحية البر بينما هاجمها أخوه فرناندو من البحر [1] . وخشى المسلمون ان تتكرر مأساة سبتة من جديد فدافعوا عن المدينة دفاع المستميت . وكان سلطان المغرب في ذلك الوقت طفلا صغيرا يدعى عبد الحق بن ابى سعيد المريني ، ويدير شئون دولته وزيره ابو زكريا يحيى الوطاسى المعروف بأبى زكرى . ولم يتردد هذا الوزير حينما بلغته أنباء طنجه في ارسال الامدادات الى المدينة المحاصرة واضطرت القوات البرتغالية أمام شدة المقاومة الى الانسحاب الى سبتة ولكن الجيوش المغربية تمكنت من اللحاق بها وتطويقها وأسر الامير فرناندو عدد كبير من البرتغاليين . واشترط المغاربة في مقابل اطلاق سراح الاسرى ، ان ينسحب البرتغاليون من سبتة . ورأى ملك البرتغال ان تسليم سبتة تضحية كبيرة لا تقدر بثمن ، ولهذا رفض هذا العرض ، وبقى

من مجموعة الوثائق والمراسلات والمعاهدات المتبادلة بين ملوك المغرب والبرتغال وأسبانيا والتي نشرها دى كاسترى بعنوان مصادر لم تنشر في تاريخ المغرب . راجع :

De Castries : Les sources inédites de l'histoire du Maroc. Portugal, Tome I p. VII (Madrid — Paris 1921).

(١) راجع :

(Colonel H. De Castries : les sources inédites Op. cit. p. 9) .

أخوه فرناندو في الاسر الى أن مات بفاس في ٥ يونيو سنة ٤٤٣ م [١] .

وفي خلال ذلك الوقت ولى عرش البرتغال الملك الفونسو الخامس الذي سار على سياسة اسلافه التي ترمى الى السيطرة على مضيق جبل طارق واحتلال القواعد المطلة عليه . واتجهت أنظار هذا الملك الجديد نحو ميناء القصر الصغير او قصر مصمودة الذي يقع بين سبتة وطنجة . وكان هدفه من احتلال هذا الموقع هو التمهيد لاحتلال طنجه بالاضافة الى تدعيم النفوذ البرتغالي في سبتة .

وفي اكتوبر سنة ١٤٥٨ م خرج الملك الفونسو الخامس على رأس حملة مكونة من ٢٨٠ سفينة و ٢٥ الف جندي ، واستولى على القصر الصغير بدون صعوبة كبيرة وعين عليها حاكما يدعى[٢]
Duarte de Meneses

ثم رأى الملك البرتغالي ان يحاول من جديد احتلال طنجة ، فوجه اليها ثلاث حملات فيما بين سنتى ١٤٦٣ — ١٤٦٤ م قاد بعضها بنفسه ، ولكنها فشلت كلها ولا سيما الحملة الثالثة التي قتل وأسر فيها عدد كبير من خيرة رجاله حتى صارت طنجه ، على حد قول دى كاسترى ، مقبرة للنبلاء البرتغاليين [٣] .

على أن المغرب لم يلبث بعد قليل ان قتل سلطانه عبد الحق المرينى في رمضان سنة ٨٦٩ هـ (مايو سنة ١٤٦٥ م) وبموته انقرضت الدولة

---

(١) راجع :
(De Castries : Op. cit. Portugal, tomelp. P. 10) .
(٢) راجع (De Castries ; Op . cit p . 10)
(٣) راجع (De Castriés ; Op . cit p . 11)

المرينية في المغرب ، وقام نزاع على الملك بين الشريف الادريسي محمد بن علي وبين قائد مدينة أصيلا Arzila محمد بن الشيخ الوطاسي ، ابن الوزير السابق ابى زكرى .

وامتد الصراع بين الطرفين عدة سنوات (١٤٦٥ — ١٤٧٢ م) اضطر خلالها محمد الشيخ الى ترك أصيلا ومحاصرة خصمه في فاس .

وانتهز ملك البرتغال الفونسو الخامس هذه الفرصة ، وهاجم مدينة أصيلا بأسطول ضخم من ٤٧٧ سفينة عليه ٣٠ ألف مقاتل ، وذلك في أغسطس سنة ١٤٧١ م وبعد مقاومة عنيفة تمكن من احتلال المدينة وأسر عدد كبير من أهلها من بينهم زوجتين وابن لمحمد الشيخ كانوا معتصمين بقصبتها [1] .

وعندما علم محمد الشيخ بأنباء هذه الحملة ترك جزءا من جيشه لمواصلة حصار فاس ، واتجه نحو أصيلا لنجدتها ، ولكنه ما كاد يصل الى مدينة القصر الكبير حتى بلغته الانباء بسقوط أصيلا ووقوع أسرته في أسر البرتغاليين .

ورأى محمد الشيخ أن الاتفاق مع ملك البرتغال هو الحل الوحيد للخروج من هذه الازمة والتفرغ لمحاربة خصمه في فاس . وعلى الرغم من أن نصوص هذه الهدنة لم تصل الينا ، الا انه يوجد في المدونة الخاصة بعصر الفونسو الخامس بعض شروطها ، وهي تنص على أن يمتد أمد الهدنة

---

(١) انظر (Ruy de Pina : Chronica do Senhor Rey D. Alfonso V p. 97, Lisbonne 1901 — 1902) .

عشرين سنة ، وان يحتل البرتغاليون مدينة العرائش الى جانب أصيلا ، وأن يطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته [١] .

على أن ملك البرتغال ، رغم شروط هذه المهدنة ، اتجه بقواته وأساطيله نحو مدينة طنجة التي خاف اهلها أن يكون مصيرهم مثل مصير أهل اصيلا . فأخذوا في الجلاء عنها مما سهل على الجيش البرتغالي مهمة احتلالها في ٢٩ أغسطس سنة ١٤٧١ م أي بعد خمسة أيام من احتلال أصيلا [٢] .

وكان محمد الشيخ في خلال ذلك الوقت منهمكا في محاربة خصمه الشريف محمد بفاس ثم انتهى الامر بفرار هذا الاخير الى تونس بعد أن تخلى عنه اتباعه ، ودخل محمد الشيخ العاصمة فاس في سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) مؤسسا بذلك دولة بني وطاس .

ولقد أثار احتلال البرتغاليين لمدينة طنجه أثناء الهدنة المبرمة ، غضب السلطان محمد الشيخ . فاتفق مع ملك أراجون فرناندو الكاثوليكي الذي كان في حالة حرب مع البرتغال ، على أن يقوم المغاربة بمهاجمة سبتة من البر ، بينما يهاجمها الاسبان من البحر . على أن هذا الهجوم المزدوج لم يلبث ان فشل امام مقاومة حاكم المدينة البرتغالي Rui Mendez Vasconcellos وانتهى الامر برفع الحصار عن المدينة سنة ١٤٧٦ م [٣] .

---

(١) راجع De Castries : Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, Portugal I, p. 13)

(٢) راجع (De Castries : Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, Portugal, I, p. 13 .

(٣) راجع (De Castries : Op. Cit p. 13 — 14)

ثم جاءت بعد ذلك معاهدات الكاثوفاس Alcaçovas في ٤ سبتمبر سنة ١٤٧٩ ، وطليطلة في ٦ مارس سنة ١٤٨٠ م التي أبرمت بين أسبانيا والبرتغال ، مخيبة لآمال السلطان محمد الشيخ ، اذ أنها أنهت حالة الحرب بين هاتين الدولتين ، كما انها نصت على اعتراف اسبانيا بحقوق دولة البرتغال في المواقع التي احتلتها في مملكة فاس ، مثل سبتة ، وطنجه ، والقصر الصغير ، والعرائش ، وأصيلا •

وهكذا نجد أن البرتغال في خلال القرن الخامس عشر الميلادي قد احتلت سواحل العدوه المغربية وتحكمت في منطقة المضيق • ويبدو ان الملك الفونسو الخامس أراد ان يتوج هذه الفتوحات التي حققت آماله ، فاتخذ لقبا جديدا ورثه خلفاؤه من بعده وهو لقب « ملك البرتغال والغربين المصاقبين للبحر » •

(Rei de Portugal e dos algarves d,aquem, e d'alem mar)

كذلك أطلقت عليه المصادر البرتغالية لقبا آخر يدل على اعماله التوسعية في المغرب وهو « الفونسو الافريقي » [1] •

على أن المغاربة ، رغم كل ذلك ، ولا سيما الشيوخ المستقلين منهم في شمال المغرب ، لم يكفوا عن مهاجمة هذه الحاميات البرتغالية وشل حركتها حتى قيل انها كانت تعيش في حالة استعداد دائم للحرب • ومن هؤلاء الزعماء المغاربة نذكر الشريف العلمى على بن راشد الذي أسس مدينة شفشاون سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م) على ارتفاع الف متر في جبال الريف بالقرب من تطوان ، لتكون قاعدة لعملياته العسكرية ضد الاحتلال

(١) راجع De Castries : Op. cit p. 13 — 14

البرتغالي . كذلك نذكر القائد المندرى قائد تطوان الذي كان شوكة في جنب المواقع البرتغالية المجاورة في سبتة وطنجة [١] .

اذا انتقلنا الى أسبانيا في خلال القرن الخامس عشر الميلادي ، فنجد أنها عرفت هي الاخرى نهضة حربية كبيرة ، ووحدة سياسية شاملة ، بدأت طلائعها باحتلال جبل طارق سنة ١٤٦٢ م في عهد هنرى الرابع ملك قشتالة [٢] ، ثم بعد ذلك بزواج الملكين الكاثوليكيين Los reyes Catolicos فرناندو ملك أراجون وازابيل ملكة قشتاله سنة ١٤٦٩ م . وبهذا الزواج اتحدت هاتان المملكتان اللتان كانتا في منازعات وحروب مستمرة . لهذا اثارت هذه الوحدة في أسبانيا موجة كبيرة من الفرح ما زال صداها يتردد في الاغاني الشعبية مثل قولهم :

Tanto monta, monta tanto, Isabel y Fernando.

أي مهما ارتفعنا فسوف نجد في الذروة دائما ازابيل وفرناندو .

ولا شك أن هذا الاتحاد كان معناه في الواقع انتهاء مملكة غرناطة العربية ، لان بقاء هذه المملكة الصغيرة كان راجعا الى حد كبير الى

---

(١) راجع) De Castries : Op. cit p. 16

(٢) انظر Jose Carlos de Luma : Historia de Gibraltar p. 178 — 180.

وقد قال في رثاء جبل طارق الشاعر المعاصر عبد الكريم القيسي آخر شعراء غرناطة :

وقائلة لي مالى اراك مقطبا ... كأنك للتقطيب هددت بالذبح

فقلت دعيني الحزن فرض على الورى ... اما قد حوى اعداؤنا جبل الفتح؟

حرام علينا البشر والسمح بعده ... وفي القلب من آلامه اعظم الجرح

راجع (محمود مكى : عبد الكريم بن محمد القيسي آخر شعراء الاندلس ، مجلة العربي اكتوبر سنة ١٩٦٧ .

العداء القائم بين هاتين الدولتين كما سبق أن أشرنا • وبالفعل كان أول شيء اهتم به هذان الملكان الكاثوليكيان ، هو تصفية مملكة غرناطة وازالة الحكم العربي من أسبانيا نهائيا • وقد اتبعا في ذلك سياسة مزدوجة تقوم على القوة العسكرية من جهة ، واثارة التفرقة والفتن الداخلية بين المسلمين من جهة أخرى •

ولما شعر سلطان غرناطة ابو الحسن على (٨٦٦ـ٨٩٠ هـ = ١٤٦١ ـ ١٤٨٥ م) بهذه النية المبيتة ضد مملكته ، امتنع عن دفع الاتاوة التي كان يؤديها لملوك أسبانيا في كل سنة وقال لرسول الملك فرناندو : « قل لمولاك ان سلاطين غرناطة الذين اعتادوا أداء الاتاوات قد ماتوا ، وان دار الضرب بغرناطة لا تطبع الآن ذهبا أو فضة ، وانما سيوفا ورماحا » • وقد أثارت هذه الاجابة غضب الملك فرناندو ، فصاح قائلا :

Granada, Granada, le arrancaré los granos uno a uno

« اي غرناطة ، سوف انتزع حباتك واحدة واحدة ! »

ويلاحظ ان المعنى هنا مجازى لان كلمة Granada أي غرناطة معناها بالاسبانية الرمانة ولهذا فهو يقصد بانتزاع حباتها أي حصونها واحدا بعد الآخر [1] •

وبدات الحرب باستيلاء الغرناطيين على حصن الصخرة Zagra في الاراضي القشتالية سنة ١٤٨١ م • ورد الاسبان باحتلال مدينة الحمة

---

(١) راجع التفاصيل في (Miguel Lafuente Alcantara : Historia de Granada, III, p. 357 (Grandal 845) & W. Prescott : History of the reign of Ferdinand and Isabella, p. 182 London 1895) .

Alhama [١] على مقربة من مدينة غرناطة نفسها سنة ١٤٨٢ م وحاول السلطا نأبو الحسن أسترداد هذا الموقع الهام ولكنه لم يقدر ، واستمرت الحرب بين الجانبين عشر سنوات تخللتها ثورات وحروب داخلية بين المسلمين زادت من ضعف قوتهم • فتروى المصادر أن السلطان أبا الحسن كان متزوجا بابنة عمه عائشة ولـه منها ولدان : ابـو عبدالله محمد المعروف في المصادر الاسبانية باسم Boabdil ، ويوسف• ثم اصطفى على زوجته أمرأة أسبانية كان قد أسرها في احدى غزواته اسمها ازابيل دى سوليس Isabel de Solis ، وكان أبوها ضابطا في الجيش الاسباني يدعى سانشو خيمينث دى سوليسSancho Jimenez de Solis• ثم اعتنقت ازابيل الاسلام واتخذت اسما عربيا وهو ثريا • وقد أثار حب السلطان لها غيرة زوجته الاولى ، فوقع نزاع بينهما ، واضطرت الامير عائشة الى مغادرة قصر الحمراء بولديها والاقامة في حى البيازين ثم لم يلبث الولدان بعدذلك ان فرا الى مدينة وادى آش واعلنا الثورة على أبيهما وقامت حرب ضروس بين الاب وولديه مات فيها ابنه يوسف ثـم انضمت العاصمة غرناطة الى أبنـه الآخر ابى عبدالله محمد وكانت عائلـة بنى السراج Abencerrajes هي عماد هذه الحركة ، فاستدعت الامير محمد وأقامته

---

(١) اشتهرت هذه المدينة بمياهها المعدنية وحماماتها التي كانت تدر عليها دخلا كبيرا ، وقد احتلها مركيز قادس غيلة وغدرا ولهذا رثاها الكثيرون بمقطوعات شعرية عربية ورومانسية اي اسبانية . وقد أورد المؤرخون الاسبان امثلة من هذا الشعر الرومانسي مثل المقطوعة التي قيلت على لسان ملك غرناطة وفيها يقول في مطلعها : Ay de mi Alhama اي « ويلى على الحمه » .

راجع (Perez de Hita : Guerras civiles de Granada I. p. 252 (Madrid 1913) & Prescott : Op. cit, 186.

راجع كذلك (كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بنى نصر لمؤلف مجهول ص ٦ وما بعدها ، نشر الفريد البستاني وكارلوس كيروس ، العرائش ١٩٤٠) .

سلطانا بعد أن طردت أباه من العاصمة سنة ١٤٨٢ م . ولجأ السلطان المخلوع ابو الحسن الى مدينة بسطة Baza حيث انضمت اليه عائلة الثغريين Zegries أعداء بنى السراج [١] .

وحدث بعد ذلك ان وقع السلطان أبو عبدالله محمد أسيرا في يد الاسبان اثناء قيامه بغارة في أراضيهم سنة ١٤٨٣ م (٨٨٨ هـ) . وكان أسره ضربة شديدة لحكم المسلمين في الاندلس لا من حيث أسره نفسه ولكن من حيث ان الملكين الكاثولكيين استطاعا أن يستذلا نفسه ، ويصغرا اليه ملكه وملك أبيه مرة بالتهديد ومرة بالوعود والاماني حتى ذل عنقه . وأصبح آلة في أيديهما ، ثم أطلقا سراحه ، فعاد الى غرناطة ليواصل حرب أبيه الذي استرد عرشه . وما لبث ابو الحسن ان مات هما وكمدا بعد أن أصيب بالعمى والصرع ، وخلفه في الملك أخوه أبو عبدالله محمد بن سعد الملقب بالزغل سنة ١٤٨٥ م (٨٩٠ هـ) [١] .

ولقد استغل الاسبان فرصة انشغال المسلمين بالحرب التي قامت بين الزغل وابن أخيه ابى عبدالله ، واستولوا على الاجزاء الغربية من مملكة

---

(١) يلاحظ ان الثغريين وبنى السراج بيوتات عربية اندلسية قديمة ، وقد سبقت الاشارة الى ان بنى سراج كانوا من اصل يمنى وان الامويين في الاندلس قد عهدوا اليهم حراسة السواحل الشرقية . أما الثغريون فنسبة الى منطقة الثغر الاعلى في شمال اسبانيا ثم انتقلوا الى غرناطة بعد سقوط بلادهم ويلاحظ ان النهر المعروف الآن باسم Segre احد فروع الابرو هو الذي كان يسميه المسلمون وادى ثغر لانه كان يروى منطقة الثغر الاعلى التي كانت قاعدتها سرقسطة .

راجع تفاصيل المنازعات بين بنى السراج والثغريين في :

(Perez de Hita : Op. cit. I. p. 41 y Sig) .

(١) راجع نبذة العصر في اخبار بنى نصر ص ١٠ وما بعدها ، عبد الحميد العبادى المجمل في تاريخ الاندلس ص ١٩٢ .

غرناطة مثل رندة Ronda ولوشة Loja ، ومالقه ، فيما بين سنتي ١٤٨٥ — ١٤٨٧ م (٨٩٠ — ٨٩٢ هـ) .

ورأى المسلمون أن يعرضوا على الزغل وابن أخيه اقتسام ما بقي من بلاد خوفا من تمادي العدو في احتلالها . وتم الاتفاق على أن يستقر الزغل في مدينة وادي آش Guadix وتتبعه الاجزاء الشرقية من غرناطة ، بينما تكون العاصمة وأعمالها لابن أخيه ابي عبدالله Boabdil .

غير أن الاسبان لم يكفوا عن بث دسائسهم ، فأرسلوا الى الزغل من يعرض عليه وعلى قواده مالا كثيرا في مقابل تسليم الاجزاء الشرقية من غرناطة التي تحت سلطانه . وأثر ذلك الارهاب والترغيب في نفس الزغل لا سيما بعد أن تخلى عنه قواده ، فآثر التسليم والرحيل الى فاس. ولكن سلطان المغرب محمد الشيخ نقم عليه فسجنه وصادر أمواله وسمل عينيه .

أما أبو عبد الله محمد ، فانه ظن في باديء الامر أن الجو قد صفا له بذهاب عمه ، ولكنه سرعان ما تكشفت له الحقيقة عندما طالبه الملك فرناندو بتسليم عاصمته غرناطة ، عندئذ صمم على القتال حتى النهاية وأيده في ذلك أهل غرناطة [١] .

ولجأ الملك فرناندو الى سياسة الحرب الاقتصادية ضد أهل غرناطة كي يجبرهم على التسليم أو يميتهم جوعا . فحاصر المدينة سنة ١٤٩١ م (٧٩٦ هـ) ، وأفسد مروجها ، وبنى أمامها مدينة أطلق عليها أسم شنتفي

---

(١) كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ص ٣٧ ،
علي مظهر : محاكم التفتيش ص ١٤ — ١٥

Santa Fé اي الايمان المقدس لتكون قاعدة لعملياته العسكرية [١] ويقول السلاوى في هذا الصدد : « وعلى الرغم من ذلك كله كان الطريق بين غرناطة والبشرات Alpujarras متصلة بالمرافق ، والطعام يأتى من ناحية جبل شلير Sierra Nevada الى أن تمكن فصل الشتاء ، وكلب البرد . ونزل الثلج ، فانسد باب المرافق ، وانقطع الجالب ، وقل الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء ، ففر ناس كثيرون من الجوع الى البشرات ثم اشتد الامر في شهر صفر سنة ٨٩٧ هـ (ديسمبر ١٤٩١ م) ، فاجتمع ناس مع من يشار اليه من أهل العلم كأبى عبدالله الموافق شارح « المختصر » وغيره ، وقالوا « أنظروا لانفسكم وتكلموا مع سلطانكم » . فاحضر السلطان أبو عبدالله بن أبى الحسن أهل دولته وأرباب مشورته ، وتكلموا في هذا الامر ، وأن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا ، فانظروا لانفسكم وأولادكم . فاتفق الرأى على ارتكاب أخف الضررين ، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الاجناد في اسلام البلد خوفا على نفوسم وعلى الناس ، ثم عددوا مطالب وشروطا أداروها وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادى آش ، منها : أن صاحب رومة (البابا) يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط اذا مكنوه من حمراء غرناطة ، ويحلف على عادة النصارى في العهود . وتكلم الناس في ذلك ، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك ، امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة فانقادوا اليها ، ووافقوا عليها ، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم ونزل سلطان غرناطة أبو عبدالله عن الحمراء ، واستولى النصارى عليها في ربيع الاول سنة ٨٩٧ هـ (يناير ١٤٩٢ م) ، ولا حول ولا قوة الا

بالله [١] .

والجدير بالذكر أن غرناطة اتجهت الى مصر تلتمس معونتها امام الخطر الواقع بها ، ومثال ذلك السفارة التي أوفدها سلطان غرناطة محمد ابن يوسف الايسر الى سلطان مصر الظاهر جقمق سنة ١١٤٠ م (٨٤٤هـ) كذلك نذكر سفارة الفقيه الاندلسي ابى على بن محمد بن الازرق الذي حاول أن يستنهض عزائم السلطان الاشرف قايتباي (١٤٦٨ — ١٤٩٥ م) لاسترجاع الاندلس [٢] .

والواقع ان مصر لم يكن في مقدورها القيام بعمل عسكري في اسبانيا وعذرها في ذلك واضح كما يقول احد الكتاب المعاصرين ، « لحيلولة البحر مع بعد المسافة ، والاحتياج لكثرة المراكب . ولم يكن لملوك مصر عناية بأمر الشحنة لانهم أصحاب خيل ، فقوتهم برية وليست بحرية » [٣] ولكن على الرغم من ذلك ، فان بعض سلاطين مصر حاولوا انقاذ غرناطة عن طريق الضغط الدبلوماسي ، ومثال ذلك تلك السفارة التي أرسلها السلطان قايتباى في سنة ١٤٨٩ الى الملكين الكاثوليكيين ، يهدد فيها باضطهاد المسيحيين الموجودين في الشرق ان لم يكفا عن مهاجمة غرناطة . غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ م (٨٩٧ هـ) ولم يفت الملكان الكاثوليكيان أن يبعثا بسفارة الى سلطان مصر قنصوه الغورى سنة ١٥٠١ م واستطاع السفير الاسبانى بدور مارتير Pedro Nartir أن يسترضى سلطان مصر ويزيل التوتر السياسي بين مصر

---

(١) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٠٢ — ١٠٤ وكذلك نبذة العصر ص ٣٩ — ٤١ .

(٢) عبد العزيز الاهواني : سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة سنة ٨٤٤ هـ ، مجلة كلية الاداب ، جامعة القاهرة المجلد السادس عشر ، مايو سنة ١٩٥٤ .

(٣) المرجع السابق

وأسبانيا [١] .

هذا والجدير بالذكر ان هذه الاحداث المتعلقة بنهاية الحكم العربى في أسبانيا ، قد اقترنت بحركة الاستكشافات الجغرافية الكبرى . ففى نفس تلك السنة (١٤٩٢ م) التي سقطت فيها غرناطة ، أكتشف كرستوفر كولمبس أمريكا بمساعدة ملكى أسبانيا . ولم تلبث البرتغال بعد خمس سنوات أن اكتشفت طريق الهند من رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ م على يد فاسكودى جاما .

وقد استعان كل من الرحالتين بالعرب ليهتدى طريقة في مجاهل المحيط الاطلنطى والمحيط الهندى . وفي نفس تلـك السنة ١٤٩٧ م تظاهـر الاسطول الاسباني بأنه يعد العدة في جبل طارق لرحلة كرستوف كولمبس الثانية الى أمريكا ، ثم أبحر سرا الى القاعدة المغربية مليلـة Melilla واستولى عليها في سبتمبر سنة ١٤٩٧ م تحت قيادة دوق مدينة سدونيا دون خوان دى جثمان Don Juan de Guzman [٢] .

وهكذا لم تعد أهمية مضيق جبل طارق قاصرة على البلاد المطلة عليه من الشمال او الجنوب ، بل صار ممرا حيويا بين الشرق والغرب أو بين العالم القديم والعالم الجديد وبهذا يدخل النزاع في دور جديد .

---

(١) انظر M. Abbady : Algunos aspectos de las relaciones historicas his pano — Egipcias, Boletin de la embajada de Egipto en Madrid, 23 Julio 1952 — 1953) .

(٢) راجع De Castries : Les Sources inédites de l,histoire du maroc, Espagne Tome I p. 4 — 5 (Madrid — Paris 1921) .

ضميمة

صورة من كفاح مدينة المرية ضد الهجوم الغاشم الذي شنه عليها خايمي الثاني ملك أراجون (أرغون) سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) [١] .

وفي هذه السنة (٧٠٩ هـ) في يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الاول منها بموافقة شهر غشت (أغسطس) من الشهور العجمية في أول دولة أبـي الجيوش نصر ، حاصر البرشلونى المريـة وكان قائـد الجيوش عليها القائد أبو مدين شعيب، وعلى البحر القائد ابو الحسن على الرنداحى. والبرشلوني المذكور طاغية ارغون خذله الله وصل عشية يوم الاثنين ثانى الشهر المذكور الى طرف الفنت (Alfunt) من ساحل المرية الشرقي في ثلاثمائة قطعة بين صغار وكبار حربية وسفرية ، فحط هنالك وبـات في أجفانه . فلما كان من الغد يوم الثلاثاء ، أنزل الخيل والعدد والازواد بتلك المواضع من طرف الفنت الى الموضع المعروف ببركة الصفر وانتهى الفرسان والرجال بفحص المرية وخارجها .

وفي الحين أمر القائد أبو مدين بهدم ما قارب الاسوار من المبانى بخارج البلد ، فهدمت وسويت بالارض ، وسدت أبواب البلد بالبناء الا ما

---

(١) ورد هذا النص في كتاب درة الحجال في غرة اسماء الرجال (جـ١ ص ٧١ — ٧٩) لشهاب الدين ابى العباس احمد بن على بـن عبد الرحمن بن ابى العافية المكناسي المعروف بابن القاضي ولد سنة ٩٦٠ هـ (١٥٥٢ م) وتوفي ودفن بباب الجيسة بفاس سنة ١٠٢٥ هـ (١٦١٦ م) وصلى عليه المؤرخ المشهور احمد المقرى صاحب كتابى نفح الطيب وازهار الرياض (ت ١٠٤١ هـ) . وقد نشر كتاب درة الحجال س . علوش في جزئين (الرباط ١٩٣٤) . ونظرا لندرة هذا الكتاب رأينا نقل هذا النص كضميمة لاهميته ، علما بانه سبق ان ترجم الى الفرنسية والاسبانية كما هو مذكور في ص ٢١٨ .

دعت الضرورة لتركة • وهيئت الاسوار للقتال ، ولازمها الرماة والرجال •

وفي يوم الاربعاء ثاني يوم نزولهم ، احتفل النصارى في أحفل زي • وأتوا يضربون الابواق والطبول ، حتى انتهوا الى أسوار البلد مما يلي الرجل ، فقاتلوا البلد قتالا عظيما ، وتكالبوا عليها تكالبا شديدا • وقد كان المسلمون على غير تعبئة لخروجهم من البلد طمعا في دفاع النصارى عند اقبالهم لعدم الخبرة بحالهم ، ففروا أمامهم الى البلد ، ولجؤوا الى الاسوار ودافعوهم بالقتال والسهام عن البلد، وعصم الله وهو نعم النصير•

وفي يوم الخميس خامس الشهر المذكور ، وصل الشيخان ابو العباس ابن احمد بن طلحة وأبو عبدالله محمد بن ابى بكر في نحو مائة وخمسين فارسا ، وكان أولادهم بالمرية ، فلما رآهم النصارى وقد أطلوا خرجوا اليهم في خيلهم ورجلهم ومعهم الطاغية ملكهم ، فصبر الغزاة القادمون لقتالهم أعظم صبر ، وتجلدوا على جلادهم غاية التجلد ، واقتحموا على رغم أنوفهم حتى دخلوا البلد بعد أن هلك من خيلهم تسعة وما نقص منهم عدد ، فكانت هذه الكائنة مما أكمدت النصارى وأدخلت عليهم حزنا ، وفاد المسلمون بأعظم المدد • وفي سائر هذا اليوم وصلت جيوش النصارى على البر بما عم السهل والوعر من الخيل والرجال ، فأحدقوا بالبلد أحداق الهالة بالقمر ، والاكمام بالثمر ، وقد كان لحق أهل المرية لاول حصارهم دهش فلما ناشبوهم القتال ، واستقربهم النزال ورأوا أن الحرب سجال ، انبسطت للقتال نفوسهم ، وثارت للحرب عزائمهم ، وأفرس رماتهم ، وانتصر حماتهم ، وصاروا يبادرون الحرب ولا يهابون الطعن والضرب ، وأخذ النصارى نفوسهم لاول الحصار بالمواظبة على القتال ، والمصابرة بالنزال ، فلما ذهب لهم يوم الا بقتال جديد ، وجعلوا يرتبون الرجال نطاقا على البلاد ويضربون الطرق ، ويحافظون على الرتب•

ومهما ظهر لهم موضع راحة للبلاد او مسلك دخول أو خروج بادروا اليه ليسدوه ، ونصبوا المجانيق وضيقوا الحصار وفتحوا الى الحرب الابواب.

فلما كان يوم الاحد ثامن ربيع الاول المذكور ، احتفل الطاغية في مواكبه وجنوده ورایاته وبنوده ، وأقبل نحو البلد في عدد كثير حتى وافى باب بجانة ، وهنالك أكثر نزولهم ومعظم قتالهم ، فأفاضوا في المقاتلة ، واستقبلهم المسلمون بأشد المدافعة ، وكذا كانت الحروب بينهم في عامة الايام .

وفي يوم السبت الرابع عشر من الشهر المذكور ، أقبل جيش المسلمين من حضرة غرناطة طامعا في نصرة البلد ودفاع العدو عنها ، فخرج الطاغية والتقى الجمعان فكانت الكرة على المسلمين وقتل كثير من الرجال والفرسان . وفي خلال ذلك خرج جمع من أهل البلد ، فاختلفوا الى محله النصارى ، فنهبوا منها كل ما قدروا عليه .

وفي يوم السبت الحادي والعشرين ، ضربوا ناقوسهم الكبير وكانوا لا يضربونه الا لركوب طاغيتهم ، ودخلوا في السلاح بأجمعهم وأقبلوا محدقين بالبلد من جميع جهاته ، وأعدوا للقتال أبراجا سامية من الخشب تندفع على عجلات ، وشحنوها بالرجال ، وهيؤوا سلاليم عالية على الاسوار ، وأقبلوا يتقدمهم الرجال والرماة ويتلوهم الفرسان ، وفرقوا ذلك على البلد فدافعهم المسلمون وطرحوا عليهم الزفت والقطران ، ورموا بالنيران حتى فر النصارى عنها وتمكن المسلمون من كثير منهم ، وكان هذا اليوم من الايام العظام .

وفي أول شهر ربيع الاخير ، أقبل جيش من حضرة غرناطة الى مرشانة (Marchena) ليرتبوا بها ، فضيقوا على النصارى تصرفاتهم .

وكانوا (اى النصارى) يخرجون من محلتهم صبيحة كل يوم في جمع وافر من الفرسان ينتجعون من الوادي على دوابهم أنواع العصير [1] وضروب الفواكه ، ويجلبون الخشب لابنيتهم ، والحطب لوقودهم . فخرجوا على عادتهم يوم الاربعاء عاشر شهر ربيع الاخير ، فلما بلغوا الوادي خرجت عليهم كمائن المسلمين فانهزموا أمامهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغنموا دوابهم واسلحتهم ، وكان عليهم في ذلك بوار وانكسار .

وفي يوم الجمعة الثاني عشر لشهر ربيع الاخير ، أقبل جيش المسلمين وعليهم الشيخ أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء فانبرت اليه جيوش النصارى وتلاقوا بمواضع خارج المدينة فكانت الدائرة على النصارى وقتل جماعة من زعمائهم وقتل الفرس تحت الشيخ ابى سعيد ، لكن نجاه الله تعالى وسلمه . ولما ضاقت صدور النصارى بالحرب وفشى فيهم القتل في الايام الفارطة ، عزموا على المكيدة ، فخرجت فرقة من فرسانهم ليلا وأبعدوا عن المحلة . فلما كان من الغد يوم الاحد الرابع عشر من شهر ربيع الاخير. أطللوا في زى جيوش المسلمين ، عليهم البرانس . وعندما تظاهروا للمحلة، ركب الجيش اليهم على حال استعجال ، وخلفوا اخبيتهم ليس فيها أحد يستدرجون أهل البلد للخروج اليهم وقد رصدوا بها المكامن ، وعملوا عليها الخيل ، ونصبوا اليهم الحبائل . ولما بصر المسلمون بظاهر الحال ، ولم يكن عندهم شعور بالمكيدة ، رفعوا الاعلام في الاسواق ، وخرج الفرسان وقائد البحر وجماعة من أعيان المرية قاصدين نحو الاخبية لينهبوها ، ثم أن الله سبحانه صرفهم عنها ، فرجعوا الى جبل المرية ليبتدؤوا بما هنالك من الاخبية ، اذ كان أهلها من شرارهم . ولما شاهد أرباب الكمائن ذلك من فعل المسلمين ، حسبوا أنهم فطنوا للمكيدة ، وأن

---

(١) تطلق كلمة العصير على العنب ، وعلى التين الرطب ايضا .

تعريجهم انما كان طلبا لنجاتهم ، فانبروا من مكامنهم وأرادوا قطعهم عن البلد ، فسقط في أيدى المسلمين واتفق أن فتح في تلك الجهة باب أمس ذلك اليوم ، فلجؤوا اليه ، فاقتحموا عليه ، ومن انقطع منهم عاذ بالسور ودوفع عنهم بالنبل ، ودلي لهم الواح وتستروا بها حتى ارتفع القتال ، لحقوا بالبلد وصرف الله مكرهم •

وفي يوم الثلاثاء السادس عشر من شهر ربيع الاخير ، عملوا الحيلة في اقامة الواح عظام عالية بموضع يعرف بالاسبد على قرب من البلد ، ووصلوا بينها بمسامير الحديد ، وجعلوا يبنون خلفها ، فعظم الامر في ذلك على المسلمين ، وأقبلوا يحاولون تحريقها ، فيسر الله تعالى عليهم ذلك بعد جهد عظيم •

وفي يوم السبت الموفى عشرين للشهر المذكور ، كان القتال في البر والبحر ، وركب الطاغية في أسطوله في البحر ، وفرق جيشه على كل جهة من جهات البلد في البحر والبر ، وأقبلوا جميعا على القتال ، وقد أعدوا من الابراج والسلاليم ما يضيق عنه نطاق الاحتيال ، وصاروا لا يدفعهم قتال وضاق الحال بالمسلمين ، وانسدت باب الحيل ، فصرخ بهم صارخ أن بادروهم بطرح العذرة [1] فهو أعظم نكاية لديهم • فبادر الناس في الحين لتناول ذلك وحمله ، فوضعوا الشيء في محله ، وقارنوا الشكل بشكله ، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله ، فكان الفارس منهم في أجمل حال في زيه ، واذا هو مكسو ثوب العذرة فيصير مسخرة بينهم ، وكان ذلك أدهى عليهم من القتال ، وفرج الله من شدة تلك الحال •

وفي يوم الاربعاء العاشر لجمادى الاولى ، وصل جيش المسلمين من

---

(١) العذرة : الغائط

الحضرة في خيل ورجل كثير ، فأقبل الفرسان من جهة المناظر ، وأقبل الرجالة من جهة الجبل وكان التقدم للرجالة ، فرجعت اليهم طائفة من فرسان النصارى ، فلم يستطيعوا صبرا على مقاتلتهم ، فانهزموا أمامهم ، ومضت عليهم سيوفهم •

وكان من لطف الله تعالى ان خرج طائفة من المسلمين من البلد الى ما يليهم عند زحف النصارى الى المنهزمين ، فاحرقوا بعض أخبية محلة النصارى وكثيرا من بيوتهم ، فصعد دخانها في الجو • وعندما شاهد ذلك مقاتلة النصارى ، أنصرفوا نحوه يظنون ان محلتهم أضرمت في جميعها النيران ، فكان ذلك للمنهزمين سببا لرفع السيف عنهم • ولما انتهى فرسان المسلمين للحفير الذي أحتفره النصارى على محلتهم وعليه طاغيتهم بجنده توقفوا عن مخالطتهم حتى فرق الليل بين الفريقين من غير قتال • وصار هذا الجيش من المسلمين بعد ذلك يرتب مرشانة ، فيأتون في أكثر الايام الى محلة النصارى يناهشونهم ويضاربونهم • وخف ذلك القتال عن البلد ، فكانوا لا يقاتلون أهل البلاد الا في اليوم الذي لا يأتي فيه جيش المسلمين •

وفي صبيحة يوم الجمعة الثالث لجمادى الاخيرة ، رام النصارى غدر البلاد من ناحية جبلها ، فأتوا في عدد موفور بسلاليم عالية ، فرفعوها حتى ألصقوها بالسور ، ووثبوا يصعدون فيها ويرتقون عليها • ولم يكن في تلك الجهة للاتفاق غير رجل واحد من المسلمين ، فصاح بالناس فسارعوا اليه يتصايحون حتى غطت الاسوار باناسها ، وضاقت عن أهلها ، فدفعوهم وفتح الباب هنالك ، فخرجت منه طائفة من المسلمين ، فقلبوهم ، وقتلوا رئيسا من زعمائهم فيمن قتل •

وفي عشية يوم الخميس التاسع من الشهر المذكور ، عملوا الحيلة على غدر هذه الجهة من العرقوب مرة ثانية ، وظنوا اخلاءها من الناس ، وقد كان ناسها استشعروا الحذر من الغدرة الاولى ، ففطنوا لهم وتصايحوا ، فاجتمع الناس اليهم، وفتح الباب هنالك فتمكنوا منهم وظفروا بعدد منهم .

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين لرجب ، سقطت ستارة من السور فانتدب النصارى اليها وتهالكوا عليها وتقاتلوا قتالا مستمرا بطول اليوم ، وهو آخر قتال كان بينهم وبين أهل البلد ، الى أن ارتحلوا .

وانما أطلت بهذا الحصار ، لما فيه من العبرة لاولى البصائر والابصار وكانت عدة فرسانهم ثلاثة آلاف فارس منها ألف مدرعة وأربعمائة مبرقعة ، وأما الرجالة فلا يحصون كثرة ، هلك من جميعهم في هذا الحصار تسعون الفا قتل منهم أهل المرية بطول الحصار أربعة عشرة الفا من الزعماء ، وسبعمائة من الفرسان ، وعشرين ألفا من الرجالة ، والسائر قتلهم جيش المسلمين ، وعدة أخبيتهم نحو الثلاثمائة ، وأما القياطين والبيوت مما لا يأخذه حصر ، وعدة المجانيق التى نصبوا للرجم أحد عشر منجنيقا رعادة تدور بالبلد ، وينقل بعضها من دفة لاخرى : منها ما يرجم أسوار البلد ، ومنها ما يرجم داخل البلد ، ومنها ما يرجم القصبة . ومعظم تسلطهم وكلبهم على أسوار العرقوب . وعدة الحجرة التي رمت بها المجانيق بطول الحصار أثنان وعشرون ألفا أنظر لحكمة الله ، كان عدد موتاهم أضعافا للاحجار المرمى بها من حجر يزن ثلاثين الى حجر يزن خمسة وعشرين (رطلا) .

وكان لاهل البلد منجنيق يرمون بها برا وبحرا بحسب الحاجة . فلما تكسرت لحجر أصابها ، صنعوا ثلاثة مجانيق أخرى .

ومن أسباب عصمة الله تعالى لاهل البلد في هذه المدة ، ما توفر لمخازن قصبته من الشعير الكثير ، وصاروا يغرمون ذلك بحسب رطل لكل نفس بسوم قيراط واحد للرطل من غير تفرقة بين قوي وضعيف • وأنهى ما بلغ اليه الرطل من القمح ثلاثة دراهم ، والخبز منه احدى عشرة اوقية بدرهمين ، وعدة من استشهد من أهل البلد لطول الحصار مائة وتسعة وخمسون ، منهم امرأتان وسائرهم رجال • ثم ارسل الله الريح الغربية مدة شهرين ، فمنعت أجفانهم السير ، وقطعت عنهم المسير حتى عمهم الجوع ، فأجابوا الى الصلح على مال التزم لهم ، فوصل الحمام الى المرية مبشرا بذلك ، وذلك يوم الاحد الحادي والعشرين لرجب من السنة (٧٠٩ هـ) •

وقد أنف من ذلك جيوش قشتالة ، ووثقوا أثقالهم في المراكب ، وما عجزوا عنه أضرموا فيه النيران ، وبقى منهم طائفة بعد ذلك ضاقت عليهم الاجفان فأقاموا تحت الذمة ورحلت المحلة بطاغيتها المخزي في غضب الله الى لعنة الله وسوء المصير وذلك يوم الخميس الثاني والعشرين من شعبان منها فكانت مدة الحصار الى مدة التمام ستة أشهر غير أيام •

وفي شهر رمضان من السنة المذكورة ، حشد أهل بادية المرية لهدم ما بقى بعد الحصار بخارج البلد من الحيطان والابنية خوفا مما كان يتحدث به من عود الطاغية البرشلوني اليهم • ونزلوا عليها كرة أخرى فامتنعت الى أن حل قضاء الله وقدره ، وكان أمر الله قدرا مقدورا وانما ذكرناه للاعتبار في مقدورات الله •

احمد مختار العبادي

مراجع القسم الثاني

أولا : المصادر العربيـــة القديمة

ـ أحمد بابا : أبو العباس أحمد بابا التمبكتى. (١٠٣٦هـ/١٦٢٧م)

ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج .

كتب على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون (القاهــرة ١٣٢٩ هـ)

ـ ابن الآبار : أبو عبدالله محمد بن عبدالله : (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)

ـ التكملة لكتاب الصلة ـ نشر كوديرا .

الجزءان الخامس والسادس مـن مجموعة المكتبـة الاندلسية . (مدريد ١٨٨٧)

ـ ذيل كتاب التكملة ـ نشر جو نثالث بالنثيا . (١٩١٥)

ـ ذيل كتاب التكملة ـ نشر محمـد بن أبى شنب وألفرد بـل (الجزائر ١٩١٩م)

ـ الحلة السيراء : جزءان ، نشر حسين مؤنس . (القاهرة ١٩٦٣م)

ـ ابن الاثير : أبو الحسن على بن محمد الجزرى . (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣ م)

ـ الكامل في التاريخ . (القاهرة ١٣٠٣ هـ)

ـ الادريسي : أبو عبدالله محمد الشريف السبتى . (ت حوالى ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م)

ــ المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ــ عن نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ــ نشرة وترجمة الى الفرنسية دوزى ودى خويـه • (ليدن ١٨٦٦)

اختراق الآفاق نشر هنرى بيريس • (الجزائر ١٩٥٧)

ــ وصف الاندلس ــ نشره وترجمه الى الاسبانية كوندى Conde (مدريد ١٧٧٩) :

ــ ابن الاحمر : أبو الوليد بن الاحمر • (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م)

ــ مستودع العلامة ومستبدع العلامة ــ نشر محمد التركي ومحمد ابن تاويت (تطوان ١٩٦٤)

ــ روضة النسرين ــ طبعة القصر الملكي • (الرباط ١٩٦٢)

ــ ابن بسام : أبو الحسن على الشنترينى • (ت ٥٤٣هـ/١١٤٧م)

ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة • (القاهرة ١٩٤٥)

القسم الاول في جزئين والقسم الرابع الجـزء الاول (القاهرة ١٩٣٩/١٩٤٥)

القسم الثالث مخطوط بالاكاديمية التاريخية بمدريد رقم ١٢ •

ــ ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن‌عبد الملك• (ت٥٧٨هـ/١١٨٣م)

ــ كتاب الصلة في أئمة الاندلس ــ نشر كوديرا في الجزئين الاول والثانى من مجموعة المكتبة الاندلسية • (مدريد ١٨٨٣) •

ــ محمد بن عبدالله اللواتى الطنجى • (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧ م)

تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ـ الطبعة الاوربية نشر وترجمة دفريمرى وسانجونيتى Defremery et Sanguinetti (باريس ١٩٢٢) .

ـ البغدادي : صفى الدين . (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨ م)

ـ مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ـ ثلاثة اجزاء (القاهرة ١٩٥٤) .

ـ البكرى : عبدالله بن عبد العزيز المرسى . (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤ م)

ـ المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب . نشر دى سلان . (الجزائر ١٩١١) .

ـ أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق . (ق٦هـ/١٢م)

ـ أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة المرحدين .

نشر لفى بروفنسال . (باريس ١٩٢٨)

ـ التجانى : أبو محمد عبدالله بن محمد . (ت حوالى ٧١٧ هـ/ ١٣١٧ م)

ـ رحلة التجاني . نشر حسن حسنى عبد الوهاب (تونس ١٩٥٨).

ـ ابن تومرت : المهدى ابو عبدالله محمد . (ت٥٢٢هـ/١١٢٨م)

ـ موطأ المهدى : مطبعة فونتانة بالجزائر الشرقية ١٩٠٧ ـ وتوجد بالخزانة العامة بالرباط نسختان خطيتان من هـذا الكتاب تحت رقمى ٤٨٠ جـ ، ١٢٢٢ جـ .

ـ ابن جبير : محمد بن احمد الاندلسي . (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)

ـ رحلة ابن جبير . (بيروت ١٩٤٩)

ـ الجزنائي أبو الحسن على
ـ كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس •
نشره وترجمه الى الفرنسية الفرد بل Alfred Bel (الجزائر١٩٢٣)
ـ ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين احمد بن على (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٩ م)
ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٤ أجزاء
(حيدر أباد ١٣٥٠ هـ)
ـ رفع الاصر عن قضاة مصر (في آخر كتاب الكندى ، الولاه والقضاة) •
ـ الحميرى : عبد المنعم السبتى الحميري (ت في أواخر القرن التاسع الهجرى)
ـ الروض المعطار في أخبار الاقطار ، نشر وترجمة ليفى بروفنسال (القاهرة ١٩٣٧) •
ـ ابن حوقل : ابو القاسم محمد بن على البغدادي النصيبى (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠ م)
ـ صورة الارض (طبعة بيروت)
ـ ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد القيسي الاشبيلي (ت ٥٣٥ هـ/١١٣٤م)
ـ قلائد العقيان في محاسن الاعيان (القاهرة ١٣٢٠ هـ)
ابن الخطيب : لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبدالله (ت ٧٧٦ هـ ١٣٧٤ م)

— اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاسلام من ملوك الاسلام
(أ) الجزء الخاص بتاريخ أسبانيا نشره ليفي بروفنسال (بيروت ١٩٥٦)
(ب) الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية نشره أحمد مختار العبادي وابراهيم الكتانى (الدار البيضاء ١٩٦٤)
— نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، نشر أحمد مختار العبادي (القاهرة ١٩٦٧)
— الاحاطة في أخبار غرناطة .
(أ) نسخة الاسكوريال رقم ١٦٧٣ .
(ب) طبعة القاهرة في جزأين (القاهرة ١٣١٩ هـ)
(جـ) نشر عبدالله عنان ، القسم الاول . (طبعة دار المعارف بالقاهرة)
— ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٨٢٥)
وقد نشر منه جاسبار راميرو المراسلات المتبادلة بين ملوك المغرب وملوك غرناطة في القرن الثامن الهجري (غرناطة ١٩١٦)
— رقم الحلل في نظم الدولة (تونس ١٣١٧ هـ)
— ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد) (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢ م)
— وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان نشر محيى الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٥٠)
— ابن خلدون: (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)
— كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر — (بولاق ١٢٨٤ هـ)
— التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا .
نشر محمد بن تاويت الطنجى . (القاهرة ١٩٥١)

ــ ابن خلدون : (أبو زكريا يحيى) (ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٨ م)
ــ بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ــ نشره وترجمه الى الفرنسية الفرد بل Alfred Bel ــ الجزائر ١٩٠٣)
ــ ابن دراج القسطلى :
ديوان ابن دراج القسطلى نشر محمود مكى (دمشق ١٩٦١)
ــ ابن ابى دينار : محمد بن ابى القاسم الرعينى القيروانى)
ــ المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ١٢٨٦ هـ)
ــ ابن ابى زرع :
ــ الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس طبع على الحجر مرارا بفاس أولها سنة ١٨٨٥ م ثم طبعه الهاشمى الفيلالى طبعة غير كاملة (الرباط ١٩٣٦) وقد اهتم المستشرقون بنشره وترجمته فنشره تورنبرغ مع ترجمة لاتينية (ابسالا ١٨٤٢) وترجمه الى الالمانية دومباي سنة ١٧٩٤ والى البرتغالية مورا سنة ١٨٢٨ ، والى الفرنسية Beaumier سنة ١٩٦٠
الزركشي : أبو عبدالله محمد بن ابراهيم اللؤلؤي
ــ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس ١٢٨٩ هـ)
ــ ابن الزيات : (أبو يعقوب النادلى المعروف بابن الزيات)
ــ التشوف الى رجال التصوف .
(نشر أدولف فور ، الرباط ١٩٥٨)
ــ ابن أبى زمنين : أبو عبدالله محمد (ت ٣٩٨ هـ)
ــ قدوة الغازي
(مخطوط رقم ٥٧٥ بالمكتبة الوطنية بمدريد)
ــ السبتى : (محمد بن القاسم الانصارى)
ــ وصف سبتة (في ق٩هـ ــ ١٥ م)

نشر ليفي بروفنسال (مجلة هسبريس ١٩٣١)
ـ السلاوى : (ابو العباس أحمد بن خالد الناصرى) (ت ٣١٥ هـ سنة ١٨٩٧ م)
ـ الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ٩ أجزاء
(الدار البيضاء ١٩٥٤)
ـ السلاوى : (محمد بن على الدكالى)
ـ الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز .
(مخطوط بمكتبة الرباط رقم ١٣٢٠ هـ)
ـ السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ ١٥٠٥ م)
ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان (القاهر ١٣٢٧هـ)
ـ تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الامة
(القاهرة ١٣٥١ هـ)

أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل شهاب الدين الدمشقي (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٨ م)

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان (القاهرة ١٢٨٧ هـ)

ـ الذيل على الروضتين ، نشره عزت العطار الحسيني الدمشقى بعنوان : « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » (القاهرة ١٩٤٧)
ـ ابن الشباط: محمد بن على بن محمد بن الشباط المصري التوزرى (ت ٦٨١ هـ سنة ١٢٨٢ م)
ـ صلة السمط وسمعة المرط

نشر القسم الخاص بالاندلس ، أحمد مختار العبادي في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، (تحت الطبع)

ـ الشهر ستانى : ابو الفتح محمد بن ابى القاسم (ت ٥٤٨ هـ سنة ١١٥٣ م)
ـ الملل والنحل (القاهرة ١٩٤٨)
ـ ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (كان حيا سنة ٥٩٤ هـ سنة ١١٩٨ م)
ـ المن بالامامة على المستضعفين ، نشر عبد الهادي التازي (بيروت ١٩٦٤)
ـ الضبى : أبو جعفر أحمد بن يحيى القرطبى (ت٥٩٩هـ سنة١٢٠٣)
ـ بغية الملتمس في تاريخ أهل الاندلس (مدريد ١٨٨٤)
ـ ابن عذارى المراكشي : ابو العباس احمد بن محمد (كان حيا ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م)

ـ البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب

أ) الجزءان الاول والثاني (طبعة بيروت ١٩٥٠)
ب) قطعة تتعلق بتاريخ المرابطين نشرها ويثى ميراندا في مجلة هسبريس ١٩٦١
جـ) الجزء الرابع الخاص بتاريخ الموحدين وبداية عهد بنى مرين نشره ويثى ميراندا ومحمد بن تاويت التطوانى وابراهيم الكتانى (الرباط ١٩٦٣)

ـ العذرى : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي (ت ٤٧٨ هـ / ٩٨٨ م)
ـ ترصيع الاخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى الممالك نشر عبد العزيز الاهواني (مدريد ١٩٦٥)
ـ ابن العربى : أبو بكر (ت بفاس ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م)

ـ العواصم من القواصم ، نشر محب الدين الخطيب (القاهرة ١٣٨٧ هـ)
ـ ابن عربى : محيى الدين (ت بدمشق ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م)
ـ الفتوحات المكية في معرفة الاسرار الملكية
ـ العمرى : شهاب الدين بن فضل الله (ت ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م)
ـ مسالك الابصار في ممالك الامصار، الجزء الخاص بوصف افريقية والاندلس ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب بتونس
ـ التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢)
ـ الغبرينى : أبو العباس احمد (ت ٧١٤ هـ / ١٣١٥ م)
ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية نشر محمد بن ابى شنب (الجزائر ١٣٢٨ هـ)
ـ الغرناطي، (الشريف أبو القاسم محمد الغرناطى) (القرن الثامن الهجري)
رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة (القاهرة ١٣٤٤ م)
ـ ابن فرحون ، ابراهيم بن على اليعمرى (ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٦ م)
الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، (القاهرة ١٣٢٩ هـ)
ـ ابن القاضي : (ت ١٢٠٥ هـ / ١٦١٦ م)
درة الحجال في غرة أسماء الرجال ، جزءان ، نشر علوش (الرباط ١٩٣٤)
ـ ابن قتيبة ، (أبو محمد عبدالله بن مسلم)
الامامة والسياسة ،
ـ القرمانى ، (احمد بن يوسف)
ـ أخبار الدول وآثار الدول (طبعة بغداد)
ـ ابن القطان أبو الحسن على بن محمد الكتامى الفاسي (ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م)

نظم الجمان في أخبار الزمان ـ نشر محمود مكى (الرباط ١٩٦٤)
ـ القلقشندى ، أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ ـ ١٤١٨ م)
صبح الاعشي في صناعة الانشا ١٤ جزء (القاهرة ١٣٣٨ هـ)
الكتانى ، محمد بن جعفر
ـ سلوة الانفاس .
ـ ابن الكردبوس :
ـ كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ـ القسم الخاص بالاندلس نشر احمد مختار العبادى ـ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٦٥.
ـ المالقى : أبو الحسن النباهى (ت في أواخر القرن الثامن الهجرى)
ـ المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا نشر ليفي بروفنسال (القاهرة ١٩٤٨)
ـ نزهة البصائر والابصار (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٦٥٣) .
ـ المراكشي : (عبد الواحد)
ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ نشر سعيد العريان ومحمد العربي العلمي (القاهرة ١٩٤٩)
ـ المراكشي : ابن عبد الملك (ت ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م)
ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة نشر منه احسان عباس السفرين ٤ ـ ٥ ويقوم بنشر السفر الاول محمد بن شريفة .
ـ ابن مرزوق : الخطيب ابو عبدالله محمد العجيسي التلمساني (ت ٧٨١ هـ)
ـ المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا ابى الحسن ـ نشر ليفى بروفنسال نخبا منه في مجلة هسبريس ١٩٢٥ .
ـ المسعودى : محمد الباجي
ـ الخلاصة النقية في أمراء أفريقية . (تونس ١٣٢٣)

المقرى : شهاب الدين أبـو العباس احمد بن محمـد التلمـانى (ت ١٠٤١ هـ ـ ١٦٣١ م)

ـ أزهار الرياض في أخبار عياض نشر منه ثلاثة أجزاء مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى (القاهرة ١٩٤٢)

ـ نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب • عشرة أجزاء تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٣٠٢ هـ •

ـ المقريزي : تقى الدين أبو العباس احمد بن على (ت ٨٤٥ هـ ـ ١٤٤١ م)

ـ السلوك لمعرفـة دول الملوك : نشر محمـد مصطفى زيـادة (القاهرة ١٩٣٦)

ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار جزءان (بولاق ١٢٧٠)

ـ انعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء نشر جمـال الدين الشيال • (القاهرة ١٩٤٨) •

ـ مؤلف مجهول :

ـ نبذة العصر في أخبار ملوك بنى نصر ـ نشر ألفريد البستاني ، كارلوس كيروس العرائش ١٩٤٠ •

ـ مؤلف مجهول :

ـ مفاخر البربر نشر ليفى بروفنسال (الرباط ١٩٣٤)

ـ النويرى : شهاب (ت ٧٣٢ هـ سنة ١٣٣٢ م)

ـ نهاية الارب في فنون الادب ، مخطوط بدار الكتب المصريـة رقم ٥٤٩ ، وقد نشرت دار الكتب منه ١٢ جزءا •

ـ النويرى : محمد بن القاسم السكندرى المالكى (ألفه سنة ٧٧٥هـ)

ـ الالمام بالاعلام لما جرت به الاحكام المقضية في واقعة الاسكندرية في سنة سبع وستين وسبعمائة ، وعودها الى حالتها الاولى المرضية مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٤٢ .

ـ ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦ هـ ١٢٢٩ م) .

ـ معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان . في ثمانية أجزاء (القاهرة ١٣٢٣هـ .)

ثانياً : مراجع عربية حديثه

ـ ابراهيم العدوى :
ـ الامويون والبيزنطيون •
ـ أحمد المكناسي :
ـ المدن المندرسة في شمال المغرب •
ـأحمد توفيق المدنى :
ـ المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا (الجزائر ١٣٦٥ هـ)
ـ احسان عباس :
ـ العرب في صقلية ، دراسة في التاريخ والاداب ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٩م
ـ أرشيبالد لويس :
ـ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ـ ترجمة احمد محمد عيسى
ـ أشباخ :
ـ تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين • ترجمة عبدالله عنان
ـ أمارى ، ميشيل :
ـ المكتبة العربية الصقلية ـ ليبك ١٨٧٥
ـ جمال الدين الشيال :
ـ تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامى
ـ جنثالث بالنثيا :
ـ تاريخ الفكر الاسلامي ـ ترجمة حسين مؤنس ،
ـ جورجي زيدان :
ـ تاريخ التمدن الاسلامى

— حسن أحمد محمود :

— قيام دولة المرابطين — صفحة مجيدة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى

— حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن :

— النظم الاسلامية طبعة ١٩٦٢ .

— حسين مؤنس :

— فجر الاندلس .

— غارات النورمانديين على الاندلس — مجلة الجمعية التاريخيه المصرية ، العدد الاول ١٩٤٩

— المسلمون في حوض البحر المتوسط ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ .

— خوان برنيت :

— هل هناك أصل عربى اسباني لفن الخرائط الملاحية ؟

معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٥٣ — العدد الاول ، ترجمة : احمد مختار العبادى .

— خير الدين الزركلى .

— كتاب الاعلام القاهرة ١٩٥٩ م) .

— زكى حسن .

— الرحالة المسلمون في العصور الوسطى .

— زيادة : د. محمد مصطفى

— بعض ملاحظات جديدة تاريخ دولة المماليك في مصر .

— مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة — المجلد الرابع — الجزء الاول سنة ١٩٣٦

— ابن زيدان . عبد الرحمن بن محمد

ـ اتحاف أعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس •
طبع منه خمسة أجزاء (الرباط ١٩٢٨ ـ ١٩٣٣)
ـ د سعد زغلول •
ـ تاريخ المغرب العربى •
ـ العلاقة بين صلاح الدين وأبو يوسف يعقوب (مجلة كلية الاسكندرية ١٩٥٣)
ـ الاستبصار في عجائب الامصار لمؤلف مجهول (نشر جامعة الاسكندرية
ـ د• سعيد عاشور •
ـ أوربا في العصور الوسطى •
ـ سليمان الباروني النفوسي • (ت عام ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠)
ـ الازهار الرياضية في أئمة ملوك الاباضية •
ـ شكيب أرسلان • (ت ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٦ م)
ـ تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط •
ـ الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية •
ـ العبادى : أحمد مختار العبادى
ـ سياسة الفاطمين نحو المغرب والاندلس (صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد ١٩٥٧)
ـ الصقالبة في أسبانيا وعلاقتم بحركة الشعوبية (مدريد ١٩٥٣)
ـ الصفحات الاولى من تاريخ المزابطين ـ مجلة كلية آداب الاسكندرية ١٩٦٧
ـ دراسة حول كتاب الحلل الموشية ـ مجلة تطوان العدد الخامس ١٩٦٠ •

ـ الموحدون والوحدة الاسلامية • مجلة التربية الوطنية بالمملكة المغربية مارس وابريل سنة ١٩٦٢ •
ـ نظام الخلافة في المغرب ـ مجلة نبراس الفكر بتطوان ١٩٦٢ •
ـ العلاقات الثقافية بين غرناطة وفاس في القرن الثامن الهجرى ـ الكتاب الذهبى لجامعة القرويين بمناسبة ذكراها المائة بعد الالف (فاس ١٩٦٠)
ـ فترة مضطربة في تاريخ غرناطة ـ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ـ مدريد ١٩٥٩ •
ـ النزعات الاقتصادية في حياة لسان الدين بن الخطيب ـ مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ •
ـ سياسة ابن الخطيب المغربية ـ مجلة البينة ـ الرباط مايو ١٩٦٢•
ـ العبادي عبد الحميد
ـ المجمل في تاريخ الاندلس • (القاهرة ١٩٥٨)
ـ صور وبحوث من التاريخ الاسلامي • (الاسكندرية ١٩٤٨)
ـ عبد الحى الكتانى •
ـ التراتيب الادارية في المدينة المنورة العلية • (الرباط ١٣٤٦ هـ)
ـ عبد السلام الهراس •
ـ ابن اللبانة ـ مجلة البحث العلمى بالرباط (مايو ـ أغسطس ١٩٦٤)
ـ عبد السلام الطود •
ـ بنو عباد باشبيلية (تطوان ١٩٤٦)
ـ عبد العزيز سالم •
ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس •
ـ تاريخ المغرب الكبير •

— عبد العزيز بن عبدالله •
— البحرية المغربية والقرصنة — مجلـة تطوان العـدوان ٣ — ٤ (١٩٥٨ — ١٩٥٩)
— عبد العزيز الاهوانى •
— سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة سنة ٨٤٤ هـ
مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة — المجلـد السادس عشر ، مايو ١٩٥٤ •
— عبد القادر الصحراوي :
— جولات في تاريخ المغرب (الدار البيضاء ١٩٦١)
عبدالله جنون :
— مدخل الى تاريخ المغرب •
— النبوغ المغربي في الادب العربى •
— عبد المنعم ماجد :
— نظم الفاطميين ورسومهم في مصر •
— عبد الرحمن الجيلالى :
— تاريخ الجزائر العام ١٩٥٥
— عبد الهادى التازي :
— مهدية المولى اسماعيل — مجلة المغرب مايو ١٩٦٣
— ابن العربى : (الصديق)
— دليل المغرب
— على مظهر :
— محاكم التفتيش
— عمر كمال توفيق :
— تاريخ الامبراطورية البيزنطية

ـ فتحي عثمان :
ـ الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري
ـ كليكيا سارنلي :
ـ مجاهد العامري . (القاهرة ١٦٩١)
ـ لطفي عبد البديع :
ـ الاسلام في أسبانيا .
ـ محمد الخضري :
ـ محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية . (القاهرة ١٩١٦ م)
ـ محمد رضا الشبيبي :
ـ أدب المغاربة والاندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية . (مطبوعات الجامعة العربية ١٩٦١)
ـ محمد عبد الرحيم غنيمة .
ـ تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى .
ـ محمد العبدي الكانوني .
ـ آسفي وما اليه .
ـ محمد عبد الهادي شعيرة .
ـ الاسكندرية من العصر الاسلامي الى نهاية العصر الفاطمي (كتاب الغرفة التجارية بمدينة الاسكندرية ١٩٤٩) .
ـ محمد الفاسي :
ـ نشأة الدولة المرينية ومميزات العصر المريني الادبية ـ مجلة البينة ديسمبر ١٩٦٢ .
ـ الاعلام الجغرافية ، مجلة البينة (مايو ١٩٦٢) .
ـ محمد المنوني .

ـ العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين .
ـ نظم الدولة المرينية ـ مجلة البحث العلمى ـ مايو سنة ١٩٦٤ الرباط .
ـ محمد ياسين الحموى ،
ـ تاريخ الاسطول العربى .
ـ محمود مكى :
ـ التشيع في الاندلس صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٤ .
ـ تاريخ عبد الملك بن حبيب ، القسم الخاص بالاندلس ـ نشر محمود مكى بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٧
ـ عبد الكريم بن محمد القيسي آخر شعراء الاندلس ـ مجلة العربى ، اكتوبر ١٩٦٧
ـ الميلى (مبارك بن محمد الهلالى) :
ـ تاريخ الجزائر في القديم والحديث
ـ هونيرباخ : (فلهلم)
ـ البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية ـ نطوان ١٩٥٤

ثالثاً : مصـــادر أوربيـــة

Abbady : « A. Mokhtar » :

Algunos aspectos de las relaciones historicas hispano - egipcias, Boletin de la embajada de Egipto en Madrid 23 Julio, 1952 - 1953.

Aguado Bleye, «Pedro» :

Manual de la Historia de Espana, 2 tomos.
(Madrid 1944 - 1954)

Alarcon Y. Linares :

Los Documentos àrabes diplomaticos del Archivo de la corono de Aragon.
(Madrid - Granada 1940)

Albornoz : «Sanchez». :

La Espana Musulmana, 2 Tomos.
(Buenos Aires 1946).

Alcover : «B. Miguel». :

El Islam en Mallocra.
(Palma de Mallorca 1930).

Alfonso el Sabio :

Primera Cronica General de Espana. Publicada por, Ramon Menendez Pidal.
(Madrid 1955).

Alfonso Gamir Sandoval :

Organizacion de la defensa de la Costa del reino de Granada desde su reconquista hasta finales del Siglo XVI.

Alfred Bel :

Les Banou Ghanya.
(Paris 1903)

Ali Fahmy :

Muslim sea power in the Eastern Mediterranean from the seventh to the tenth century. A. D., (1950).

Angel Canellas :

Aragon y la empresa del Estrecho en el Siglo XIV. Estudios de edad media de la corona de aragon. seccion de Zaragoza vol. 11 (Zaragoza 1946)

Amari M. :

Conforti Folitici, Firenze 1851

Argote de Molina :

Nobleza de Andalucia.
(Sevilla 1588).

Arnold : «Thomas» :
The Caliphate.
(Oxford 1929)

Asin : «Jaime Oliver» :

Origen Arabe de Rebato.
(Madrid 1928).

Asin : «Palacioo» :

Contribucion a la toponimia Arabe de Espana.
(Madrid - Granada 1944)

El Islam cristianizado «Madrid 1931»

Ballesteros : «A.» :

Historia de Espana. Tomo III
(Barcelona - Buenos Aires 1948).

Bargés : «l'Abbé» :

— Histoire de Beni Zeiyan Rois de Tlemecen
(Paris 1952).

— Complement de l'histoire de Beni Zeiyan Rois de Tlemecen, ouvrage du Muhammad Abd Al Jalil al Tenessi.
(Paris 1887).

Basset et Terrasse :

Tinmel (Hespéris 1924).

Berchem : Max van» :

Titres Califien d'occident Journal Asiatique. IX 1907.

Belda «Fray Jaime» :

Gronica de los Moros.
(Valencia 1618).

Brunschvig :

La Berbérie Oriental sous les Hafsides 2 tomes.
(Paris 1940 - 1947)

Bustamante : «Perez» :

Compendio de la Hist. de Espana.
(Madrid 1928).

Caille : J.

La ville de Rabat. Histoire et archeologie.
3 tomes (Paris 1949).

Campaner A. Y Fuertes «Alvaro» :

Bosquejo de la dominacion Islamita en las Islas Baleares
(Palma de Mallorca 1888).

Campany : «Antonio» :

- - Memorias historicas sobre la marina, Comercio y artes de la Antigua Ciudad de Barcelona. Tomas III y IV.
(Madrid 1792).

Antiguos tratados de paces y alianzas entre algunos reyes de aragon y diferentes principes de Asia y Africa desde el siglo XIII hasta el siglo XV.
(Madrid 1786).

Carlos de Luna : «Jose»

Historia de Gibraltar.
(Madrid 1944).

Cascales : «Francisco»

Discursos historicos de la muy noble Ciudad de Murcia.
(Murcia 1621).

Codera «F»

Mochehid Conquistador de Cerdana, centenario della

nascita di Michele Amari.
(Palermo 1910).

Concise Encyclopaedia of Arabic civilization.
(Djambatan - Amesterdam 1959).

Creasy : Las batallas decisivas en la historia del mundo
(Espana 1940).

Cronicas de los reyes de Castilla desde don alfonso el sabio hasta los Reyes Catolicos ed. Rosell.
(Madrid 1875 - 1877)

Cuartero Larrea : «Miguel»
El Salado, Revista «Ejercito» 1941, No 13.

De Castries :
Les sources inedites de l'histoire du Maroc. Portugal I. Espagne I.
(Madrid Paris 1921).

Derenbourg «Hartwig» :
Omara du Yemen, sa vie et son œuvre, 2 tomes
(Paris 1909).

Diccionario de historia de Espana 2 tomos.
(Madrid 1952).

Dozy «R.» :
— Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne. 2 tomes.
(Amesterdam 1965) 3 ed.

— Supplement aux dictionnaires arabes, 2 tomes.
(Leiden - Paris 1927).

— Scriptorum arabum loci de Abbadides.
(Leyde 1846 - 63) .

Eguilaz y Yanguas «Leopoldo» :

Glosario etimologico de las palabras espanolas de origen oriental.
(Granada 1886).

Encyclopaedia of Islam :

Garcia Gomez, «Emilio» :

Cinco poetas musulmanes.
(Collecion Austral n. 513).

Gayangos, «Pascual de Gayangos» :

The history of the Mohammedan dynasties in spain. extracted by Ahmad al Maqqari 2 Vols.
(London 1840 - 1843).

Gaspar Remiro. M. :

— Historia de Murcia Musulmana.

— Correspondencia diplomatica entre Granada y Fez en el siglo XIV. Extratos de la Raihanat al Kuttab de Ibn al Jatib.
(Granada 1916).

Gimenez Soler «Andres» :

— La Corona de Aragon y Granada, Boletin de la real academia de buenas letras de Barcelona (1905 - 1908).

--- Expedicion de Jaime II a la ciudad de Almeria, o el Sitic de Almeria (1309) B.R.A.B.L.B. 1904 no. 14.

Goldziher : «I». :

Le livre de Mohammed Ibn Tumert, Mahdi des Almohades.
(Alger 1903).

Golvin : «L». :

Le Magreb central a l'epoque des Zirides, Recherches d'archeologie et d'Histoire.
(Paris 1957).

Goltten : «S. D.». :

The Origen of the vizirate and its true character .
(Islamic Culture, Vol. XVI, 1942).

Hopkins : «J. E.».

Medieval muslim government in Barbary until the sixth century of the Hijra.
(London 1958).

Huici Miranda : «Ambrioso» :

La invasion de los Almoravides y la batalla de Zallaca,
(Hespéris 1953).

Historia politica del Imperio Almohade, 2 tomos.
(Tetuan 1956).

Julien. : «André CH.» :

Histoire de l'Afrique du Nord de la conquete arabe a 1930.
(Paris 1952).

Latrie : «Mas». :

Traités de Paix et de commerce et documents divers Concernant les relations des chretiens avec les arabes de l'afrique Septentrionale au moyun age
(Paris 1866).

Lafuente Alcantara : «Miguel».

Historia de Granada, 4 tomos.
(Granada 1843 - 1846).

Lafuente Alcantara : «Emilio».

Inscriptiones arabes de Granade.
(Madrid 1860).

Leon Africano : Juan (al Hasan ibn Mohammad al Wazzan).
Description de Africa y de las cosas natobles que en, ella se encentran.
(Tetuan 1952).

Lévi-Provençal : «E.» :

— Histoire de l'Espagne musulmane, 3tomes.
(Paris 1950).

— La Peninsule Iberique du Moyen - Age d'après le Kitab Ar-Rawd al Mitar d'Ibn Abd al Munim al Himyari
(Leiden 1938).

— Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Grenade (1350). Melange offierts a William Marçais.
(Paris 1950).

— Un Zagal hispanique sur l'expedition aragonaise de 1309 1309 contre Almeria (Al Andalus Vol. VI, 1941 fase, 2).

Une description de Ceuta musulmane au XV siecle (Hespéris 1931. tome XII.

Lopez de Ayala, «Pedro»

Cronica de los reyes de Castilla 2 tomos. (Madrid 1779).

Madelenaluz Pomes :

Los aragoneses en la conquista y Saqveos de Alejandria por Pedro I de chipre, Estudio de la edad media de la Carona de Aragon tomo, V .

Marçais : «G.» :

L'architecture musulmane d'occident.

Mariana «P.» :

Historia General de Espana Tome II. (Madrid 1948).

Melchor Antuna : «Martinez» :

Conquista de Quesada y Alcuadete por Muhammed II de Granada. (Religion y Cultura, 1932).

El poligrafo granadino Ibn al Jatib en la biblioteca del Escorial. (Imprenta del real Monasterio 1926)

Mercier : «Ernest» :

Histoire de l'Afrique Septentrionale depuis les temps

les plus reculés jusqu'à la conquete française (1830).
2 tomos.
(Paris 1888).

Merimee : «Prosper» :
Histoire de Don Pedro roi de Castille.
(Paris 1865).

Muller : «Marcus Joseph» :
Beitrage zur Geschichte der westlichen araber.
(Munchen 1866).

Ocana : «Manuel Jimenez»
Tablas de conversion de datas islamicas a cristianas y viceversa.
(Madrid - Granada 1946).

Palencia : «Angel Gonzalez :
— Historia de le Espana musulmana (1945).
— Historia de la literatura arabigo-espanola
(Coleccion Labor III 1945).

Paz y Mella :
Embajada del Emperador de Alemanja Oto I al Califa de Cordoba Abderrahman III
(Madrid 1872).

Pérès : «Henri» .
La poesie andalouse en arabe classique aux XI siècle
(Paris 1953).

Pons Boigues : «Francisco»:

Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles.
(Madrid 1898).

Prieto y Vives : «Antonio»

Los reyes de Taifas.
(Madrid 1926)

formacion del reino de Granada.
(Madrid 1972).

Prescott «William H.» :

History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic.
(London 1895).

Ribera, «Julian» :

Un monasterio musulmane en Denia, en :
(Disertaciones y Opusculos, Madrid 1928).

Roque : «Chabas» :

Historia de la ciudad de Denia.
(Denia 1874).

Seco de Lucena, «Louis» :

La Alhambra

Sobre el viaje de Ibn Battuta al reino de Granada
(Al Andalus, Vol. XVI 1951)

Los Hammudies senores de Malaga y Algeciras.
(Granada 1953).

Simonet : «Francisco Javier»

Description del reino de Granada bajo la dominacion de los Naseritas.
(Madrid 1860).

-- Glosario de voces ibericas y latinas usadas entre los mozarabes.
(Madrid 1888).

— Seybold : «C. F.»

Analecta arabo-Italica en (centenario della nascita di Michele Amari, Palermo 1910).

Torres Balbas : « L. » :

— Atarazanas hispanomusulmanas.
(Al Andalus, 1946).

— Rabitas hispanomusulmanas.
(Al Andalus 1948).

Vasiliev, « A. »:

History of the Byzantine Empire.
(Madison 1952).

Wiet : «Gaston» :

-- Histoire de la nation Egyptienne.
(Paris 1926).

Précis de l'Histoire d'Egypte.
(Le Caire 1932).

Zurita : «Geronimo» :
Los anales de la Corona de Aragon.
(Zaragoza 1688).

فهرس الموضوعات

القسم الاول

البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس في القرون الخمسة الاولى للهجرة

القسم الثاني

البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس

منذ قيام دولة المرابطين حتى سقوط مملكة غرناطة



مطابع ميمنة الحديثة
بيروت - لبنان
تلفون: ٢٢١٧١٥